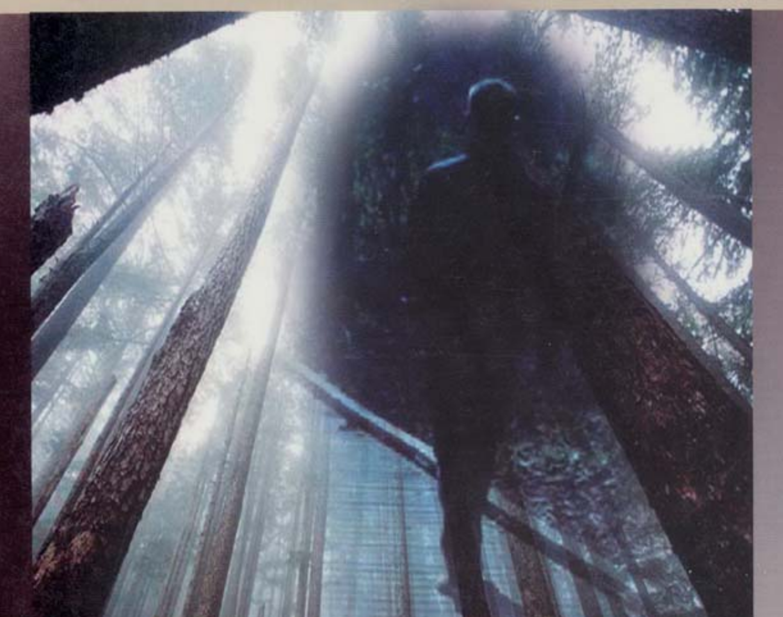
وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

ليكن اسمي غانتنباين

رواية





تأليف: ماكس فريش

ترجمة: د. أحمد حيدر

قصص وروايات 36

ليكن اسمي غانتنباين

رواية

(١٩٦٠ - ١٩٦٤)

تأليف : ماكس فريش
ترجمة: د. أحمد حيدر

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب
وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٠

ليكن اسمي غانتنباين

العنوان الأصلي لكتاب:

Màx Frisch

Mein Name sei Gantenbein

Roman

(1960/1964)

ليكن اسمي غانتنبـــاين: روايـــة ١٩٦٠-١٩٦٤ = Mein Name Sei Gantenbein / تأليف ماكس فريش؛ ترجمة أحمد حيدر .- دمـــشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٠ .- ٣٨٤ ص؛ ٢٤ سم.

(قصص وروايات؛ ٣٦)

١- ٨٣٣ ف ر ي ل ٢- العنوان ٣- فريش

٤- حيدر ٥- السلسلة

مكتبة الأسد

قصص وروايات

«٣٦»

يقول الذين كانوا معه، الأخيرون الذين تحدثوا إليه وهم عبارة عن مجموعة من معارفه عن طريق الصدفة، إنه في تلك الأمسية لم يكن مختلفاً عما كان عليه في العادة: كان مرحاً ولم يعرف الغرور طريقاً إلى نفسه. تناول الجماعة طعاماً رائعاً لكن ليس فخماً؛ وأكثروا من تجاذب أطراف الحديث في ما بينهم فكانت تلك دردشة ذات مستوى رفيع ولم يكن هو في أثناء الحديث، على الأقل في البداية على ما يبدو، أكثر هدوءاً من الآخرين. إلا أن أحد الحاضرين قال في ما بعد أنه لاحظ باستغراب نظرة صاحبنا المتعبة حين إصغائه إلى الحديث؛ لكنه ما يلبث بعد ذلك أن يعود من جديد إلى المشاركة فيه لكي يؤكد حضوره، بكل ظرف وفكاهية، أي بنفس الصورة التي عرفت عنه. في ما بعد ذهبت المجموعة بأسرها لكي تكمل السهرة في أحد البارات حيث وقفوا في بادئ الأمر وهم مرتدون معاطفهم ثم انضموا في ما بعد إلى أناس آخرين لم يكونوا على معرفة به؛ وربما كان ذلك هو السبب في أنه التزم الهدوء. ولم يطلب سوى فنجان من القهوة. وعندما عاد في ما بعد من التواليت كان، على حد قولهم، ممتقع اللون إلا أنهم في حقيقة الأمر لم يلاحظوا ذلك إلا حين اعتذر منهم- دون أن يجلس بينهم من جديد- مبدياً رغبته بالذهاب إلى بيته لأنه شعر فجأة بالتعب والتوعك. كان توديعه سريعاً، بدون مصافحة، ببساطة، لكي لا يقطع عليهم الحديث. قال أحدهم: انتظر، سوف لن نشيخ هنا أيضاً! لكن صاحبنا، على حد قولهم، لم ينثن عن عزمه وحين أحضرت إليه عاملة المشجب أخيراً معطفه، لم يلبسه بل اكتفى بإلقائه على ذراعه على أساس أنه في عجلة من أمره. الجميع قالوا في ما بعد أنه لم يفرط في الشرب ثم أنهم لم يكونوا متأكدين من أنه شعر فعلاً بالتعب والتوعك فربما كان ذلك ذريعة لا أكثر؛ كان يبتسم حين غادرهم. ربما كان مرتبطاً أيضاً بموعد آخر. فالنساء كانت تداعبه وتتحبب إليه؛ وقد بدا أنه تقبل الاشتباه

به في هذا الاتجاه، لكن دون أن ينبس ببنت شفة. كان لابد من السماح له بالذهاب. لم يكن منتصف الليل قد حل بعد. وحين لاحظ الحضور غليونه المنسي على الطاولة، كان الأوان قد فات للحاق به... فقد وافته المنية بعد لحظات من جلوسه في سيارته؛ منتصب القامة، رأسه إلى الوراء وكلتا يديه على قبعته المفتوحة. أكيد أنه كان موتاً سريعاً، وأولئك الذين لم يكونوا حاضرين في أثناء ذلك يقولون أنه كان موتاً سهلاً- لا أستطيع أن أتصور موتاً حسب الرغبة والطلب...

أتخيل:

قد تكون تلك نهاية إيندرلين.

أو غانتنباين.

أقرب إلى الصحة أن تكون نهاية إيندرلين.

أجل، هكذا أقول أنا أيضاً، كنت أعرفه. ما معنى هذا! تخيلته، لكنه الآن يرمي إلى تصوراتي وكأنها أمتعة قديمة؛ فهو لم يعد بحاجة إلى أية قصة أو ثياب.

كنت أجلس في أحد البارات، بعد الظهر، ولذلك كنت وحيداً مع رجل البار وهو يروي لي حياته. لماذا في الحقيقة؟ إنه يفعل ذلك وأنا أصغي إليه في أثناء شربي وتدخيني؛ أنتظر مجيء أحد، قرأت جريدة.

قال رجل البار وهو يجلي الكؤوس: هكذا كانت القصة! قصته حقيقية إذن. قلت: أصدقها! وأخذ يجفف الكؤوس المجلية. قال مرة أخرى: أجل هكذا الأمر! شربتُ - ثم فكرت: رجل عاش تجربة وهو يبحث الآن عن قصة بتجربته...

كان رجلاً في مثل سني، لحقت به اعتباراً من اللحظة التي كان غادر فيها سيارته، ماركة ستروين على ما أظن، ثم أغلق بابها بعنف وأدخل رزمة المفاتيح في جيبة بنطاله. شكله كان وارداً في الحسبان في حقيقة الأمر كنت

أنوي أن أزور متحفاً أو بالأحرى أن أتناول أولاً طعام الفطور ثم أزور متحفاً بعد ذلك طالما أنني كنت أنهيت يومذاك عملي السخيف المتعلق بمهنتي إضافة إلى أنني لم أكن أعرف أحداً في هذه المدينة؛ كانت مجرد صدفة أن لفت هذا الرجل انتباهي، لا أعرف لماذا، ربما حركة رأسه كما لو أنه يحس بحكةٍ في مكان من جسده: أشعل سيجارة وبدأ يدخن. رأيت ذلك في اللحظة التي أردت فيها إشعال سيجارة لكي أدخنها؛ ثم أقلعت عن ذلك. لحقت بــه دون أن أرى وجهه، متجهاً إلى اليمين، ورميت سيجارتي أرضاً دون تردد ودون تعجــل. كان ذلك في محيط السوربون، قبل الظهر. وكأنما أحس بشيء غير عادي فقد عاد مرة أخرى إلى سيارته لكي يتأكد من أنه أغلق الأبواب فعلاً ثم أخذ يفتش عن رزمة المفاتيح في جيبه الخطأ. في أثناء ذلك تظاهرت بأنني أعاين لوحة إعلانات ثم أشعلت في هذه الغضون غليوناً لكي أبدو في مظهر مختلف عنه. وحين كنت أتظاهر بقراءة اللوحة، التي احتوت علــى برنــامج العــروض المسرحية على خشبة المسرح الوطني الشعبي TNP، خشيت من أن يجلــس في سيارته ثم ينطلق بها. لكنه بعد ذلكن سمعت إغلاق باب الــسيارة بقــوة وأدرت ظهري، تابع المشي على قدميه بحيث استطعت أن أتتبعه. وراقبــت مشيته وثيابه وحركته. فلم يكن ثمة ما يلفت الانتباه سوى طريقة تحريك يديه كالمجاذيف. كان على ما يبدو في عجلة من أمره. وتبعته من كتلة بناء إلــى كتلة بناء أخرى باتجاه نهر السين ولو أن الدافع لذلك هو أنه لم يكن لدي مــا انشغل به. كان في تلك اللحظة يحمل محفظة جلدية بعد أن كان غادر سيارته في بداية الأمر، كما أتذكر، بدون تلك المحفظة. وحين دفعني جانبــاً أولئــك الناس الذين تدفقوا باتجاهي فوق ممر المشاة، غاب الرجل عن ناظري فأردت عند ذلك أن أكف عن ملاحقته؛ لكن مجموعة أخرى من النــاس المتــدفقين أخذت تدفعني في كل الاتجاهات، كان الجميع يريدون عبور الشارع قبــل أن ينتقل ضوء الإشارة إلى الأحمر. تابعت سيري دونما رغبــة. لأننــي كنــت أعرف تماماً أن ذلك لن يسفر عن شيء؛ فعاجلاً أو آجلاً سوف يختفي كــل واحد ألاحقه وراء أحد الأبواب أو سوف يومىء فجأة إلى تكــسي وإلــى أن

أوفق أنا أيضاً بإيجاد تكسي شاغرة يكون الأوان في كل مرة قد فات فلا يبقى لي بعد ذلك سوى أن يعاد بي إلى الفندق لكي أستلقي بثيابي وحذائي على السرير منهكاً بسبب ملاحقاتي السخيفة للناس... أنها نزوة ابتليت بها!... ولم أكد أتخلى هكذا عن الملاحقة، في حقيقة الأمر كنت مسروراً من أنه لم يعد بي حاجة إلى متابعة ذلك، حتى تعرفت عليه من جديد وذلك بفضل طريقته في التجديف بذراعيه حين يمشي. وبالرغم من أن الوقت كان قبل الظهر فقد كان صاحبنا يرتدي بدلة سهرة سوداء اللون كما لو أنه قادم من دار الأوبرا. ربما كان الأمر الذي شدني إلى هذا الرجل المجهول هو تذكري قبل ظهر أحد الأيام في بدلة سهرة سوداء وذلك حين كنت عائداً من عند إحدى النساء. لم يحس بعد بملاحقتي له أو لم يعد يحس بها. بالمناسبة كان الرجل حاسر الرأس مثلي أنا. ومع أنه كان في عجلة من أمره فإنه لم يتقدم في سيره أكثر مني، ذلك مع فارق أنه لا يجوز أن أمشي بقدر سرعته لئلا ألفت الانتباه بل لا بد من أمشي على وتيرة كل الناس الآخرين؛ وهكذا كان يسبقني من كتلة بناء إلى أخرى بمسافة قصيرة، خاصة وأنني كنت على استعداد لأن أكف عن ملاحقتي له دون جدوى لكننا كنا نأتي المرة تلو الأخرى إلى وسط ذات الحشد من الناس الواقفين أمام إشارة الوقوف الضوئية بلونها الأحمر. لم أكن قد رأيت وجهه بعد؛ وذات مرة ما كدت أصبح، مستغلاً بذلك ثغرة أتيحت لي في الزحام، متحاذياً معه حتى أدار وجهه عني ونظر إلى الجهة الأخرى. وصدف مرة أن ظل واقفاً أمام واجهة أحد المحلات بحيث استطعت أن أرى وجهه عبر الزجاج، لكنني لم أبادئه بالكلام؛ وجهه لم يرد في الحسبان- فذهبتُ إلى أول بار تيسر لي الذهاب إليه لكي أتناول أخيراً طعام الفطور... الرجل التالي، الذي ورد بالحسبان، كان ذا بشرة مقتصرة على الأمريكيين فحسب، شحوب مع نمش ناجم عن أشعة الشمس بشرة ملساء كالصابون. ومع ذلك فقد لاحقته. قدرت عمره، من الخلف، بخمس وثلاثين سنة؛ عمر جميل. كنت لتوي حجزت لعودتي بالطائرة وكنت في حقيقة الأمر على وشك أن أقضي الساعات المتبقية متسكعاً ربما في الحديقة المركزية. حين اصطدم بي

عبر لي عن أسفه فأدرت ظهري لكنني لم أوفق في رؤيته إلا من الخلف. كان يرتدي معطفاً رمادياً بلون الإردواز، وكنت متلهفاً لمعرفة إلى أين سيقودني هذه المرة. وبدا أحياناً أنه هو ذاته لم يعرف إلى أين، كان متردداً وضائعاً على ما يبدو في هذه المانهاتن. وكلما ازددنا إمعاناً في المشي، ازداد تعاطفي معه وارتياحي إليه. وراودتني أسئلة: ممَّ يعيش، ماذا يعمل، وكيف يسكن، ما هي التجارب التي عاشها في حياته الآن والتي لم يعشها وكيف يفكر حين يمشي على هذه الشاكلة بين ملايين من الناس الآخرين وماذا يعتبر نفسه. رأيت رأساً أشقر اللون فوق المعطف الرمادي بلون الإردواز، وكنا قد اخترنا الشارع الرابع والثلاثين حين توقف فجأة لكي يشعل سيجارة؛ لاحظت ذلك بعد فوات الأوان، بحيث كنت مررت به سهواً حين كان يدخن الأنفاس الأولى وإلا لربما كنت انتهزت الفرصة لكي أقدم إليه ولاعتي بكل لباقة من أجل أن أبدأ بالحديث معه. وعندما أدرت ظهري لم يعد ثمة شعر على رأسه وبالطبع قلت لنفسي على الفور أنه ليس الرجل ذاته ولابد من أنني ضيعته في الزحام وخلطت بينه وبين غيره من الرجال؛ فثمة معاطف كثيرة رمادية اللون كالإردواز. ومع ذلك فقد ذعرت حين رأيته فجأة رجلاً في الخمسين من العمر. لم أكن على استعداد لتلك المفاجأة. سألني: هل لي أن أساعدك؟ وطالما تعذرت مساعدتي فقد تابع سيره وسحابة صغيرة من الدخان تعلو كتفه. كان يوماً صحواً، مشمساً، لكن بارد جداً في الظل، وغنياً بالرياح؛ والأبنية العالية، التي تسطع عليها أشعة الشمس، كانت تنعكس في جدران زجاجية من الظلال، كان الوقوف متعذراً في هذه الهوات السحيقة ذات البرد القارس. ما الذي يمنع أن يكون صاحبنا رجلاً في سن الخمسين؟ وجهه كان وارداً في الحسبان. ما الذي يمنع أن يكون رأسه مصلوعاً؟ كنت أتمنى لو أراه مرة أخرى من الأمام، لكن لم يعد ذلك متأتياً لي؛ صحيح أنه كان يمشي بخطى أكثر رزانة وثباتاً من الرجل الذي قبله والأصغر سناً منه، إلا أنه اختفى فجأة في بوابة إحدى البنايات ومع أنني تبعته- بالكاد ترددت ثانيتين أو ثلاث ثوان- لكنني لم أر سوى كيف دخل لتوه على مصعد أغلقت أبوابه البرونزية، التي كان

يقوم إلى تشغيلها زنجي في زي رسمي، ببطء وهدوء (كما في محرقة جثث الموتى)، من دون أن يردعه رادع؛ صحيح أنني أخذت في الحال، بعد أن دفنت أنا أيضاً سيجارتي في الوعاء المليء بالرمل والمخصص لذلك طبقاً لعادات تلك البلاد، المصعد المجاور ووقفت في الحظيرة الجماعية ككل الآخرين الذين ما كادوا يدخلون إلى المصعد حتى سموا رقم الطابق المرغوب ثم غادروا لدى الإعلان عن وصول المصعد إلى أرقامهم؛ وقفت ونظرت إلى الأرقام السريعة وهي تضيء وتومض إلى أن بقيت أخيراً لوحدي مع الزنجي، وحين سألني إلى أي طابقٍ أريد لم أجد سبيلاً إلى إجابته إلا بهز كتفيَّ؛ البناية تحتوي على ٧٤ طابقاً...

رجل عاش تجربة والآن يبحث هذا الرجل عن قصة لتجربته- لا يستطيع المرء أن يحيا مع تجربة تبقى بدون قصة، على ما يبدو، وأحياناً كنت أتصور أن لامرئٍ آخر تماماً قصة تجربتي أنا...

(ليس هذا الآخر هو رجل البار).

مطلع الفجر أمام النافذة المفتوحة بعيد الساعة السادسة ظهر شبيهاً بجدار صخري، رمادي اللون وبدون شقوق، غرانيت: من هذا الغرانيت انطلق صوت شبيه بصرخة لكن غير مسموعة، وفجأة رأس حصان بعينين مفتوحتين باتساع كبير، رغوة في الأسنان، وهو يصهل، لكن بصوت غير مسموع، كائن حي، حاول أن يثب من الغرانيت لكنه لم يفلح من المحاولة الأولى ولن يفلح من المحاولة الأولى ولن يفلح أبداً، أنا أرى ذلك، الرأس فقط مع شعر العرف المتطاير هي التي وثبت من الغرانيت وخرجت منه، بعنف وعنفوان، رأس تنم عن خوف من الموت، الجسد باقٍ في الداخل، يائساً، والعينان البيضاوان ينظران إلي، طالبتين الرحمة-

أشعلت الضوء.

واستلقيت متيقظاً.

ثم رأيت:

– متجمداً من حيث لا يدري، عرف من طين نضيج، لا حياة فيه، طين نضيج أو خشب وأسنان بيضاء كالطباشير ومناخر سوداء لامعة، كل شيء منقوش بمهارة، رأس الحصان يعود ببطء وبدون صوت إلى الصخرة التي تنغلق دونما صوت أيضاً، بدون شقوق كمطلع الفجر أمام النافذة، رمادي اللون غرانيت كما في جبل غوتهارد؛ في الوادي، في الأعماق شارع بعيد، منعطفات مليئة بسيارات ملونة وكلها تتحرك باتجاه القدس (لا أعرف من أين أعرف ذلك!)، قافلة من سيارات صغيرة ملونة كألعاب الأطفال.

رننتُ الجرس.

المطر يهطل في الخارج.

كنت مستلقياً وعيناي مفتوحتان.

وحين أتت الممرضة أخيراً وسألتني ما الأمر، رجوتها أن تعد لي الحمام، الأمر الذي لم يكن ممكناً في تلك الساعة من دون موافقة الطبيب؛ فقدمت إلي بدلاً من ذلك كأساً من العصير وطلبت مني أن أتعقل؛ قالت إنه ينبغي علي أن أنام لكي أتمتع غداً بوضع صحي جيد تمهيداً لأن أخرج من المستشفى في يوم السبت، ثم أطفأت النور...

أتصور:

حين أتت أخيراً الممرضة المناوبة الشابة، وهي مواطنة ليتاوية (اسمها إيلكي)، وجدت سريراً خاوياً؛ فالمريض أعد حمامه بنفسه. كان تعرق وطالما أراد أن يستحم فقد وقف عارياً وسط غيوم من بخار الماء حين كان يسمع تقريعها وتأنيبها قبل أن يراها، قبل أن يرى إيلكي التي ارتاعت وزعمت أنه لا يعرف ماذا يفعل. وبعد أن أغلقت النافذة وحين اختفى بالتدريج البخار الرمادي، الذي غطى أيضاً سطح المرآة، عندها فقط تسرب إلى وعي المريض أن جسده عار تماماً؛ وأخذ يبتسم. قالت له أن عليه أن يذهب إلى

سريره وأن يغلق حنفية الماء في الحال وبما أنه لم يفعل ذلك فهي تريد أن تفعله؛ لكن المريض العاري وقف في طريقها، وطالما لم يكن في يده شيء آخر يخفي به عورته عن الفتاة الشابة فقد لجأ إلى المزاح بقوله: أنا آدم! فلم تجد هي ما يُضحك. وهو لم يكن يعرف لماذا يضحك. وتساءلت من موقع الخبيرة بشؤون المرضى لماذا يريد أن يستحم في هذا الوقت بالذات وخاصة بدون إذن الطبيب؟ ثم أخرجت بعد ذلك بسرعة منشفة من الخزانة لكي تضع حداً لذلك المشهد السخيف؛ وناولته المنشفة لكي يتقي البرد دون أن تنبس ببنت شفه في حين كان ينظر إليها كأنما كان يراها لأول مرة. فتاة لون عينيها رمادي شفاف أو ضارب إلى الاخضرار. أمسك بكتفيها. فتاةِ شعرها ضارب إلى الاصفرار وأسنانها كبيرة. قالت مستنكرة: أنىَّ لك أن تتمادى إلى هذا الحد! في حين سمع نفسه يقول ويداه على كتفيها: أنا آدم وأنتِ حواء! وكان كلامه لايزال ينم عن مزاح؛ أما هي فلم تتجرأ على أن تصرخ في المستشفى في هذا الوقت من الليل واكتفت بالضغط على أحد الأزرار في حين أخذت تلطم المريض المجنون بيدها الأخرى، لكن الخوف اعتراها فجأة منذ أن أنزل قلنسوتها الصغيرة، الزرقاء اللون مع إشارة الصليب الأحمر، بحذر عن رأسها. كان يعرف وجهها منذ أسابيع، لكن الجديد بالنسبة إليه كان شعرها المائل إلى الصفرة فأصبح الآن المسترسل والجياش. لم يكن في نية صاحبنا أن يؤلم ايلكي، بل أن يقول لها فحسب: أنا آدم وأنت حواء! وكان في أثناء ذلك يمسك بشعرها بحيث لم تعد تستطيع أن تحرك رأسها. سألها عندئذ: هل تسمعينني؟ ثمة ما كان يدفع إيلكي إلى أن تبتسم، تصورها حواء باعتبارها ممرضة مناوبة، فلاحة من منطقة بحر البلطيق وفي طور التعليم، عيناها خضراوان وأسنانها شبيهة بأسنان الحصان؛ يكفي أن تبتسم لكي تعاد صياغة المزاحة من جديد. لكنها حملقت في وجهه. يبدو أنه لم يعرف آنذاك أن جسده عار تماماً. كانت توقفت عن لكمه، حتى أنه لم يشعر بذلك؛ لقد تصدت له فقط من أجل أن تستعيد قلنسوتها الزرقاء، لكن دون جدوى بالرغم من إن طبيباً مناوباً ظهر في غضون ذلك في أرجاء الممر. أما صاحبنا المريض العاري،

فقد كرر قوله- بالطبع لم يفهم الطبيب المناوب شيئاً مما كان يدور في الحمام- كمعلم اللغة الذي يريد تلقين درس عن طريق الإعادة والتكرار: أنا آدم وأنتِ حواء، في حين أخذت إيلكي، وهي في حالة من اليأس كما لو أنها تقف أمام رجل سكران، تصرخ لا في وجهه بل في وجه الطبيب: لماذا لا يزال واقفاً هناك ولا يهب لمساعدتها. وذلك مع أنه لم يصبها أي مكروه. أما الطبيب المناوب، وقد دس كلتا يديه في المعطف الأبيض، فلم يُبد حراكاً بل تبسم استهزاء وشماتة ولم يكن واثقاً من أن ما يحدث من خروج عن حدود اللياقة لن يحسب عليه بمعنى انه شاهد عيان على ممارسة عملية جنسية وإن لم يكن ذلك بملء رغبته. ماذا ينبغي عليه أن يفعل؟ وعندما لاحظ الرجل العاري أنهما، بالرغم من ثنائية آدم وحواء، ليسا وحيدين في هذا الممر وحين اقترب من الطبيب المناوب، اختفت ابتسامة هذا التي نمت عن استهزاء وشماتة إلا أنه مع ذلك لم يخرج يديه من جيبتي معطفه الصغير الأبيض اللون. فسأله الرجل العاري: من أنت؟ كما لو أنه لم ير الطبيب المناوب أبداً من قبل. لكن هذا فعل، ويداه ما زالتا في جيبتي معطفه الصغير الأبيض الذي كان يميزه عن الرجل العاري، ما هو أسوأ من التبسم باستهزاء وشماتة: فقد خاطب العاري باسمه. بكل لباقة ولطف. لكن منذ تلك اللحظة دقت ساعة الجد. بدون محاباة أو مراعاة. إيلكي، وقد تحررت من تهديداته، انهمكت في تخصيل شعرها. قال المريض العاري للطبيب المناوب: أنت الشيطان بذاته! أخيراً أخرج هذا يديه من جيبتي معطفه الصغير الأبيض لكي يستند على درابزون الدرج وبالتالي لكي ينسحب، خطوة بعد خطوة. وردد الرجل العاري: أنت الشيطان بذاته، ثم كرر دون أن يصرخ بصوت عال لكن بلهجة حاسمة حين أراد الرجل الأبيض التوقف من جديد والإدلاء برأيه: أنت الشيطان بذاته، أنت الشيطان بذاته! في حين حاولت إيلكي، وقد أعادت وضع القلنسوة الصغيرة السخيفة من جديد على شعرها الضارب إلى اللون الأصفر، أن تهدأ الوضع لكن دون جدوى. لم يخطر في بال الرجل العاري أن يعود إلى غرفته في المستشفى. بل أراد أن يستقل المصعد، لكن لم يكن في ذلك

الطابق أي مصعد وبما أن صاحبنا لم يستطع الانتظار طويلاً فقد نزل بسرعة على الدرج – ماراً بالطبيب المناوب – بصورة مفاجئة بحيث اكتفى كل من الطبيب المناوب وإيلكي بالنظر إلى الآخر مستغرباً ومندهشاً... وبعد ذلك بدقيقتين ذهب الرجل العاري، على ما يبدو لم يوقفه أيضاً بواب البناية المندهش لرؤيته أيما اندهاش، فعلاً إلى الشارع الذي لم تعد تطؤه قدماه منذ أسابيع ثم مر بالناس واقفين تحت ممطراتهم بانتظار حافلة الترام فلم يصدق أولئك الناس أعينهم: رجل عارٍ كما ولدته أمه يعبر الشارع بشكل مائل دون أن يعير انتباهاً للإشارات الضوئية، باتجاه الجامعة. وفي وسط الشارع وهو واقف أخذ ذلك الرجل يضبط ساعة يده، التي كانت الشيء الوحيد على جسده؛ مما اضطر سائق دراجة، وهو صبيُ فرّانٍ كان يقود دراجته مصفِّراً، إلى التوقف فجأة فنجم عن ذلك أنه تزحلق على البلاط المبتل وسقط على الأرض، الأمر الذي أوقع الرجل العاري في حالة من الذعر جعلته يبدأ فجأة بالعدو بالرغم من أن أحداً لم يكن يلاحقه بل على العكس من ذلك، فالناس كانوا يتنحون عنه جانباً ثم يقفون ويكتفون بملاحقته بنظراتهم. ومع ذلك فقد كان يشعر بأنه ملاحق. وحين وصل إلى قرب الجامعة وقف ليسترد أنفاسه؛ ثم انحنى إلى الأمام واضعاً يديه على ركبتيه الشاحبتين وانتصب من جديد ثم رفع ذراعيه جانباً وانزلهما ثم رفعهما ثانية كما يفعل الناس في تمارين الجمباز، ومضت عليه فترة طويلة وهو يلهث من التعب ولحسن الحظ كان المطر يهطل. ولم يكن يعرف لماذا كان هطول المطر من حسن حظه، إلا أنه كان يشعر بذلك. كان يعرف إنه ليس آدماً أبا البشر وكان يعرف أيضاً مكانه آنذاك: في مدينة زوريخ، لم يفقد بأي حال الأحوال السيطرة على نفسه، لكنه كان عارياً بحيث كان عليه أن يعدو مجدداً ومرفقاه مرتخيان قدر الإمكان. لم يكن يعرف لماذا هو عار؛ وما السبب في ذلك. وذات مرة استوثق من نفسه دون أن يضطر إلى الوقوف، استوثق من نظارته ومن إنه عار لكنه لم يلاحظ ذلك إلا من لولحة عضوه الذكري جيئة وذهاباً. إذن فليتابع عدوه. ولكي يصون قواه هرول نزولاً، مع إنه كان يفضل العدو باتجاه الغابات، أي باتجاه

المدينة. وذات مرة اعترضته تحويلة في الشارع، ضوء الإشارة الأحمر، قافلة من السيارات التي لا تريد السفر إلى القدس ووجوه خلف مسّاحات الزجاج المتأرجحة ذات اليمين وذات الشمال، في حين كان الرجل العاري كما ولدته أمه يشق طريقه بدون مظلة بين ألواح الصفائح اللامعة: فليتابع العدو إذن، مروراً بشرطي السير الذي لم يكد يصدق عينيه وظل واقفاً في مقصورته ماداً ذراعه. وكما يفعل الحيوان فقد كان صاحبنا يرى ما يلائمه، ذات مرة اعترضه أحد مواقع البناء، ***الدخول مسموح لمن يحق لهم ذلك فحسب***، وهنا توقف واسترد أنفاسه خلف حجرة خشبية لكنه لم يتحمل ذلك لفترة طويلة دون أن يعدو ويعدو. إلى أين؟ واعترضته مرة حديقة عامة لم يكن فيها أحد من الناس في ذلك الوقت المبكر من النهار خاصة وأن المطر كان يهطل في تلك الساعة؛ كان بإمكانه أن يجلس هنا على مقعد مبتل بالمطر، لا يمنعه مانع، إلى هذا الحد كانت المقاعد خالية في ذلك الوقت؛ كان يمنعه فقط عريه الذي لم يكن حلماً، كلا، بل كان يراه حالماً توقف عن العدو. لا استيقاظ يعادل الاستيقاظ من حلم. أنه عار، ممتقع اللون مع شعر أسود يكسو عورته وقضيب، نظارات، ساعة يد. وهو في حالة من الإعياء واللهاث، لكن سعيد طيلة فترة من الزمن، تراب بين أصابع قدميه، أعشاب بين أصابع قدميه، أخذ يمشي متباطئاً لكن دون توقف ومرتعداً من ضيق التنفس كمن يتعرض للجلد، متباطئاً أكثر فأكثر، سعيداً كمن يتزلج على الثلج، مسنداً أردافه بيديه، ماشياً على العشب العمومي كمتزلج على الثلج بمنزلقات مرتخية، مرة يمنة ومرة يسرة حول شجرة الدلب التالية؛ وكان يضحك في أثناء ذلك ويكرر قوله السابق: أنا آدم وأنتِ حواء! لكن هذا لم يعد يعني شيئاً، فتابع عدوه إذن ومن جديد عبر الشارع ومرفقاه مرتخيان قدر الإمكان إلى أن رأى الشرطة آتية باتجاهه، من الأمام لا من الخلف، شرطيان على دراجتين ناريتين، وبما أنه كان يبتسم فقد ظننا أنه سيسلِّم نفسه وأوقفا مركبتيهما على حافة الشارع التالي ثم أخرجا حامل كل مركبة وسحباهما إلى الوراء لكي يوقفاهما على الحامل قبل أن يمشيا إليه، رجلان يرتديان جاكيتين سوداوين وبوطين وخوذتين

ومجهزين كالغواصين، متثاقلي الحركة، وإلى أن قرفصا ثانية فوق دراجتيهما السوداوين وإلى أن داسا على أداتي تشغيل المحركين وإلى أن ثبتا قدميهما على البلاط وشغلا دراجتيهما السوداوين وإلى أن داسا على أداتي تشغيل المحركين وإلى أن ثبتا قدميهما على البلاط وشغلا دراجتيهما، كان صاحبنا قد وصل إلى السلم الذي يستعصي على الدراجات النارية. أنه جسده فحسب هو الذي يعدو الآن. ثمة باب لأحد المنازل من النحاس الأصفر كان يعرفه لكنه مقفل. والآن عاد إلى وسط الشارع من جديد كما لو أنه أراد أن يسهل عليهما مهمتهما وأخذ يعدو ويهرول إلى أن وصلت الدراجتان من جديد إلى القرب منه بعد أن سلكتا طريقين ملتويين، الواحدة إلى يساره والأخرى إلى يمينه؛ لشد ما أبهجته هذه المرافقة. وناداه طالبين منه أن يتوقف؛ يبدو أنهما نسيا أنه عار كما ولدته أمه..

أتذكر:

بقية القصة رواها لي واحد جرت معه أحداثها بالفعل... قال أن الناس كانوا لطيفين معه (مع الرجل العاري؟ المترجم) وقد أبدوا تفهماً لوضعه. كان جالساً على خشبة المسرح وهو يرتعد في كواليس عشية ذلك اليوم. كانت الستارة مفتوحة، لكن الصالة خاوية ومظلمة ما عدا لمعان مساند المقاعد في بصيص ضعيف من ضوء النهار الذي تسلل إلى المكان من فوق الشرفة، كانت الأوركسترا خاوية أيضاً. ضوء عمل فحسب. لكن لم تجر بعد أية تمرينات على المسرحية؛ عمال المسرح هم الذين جاؤوا. الشرطي وهو يرتدي بوطه الأسود وخوذته الكروية كان مرتبكاً لأنه وجد نفسه لأول مرة في حياته على خشبة مسرح فلم يجرؤ على الجلوس بالرغم من توافر المقاعد المصفوفة كما في صالات التتويج إلا أن رؤيتها لم تكن مريحة طالما أن الإضاءة مقطوعة عنها؛ نظر بدهشة واستغراب إلى الأعلى حيث كانت السوفيت Soffitten معلقة. وحين فُتحت بعض الأبواب في قاعة المتفرجين، ظهرت عاملات التنظيفات فأمرهن بالخروج؛ بالمناسبة لم يكن لديه ما يفعله.

وخجل من أن يقصِّر وقت الانتظار بالمشي صعوداً ونزولاً. كما خجل أيضاً من إجراء حوار مع الرجل العاري مع أنه ما من أحد كان في قاعة المتفرجين، كما سبق القول، حتى ولا عاملات التنظيف؛ وأخذ يتصفح دفتر ملاحظات خاص بالخدمة وقد أدار ظهره إلى صالة المسرح التي سببت له على ما يبدو شيئاً من الاضطراب. واحد من عمال المسرح جلب أخيراً للرجل العاري، طالما أنه كان يرتعد من البرد، لباساً تفوح منه رائحة الكافور، نوعاً من المعاطف، ثم أراد أن يعرف ما الذي حدث، لكن الشرطي، واضعاً إبهامه في حزامه، طرده بتهجم وصمت. أما الرجل العاري فقد عبر عن شكره وامتنانه بطريقة مؤدبة- معتادة. كان المعطف أزرق اللون سماوياً ومزركشاً بأهداب ذهبية، معطفاً ملوكياً وبطانته من بضاعة رخيصة. كان قدماه يؤلمانه جراء مشية عبر القطران، قطران تخللته حصيات ناعمة. وفي ما بعد ظهر سيد يرتدي لباساً مدنياً، وعلى غير المتوقع فإنه لم يسأل عن معلومات تتعلق بالأشخاص؛ يبدو أن معلومات كهذه كانت متوفرة لديه. كل شيء جرى بالطريقة اليومية المعتادة. وفي السيارة- لم تكن سيارة إسعاف، لكن السائق كان يرتدي قبعة عليها رمز المدينة- دار حديث عن الطقس وعن الإعياء من جراء رياح الفون؛ في الجهة الأمامية من السيارة: السائق مرتدياً قبعته والغواص كان وضع خوذته على ركبتيه فظهرت لرأسه بعد ذلك صغيرة جداً، كان كلاهما صامتاً؛ وفي الجهة الخلفية من السيارة: المفتش (بهذا اللقب خاطبه السائق) وإلى جانبه الرجل العاري المرتدي معطفاً ملوكياً مزركشاً بأهداب ذهبية، لكنه حافي القدمين. سأله المفتش ببساطة لماذا عدا بالذات إلى دار الأوبرا، لكنه قطع كلامه بنفسه عندما قدم إليه سجاير. فأومأ برأسه ذلك الرجل المرتدي المعطف الملوكي. لم يذهبا إلى مستشفى الكانتون، بل باتجاه بالغريست دون أي ذكرٍ بالطبع لنهاية المطاف؛ على أبعد تقدير عند وصولهم إلى ميدان كرويتس أتضح أنه عومل على أساس أنه مريض عقلياً. وبالقرب من البورغفيس، بعد سفرة صامتة منذ ميدان كرويتس، استعلم الرجل المريض بشكل موضوعي عما إذا كان بريده سيحول إليه في هذا اليوم

أيضاً؛ ثم كرر السؤال ذاته حين جلس في غرفة السكرتارية قبالة معاون شاب لم يكلف نفسه جهد الاندهاش من منظر المعطف الأزرق السماوي اللون والمزركش بأهداب ذهبية. قيل له أن ثيابه سوف تصل في أية لحظة. ومجدداً هذه المجاملة التي وصلت إلى درجة اجتناب أن يُلفظ اسمه. لم يكن البروفسور قد أتى بعد إلى المبنى. ولكي يشيع في الجو حديثاً ما فقد قال صاحبنا أنه لم يسبق أن حدث له شيء من هذا القبيل قبل الآن، فصُدّق قوله بالقدر الذي خول بموجبه معاون البروفسور (وأيضاً كانت يداه من جديد في جيبتي معطفه الأبيض) تصديق أقوال الناس قبل مجيء البروفسور ذاته. قال صاحبنا أنه أراد أن يطلق صرخة؛ مع انه كان جالساً بهدوء تام، متعقلاً ومؤدباً كالعادة التي كان يتبعها في حياته اليومية. وحين غسل يديه الملطختين بالقطران والدم وحين جفف يديه، رأى نفسه في المرآة؛ أصابه ذعر جراء منظر ثيابه ولم ينقصه حينئذ سوى التاج. قيل مرة أخرى أن ثيابه الخاصة به لا بد وأن تصل في أية لحظة. وبعد ذلك قال هو مرة أخرى أنه أراد أن يطلق صرخة. فأخذ علم ذلك. صرخة؟ فأومأ برأسه، أجل مع إصرار امرئ أبكم ظن أن الناس فهموه. لماذا صرخة؟ ذلك ما لم يعرفه هو ذاته.

حدث شبيه بسقوط عبر المرآة، وحين يستيقظ المرء من جديد لا يعرف عن الأمر أكثر من ذلك، سقوطاً كما عبر كل المرايا وبعد ذلك، بفترة قصيرة، يعود العالم إلى الالتئام من جديد وكأن شيئاً لم يحدث. في حقيقة الأمر لم يحدث أي شيء.

كنت جالساً في منزل: - في منزلي... لم تمض فترة طويلة على ما حدث، أي منذ أن أقمت هنا، رأيت بقايا من نبيذ البورغوندر في زجاجة، جزراً صغيرة من العفن فوق النبيذ الأحمر المخملي اللون، ثم بقايا من خبز قاسية كالآجر. في الثلاجة (كنت فتحتها وبحثت عما فيها دون أن أكون جائعاً) انثنت شرائح اللحم المتقطعة من فخذ الخنزير وجفت جراء البرودة ثم أصبحت سوداء اللون تقريباً، وكان هناك بعض الجبنة، متشققة كقشور الشجر

ولونها ضارب إلى الخضرة، وكانت هناك أيضاً كأس تحتوي علــى بعــض القشدة التي لم تعد تسيل، وفي إحدى الزبادي كانت لا تزال تسبح بقية متعكرة من فاكهة مطبوخة بالسكر، وحل من فاكهة المشمش وإضافة إلى ذلــك كلــه كانت هناك علبة مليئة بكبد الإوز. زوادة درب من أجل مومياء؟ لا أعــرف لماذا لم أرم تلك البقايا في سلة القمامة... جلست في ذلك المــسكن مقرفــصاً بالمعطف والقبعة طالما أن المطر كان يهطل في الخارج. قرفصت على مسند كنبة منجدة وأخذت ألهو بأداة مخصصة لسحب سدادات الفلين من الزجاجات. سحَّابة الفلين تبقى سحَّابة فلين، نمط موحد، أداة منزليــة مطابقــة لموضــة العصر. رأيت: أن امرأً سبق أن طوى سجاداتنا، رشها بالكــافور ثــم لفهــا وربطها بخيطان ثم أغلق درفات النوافذ ضد المطر والشمس والريح، ضــد الصيف والشتاء؛ لم أفتح تلك الدرفات. كل المفروشات المنجَّدة كانت مغطــاة بقماش أبيض. كان ذلك منظراً مضحكاً: كما لو أنها منظراً مضحكاً: كما لو أنها تعقد اجتماعاً سرياً Feme . أو كجنازة في بلاد ذات تقاليد غربية. وحتى نفاضات السجاير كانت مفرغة من الفوامات، كما رأيت، لــم تكــن مفرغــة فحسب بل وحتى مغسولة؛ كل المزهريات مفرغة ومغسولة لكي لا تفوح منها رائحة التعفن... كنت لا أزال أقرفص بالمعطف والقبعة ويداي فــي جيبتــي بنطالي. ومن الأرض انتشرت رائحة الغبار والورنيش. كان مؤكداً أن أحــد الشخصين اللذين عاشا في هذا المنزل ذكر والشخص الآخر أنثــى. رأيــت بلوزات في خزانة الملابس وبعض الثياب الداخلية النسائية التي لم تعد الحقيبة تتسع لها أو لم تعد ملائمة للزي الشائع، ربطات عنق في الجانــب الآخــر، جاكيتات مرتخية رجالية شتوية واثنتين صيفيتين، في أسفل الخزانة صُــفت الأحذية بنسق منتظم كمن ينتظرون مناداة أسمائهم وقد وضعت في الــبعض منها قوالب خاصة بها. لماذا تكون الأحذية الخاوية مخيفة إلى حــد كبيــر؟ تناولت حذاء نسائياً، ملوناً وخفيفاً كالزهور إلى درجة أنني شممت رائحته. له رائحة الجلد لا أكثر. وحبست أنفاسي، مرتاعاً كلــص لــدى اقتحامــه أحــد البيوت، ثم أصغيت. لم يعد هنا ساكنون. أصغيت وفي يدي فردة حذاء؛ لــم

أرغب في أن أكون في بيتي. ففي ما عدا حنفية ماء في المطبخ ما زالت تـنقط باستمرار، كان الهدوء مخيماً في هذا المنزل. كما في مدينة بومبيجي الإيطالية . وجاز الهاتف كان صمتاً أيضاً. رأيت: أنها سحبت فيش الهاتف. للأسف لم يكـن في حوزتي أعواد ثقاب. كم يخيم الهدوء والصمت في مكان إذا لم يدخن المـرء في أرجائه! في الخارج كنت أسمع هدير حافلة الترام وتخلـل ذلـك أصـوات زمور، لكن هنا خلف نوافذ مغلقة حيث كنت أقرفص على مسند كنبـة منجَّـدة ومغطاة بقماش أبيض في حين يهطل المطر في الخارج، هنا وضع شبيه بما في مدينة بومبيجي: كل شيء لا يزال موجوداً ما عدا الزمن، فقد اختفى. كمـا فـي بومبيجي: بإمكان المرء أن يتسكع عبر أمكنة عديدة، واضعاً يديه فـي جيبتـي بنطاله، ويتخيل كيف عاش الناس هنا ذات مرة قبل أن يطمرهم الرماد الـساخن. ويتردد الصوت هنا أيضاً (لأن السجادات مطوية) كما في بومبيجي وذات مـرة رن الجرس فعلاً لم أفتح الباب – السيد الذي يحمل اسمي هو على سفر.

قرفصتُ دون جدوى بالمعطف والقبعة، والغليون في فمي بدون نار؛ لم أستطع أن أتصور كيف عيشَ هنا، أقل مما في بـومبيجي، مـع أن ثوبهـا الصباحي الأزرق اللون كان لا يزال معلقاً في الحمام... ربمـا كـان مـن الأفضل أنني لم أكن أملك آنذاك أعواد ثقاب؛ يكفي أن أتصور: كيـف كـان الرجل المقيم في هذا المنزل يشعل عوداً من الثقاب، كيف كان يحافظ علـى الشعلة الصغيرة في باطن يده إلى أن تكبر فيأتي بها إلى وراء الستارة، عوداً واحداً، ثالثاً ورابعاً وخامساً، لم تحترق الستارة، لم تتأجج الشعلة، بل احترق العود بدون لهب، اشتعل، صدرت منه رائحة كريهة، مظلـة المـصباح لـم تحترق أيضاً احتراقاً صحيحاً بل اكتفت بإصدار رائحة حريق ومنيت بثقـب ذي حافة بنية اللون، شيء مثير للسخرية والضحك، كان الأمر بحاجة إلـى بنزين يرش فوق الستائر فتضطرم النار فيها فعلاً وفـي الكنبـات المنجـدة والسجادات والكتب والثياب، أعواد الثقاب لا تفي بالغرض والاعتماد عليهـا في هذه الحالة هو أمر مثير للسخرية.

سوف أشتري ثياباً جديدة، مع معرفتي حق المعرفة: بألاً جدوى من ذلك، فهي تظهر بمنظر مختلف إلا في واجهات المحلات. فلمجرد أن يأتي بها البائع إلى حجرة تغيير الملابس ثم يختفي بكل رقة وتهذيب فاسحاً لي المجال لكي أجري ما أرغب به من ملابس، عند ذلك أعرف كيف يصبح منظرها كلها خلال مدة ربع عام. لكن المرء لا يستطيع أن يتجول عبر العام عارياً؛ إذن لا بد من أن أجبر نفسي فأدور أمام المرايا القابلة لتغيير اتجاهاتها لكي أختبر مدى ملائمة التفصيلة التي كانت أعجبتني إلى حد ما في الواجهة. في حقيقة الأمر لا أشتري عادة إلا حباً بالبائع، الذي يبدي ابتهاجه في أثناء رؤيتي عبر المرآة مؤخرة رأسي التي يتعذر تغييرها؛ تعودت أن أشتري بسرعة والثياب ذاتها في كل مرة. لأن الدقائق، التي يقضيها الخياط في خدمتي حين يقرفص ووسادة الأبر على زراعة ويؤشر بالطباشير بخبرته المعهودة كم ينحرف قياسي عن الألبسة الجاهزة، هي مصدر عذاب وحرقة قلب. سيان إذن أن كانت الثياب رخيصة أم غالية، إنكليزية أو إيطالية أو وطنية؛ فدائماً تنشأ الطويات ذاتها في ذات المكان، أعرف ذلك.

حياة أخرى - ؟

أتخيل:

رجل يتعرض لحادث، على سبيل المثال حادث سيارة، جروح مقطبة في الوجه، ليس ثمة خطر على حياته بل مجرد خطر أن يفقد بصره. وهو يعلم ذلك. إنه يستلقي في المستشفى بعينين مضمدتين فترة طويلة. يستطيع أن يتكلم . ويستطيع أن يسمع: تغريد الطيور في الحديقة أمام النافذة المفتوحة، وأحياناً الطائرات وبعد ذلك أصواتاً في الغرفة، ثم هدوء الليل والمطر عند انبلاج الصباح. يستطيع أن يشم: مهروس التفاح، الزهور، النظافة الناجمة عن الإجراءات الصحية. يستطيع أن يفكر ما يشاء وهو يفكر... وذات صباح يُزال عن عينيه الضماد فيرى أنه يستطيع الرؤية لكنه يخفي ذلك، فلا يقول بأنه يستطيع أن يرى، لا لأحد ولا في أي وقت من الأوقات.

أتخيل:

ويتابع حياته بالتظاهر بأنه أعمى حتى وإن على انفراد مع شخصه هو فحسب، ويتعاطى مع أناس لا يعرفون بأنه يراهم ويمارس إمكاناته الاجتماعية وإمكاناته المهنية من خلال أنه لا يقول شيئاً أبداً عما يرى، يمارس حياته باعتبارها تمثيلاً ويمارس حريته بفضل سر يخفيه على الناس وهلم جرا.

ليكن اسمي غانتباين.

أجرب قصصاً كما تُجرب الثياب!

أجلس الآن في مطعم ريفي.

ليس من حسن حظي فحسب أنني الآن في عداد الناس الأحياء. بل من حسن حظي أيضاً أنني متحرر من مسؤولية موت أحد عشر طفلاً مع أنني لم أرتكب عملاً جنائيا- وبدلاً من ذلك فأنا أجلس الآن في مطعم ريفي واطلب كأساً من مشروب الكريز في حين تقبع السيارة (حتى أنها لا تخصني بل هي سيارة بورّي) هناك في الكاراج بانتظار قطع التبديل اللازمة؛ لا أجرؤ على أن أتخيل ماذا كان سيحدث لو...

لقد حالفني الحظ فعلاً.

لا أعرف بم فكرت حين كنت أقود السيارة إلى المنعطف دون أن أورد في الحسبان إمكانية التوغل في منطقة جليدية مفاجئة، غليوني المنطفئ في فمي وكلي يقظة مفعمة بالهدوء والأناة، لم أكن متعباً بل مرتاح البال مطمئن وفي حين كانت يداي متشبثتين بمقود السيارة وعيناي متنبهتين إلى كل شيء، تحولت أفكاري إلى مكان آخر. (ربما كنت أفكر بالأمسية التي قضيتها عند بورّي). لم أسافر بسرعة تربو على ٦٠ كيلومتراً في الساعة، كما أثبت الشهود، وعلى طول المسافة حتى ذلك الحين لم يوجد جليد زلق ولا أي أثر لجليد زلق (ربما فكرت آنذاك بدعوتي للأستاذية إلى جامعة هارفارد)

الآن توقف سقوط الثلج.

شربت كأسي من الكريز:

وكالعادة عندما يحدث شيء غير عادي استغرب من أنني لم أتوقف فحسب عند حد أنني كنت توقعت ما حدث، مذهولاً، كما لو أن الحقيقة الواقعية قد اطلعت على ما يدور في خاطري أو أنها إساءة فهمي أيضاً؛ وقفت فجأة في ساحة القرية وقد أحاط بي شهود عيان، وحين انحنيت لكي أتحدث مع صاحب الكاراج الذي زحف إلى تحت السيارة، اعترفت بأنني أنا الفاعل، ولا أحد غيري، الذي كاد أن يميت دزينة من تلاميذ المدارس في مدينة بيرن. نظرت إليهم، أطفال ذوو وجنات حمراء في فصل الشتاء ولأنفاسهم روائح في الهواء البارد، أنهم أحياء. لو حدث ذلك، لتراءى لي أمراً بعيد الاحتمال بنفس القدر؛ لكنت ذات الشخص الذي أنا هو الآن ولست ذاته في آن ولست معاً، أنا الآن محاط بدزينة من تلاميذ المدارس البيرنيين يحملقون ويثرثرون ويحيون، شهود عيان لحادث ذي تاريخ ومكان حدوث، سعيدين بالحدث المثير، مرحين إلى أن يدق جرس المدرسة.

طلبت كأساً ثانياً من مشروب الكريز.

الساعة هي العاشرة من يوم الثلاثاء المؤرخ في كذا كذا...

لقد قضوا ساعة واحدة وهم يعملون في إصلاح السيارة التي هي ليست سيارتي؛ لقد عرف التلاميذ عطل السيارة: الأكس تلقى صدمة قوية تسببت في اعوجاجه، قرص العجلة أصيب بانحناء وربما لابد من تبديل كرسي الكريات. لا أفهم الكثير من هذه الأمور. لقد هالني تصور ألاَّ بد من المبيت هنا في هذه الليلة؛ مع أن هذا المطعم الريفي جيد ومرتب. لم أخلع معطفي بعد. جلست وحاولت أن أقرأ جريدة (يمكن السفر بالقطار أيضاً تجنباً للمبيت هنا؛ مواعيد السفر، مواصلات محلية، معلقة على باب التواليت)، صرت أرضع غليوني في حين (هكذا قرأت) يُسام الناس في الجزائر سوء التعذيب.

هذا هو ما يحدث.

حين أقرأ مرة أخرى ما يحدث في الجزائر أو في مكان آخر وحين أتصور ذلك طيلة بضع لحظات، فليس ثمة شيء آخر وبالكاد أستطيع تحمل هذا التصور. وأنا على استعداد لفعل كل شيء لكنني أجلس هنا منهمكاً في قراءة صحيفة قديمة وأتحمل ذلك. دون أن أفعل شيئاً... عدا أنني أنتظر قطع التبديل اللازمة للسيارة التي لا تخصني.

لقد أصبحت ذكرى:

(بينما يُسام الناس في الجزائر سوء التعذيب)

ثلج بارد وجاف وبالكاد ظل فترة قصيرة باقياً على إسفلت الشارع، ثلج خفيف ومعفر بالغبار ويطير خلف كل سيارة مسافرة، في الوسط كان الشارع في معظم الحيان خالياً من الثلج، رمادي اللون وجافاً وعلى الجانبين فحسب ظل الغشاء الأبيض باقياً إلى أن تمكر السيارة التالية، حتى أن مرور دراجة عادية بطيئة كان كافياً لإثارة الثلج وتطايره من جديد وتحزمه وتخصله بشكل مختلف في كل مرة عن المرة السابقة إلى أن يصبح شبيهاً بالكشكشة. نادراً ما كنت أتجاوز أية مركبة أمامي. وبالكاد كنت أسافر حتى في خارج المدن بسرعة تربو على الثمانين كيلو متراً في الساعة. لكن الحادث وقع داخل المدينة، رأيته بأم عيني، ذلك مع إنني كنت أفكر بشيء آخر طيلة تحديقي عبر البندلة البطيئة لمسَّاحات الزجاج يمنة ويسرة، رأيت بعيني ما وقع، وانزاحت قدمي عن البنزين، وحضوري الذهني الذي غالباً ما كان يصل إلى حد المعجزة لم يغادرني مطلقاً حين أحسست بالانزلاق أولاً في عجلة القيادة وبعد ذلك في جسدي بالذات. لم تتجه قدمي صوب الفرامل، بل ضغطت على الفور على دواسة البنزين من جديد. وحين أحسست بالانزلاق، رأيت في الجهة اليسرى مجموعة من تلاميذ المدارس وفي الجهة اليمنى واجهة أحد محلات الحليب الريفية وقد ألصقت عليها دعايات للجبنة والشوكولاته. وطيلة هنيهة من الزمن كنت لا أزال بكل هدوء آمل أن أستطيع

السيطرة على المنزلق كالعادة؛ لكنني علمت بعد ذلك: ألاَّ بد من الوقوع فيه! وأمسكت غليوني بأسناني كما لو ذلك هو حل المشكلة. استغرق الأمر. على ما بدا لي، دهراً من الزمن والمركبة لما تزل تدور بي كيفما حركت عجلة القيادة. وما أثار السخرية الضاحكة هو أنها لم تدر بي إلى الجهة اليسرى بل اتجهت فجأة إلى اليمين، كما لو أنها زلاَّقة، إلى عرض الشارع ثم إلى رصيفه. لم أعد أعرف وقتذاك ما اليمين وما الشمال ولم يعد يصح أي شيء. ولحسن الحظ لم تأت في تلك اللحظة أية مركبة من الجهة المقابلة؛ ثمة شاحنة كانت تجر مقطورة ثقيلة ما لبثت أن ظهرت كما يقال في مخيلتي، لكنها كانت في الحقيقة قد اجتازت المكان لتوها. كنت أرى فقط كيف كانت القرية تدور. وتفرجت على دورانها. خائر القوى، لكن مع ذلك على أتم اليقظة والانتباه. إلى يساري محل الحليب وإلى يميني تلاميذ المدرسة. كمرجوحة الخيل. كنت أدرك منذ وقت طويل أن المعجزة المعتادة قد فارقتني. فقدت غليوني. كان ذلك كل شيء، وكانت السيارة واقفة آنذاك في الاتجاه المعاكس، اصطدمت برصيف ثم توقفت بعد ذلك؛ ولولا الرصيف لكنت الآن في واجهة المحل. كانت مساحات الزجاج لا تزال تتحرك ذات اليمين وذات اليسار. اعتراني فجأة انفعال شديد فأخذت أعبث بما حولي كما يعبث تلميذ السواقة، أردت أن أتابع السفر لكن السيارة لم تتجاوب معي؛ كانت توقفت وهي في السرعة الثالثة، فتوقف المحرك أيضاً عن الدوران، ركبَّت السرعة الأولى وضغطت بقدمي على الدبرياج لكي أدير المحرك. لكن السيارة لم تشأ بذلك أيضاً أن تتحرك. بل أحدثت ضجيجاً فحسب. وأخيراً نزلت من السيارة لكي أعاينها وأتفقدها. فلم يظهر أي أثر لأضرار في صفيحها. كان من شأن ذلك أن أراحني؛ لكن بما أنني أحسست الآن بأن كل نوافذ القرية من حولي قد فتحت أبوابها، اعتراني الخجل وكنت محاطاً آنذاك بتلاميذ المدرسة الذين اخذوا يحملقون بي، هكذا تراءى لي، لكنهم كانوا بذلك يحملقون فقط بسيارة البورشي التي تعرضت للف والدوران أمام أعينهم بطريقة مرحة وملفتة للانتباه. أحد الصبيان قال بالتتالي: لُفَّ بها ودُرت، لُفَّ بها ودُورت! فقدت

آنذاك غليوني ولم تظهر علي أية إشارة على الارتياح والطمأنينة؛ خرجت إلى وسط الشارع وأخذت أتفحص الأرض بمقدمة حذائي لكي أبين للعالم أن المكان مغطى بالجليد المزحلق. الآن فقط فتحت النوافذ من حولي؟ كان علي أن انتظر إلى أن يتم سحب السيارة من مكانها، يداي في جيبتي بنطالي، واستفسرت وقتها - كما لو أنني هابط من السماء - عن اسم القرية.

أنا في قرية لنغناو، قرية بيرن.

في ما بعد في المطعم، حين كنت أشرب كأسي من الكريز، علمت من النادلة أن حوادث سير كثيرة سبق أن وقعت في هذا المنعطف، حوادث مميتة أيضاً.

لا أعرف لماذا أروي هذه القصة.

الحادث الذي وقع لي لا يثير اهتمامي...

ليكن اسمي غانتنباين.

قد تكون البداية سهلة:

دخلت إلى المحل، قبل الظهر، دخلت ببساطة إلى المحل ووقفت فيه. قيل لي: ماذا تريد؟ فتظاهرت بأنني لا أفهم اللهجة السويسرية من اللغة الألمانية. تلتفت حولي: نظارات، عدسات مكبرة، مناظير، نظارات من كل الأنواع، نظارات قماطات، مناظر مقرّبة لعروض الأوبرا، لكن بالدرجة الأولى نظارات. الذي أريده موجود منذ أسابيع في واجهة المحل الكائن في شارع فراومُينستر (إلى الجهة اليمنى من الأمام). بالمناسبة لم تكن الآنسة البيضاء، التي ترجمت السؤال اللهجوي عما أريد إلى اللهجة الأمريكية لفترة ما ثم ترجمته بعد ذلك إلى اللغة الألمانية الفصحى، قد انتهت بعد مما كان يشغلها، وكان يكفي بالدرجة الأولى إيمائي برأسي إشارة إلى أنني لست في عجلة من أمري، على الأقل طريقة للتعبير عن ذلك. (اعتبرت أن من الأفضل تأدية دوري بالألمانية الفصحى. كنت أشعر باستمرار بأنني أؤدي

دوراً حين أتحدث بالألمانية الفصحى وبذلك كانت العوائق أمامي أقل من المعتاد. لغتي الإنكليزية لا تفي بالغرض؛ فهي باستمرار لا تكفي إلا بالموافقة بصورة مجملة. وفرنسيتي ترد أقل من ذلك في الحسبان؛ وأشعر بأنني دون كل فرنسي لمجرد أنه يفهم لغته الأم ذاتها فحسب).إذن وقفت هناك في حين انشغلت تلك الآنسة بسيدة كانت، كلما وُضعت على وجهها نظارة جديدة، تمد رقبتها كالطير الذي يبتلع ماء،وكنت وقتها آمل فقط ألاَّ يأتي آنذاك إلى ذلك المحل أي شخص يعرفني. تلك السيدة وهي أمريكية، أصيبت في كل مرة بخيبة أمل حين كانت تظهر بالنظارة الجديدة أمام المرآة ولم تستطع على ما يبدو أن تقتنع بمظهرها في المرآة، والمسألة قد تطول. كان عندي وقت كاف للتفكير بخطتي من جديد، لكنني بقيت مصمماً على ذلك. وعندما قامت الآنسة أخيراً على خدمتي فإن ذلك لم يحصل بدون ملاحظة السيدة الأمريكية بحيث كانت تظهر باستمرار قلة اكتراثها بأهالي البلاد. أريد إذن – لماذا التلعثم؟ – نظارة شمسية. تفضل! وحين ناولتني الآنسة نظارة شمسية وأخذت في ذات الوقت تدردش مع الأمريكية، رأيت حملاً كاملاً وبالتالي ترسانة من النظارات الشمسية التي لم تكن أيضاً واردة في الحسبان. كيف أقول لها ذلك؟ زعمت الآنسة التي ترتدي سترة بيضاء، وهي بائعة بسيطة إلا أنها ترتدي لباس العلماء، بأنه لا توجد نظارات أكثر ظلمة مما قدمته؛ وإلا فإن المرء لا يرى بعد أي شيء، وقالت إن ما رآه السيد في الخارج في واجهة المحل ليس نظارة شمسية بل نظارة عميان. فرجوتها أن تعطينني واحدة. على أن دهشتها من رغبتي- في غضون ذلك اتخذت السيدة الأمريكية قراراً وحسمت الأمر فكان لابد إذن من مرافقتها إلى الباب، طالما أنها لم تجد شيئاً مناسباً، لكن بكل اللطف والمجاملة المعهودة- دهشتها زالت عندما تابعت القيام على خدمتي وكنت وقتها الزبون الوحيد في المحل؛ لم ترفض رفضاً صريحاً بيعي نظارات للعميان بل رفضته رفضاً عملياً وذلك باستمرار تقديمها لي نظارات شمسية، كما لو أن السيد لم يكن جاداً في طلبه، حتى أنها وضعت بعضها على وجهي بقصد التجريب إلى أن عيل صبري فطلبت بكل بساطة ما كنت

أريده، أي لا شيْ آخر سوى نظارة عميان سوداء. قالت: تفضل! وقلت في نفسي أنني أخشى أن يخرج مدير المحل لكي يهتم بهذه الحالة الخاصة. من يعرف ما إذا لم أكن بحاجة إلى شهادة طبية! وأخيراً بعد أن لُبيت رغبتي وأُعلمت بأن نظارات العميان هي عبارة عن خدع لا أكثر لتغطية العينين الفاقدتي البصر ولذلك فهي معتمة تماماً، استفسرت عن السعر. ما إذا كانت النظارة ثابتة في مكانها بشكل صحيح، عن هذا الأمر سألتني الآنسة المرتدية سترة بيضاء: الآن رأيتها رمادية اللون كالرماد، ليلكية - رمادية، ومدت يديها إلى وجنتيّ بحيث رأيت وجهها فجأة عن قرب وشفتيها المكتنزتين الطريتين، الآن بلون بنفسجي كالخوخ الناضج وفجأة حل المساء، الأصيل، الغسق، كسوف الشمس. مع أن الوقت كان قبل الظهر؛ سمعت ذلك، هكذا تسمع الأصوات في وضح النهار في وقت قبل الظهيرة فقط. ورأيت الشمس آنذاك كما كنا نراها إبان مرحلة الطفولة البعيدة، حين كنا نراقبها عبر شظية من الزجاج ملوثة بالهباب: شاحبة اللون، أصغر بكثير مما كنا نظن، من غير هالة مشرقة، ضاربة إلى الصفرة باتجاه البياض الرمادي، بلون المشمش الذي لم ينضج بعد أو ما شابهه، لكن معدنية اللون. قلت للآنسة أن النظارة ثابتة في مكانها الصحيح بشكل رائع. فتأكدت من ذلك مرة أخرى بحيث استطعت من جديد أن أرى شفتيها الخوختين. قريبتين للتقبيل. لكن غزت خاطري آنذاك فكرة أنني لن أقبل امرأة في حياتي بعد الآن؛ إن المادة، التي تصنع منها الشفاه، غريبة إلى أقصى درجات الغرابة. شممت رائحة عطرها ورأيت شعرها القريب من وجهي، أخضر - أسود - أزرق كريش الدجاج وقبعتها السورنجانية. ترددت في أن أنظر إلى وجهي في المرآة، أبعدت النظارة عن عينيَّ؛ لا أثر للغسق المعتم، بل وقت ما قبل وقت ما قبل الظهيرة المضيء بكل وضوح، وفي الخارج هناك الشارع، الناس، صفيح السيارات الملون، الشمس، واجهات المحلات، الشارع المشمس، كل شيء ظهر الآن على حاله كالعادة، كنيسة فراومُينستر وأجراسها تدق الحادية عشرة وطيور النورس ترفرف في ربوعها. لحسن الحظ دخل إلى المحل زبون جديد؛ وحين

اعتذرت مني الآنسة المرتدية سترة بيضاء لبرهة من الزمن لكي تتفرغ لخدمة الزبون، وضعت النظارة مرة أخرى على عينيّ. ورأيت يدي، رأيت لحمي كالمارسبان (حلوى باللوز والسكر، المترجم) الذي لم يؤكل في حينه، ليّناً ورمادي اللون. في المرآة، أجل، لا أزال أرى أن ما أراه ليس باباً في العراء بل هو مرآة، رأيت رجلاً بمثل حجمي دون أن أعرف ما إذا كان رجل المرآة، الذي لم أستطع رؤية عينيه، يستطيع أيضاً أن يراني. وحين اقتربت منه لكي أرى عينيه، اتجه صوبي كالأعمى الذي لا ينتحى عن طريق الآخرين وذلك إلى درجة أوحت إلي بأنه يريد أن يخترقني- فأبعدت النظارة عن وجهي. ثم قلت للآنسة: تفضلي! ودفعتُ الحساب...

بذلك ربما تكون بداية القصة قد أنجزت.

فكيف تستمر؟

طبعاً أنا بحاجة أيضاً إلى عصا-

أتصور:

الجولة الأولى، التي قام بها غانتنباين وهو لم يخلُ من القلق والاضطراب. لم تقده إلى بعيد؛ فالمعاصر الأول، الذي لم يشأ غانتنباين- وهو مزود بنظارة معتمة وعصا سوداء صغيرة كانت على طريقة العميان تصطدم من حين لآخر بحافة الرصيف فتحدث صوتاً متكرراً- أن يتنحى عن طريقه بخط مستقيم مطرد، هذا المعاصر فاجأه بالسؤال الفظ عما إذا كان وجهه خالياً من العيون؛ وبدلاً من أن يفرح غانتنباين بهذه المصادفة الأولى (على أنه أعمى، المترجم) فقد استشاط غضباً من الصبي فلم يقو إثر ذلك على الكلام بل التفت إلى جهته. أعمى ينظر إلى ما حوله! كانت تلك أول غلطة. ربما كان تصميمه على ألاَّ يتنحى عن الطريق لأحد، دونما تمييز بين شخص وآخر، أمراً صائباً إلا أنه كان حازماً أكثر مما يجوز. مع سبق الإصرار أكثر من اللازم. في البداية يبالغ الإنسان دائماً. ظل غانتنباين واقفاً بعض الوقت؛ لابد و أن يصبح أكثر مرونة وانسيابية قبل أن يتابع مشيه بالعصا

التي ما تفتأ تدق على حافة الرصيف. بالطبع اختار غانتنباين في تجواله منطقة يعرفها. مثلاً كرويتس بلاتس، تسيلتفيغ، هايم بلاتس؛ تلك كانت في السابق طريقه إلى المدرسة ولذلك فهو يعرفها عن ظهر قلب. في منطقة المنتزه العالي، في الشارع العريض فحسب، أزاح نظارته عن عينيه: زوريخ مدينة زرقاء اللون لكن نظارتي تجعلها رمادية، الأمر الذي يسبب شيئاً من الخوف، رمادية مع مسحة من اللون الليلكي. وحالما يعود إلى وضع النظارة على عينيه كان يعتريه شعور بالوداع لا سبيل إلى تجنبه. فليتابع تجواله إذن. قد يكون اختيار الوقت صحيحاً أيضاً، فرصة الظهيرة، حين لا ينشغل الناس بمراقبة بعضهم بعضاً بل يريدون الذهاب إلى الطعام. ومع ذلك حين تولى أمر غانتنباين في ما بعد- بالقرب من بيت الخوذة- أحدُ الرجال بأن أمسك بيده وقاده عبر الشارع، تراءى له بأنه رجل مخادع؛ على ذلك لا بد لغنتنباين من أن يعّود نفسه. وقادته طريقه عبر زقاق شتورخن، ميدان النبيذ، درب السباق، بالتدريج يزداد وضعه تحسناً؛ في مثل هذه الحالة لا تجوز المبالغة أيضاً بالدق بالعصا ويكفي ذلك من حين لآخر، على ما أظن. المهم بالدرجة الأولى: هو أن يحتفظ المرء لنفسه في قرارة نفسه بكل الأحكام التي يصدرها على كل ما يراه لتوه.

لماذا لا يولد العميان انطباعاً بالحزن، بل بالتصالح والمسالمة. تدريجياً، على ما أظن، بدأ غانتنباين يشعر بالمتعة من جراء ما استجد من وضعه إلى أن توقفت خلفه فجأة عجلات سيارة محدثة بذلك صوتاً شبيهاً بالتحزيق، خلفه تماماً- نظارته لم تكن تسمح برؤية اللون الأحمر. فأسفر ذلك، دون أن تمسه السيارة بالمرة، عن أنه فقد عصاه من الذعر؛ كانت العصا ملقاة على الإسفلت بين العجلات المتوقفة، رآها غانتنباين وما لبث عندئذ أن أرتكب الغلطة الثانية: لم يستطع الأعمى أن ينتظر بل انحنى لكي يلتقط عصاه بنفسه عن الأرض. تُرى هل فضح نفسه بذلك؟ لم يفتقر ما حدث إلى شهود عيان فتحزيق العجلات المتوقفة دفع كثيرين من الناس إلى الوقوف في مكان الحادث، غانتنباين كان يراهم، كالأشباح بعضهم اقترب من المكان وقد ازرقّ

وجهه من الفضول أو من اللوم والتأنيب، في حين كانت تجلس في سيارة سباق بنفسجية اللون (من نوع كارمَنْ) امرأة شقراء متبرجة بكمية كبيرة من المساحيق والأصبغة وقد أخذت تهز رأسها حيرة وعجباً، جنية ماء وشعرها مائل إلى الخضرة وشفتاها خوخيتان أيضاً. في خلدها دار السؤال عما إذا كان هذا الرجل أعمى فعلاً؟ كان معطفها الفرو ذا لون شبيه بالطحلب البني الخامل. ما إذا كان هذا الرجل أعمى؟ قال إنه كذلك، أجل ، قال للعالم لأول مرة أنه أعمى، أجل، ثم يلتفت إلى ما حوله لكي يتأكد من أن الناس صدقوه... ولحسن الحظ لم يتواجد آنذاك في ذلك المكان أي شرطي. تنازع الرجال الأشباح في ما بينهم حول مسألة إلى من يعود الفضل في أنه لا يزال على قيد الحياة ثم اجمعوا رأيهم مع السيدة المنفعلة في سيارة الكارمَنْ على أن الرجل كان ملزماً بربط شارة صفراء حول ذراعه. لم يسبق لغانتنباين أن فكر في هذا الأمر. فلزم الصمت. وفي أثناء ذلك افتقد قبعته التي رآها ملقاة على البلاط القريب، وفي ما عدا أنه افتقد قبعته فإن الحادثة بدت له منتهية طالما لم يتضرر عظم شظيته اليسرى كما لم يتضرر أيضاً مصد سيارتها اللامع كالبرق. لماذا لم يُعطه أحد قبعته؟ جنية الماء ذات اللون المائل إلى الخضرة، وقد هالها حسن حظ الرجل، لم تشأ أن تتابع سفرها دون أن تحصل على موافقة الجميع على أنه هي البراءة بعينها وبالتالي دون موافقة ربة منزل أيضاً كانت مصرة على الصمت. لم يتعلق الأمر حينئذ بغانتنباين، كان يرى ذلك، بل بمسألة كيف يجوز لامرأة كهذه أن تتجول بسيارة من هذا النوع على غير هدى. لقد أثارت فيه الشفقة والعطف؛ وفجأة كان الجميع ضدها. بدا حاجباها بلون أسود مائل إلى البني كورقة الشجر الرطبة من الخريف الماضي، أسود بني إلى أزرق- أسود. وحين أخبرته بصوت عالٍ ربة المنزل، التي كانت أمسكت بذراعه من قبل، بأن المرأة التي كادت تدهسه بسيارتها هي بائعة هوى، لم يعلق غانتنباين على ذلك بأية كلمة. فالأعمى لا يقوِّم الناس عادة. وسألته ربة المنزل عما إذا أصيب بجروح كما لو أن السيدة المزدانة بالألوان، صاحبة سيارة الكارمَنْ، لم يسبق أن سألته عن ذلك قبل

فترة غير قصيرة. لم يكن خالياً من أية جروح فحسب، بل عاد إليه فجأة حضوره الذهني: غانتنباين استفسر الآن عما حدث. وبينما كان الناس يصفون له أن من الممكن أن يكون الآن في عداد الموتى، التقط غانتنباين بذات يده قبعته عن الأرض وعلى مرأى من جميع الناس ثم وضعها على رأسه. لكن ما من أحد كان يشك بعماه، فقط رأى ذلك على وجوه الناس وفي تصرفاتهم نحوه. أما الأشباح، الذين لم يستطيعوا أن يجدوا بعد رواجاً في الحياة اليومية المملة، فقد القوا باللائمة على حركة المرور عامة في أيامنا هذه. وقيل في ما قيل أن أحد الناس قد دُهس ذات مرة في هذا المكان بالذات. وشعروا بالمرارة بوجه عام. وطالما لم يكن من اللائق أن يبدأ غانتنباين قبل بقية الناس بالذهاب إلى حال سبيله. فقد خلع قبعته مرة أخرى عن رأسه ليمسح عنها غبار الشارع بينما غدت ربة البيت أكثر قسوة إزاء بائعة الهوى. وأخيراً عاد غانتنباين فوضع قبعته على رأسه من جديد وهي على حالها من النظافة، كان الأوان عندئذ قد آن للرحيل؛ إذ لم يشأ أن ينتظر إلى أن تأتي الشرطة وتطلب البطاقات الشخصية وشهادات السواقة وربما أيضاً وثيقة العميان ثم قال للسيدة صاحبة سيارة الكارمن أنه مدين لها وحدها، لا لأحد غيرها، بإنقاذ حياته. فسألته بكل امتنان، وهي تضع يدها الليلكية اللون المغلفة بقفاز على مغير السرعة الخاص بالسباق في حين أدارت المحرك الملائم له، إلى أين يريد الذهاب. قال لها: إلى البيت! فسألته: أين تقيم؟ خلف سيارتها علت مجدداً أصوات الزمامير، وبما أن غانتنباين رأى أيضاً حافلة ترام لم تتقدم إلى الأمام بسببها فقد اتخذ في تلك اللحظة قراراً سريعاً بالدخول إلى سيارتها والجلوس فيها معرضاً نفسه بذلك إلى نباح كلب صغير في السيارة لم يسبق له بالفعل أن رآه من قبل. كلب أجعد الشعر منتصبه كشعر الفرشاة. كانت منفعلة عندما همت بالانطلاق فوضعت مغيِّر السرعة على أول تبديلة فاندفعت السيارة ثم أقلعت.

والآن عم الحديث؟

سألته لا من قبيل التأنيب أو اللوم أو بلهجة أمومية، لماذا لا يحمل شارته الصفراء على ذراعه. ولكي يلعب دور الأعمى طرح سؤالاً مضاداً ما إذا كان كلبها الصغير، الذي أوشك أن يهرسه، من نوع فوكس- تيرير. فكان ذلك سؤالاً ينم عن أنه غر وبالتالي مبتدئ. فلاذ بعد ذلك بالصمت تماماً. أما هي فقد تحدثت عن حركة السير ووصفتها بأنها بشعة، تبريراً منها لقيادتها السيارة بشكل مندفع ومتقطع. كانت تقود السيارة باتجاه المدينة، إذ رأى غانتنباين: كيف كانت البحيرة تتلألأ تحت ضوء القمر، هدوء الليل وسواد الجذوع والأغصان وعليها أوراق الشجر البرونزية اللون، ما من أحد كان يرتدي قميصاً أبيض، الإعلام المعروفة المنصوبة على الجسر ترفرف غريبة- ملونة، ألوان أمة لا وجود لها، ولذلك يبدو الأمر مرحاً. لكن ظلال الأبراج المعروفة ظلت هي ظلال الأبراج المعروفة. كان غانتنباين سعيداً لأن ما من أحد كان يرتدي قميصاً أبيض، مرتاحاً ويشعر بالمتعة أينما يجيل بصره. كانت النوارس ليلكية اللون. وخوذات الشرطة أيضاً كانت ليلكية اللون. كان غانتنباين مبتهجاً. وسألها ما إذا كانت مرتاحة إلى سيارة الكارمَنْ. أنى لامرئ أعمى أن يعرف أنها تقود سيارة من هذا الطراز بالذات؟ لكن وهذه الغلطة أيضاً لم يُنتبه إليها، فأدهشه ذلك. ولكي يبرهن على أنه أعمى، كان يكفي تماماً أن ينفض من حين لآخر رماد سيجارته بجانب المنفضة لا في داخلها، والمضني في الأمر فحسب هو تعذر الحديث عن الأفلام. فالأفلام هي عنصر الربط الحديث. وهي أيضاً، على ما يبدو، لم تكن تعرف تماماً عمَّ يمكن للمرء أن يتحدث مع أعمى، فكان نتيجة لذلك أغراء أن يُتحدث عن مواضيع حميمية كبيرة جداً. فسألته ما إذا كان متزوجاً؟ لكن بما أنه ذُعر لرؤية كيف أنها تخطت خط الأمان الليلكي المائل إلى البياض، لم يستطع أن يجيب على سؤالها وفي ما بعد تتجاوز هي حافلة الترام فحسب بل تجاوزت السؤال أيضاً؛ فتنفس الصعداء. قالت، أجل، إنها مرتاحة إلى سيارة الكارمَنْ. وأحياناً كانت تنظر إليه من الجانب، بفضول، لمعرفة من هو هذا الشخص الذي أنقذت حياته. قال لها آمل ألاَّ أكون قد تسببتُ في تطويل طريقك؛ سبق

أن ذكر لها عنوانه التقريبي وكان بالطبع عنواناً زائفاً. وبينما كانت يداها الليلكيتا اللون والمغلفتان بقفازات تمسكان بعجلة القيادة وهي تنتظر مرة أخرى مرور جماعة من الأشباح عبر الشارع، سألته مجدداً ما إذا كان ثمة شخص يقوم بالاعتناء به وتدبير أموره. لكن لحسن الحظ تابع السير مجراه في تلك اللحظة، تبدل ضوء الإشارة إلى الأخضر، فكان على السائقة إذن أن تنطلق بالسيارة من جديد. أما هو فقد كان على إلمام بالصعوبات اليومية التي يتطلبها دوره، على سبيل المثال جلوسه إلى جانب امرأة تقود سيارة وهو لا ينبس ببنت شفة ولا يطلق أية تنهيدة ولا يصدر أية تعليمات رجالية حتى ولا يرتعد حين يرى ما تغفل هي عن رؤيته، أي سيارة شحن من اليمين، وأن يبقى لطيفاً متردداً حين تقدم هي بالفعل- دون أن تلاحظ غلطتها- على التجاوز مرة أخرى، بلطف، بانسياب.

قال لها: «شكراً، وصلنا إلى حيث أقيم».

فسألته باستغرب: «هنا؟» ثم أوقفت السيارة وسحبت فرامل اليد وقالت: «إذن نحن جيران».

لم يحسب غانتنباين حساباً لهذه المفاجأة.

قالت:«أجل ، نحن جاران!»

الآن جلس الاثنان في السيارة الواقفة، وأطفأت هي المحرك بينما بقي غانتنباين جالساً في مكانه وهو فاقد تماماً كل حضوره الذهني. ما العمل؟ لم تستغرب هي أن رجلاً أعمى استطاع انطلاقاً من السيارة المسافرة، أي من دون الاستعانة بعصاه الصغيرة وهي تتلمس رصيف الشارع، أن يقول أنه وصل إلى منزله. فربما آمنت، على ما يبدو، بحاسته السادسة وعلى ما يظهر كانت مسرورة بوجود جار لها تعذر عليه دائماً أن يرى دخول الرجال إلى منزلها وخروجهم منه أن تصورها بأنها في نظره سيدة بمعنى الكلمة كان من شأنه أن أنعش خيالها وغمرها بالسرور. وسألته ما إذا كان ينبغي أن تعد له فنجاناً من القهوة؟ كان يفضل الكونياك في تلك اللحظات. أم فنجاناً من الشاي؟

فلم يجرؤ على رفض طلبها، كان عليه أن يعاملها كسيدة لكي ينقذ دوره كأعمى، وحين سألته بكل براءة عن اسمه لم يجد بداً من أن يقدم نفسه.

فسألت: «غانتنباين؟ ، هل أنت على قرابة مع- »

قال: كلا.

قالت: «كلا، يا لها من صدفة!»

وقالت ذلك مرات عديدة في حين أخذت تفتش في محفظتها المصنوعة من جلد التمساح لكي تعطيه اسمها على بطاقة صغيرة، محاطة بأهداب ورقية من صنع اليد، استطاع أن يقرأها بوضوحٍ؛ ومع ذلك فقد قرأت اسمها على مسمعه: كاميلا هوبر. لكنها سكتت عما كُتب تحت الاسم. مدرِّمة أظافر. ليس ذلك من شأن العميان. كما ليس من شأنهم أيضاً الملاحظة المكتوبة: طبقاً لمواعيد هاتفية فحسب. فاكتفى بتكرار ما سمعه: كاميلا هوبر. كان ذلك كافياً. ودس البطاقة الصغيرة في جيبه في حين سألته أين يقيم بالضبط، جارها.

قال: «هناك في البيت الأزرق».

لكنها لم تر أي بيت ذي لون أزرق.

قال مهمهماً: «أين نحن الآن إذن؟»

كان عليه الآن أن يستمر في الكذب.

وسأل: «أليس هذا شارع فيلد إيغ؟»

قالت: «بالطبع».

لكن المكان الذي كانا فيه لم يشكل النهاية السفلى بل العليا من شارع فيلد إيغ الطويل إلى حد ما ولذلك لم يكن وارداً في الحسبان أي حديث عن وجود حيرة بينهما؛ كانت الفتاة ذات المعطف الفرو خائبة الآمال، غانتنباين رأى ذلك، وكانت علاوة على ذلك قلقة لأن الاعتماد على حاسته السادسة لم يكن أمراً ممكناً؛ لم تدع الفرصة تفوتها، كلا، وخاصة في تلك الظروف، فأدارت محرك

السيارة من جديد لكي توصل غانتنباين إلى أمام بيته طالما أنه لم يقبل دعوتها بتناول القهوة في منزلها، فهي لا تستطيع أن تتحمل مسؤولية التخلي عن الاهتمام به ولن يهدأ لها بال الخ.

لكنه قبل دعوتها.

وفي المصعد، حين أرادت أن تعرف ما إذا كان يضل طريقه في غالب الأحيان في المدينة، أغلق عينيه لكي يعد العدة لأول زيارة له باعتباره أعمى وبالتالي لكي يتعثر بخطاه لدى خروجه من المصعد وذلك بطريقة قابلة للتصديق (غير مبالغ فيها). كاميلا عاملته بحنو وعطف؛ فما كاد يدخل إلى المنزل حتى أخذت عنه كل شيء: المعطف والقبعة والعصا. فكاميلا أيضاً لا تعرف ما إذا كان وهو في داخل المنزل بحاجة إلى العصا السوداء الصغيرة أم لا؛ إنه أول أعمى يزور هذا المنزل. يبدو أنه كان بحاجة إلى عصاه، من كل بد، لكي تذكره بالدور الذي يمثله.

قالت له: «تفضل بالجلوس!»

لقد نسيت أنه لا يرى أية كنبة.

قال: «جميل هذا المكان!»

قالت دون أن تلاحظ غلطته: «أليس كذلك؟ » ثم أضافت: «لو أنك تستطيع رؤية إطلالة بيتي من هنا! يستطيع المرء من هنا أن يرى البحيرة بأكملها».

كاميلا تبالغ في ذلك.

وسألها: «هل يستطيع المرء رؤية الجبال أيضاً؟»

بعد أن فتحت كاميلا، وهي ما تزال مرتدية معطفها الفرو البني اللون كلون الطحالب، إحدى النوافذ خفية لكي تستقبل غانتنباين بهواء عليل، استفسرت مرة أخرى ما إذا كان فعلاً غير مصاب بأي جروح. وكان ينظر إليها وهي تمد بصمت غطاء على الصوفا وتبعد بصمت أيضاً كأسي كونياك فارغتين

وصدرية للثديين كما لو أنها تشك فعلاً بعمى ضيفها؛ وتبقى باديـــة للعيـــان فقط، لأنها على ما يبدو لم ترها، تلك الكومة الصغيرة الذابلة من الجوارب النسائية، كان يسحبه غانتنباين من حين لآخر -حين تدير كاميلا له ظهرها- بقدميه إلى ما تحت الصوفا. كان يقف، لا بشكل مختلف عن المعتاد، لأول مرة في منزل غريب: مرتبكاً قليلاً وحريصاً أشد الحرص على ألاَّ يلتفت جانبـــاً ومع ذلك يتكون لدى المرء انطباع أول عن هذا الغانتنباين، سرعان ما يحـــاول هذا إخفاءه عن طريق دردشة فورية. كان يدردش عن فوائد الأجور والغلاء في حين كانت كاميلا منشغلة آنذاك بتفريغ نفاضات السجاير من الليلة الفائتة وموافقة على كل شيء يقوله ويفعله. ثم التفتت حولها. فظهـــر المكـــان، خاصة وان الكومة الصغيرة الذابلة لزوج جواربها قد اختفت، منـــزلاً ذا منظـــر لائق وبالتالي منزل امرأة مستقلة. بعد ذلك قال شيئاً عن أعمـــال لا ينبغـــي أن تكلف نفسها بها، لكن عبثاً؛ فسرعان ما ذهبت كاميلا إلى المطبخ لكـــي تـــضع وعاء الماء على الفرن-

وظل غانتنباين لوحده.

في ما بعد ، حين ازداد ثقة بنفسه عن طريق خبرته كـــأعمى، كـــان غانتنباين يجرؤ على الولوج في كل مجتمع؛ يقف في فيلا، ونظارة العميان السوداء على عينيه، ويدردش مع ضابط سويسري برتبة عقيد يشبهّه خطأ بمهـــرِّب معروف. وبالطبع لا يمكن أن يؤاخذ أعمى على ذلك. فهو لا يستطيع أن يميز بـــين محامٍ ومزور تواقيع هو ابن عم ذلك المهرّب. وباستمرار كان غانتنباين يرضى أن يصحَّح له رأيه لكي يبرهن عن أنه أعمى. وكان يقاد إلى جماعة مـــن النـــاس لكي يُشرح له في أثناء أحاديث المائدة عما قد رآه السادة المتحدثون أو لـــم يروه. كانوا يقدمون إليه عالماً كما هو موجود على صفحات الجرائد وفـــي حين يبرهن عنْ أنه أعمى. وكان يقاد إلى جماعة من الناس لكي يُشرح لـــه في أثناء أحاديث المائدة عما رآه السادة المتحدثون أو لم يروه. كانوا يقدمون إليه عالماً كما هو موجود على صفحات الجرائد وفي حين يتظاهر غانتنباين

بأنه يصدق ذلك فهو يعزز وصفه بهذه الطريقة. قلة القدرات لا يجوز أن تشغل باله؛ وما يحتاجه العالم هو أناس مثل غانتنباين لا يقولون البتة ماذا يرون، ورؤساء سيقدرونه؛ والتبعات الاقتصادية لتقدير كهذا سوف لن تغيب عن الساحة. كان على غانتنباين أن يتجنب التراجع عن أرائه أو حتى الاكتفاء بتغييرها لكي لا يخرج عن الدور الذي يؤديه. سوف يحقق مكانة سياسة مرموقة، لا مكانة فعالة بل مشرّفة؛ سوف يشارك في كل شيء وهو متكئ على عصاة الصغيرة لكي لا يتعثر، وبما أنه متفَق على أن غانتنباين لا يرى ما يحدث أمام عينيه فإن الناس في كل مكان يرغبون في سماع آرائه. من حين لآخر، ذلك ممكن، قد يحدث له أمر مزعج؛ على سبيل المثال حين يقابل رجلاً يقدم له نفسه بصفته مونسنيور (رجل دين كاثوليكي رفيع المستوى، المترجم) وعندما يسأل غانتنباين بدون أي تبصر من هو هذا الرجل الذي تحدث قبل قليل عن يهود خنازير؛ هو المونسنيور بذاته. إلى ذلك سوف يؤكل الكافيار. وسوف يقابل غانتنباين رجلاً كان تحدث لتوه عن حرية الثقافة وسوف يسأل ما إذا كان ثمة رجل آخر في الصالة أيضاً ممن لعبوا في عهد هتلر دوراً قيادياً مماثلاً وسوف لن يرى أنه هو الرجل ذاته. إلى ذلك تُدخن السجاير وهلم جرا... على أن زيارته في منزل كاميلا هوبر، مدرِّمة الأظافر، ليست إلا تجربة أولى؛ وحين عادت كاميلا ومعها فنجانان صغيران كان غانتنباين لا يزال غراً مبتدئاً.

سألها «تُرى ما اسم كلبك الصغير؟»

قالت: «تيدي».

قال: «أنه حيوان رائع».

قالت: «أليس كذلك؟» ولم تسأل نفسها لحظة واحدة كيف تأتي لغانتنباين أن يكتشف ذلك. طالما أن الأعمى يكيل المديح لكل شيء فهو يستطيع إذن أن يتحدث عن كل شيء. غانتنباين لم يستطع أن يتأبى على نفسه التجربة المضادة.

قال لها بعد ذلك بقليل: «قولي لي حقاً، أن كنبات ميللر هذه بشعة فعلاً. هذا ما أجده. بشعة جداً».

كانت في تلك اللحظات تصب القهوة.

قالت له باختصار لافتة انتباهه إلى تماديه: «أنىَّ لك أن تعرف ذلك؟» ثم لطَّفت من لهجتها وسألته: «هل تريد بعض السكر؟»

فهز برأسه.

وسألت: «كاتو؟»

فتردد.

قالت: «كاتو على طريقة كانتون إنغادين، لكن مقطوع منه للأسف» ثم أضافت بإخلاص وانفتاح: «إلا أنه كاتو طازج».

ومع أنه لا يحب الكاتو فقد رجاها أن تقدم له قطعة. أول وجبة له باعتباره أعمى! الكاتو أكلة سهلة التناول؛ إذ لا تحتاج إلا إلى أن تتحسس هكذا ببساطة بالشوكة العمياء على الصحن الصغير إلى أن تجد قطعة الكاتو المطلوبة. (إلا أن الأمر أكثر صعوبة بالنسبة إلى تناول طعام السمك النهري، الذي أحب في العادة تقطيعه بنفسي؛ على غانتنباين أن يصنع من ذلك دوراً تمثيلياً: أعمى يقطِّع بنفسه وجبته من السمك وذلك بطريقة أكثر خفة من أي غرسون، بطريقة أسطورية بحيث تعتري الدهشة بكل بساطة أولئك الناس الجالسين على المائدة فيطلبون عندئذ من الرجل الأعمى أن يقطِّع لهم سمكاتهم أيضاً وهم في نشوة غامرة بسبب الأمر العجيب الذي يرونه أمام أعينهم).

قالت: «يا إلهي، نسيت الملاعق الصغيرة!»

وأخذت تلعب دور امرأة تفتقر إلى المهارة.

قالت ضاحكة: «أنه لأمر فظيع، لست ربة منزل بمعنى الكلمة، كما ترى-»

يبدو أن هذا هو الدور، الذي كانت كاميلا تريد أن تلعبه: أنها ليست ربة منزل. هل كانت تأمل في أن يعتبرها غانتنباين في عداد النساء المثقفات؟ على كل حال لا ربة منزل؛ هذا أمر أكيد. هل يعتبرها فنانة؟ غانتنباين يفهم: أنها في كل الأحوال امرأة ذات مهنة. وإلا فهي لن تـزرع الحجرة جيئة وذهاباً من أجل إحضار كل ملعقة صغيرة على حدة، وهي لا تزال لاحقاً كما كانت سابقاً مرتدية معطفها الفرو البني اللون، فرحة، كما لو أن حياة جديدة بالنسبة إليها قد بدأت. وذلك ما جعلها أكثر جمالاً مما هي عليه، على الأقل أصغر سناً. كانت تشعر بالمتعة جراء أنها لم تكن عرضة للرؤية حين تجلس على الصوفا وترفع ساقيها إلى بداية الفخذين بعد أن تخلع حذائها البنفسجي اللون بصمت وهدوء تامين لكي لا يلاحظ غانتنباين ذلك ويسيء تفسيره ثم تضعه في مكان قريب منها على السجادة المغربية.

ثم تقول: «لا يهم!»

ما الذي لا يهم؟

فتقول: «تيدي مسرور بذلك»

أغلب الظن أن قطعة الكاتو التي قدمتها إليه قد سقطت على السجادة، لكن بما أن ذلك لم يكن تصرفاً متعمداً فقد صفح عنه. لكن غانتنباين لا يجوز له الآن أن يدري ولا أن يشكر كاميلا حين سحبت قطعة من الكاتو الانغاديني الباقي من ليلة البارحة إلى صحنه. أما هو فقد أخذ يؤخذ الشوكة في الصحن كما لو أنه يؤخذها في قطعة الكاتو القديمة التي سبق للكلب أن التهمها. وسألته كاميلا لماذا لا يقتني كلباً بما أنه أعمى؟ كان باستطاعة كاميلا أن تتصور ذعره حين يحس المرء فجأة باصطدام مصدٍّ ببطنه الساق. وعندما طلب غانتنباين، لكي يهدأ من ذعره، جرعة من الكونياك، أخذت كاميلا تبحث دون جدوى عن الزجاجة التي كان يراها منذ فترة. كاميلا لم تكن تراها. كان عليه أن يساعدها ففعل ذلك بأن دفع صحنه الصغير، متظاهراً بأنه يريد أن يبعده، لكي يصطدم بزجاجة الكونياك. ومن دون أن تقطع الحديث (حول ماذا

في الحقيقة؟) فقد ذهبت كاميلا إلى المطبخ لكي تغسل واحدة من كؤوس الكونياك في حين لم يستطع غانتنباين، باعتباره ملماً بمعرفة مشروب الكونياك، الامتناع عن أن يمسك الزجاجة المشكوك فيها بيده لكي يقرأ ورقة ماركتها. وحين عادت بهدوء وصمت، كاميلا في معطفها الفرو لاحقاً كما كانت سابقاً، لكن بدون حذاء كما سبق القول ولذلك كانت مشيتها غير مسموعة، وجدت غانتنباين ماسكاً زجاجة الكونياك بيده اليسرى وإضافة إلى ذلك نظارته السوداء المخصصة للعميان في اليد اليمنى. لكي يستطيع القراءة بصورة أفضل. خروجه عن دوره هذه المرة كان ملفتاً للانتباه أكثر من أي وقت مضى، لكن كاميلا اكتفت بالاعتذار من أن ليس لديها ماركة كونياك أخرى، لكن الخوف من أن يُكتشف أمره الآن بصورة نهائية كان من شأنه أن ينجيه من الحركة التي ستدهش كاميلا: أن يعيد على الفور نظارته المخصصة للعميان إلى عينيه. لم يفعل ذلك. من الخوف. وحين سحبها في ما بعد، أي بعد أن شرب كمية من الكونياك لكي يتغلب على الخوف الذي كان اعتراه، باتجاه وجهه، كانت تلك حركة جديرة بالتصديق، حركة اعتاد عليها، بغير قصد، عرضية وغير ملفتة للانتباه ولا تشوش بأية طريقة على مجرى الحديث. وهكذا تجاذبا أطراف الحديث عن آخر إلى الفضاء وكذلك عن المستقبل وعن البشرية، يعني عن أشياء تتعذر رؤيتها بالعين. معطفها الفرو، بالمناسبة عندما ينظر إليه بدون نظارات، هو أصفر بلون الكهرمان، لون شعرها طبعاً ليس مائلاً إلى الزرقة – مائلاً إلى الخضرة بل هو أشقر، شقاراً هيدروجينياً بسيطاً. ولون الشفتين ليس أزرق كالخوخ؛ غانتنباين اعتاد على ذلك وكان في رأيه أن اللون الحقيقي لقلم شفتيها، عندما ينظر إليه بدون نظارات، هو لون غير طبيعي أيضاً. ومع ذلك فقد كان أمراً مجدياً أن ينزع النظارة عن عينيه طيلة برهة من الزمن. فغانتنباين عرف آنذاك أن مسكنها ليس أراجواني اللون بل هو أنيق وجميل، أنيق وجميل إلى الدرجة المعتادة؛ ويمكن أن يكون أيضاً منزل امرأة أكاديمية، فعلاً، أو منزل رسامة أو خطاطة أو ما شابه. لكنه منزل تنقصه الكتب. وسألته كاميلا ما إذا

كان يرغب في سماع أسطوانة؟ ذلك مريح بالنسبة إليه أكثر من اللازم بحيث سأل كم الساعة. فأجابته كاميلا: بعد الواحدة بقليل. بينما كانت ساعته تشير إلى الثانية إلا عشر دقائق. كانت تريد على ما يبدو أن تستمهله فقد أمتعها أنه لا يراها أحد. لقد أمتعها دورها الذي كانت تلعبه حين أفرغ غانتنباين كأسه الثانية من الكونياك، كانت الساعة تدق الثانية. إنها على ما يظهر لا تعمل في مكتب. وهل هي سيدة بمعنى الكلمة؟ أبداً. لقد بدت فخورة بتعابير من شأنها أن ترد عنها شبهة أنها سيدة بورجوازية، تعابير مكتنزة بصراحة عارية وحين مدت قدمها من جديد إلى ما تحت الفخذ كان غانتنباين متشوقاً لرؤية كيف بانت كاميلا هوبر عند ذلك. أصغر سناً بقليل مما هي في الحقيقة؛ ذلك في كل الأحوال. فقد سبق أن رددت مرات عديدة عبارة حتى ولو أن الواحد فتي مثلها. غانتنباين أغمض عينيه لكي يستطيعِ الامتثال لرغبتها بشكل أفضل. كاميلا تزوجت ذات مرة لن تتكرر أبداً. وعلى حد قولها فإن الرجال يظنون أنهم بفضل نقودهم قادرون على كل شيء. وهي ترى أنَّ لامرأة منتجة ذات الحقوق التي للرجل. وان تكون المرأة مدبرة منزل في خدمة رجل لمجرد أنها تحبه ترى كاميلا بأنه أقصى ما يمكن تصوره. كاميلا لا تبيع نفسها. هذه الأمور عفا عليها الزمن. بالطبع هي من حين لآخر على علاقة بصديق طالما أنها لا تزال صبية شابة، إلا أنها ليست مثقلة بأحكام متحيزة مسبقة. وبإمكان الجيران أن يظنوا ما يشاؤون. فهي امراة لا تعتمد على أحد. مستقلة وذات سيادة. وليست من السيدات اللواتي يقبلن الدعوة إلى كل مكان. وهي بمنأى عن الزواج البورجوازي، ذلك أمر بديهي. فالزواج في رأيها هو مجرد استقلال مباع. وذلك غير وارد في الحسبان. غانتنباين فهم ما أرادت أن تقول. سيدة عصرية. منتجة ولو أن غانتنباين لن يراها أبداً في عملها، وهي امرأة تقف على قدميها بثبات ودون الاعتماد على أحد وتقود سيارتها الخاصة بها، ذلك أمر بديهي، سيارتها التي حصلت عليها بعرق جبينها. لا يمكن لكاميلا أن تتصور حياتها بشكل مختلف عما ذُكر، امرأة مستقلة وغير معتمدة على أحد، امرأة عصرية ولا حاجة إلى تكرار

ذلك؛ و غانتنباين أدرك ذلك الدور الذي تفكر كاميلا أن تلعبه أمامه وسوف يتقبل هذا الدور إذا ما تركت له بالمقابل الفرصة لأن يلعب دور الأعمى. غانتنباين حين وقف على عتبة الباب وبعد أن أعطته العصا الصغيرة السوداء التي كاد أن ينساها: «بالتأكيد سوف نلتقي ثانية طالما أننا جيران-» فأومأت كاميلا برأسها وهي تكاد تطير من الفرح.

ثمة رجل، مثقف، أصبح عمره واحداً وأربعين عاماً دون أن يحقق نجاحات يعتد بها ودون أن تواجهه في حياته مصاعب تذكر؛ وحين لاح في الأفق نجاح ذو أهمية، أصيب صاحبنا بالذعر من الدور الذي لعبه على ما يبدو حتى الآن-

هل آمن هو ذاته بهذا الدور؟

حدث ذلك في وسط جماعة صغيرة ولطيفة حيث كان يعرف كم كان يحظى هناك بالتقدير والاحترام وفي حقيقة الأمر لم يحدث شيء، لا شيء البتة؛ كانت أمسية شبيهة بأغلب الأمسيات الأخرى. وهو لم يعرف مما أصابه الذعر. لقد أقنع نفسه بأنه أكثر من الشرب (شرب كأسين! وربما لا يتحمل أكثر من ذلك) ثم امتنع عن ذلك، امتنع حين مرر المضيف اللطيف زجاجة المشروب عبر الأحاديث المتصالبة على الطاولة، أمتنع بصمت واضعاً يده اليمنى فوق كأسه الفارغة لكي لا يثير أي انتباه، لكنه أبدى في امتناعه عزماً وتصميماً، حتى بشدة كما لو أنه كان لا يزال من الممكن اتقاء الذعر، وأبدى في الوقت ذاته في الحفاظ على ملامح مستمع مهتم. فسألته إحدى السيدات، التي لم تعد تستطيع منذ مدة طويلة المشاركة في الحديث، عما به. والمضيف أيضاً، الذي لامته زوجته بشأن الكؤوس الفارغة، سعى إلى إثارة الانتباه. ماذا جرى للسيد ايندرلين؟ أنه يعرف فقط أن ليس عنده مايقوله. وفي ما بعد أوعز بأن يُملأ من جديد مرة أخرى، ذلك لأن المشكلة ليست في الكحول، لا بل العكس هو الصحيح، فهو صاحٍ إلى أبعد الحدود. لكن للأسف لم تتجاوز الساعة بعد الحادية عشرة ليلاً، لذلك فإن من المتعذر الاختفاء بطريقة الانتباه؛

فأخذ يشرب. في تلك الأيام بالذات انتشر، لا عبر صحف مدينة مسقط الرأس فحسب بل وأيضاً عبر صحف بلدان الخارج (وذلك ما يولد انطباعاً مختلفاً تماماً مع بقاء الموضوع ذاته على حاله في كل الأحوال)، ذلك الخبر المكون من ثلاثة سطور والذي مفاده أن ايندرلين تلقى دعوة للتدريس في جامعة هارفارد، وقد تشعر بالامتعاض من أجل الحديث آنذاك عن هذا الخبر وخاصة حين أبدت المضيفة، بغية الترويح عن نفس ايندرلين، رغبة تستعصي على كل مقاومة في أن يُشرب نخب هذا الخبر. في حين حاول هو صرف الانتباه عن الموضوع، لكن دون جدوى. ولم يخطر بباله آنذاك ما من شانه أن يصرف اهتمامه هو ذاته عن ذلك. أحد الأشخاص في العتمة خلف المصباح الكهربائي المحمول، ابنة المضيف، لم تكن ما هي هارفارد؛ فنجم عن ذلك بعض التردد طالما أنه كان على المضيف أن يشرح اسم هارفارد. إذن في صحة الجميع! لا بصورة احتفالية لكن بجدية لم تتح فرصة للراحة، فرصة للتوقف عن الحديث حول ايندرلين. دعوة إلى جامعة هارفارد، لابأس، ايندرلين حاول التقليل من شأن هذا الأمر وذلك مع استيائه من ظن الناس، على ما يبدو، بأنه لم يعد يستحق تلك الدعوة. النبيذ، وهو من صنف بورغوندر ١٩٤٧، طاب للجميع لكن ايندرلين لم يجنِّب الحديث عن مسألة الدعوة إلى هارفارد. أخيراً (كان على ايندرلين أن يقول شيئاً لكي لا يبدو صامتاً كالتمثال) ثمة دجالون أيضاً سبق أن تلقوا دعوة إلى هارفارد، وعلاوة على ذلك فإن دعوة ايندرلين هذه ليست هي الأولى التي وجهت إليه. هذه ملاحظة عابرة. ولكي يكون منصفاً فقد أشار إلى أن ثمة جامعات أصغر، على سبيل المثال جامعة بازل، تتمتع بمكانة مرموقة. أو جامعة تُيبنغن لكن لم يكن ينبغي على ايندرلين ولم تكن تحدوه الرغبة في حقيقة الأمر للتحدث عن هذا الموضوع؛ حتى أنه لم يفعل ذلك إلا على انفراد مع أحد الأشخاص في حين كانت الجماعة في تلك اللحظات منهمكة لتوها بالانشغال بالكلب الذي دخل آنذاك إلى الحجرة لكي يستعرض أمام الجمهور وثباته المعروفة. أنه لحيوان رائع! كان هذا أيضاً رأي ايندرلين، الذي سره حينئذ أن كل الانتباه

تحول عنه على الأقل مؤقتاً لكي يتركز على الكلب الصغير. هذا سألته إحدى السيدات متى سيذهب إلى هارفارد وبعد أن قيل لها ذلك أيضاً، بصوت منخفض للأسف إلى درجة أن الآخرين الذين كانوا وراء مظلة المصباح ألقوا عليه السؤال ذاته من جديد وبعد أن أجاب ايندرلين مرة أخرى بصوت عال هذه المرة لكي يسمع الجميع متى يظن ايندرلين أنه سيذهب إلى جامعة هارفارد، عاد ايندرلين بالطبع مجدداً إلى محور الحديث في حين تراجع الكلب الصغير إلى مراتب هامشية. في تلك الأثناء كان لابد، على ما يبدو، من تحويل الحديث إلى المسرح وبالتالي لابد من رواية أقصوصة من شأنها أن تشيع الأنس في أرجاء المكان. لكن لم تخطر بباله الأقصوصة الملائمة. لم ينتظر الناس ذلك بتشويق شديد، لكن برغبة. ما عسى أن يحكي رجل عن مهنته وعمله؟ معظم الرجال الناجحين يقولون أنهم طردوا ذات مرة من المدرسة، صار هذا أمراً معروفاً، لكن لا مانع من تكرار سماعه. على أن ايندرلين لم يعرف شيئاً، لقد تسلَّم الكلمة إلا أنه يعرف فقط أن ليس عنده ما يقوله. في غضون ذلك قدم المضيف بعض السجاير في حين رأت زوجته أن الوقت قد حان لإخراج الحيوان الصغير من الحجرة لأنه يعتبر نفسه محور الجماعة الصامتة. وكان الوقت لا يزال قبيل منتصف الليل...

«دخل رسول الآلهة Hermes».

كان هذا كل ما استطاع ايندرلين قوله وهو عبارة عن مثل انتيكي قديم وقد دل في تلك الآونة تماماً على حرج تلك اللحظة. لكن ذلك غير وارد، فرسول الآلهة هيرميس هو موضع دراسة كان من شأنها أن أسفرت عن الدعوة إلى هارفارد... وأخيراً كان المضيف هو الذي أحس بمسؤولية عن تعكر الجو فحاول أن يسلي الجماعة، طالما أنها بدت فجأة عاجزة عن أن تسلي نفسها، بأقصوصة ونوادر طريفة لكنها أتت كلها في غير محلها؛ فعول الناس عندئذ على ايندرلين. لكنه لا يستطيع أن يغير من الوضع شيئاً، وكلما طال صمته، يده اليسرى في جيبة بنطاله وكأسه في اليد الأخرى وهو في

حقيقة الأمر الشخص الوحيد بين الجماعة الذي يصغي إلى المضيف. أما الباقون فهم يسمعون المضيف من خلاله هو فحسب فيضحكون حين يضحك ايندرلين، ايندرلين يبقى تحت الأضواء كلما طال صمته؛ ولا تفيد في شيء حقيقة أن المضيف بالمناسبة رجل يجيد رواية القصص والحكايات: فترة الاستراحة، منذ دخول المضيف إلى القبو من جديد، بدأت بداية تنم عن سلامة النية؛ بدل الناس وضعية أرجلهم الملتفة حول بعضها بعضاً أو نفضوا الرماد وقام أحدهم بفتح النافذة، الأمر الذي رحب به الجميع؛ لكن فترة الاستراحة أخذت تطول، أحد الحاضرين وزع فطائر وكعك على الجماعة، وأخذ الناس يدخنون، ودقت ساعة ذات رقاص معلنة الساعة الثانية عشرة ليلاً، وحين عاد المضيف ومعه زجاجات جديدة قال إنه فوت على نفسه عرضاً مقدماً من ايندرلين ثم نظر إلى الناس وسأل عما دار الحديث في غيابه في حين أنهمك هو في نزع سدادات الفلين عن الزجاجات-

وشيئاً فشيئاً بدأ الناس يتجاذبون أطراف الحديث.

لكن بالنسبة إلى ايندرلين، الذي أخذ يودع الناس هنا وهناك، حدث شيء ما، بالمناسبة ليس للمرة الأولى وربما ليس للمرة الأخيرة. وإلى أن يسفر ذلك عن إدراك، فالأمر بحاجة إلى حالات كثيرة من الهلع والذعر. في سيارته فحسب، حين أدخل المفتاح متردداً قليلاً ثم ارتاح بعد ذلك من جراء أن المحرك قد دار على الأقل، أقلع عن التفكير بما جرى. أمسية قليلة الأهمية...

كانت ساعة طويلة ومقفرة – هكذا أتصور- وبالتالي ساعة مثيرة حين كان غانتنباين ينتظر، نظارته الزرقاء اللون على وجهه وعصاه الصغيرة بين ركبتيه، في غرفة السكرتارية التابعة لمديرية صحة المدينة. كان عليه أن يدرك بأن الأعمى أيضاً هو عضو في المجتمع ككل أعضاء المجتمع الآخرين. لكنه بدون شارة الذراع الصفراء قد يبقى بدون حقوق. في أثناء جلوسه في تلك الغرفة القاحلة، غرفة السكرتاريا، توجه بنظره إلى لوحة رسام من أهالي المدينة كان عليها أن تقضي هنا على الجدار المدة المترتبة

على شرائها الذي تم بصورة علنية، كان يجلس وحيداً أعزل كما لو أنه مقطوع من شجرة وربما كان أول الناس الذين رأوا هذه اللوحة. بالمقابل ما لم يصح هو: أن يقرأ الصحيفة التي كانت في جيبة معطفه. ففي كل لحظة قد يدخل شخص ما إلى الغرفة. ثمة امرأة مسنة، ضئيلة الحجم والشأن، عفريتة، حذاؤها المنتفخ وقبعتها الذاوية هما أوسع من اللازم بالنسبة إليها وأيضاً أسنانها الاصطناعية، وهي مواطنة من مواطني المدينة تكافح في سبيل الحصول على مكان ما في أحد مآوي العجزة الجميلة والمثنى عليها بحق كل الصحف والتابعة لمدينة زوريخ؛ هذه المرأة جاء دورها قبل غانتنباين وقد سبق له أن وعدها بأن يدعو لها بالتوفيق في مسعاها إلا أنه نسي ذلك بصورة طبيعية، حين جلس وحيداً والساعة تدق الحادية عشره وهو قلق على مستقبله بينما كانت هي تجلس أمام العجز المخلص الذي اعترى طبيب المدينة، هي تلك الضئيلة ذات الأسنان الكبيرة وذات الشفاه المكسوة بالشعر؛ استمر مكوثها (عند الطبيب؟ المترجم) عشر دقائق. دقُ الساعة لكي تعلن الحادية عشرة، وهو أكثر منشآت مدينة زوريخ مرحاً وتسلية، قد يكون أجمل لدى نافذة مفتوحة، أكثر هديراً، إلا أن غانتنباين لم يجرؤ على الوقوف وفتح النافذة. بل بقي جالساً متحلياً بالصبر، نظارته على وجهه وعصاه الصغيرة السوداء بين ركبتيه كما يقتضي الأمر حين يريد المرء الحصولَ على شارة ذراع صفراء اللون. كان عليه تقديم مستندات، وثائق صادرة عن طبيبين أخصائيين على الأقل. الركض وراء ذلك (دائماً بالعصا التي تدق على الرصيف في أثناء مشيه!) والثرثرة، إلى أن استطاع أن يغش طبيبين من أهالي المدينة دون أن يخصص لذلك مبلغاً إضافياً، كان من شأنها أن كلفا غانتنباين قرابة شهر من الوقت، ناهيك عما كلفه ذلك من أعصاب. لكنه حصل الآن على الوثائق وهي في جيبه ولم يكن بعد بحاجة إلا إلى خاتم مديرية الصحة، التي تشتهر -كما يقال- بقابليتها لتفهم أوضاع الناس مع أنها تركت غانتنباين يمل من طول الانتظار كما لو أن الأعمى لم يعد عنده ما يخسره في هذا العالم... كان غانتنباين يسأل نفسه أحياناً ما إذا كان الطَرش أكثر فائدة من العمى؛ لكن فات

الأوان الآن لذلك... صمتتْ دقات الساعة التي أعلنت الحادية عشرة؛ لكن بدلاً من ذلك كانت تُسمع أصوات الضرب على آلة كاتبة في المكتب المجاور، أغلب الظن لمواساة المرأة المسنة من خلال السماح لها بتكرير المعلومات المتعلقة بشخصها، مثل تاريخ الولادة، اسم الأب الذي سبق أن حُفر قبره، كنية الأم، آخر محل للإقامة، الأمراض التي تعاني منها، عنوان ابن لها لا يزال حياً في ما وراء البحار ومن شأنه أن يخفف الأعباء عن شركة التامين. على كل حال الضرب على الآلة الكاتبة استمر. كان غانتنباين يفكر آنذاك، وقلبه يخفق هلعاً واضطراباً، بأجوبته المطلوبة من أجل الآلة الكاتبة في المكتب المجاور. تكبيت ضمير؟ في بعض الأحيان كان غانتنباين يغلق عينيه: لكي يتأقلم مع الدور الذي كان يلعبه. وما الذي كان يدفعه، في غالب الأحيان بعد أنفاس قليلة، إلى أن يفتح عينيه من جديد، لم يكن فضوله لأن يرى شيئاً، ليس بالدرجة الأولى فضوله؛ فمنظر مكتب للسكرتاريا في دائرة حكومية هو مألوف لدى جميع الناس. وربما كان من دلائل الكبر أن كل ما تستطيع العيون رؤيته يبدو شبيهاً بمكتب سكرتاريا. ومع ذلك فإن غانتنباين ما يفتأ يفتح عينيه المرة تلو المرة. شبكية العين تشكل وقاية من الحدس الذي يسبب فينا نشوء كل ضوضاء ووقاية الوقت. كان ينظر إلى ما تشير إليه الساعة التي هناك على برج كنيسة سانتبيتر، والساعات تشير دائماً الآن. وقاية من الذكريات ومتاهاتها. لقد سر غانتنباين من أنه في حقيقة الأمر ليس أعمى. وبالمناسبة فقد تعود أيضاً على تغير الألوان الذي تسببه نظارته الزرقاء: لون أشعة الشمس المصنفر فوق واجهات من رماد؛ ورق الشجر بلون البرونز؛ غيوم تنذر خطأ بعاصفة بلون الحبر. أما بشرة النساء الشبيهة بلون نبات السورنجان فتبقى أمراً غريباً إلى درجة أن غانتنباين لم يستطع أن يتعود عليه.

وذات مرة، حين نظر غانتنباين لتوه إلى ساعته، كان أحد الموظفين يمر بالغرفة وفي يده الضاربة إلى الزرقة دوسيه أسود اللون (اللون الأسود فحسب هو الذي يبقى أسود عبر نظارة غانتنباين). مر صامتاً ودون إيماءة، ربما كان يعرف أن المسألة تتعلق برجل أعمى، على أي حال لم يومئ برأسه

محيياً وأيضاً غانتنباين لم يفعل ذلك، بعد ذلك جلس غانتنباين وحيداً وعصاه الصغيرة بين ركبتيه وكان في تصرفه متسع من الوقت ليعيد التفكير من جديد بتبعات مغامرته: إيجابياتها، سلبياتها-

وظل فترة يمعن التفكير في ذلك.

ثم أورد شيئاً فشيئاً في الحسبان أن دوره لن يأتي بعد ذلك، فالدوائر الحكومية تغلق أبوابها في الساعة الثانية عشرة إلا ربعاً، على حد علمه، بغية التخفيف من ازدحام السير، غانتنباين أورد إذن في الحسبان أن يُستدعى في الساعة الثانية بعد الظهر فأملأ غليونه بالتبغ، كالعادة، وذلك إجراء يتركه المرء للأصابع خبط عشواء ودونما حاجة لاستخدام البصر... في ذهنه ترجح كفة لإيجابيات (في مغامراته الرامية إلى لعب دور الأعمى في حياته اليومية، المترجم)... لكنه حين اشتعال التبغ، في تلك اللحظة، نظر إلى الشعلة الصغيرة المرتجفة مع أن لسانه أنبأه بأن التبغ كان يحترق. أما السلبية، التي كان يخشاها أكثر من أي شيء آخر: تكبيت الضمير الناجم عن لعبه دور الأعمى. بدأ الغليون ينشر دخانه. وما كان يريح غانتنباين في كل مرة هو حقيقة أنه ليس أعمى فعلاً؛ قد يكون طعم الغليون مختلفاً لو أن المدخن لا يرى الدخان المتصاعد منه، طعم مر، مخدر كحبة أو حقنة إبرة، لكنه طعم ممج. كان لقاؤه مؤخراً بكاميلا هوبر قد عزز أمله في أن يجعل الناس أكثر تحرراً وبالتالي متحررين من خوف أن تُرى تصرفاتهم المزيفة الكاذبة. لكن بالدرجة الأولي، هكذا يأمل غانتنباين، قلما يموه الناس أفعالهم أمام رجل أعمى بحيث تسهل على المرء معرفتهم بشكل أفضل وتنشأ بالتالي علاقة فعلية أكثر من جراء التغاضي عن كذب هؤلاء الناس، علاقة أكثر ثقة وحميمية-

أخيراً استدعى غانتنباين إلى غرفة الطبيب الحكومي.

تيو غانتنباين، مكان وتاريخ الولادة، كل المعلومات الشخصية موجودة بدقة في الوثائق التي قام الطبيب بعد أن جلس في مكانه بتدقيقها بدون فضول، لا تصفحاً لكن بحركة خفيفة لأن الساعة كانت تقترب من الثانية

عشرة إلا ربعاً. الوثائق كانت نظامية على ما يبدو، طبقاً للاستنتاج الناجم عن نظرة الطبيب إليها بصمت كان ينم عن عدم الاهتمام. كانت السكرتيرة وضعت البطاقة الرسمية المخصصة للعميان، وهي استمارة مكونة من صفحتين، في الآلة الكاتبة؛ وكان على غانتنباين أن يقول دائماً الحقيقة فحسب فقرة فقرة الأمر الذي لم يكن باستمرار سهلاً طالما إن كل استمارة – كما هو معلوم – تفترض قضية أساسية لا وجود لها البتة. على سبيل المثال ليس لغانتنباين رب عمل. ثروة؟ سؤال مناف للقانون؛ فهو يشكل إنتهاكاً لمبدأ سرية البنوك السويسرية التي تدين البلاد لها بالكثير، إلا أن غانتنباين – لكي لا يثير أي مصاعب – سمى مبلغاً ما بحيث شعرت الدولة بالارتياح واستمرت الآنسة بالضرب على الآلة الكاتبة. رشاً. إلا أن قلقها الشديد لم يتعلق بأجوبة الإثبات أو النفي بل بإمكانية الوقوع في أخطاء بالكتابة على الآلة. ذلك فحسب. أضف إلى ذلك الانطباعات المرسومة على وجه الطبيب الحكومي، كان غانتنباين يرى وجهه: الطبيب يسيء الظن بسكرتيرته، لا بالرجل الأعمى. كان ذلك وضعاً ملائماً ولم ينقص في تلك اللحظة إلا أن يحدث أن تمحو السكرتيرة شيئاً سبق أن كتبته؛ الطبيب الحكومي، كما يدل على ذلك منظره، لن يصرخ حينئذ في وجهها بل سيكتفي بمعاقبتها بان يعامل العمى بطريقة ألطف مما يعاملها هي. وحالما ضُربت أخيراً البطاقة الصفراء، التي هي البطاقة الشخصية الفعلية الخاصة بالعميان، على الآلة الكاتبة، فتح الطبيب الحكومي قلمه الحبر استعداداً للتوقيع. وبدا أن الأمور تجري على ما يرام. لكن ما أثار انفعال غانتنباين آنذاك كانت في معظم الأحيان تصوراته الزائدة عن اللزوم فحسب؛ على سبيل المثال لو وجب عليه أن يقسم يميناً على صحة الوثائق الصادرة عن الأطباء الأخصائيين. ذلك لأنه يوجد، على حد قول الطبيب الحكومي، كثيرون من الباعة المتجولين الذين يحصلون زوراً وبهتاناً على بطاقات عميان من هذا النوع لكي يستدروا عطف ربات البيوت. لماذا يقول الطبيب ذلك؟ بالمناسبة يبدو أن المرأة الصغيرة المسنة قد ساعدته جراء اعتمادها وجهات نظر الرجل الأعمى الذي يجلس هناك في غرفة

السكرتاريا؛ وظهوره هنا، هكذا أحس غانتنباين، لقي إعداداً مسرحياً دقيقـاً. قال الطبيب اللطيف وهو يدحض آراء غانتنباين ووجهات نظره: ليس الأمر بهذه البساطة! لكن أين ينبغي أن نؤمن المأوى لكل الناس المسنين؟ ثـم أورد أرقاماً ذات صلة بالموضوع لكي يسأل بعد ذلك: هل ترى حلاً لهذه المشكلة؟ في تلك اللحظة كان من شأن اتصال هاتفي أن يقطع الحديث بحيث اسـتطاع غانتنباين أن يفكر في تحضير جواب على سؤاله إلى أن عاد الـسؤال مـن جديد: هل ترى حلاً لهذه المشكلة؟ إلا أن غانتنباين اكتفى بإبداء تفهم متزايـد للصعوبات اليومية التي يعاني منها طبيب حكومي كهذا. أن عمى آراء كهذه، كما كان عبر عنه غانتنباين في غرفة السكرتاريا لكي يشجع المرأة المـسنة، عاد عليه هو ذاته بالفائدة؛ فقد جعل عماه الآخر جديراً بالتصديق. وحين بحث الطبيب الحكومي بصمت، لكي يبدد نفاد صبره حيال السكرتيرة بالدخان، عن أعواد ثقاب، استل غانتنباين بكل لباقة ولاَّعته وقدم ناراً إلى الطبيب. لكن هذا لم يكن يتوقع ذلك. وفي تلك اللحظة أخذت السكرتيرة تمحو شيئاً كانت كتبته. كان الطبيب الحكومي يتوقع بالمقابل ويورده في الحسبان. لا يمكن لعقلنا أن يتواجد في كل مكان في لحظة واحدة. فقد نسي سيجارته كما نسي غانتنبـاين أيضاً. وكان ينظر إلى السكرتيرة، منشغلاً بضبط النفس إلى أن أتته أخيـراً البطاقة المخصصة للعميان، وهو صامت صمتاً مطبقاً، فـي حـين انـشغل غانتنباين في إخفاء ولاعته. آنذاك قام بالتوقيع على البطاقة. قالت السكرتيرة: شارة الذراع الصفراء اللون يمكن إصدارها لقاء تسليم البطاقـة المخصـصة للعميان. وكالعادة دائماً حين يحقق غانتنباين لدى السلطات الحكومية ما يحتاج إليه، فهو يبدي تفهماً كاملاً لهذه السلطات، الأمر الذي دفع الطبيب الحكـومي -وهو يشكر بدوره للتفهم وربما أيضاً انطلاقاً مـن حاجتـه إلـى دحـض سكرتيرته إلتي كانت تعتبره رجلاً ذا طباع مخيفة- إلى النهوض واصطحاب غانتنباين إلى المصعد شخصياً ليس من غير الإعراب عن أمله في أن يجـد غانتنباين طريقه إلى الحياة رغم كل شيء. حاول غانتنباين أن يهدئه، الشفقة تربكه، وقد أكد بانه قبل إصابته بالعمى كان رأى كثيراً من هذا العالم: فهو لم

يكن في اليونان وإسبانيا فحسب بل كان حتماً في مراكش الذي لم يسبق للطبيب الحكومي على سبيل المثال أن رآها من قبل، وكان طبعاً في باريس، في متحف اللوفر، في دمشق كما كان في سني شبابه ذات مرة على قمة جبل ماترهورن الصخرية، أجل، وفي غمرة الضباب أيضاً. وهكذا بدأ الاثنان، وخاصة وإنهما كانا ينتظران فترة طويلة وصول المصعد، يتجاذبان أطراف حديث ممتع عن السفر والرحلات. بديهي ألا تُتاح لطبيب حكومي فرص كثيرة للسفر، ثلاثة أو أربعة أسابيع في العام. غانتنباين ينصح بصورة خاصة بالسفر إلى هافانا. فقال الطبيب، في العام القادم يريد أن يسافر مرة إلى إسبانيا أيضاً؛ غانتنباين ينصح بالدرجة الأولى بزيارة داخل هذه البلاد، سالامانكا، أفيلا، سيكوفيا، قرطبة. ثم يؤكد بأن الشوارع حالياً في تركيا هي أسوأ بكثير مما هي في إسبانيا، ناهيك عن العراق –وذات مرة أتى المصعد، لكنهما لم يدخلا إليه فانغلق بابه من جديد لكي يتابع صعوده ونزوله– قال غانتنباين أنه شاهد في حياته ما فيه الكفاية. إلا أنه لم يسبق له أن كان في روسيا شأنه في ذلك شأن الطبيب الحكومي. ثم يتجاذب الاثنان أطراف حديث سياسي يجريه غانتنباين باعتباره أعمى، فتم الأمر بطريقة أسهل من أي وقت مضى: إذ كان يتقبل الآراء ببساطة ويتعلم منها... وللمرة الثانية فُتحت أبواب المصعد فلم يبق مزيد من الوقت للنصائح الكثيرة التي قد يقدمها غانتنباين إلى الطبيب عن السفر إلى مختلف مناطق وبلدان العالم. إذا ما سافرت إلى إسبانيا، فعليك بزيارة مغاور ألتاميرا وإذا ما كنت في سيكوفيا فعليك بالتمتع بأطعمة مطعم همنغواي «كانديدو» بالقرب من مجرى الماء فوق القناطر. وإذا ما سافرت إلى تركيا فلا تدع زيارة مسجد أدرنة تفتك. وإذا ما أردت زيارة القدس فليكن ذلك في يوم جمعة – غانتنباين كان واقفاً في المصعد حين طلب الطبيب الحكومي أصبعه بدلاً من يده، الأمر الذي لم يفهمه غانتنباين على الفور. رجاه الطبيب أن يمد سبَّابته: وبالتالي لكي يضع سبَّابته على الزر الصحيح في لوحة الأزرار الداخلية للمصعد حيث ينبغي عليه أن يضغط حالما يسمع إغلاق باب المصعد الخارجي. غانتنباين أكد مرة أخرى بأن

هناك من ينتظره في الطابق الأرضي. في حين أكد الطبيب الحكومي من جديد بأن شارة الذراع الصفراء سوف ترسل إلى غانتنباين عما قريب...

حتى الآن لا تزال الأمور على ما يرام.

في المصعد فحسب، وقد تخلص من كل التوترات شأنه شأن ممثل خلف الكواليس وحيث كان يعلم أن ما من أحد كان يراه، أخذ غانتنباين يقرأ البطاقة الرسمية التي كان حصل عليها. أنها موثقة ومصدقة. وذلك ما ولد على الفور شعوراً جديداً مختلفاً تماماً عما قبل، ظهوراً مختلفاً بين الناس - وحتى إزاء الطبيب الحكومي ذاته حين كان على غانتنباين بعد خمس دقائق وبعد هبوط وصعود في المصعد أن يمثُل مرة أخرى أمام الطبيب الحكومي، ذلك لأنه كان نسي عصاه الأسود. قال الطبيب: صحيح! ثم جال بنظره حوله في حين كان منهمكاً لتوه في غسل يديه بالصابون لكي يتناول طعام الغداء، وبما أن السكرتيرة كانت ذهبت وشأنها فقد تناول غانتنباين بنفسه -كيلا يكلف الطبيب الحكومي اللطيف أي جهد- عصاه من مسند الكنبة وهو يكاد يموت من الرعب جراء ارتباكه الذي لم يسفر عن أنه كشف نفسه بنفسه فحسب، بل خدع أيضاً طبيبين أخصائيين. ما العمل الآن؟ لكن الطبيب الحكومي، على ما يبدو، لم ير في الأمر أية غرابة فقد كان واثقاً من توقيعه ومؤمناً به إلى درجة كبيرة؛ فاكتفى بأن أومأ برأسه وهو يجفف يديه بعد أن غسلهما. إلا أنه كان بدوره مرتبكاً بعض الشيء جراء ظهوره بالقميص من غير جاكيت، وبعد ذلك بأسبوع واحد بالضبط -كما لا يُتوقع من سلطة سويسرية غير ذلك- أتت شارة الذراع الصفراء التي كان من شأنها أن تسهل على غانتنباين أموراً كثيرة.

لم يبق أمر من الصعوبة بمكان سوى أمر التعاطي مع النساء.

بالطبع لم يذهب غانتنباين، من أجل أن يجرب شارة الذراع الجديدة، مباشرة إلى المقهى الذي كان يتردد إليه باستمرار قبل العمى بل ذهب إلى مقهى آخر حيث لا يعرفه الكراسين وكان آنذاك مبتهجاً لرؤية وجوه كلها

جديدة ونساء لم يسبق له أن رآها من قبل. وكان من شأن ابتهاجه أن أحدث بلبلة بينهن، لقد رأى ذلك بأم عينه. شرب كأساً من الكامباري، عصاه الصغيرة بين ركبتيه وشارة العميان الصفراء اللون مربوطة حول ذراعه؛ غانتنباين رمى سيجارته في علبة السكر واتبع ذلك بمزيد من الحيل المشابهة. تُرى ألم يصدقن شارة ذراعه الرسمية؟ كان يشعر آنذاك بأنه عرضة لتفحص النساء ونهب أعينهن. فحاول الظهور بكل الأوضاع التي تنم عن البساطة وعدم التكلف الرجالي، الذي من شأنه أن يكشفه ثم لاحظ النتيجة: هي أيضاً، السيدة التي على الطاولة المجاورة، تحاول عرض أوضاع من عدم التكلف كأن تبودر أنفها فجأة وتطلي شفتيها أو تدير رأسها جانباً تجنباً لأن يحملق بها أحد أو كأن تبتسم له فجأة لكي تختبره. سوف يكون مجرى الأمور صعباً. فالنساء لا يصدقن بتاتاً تصديقاً تاماً أنه أعمى، بالرغم من شارة الذراع للعميان، فهن يشعرن قي الظهر عندما يُنظر إليهن.

جلستُ في البارات، في فترة بعد الظهر من أحد الأيام، فكنت لهذا السبب وحيداً مع رجل البار الذي روى لي قصة حياته. كان قصاصاً رائعاً! وكنت أنتظر أحد الناس. وبينما كان رجل البار يغسل الكؤوس، قال: هكذا جرت القصة! ثم شربت من كأسي. قصة حقيقية إذن. قلت أصدقها! وكان هو يجفف الكؤوس المغسولة. قال مرة أخرى: أجل، هكذا جرت القصة! من كأسي وحسدته –لا لأنه كان أسيراً في روسيا، بل لصلته الوثيقة بقصته إذ لا يرقى إليها أي شك..

قال مهمهماً: يا إلهي لهذا المطر المنهمر من جديد!

لم أتطرق إلى هذا الموضوع، بل تابعت الشرب.

ثم قلت بعد فترة وجيزة بصورة مبدأيه ودون أن أشك بأهوال فترة الأسر التي قضاها في روسيا: «كل قصة هي عبارة عن اختراع، وكل أنا يعبر عن نفسه هو عبارة عن دور–».

قال: «هل لك بكأس آخر من الويسكي، أيها السيد الدكتور؟»

السيد الدكتور!؟

قلت وقد لاحظت أنني أفرطت في الشرب، ودل على ذلك أنني لم أكن في حديثي أكمل الجمل إلى نهايتها بل كنت أظن أن الناس كانوا يفهمون ما أريد أن أقول بفضل قول آرائي، قلت: «ما أشد ولعنا بالقصص، ربما كان للواحد منا معايشتان أو ثلاث معايشات على أبعد تقدير، ذلك ما هو في تصرف المرء عندما يحكي عن نفسه، إجمالاً عندما يروي عن معايشات: عن نموذج من معايشاته –لكن لا يمكن أن يروي قصة، لا قصة». ثم شربت من كأسي، لكنها كانت فارغة. وقلت «لا يمكن للمرء أن يرى نفسه؛ هذه هي المشكلة، ولا توجد قصص إلا من الخارج، لذلك ترانا مولعين بالقصص!» لا أعرف ما إذا كان رجل البار يصغي إلي بعد أن كان أمضى ست سنوات في منطقة الأورال، تناولت سيجارة لكي أكون بمعزل عن المشكلة. ثم سألته بعد أن روى لي ما كان يبدو أنه قصته: «هل تملك قصة؟» ثم قلت: «أنا لا أملك أية قصة». دخنتُ – وراقبته كيف تناول كأسي الفارغة عن صفيح الزنك لكي يغطسه في الماء المخصص لجلي الكؤوس وكيف هم بتناول كأس أخرى نظيفة ومجففة، لا أستطيع منعه من أن يقدم لي كأساً أخرى من الويسكي؛ بالذات لأنني أتابع حركاته وتصرفاته، فأنا لا أستطيع منعه من ذلك... وغزت مخيلتي في تلك اللحظة ذكرى الرجل من جبل الكيش Kesch، تلك القصة التي لم يسبق لي حتى اليوم أن رويتها لأحد مع أنها لا تزال تلاحقني باستمرار، قصة جريمة قتل لم أرتكبها. أدرت كأسي وسألت رجل البار:

«هل كنت ذات مرة فوق الكِش؟»

فسألني: كِش، ما هذا؟»

قلت: بيتس كِش، إنه جبل».

قال: كلا، لماذا؟»

وقلت في نفسي: هراء! لماذا ينبغي أن يكون بالذات هو ذلك الرجل الذي قابلته في عام ١٩٤٢ في منطقة جبل الكِش؟ لذتُ بالصمت. هراء. شربت من كأسي.

قلت: «كل إنسان يخترع لنفسه عاجلاً أو آجلاً قصة ويعتبرها حياة له، أو سلسلة من القصص»، قلت ذلك إلا أنني كنت من الثمل بمكان بحيث لم أستطع في واقع الأمر تتبع أفكاري وربطها بعضها ببعض، الأمر الذي أزعجني إلى درجة إنني لذت بالصمت.

كنت انتظر أحد الناس.

قلت لكي أغير الموضوع: «كنت أعرف رجلاً، بائع حليب، انتهى نهاية سيئة. إذ حطت به الرحال في مشفى المجانين، ذلك مع أنه لم يكن يعتبر نفسه لا نابليون ولا آينشتاين بل العكس: فلقد اعتبر نفسه بائع حليب فحسب. وكان منظره ينم عن أنه بائع حليب. وإلى جانب عمله هذا كان مولعاً بجمع الطوابع فكان ذلك الملمح الحماسي الوحيد الذي اشتهر به؛ كان نقيباً في فوج الإطفاء، لأنه كان على درجة كبيرة من النزاهة والإخلاص. وكان في سن شبابه لاعب جمباز على ما أظن، على كل حال كان رجلاً صحيح الجسم ومسالماً، أرمل، زاهداً متقشفاً وما من أحد في بلدتنا كان يظن في يوم من الأيام أن هذا الرجل قد يساق ذات مرة إلى مشفى المجانين. دخنتُ. ثم قلت: «كان اسمه أوتو. الأوتو» دخنتُ. وقلت: «الأنا، الذي كان اخترعه هذا الرجل الطيب لنفسه، ظل طيلة حياته فوق كل شبهة أو جدال خاصة وأنه لم يكلف المحيط الذي عاش فيه أية ضحية، بل العكس، لقد جلب الحليب والزبدة إلى كل بيت. طيلة واحد وعشرين عاماً. حتى في أيام الأحد. وقد أجبناه نحن الأطفال طالما أنه كان يسمح لنا بأن نقرفص على عربته ذات العجلات الثلاث». دخنت ثم تابعت حديثي: «وذات مساء في أحد أيام الربيع، يوم سبت، عندما كان الأوتو –وهو يدخن غليونه كعادته المتبعة طيلة كل السنين–

يقف على شرفة بيته الملاصق لبيوت أخرى والواقع على حافة شارع القرية لكن والمزدان أيضاً بحدائق صغيرة كثيرة بحيث لا تعرّض الشظايا التي قد يحدثها التي قد يحدثها جسم ساقط من الشرفة أحداً للخطر. ذلك لأن الأوتو - لأسباب كان يجهلها هو ذاته - تناول فجأة أصيص زهور من معدن الغيرانيوم، إذا لم أكن مخطئاً، ثم قذف به بصورة عمودية تقريباً إلى الحديقة الصغيرة التي في أسفل البناء، الأمر الذي لم يحدث شظايا وقطعاً مكسرة فحسب بل أحدث أيضاً ضجة ولفت أنظار كل الناس. فكل الجيران أداروا رؤوسهم في الحال إلى مكان الحادث، وقفوا على شرفاتهم بقمصانهم كما كان هو أيضاً لكي يتمتعوا بيوم السبت أو تواجدوا في حدائقهم الصغيرة لكي يسقوا أحواض الزهور، وكلهم أداروا رؤوسهم باتجاه الضجة. هذه الضجة العامة، التي أثيرت، أزعجت على ما يبدو صاحبنا بائع الحليب إلى درجة أنه أقدم بعد ذلك على رمي كل أصص الزهور، وعددها سبعة عشر أصيصاً، في الحديقة التي هي - شأنها شأن الأصص ذاتها- ببساطة ملك له. ومع ذلك فقد جلبوه. ومنذ ذلك الحين اعتبر الأوتو في عداد المجانين. وقد كان كذلك أيضاً. قلت: «لم يعد التحدث معه ممكناً». كنت أدخن بينما كان رجل البار يبتسم بشكل ملائم لكنه لم يكن متأكداً مما أريد أن أقول من خلال القصة التي رويتها. قلت وأنا أهرس سيجارتي في المنفضة الموجودة على صفيح الزنك: «ذلك ما حدث، كان أناه قد استهلك ذاته، هذا أمر ممكن الحصول ولم يخطر بباله شيء آخر. كان أمراً مخيفاً».

لا أعرف ما إذا فهمني رجل البار.

قلت: «أجل، هكذا حدث إذاً».

وتناولت السيجارة التالية.

كنت أنتظر أحد الناس-

ورجل البار قدم لي ناراً لكي أشعل سيجارتي.

قلت: «كنت أعرف رجلاً، رجلاً آخر لم يأت إلى مشفى المجانين مع أنه كان يعيش تماماً في تخيلاته وأوهامه». دخنتُ. وتابعت حديثي: «لقد توهم بأنه سيئ الحظ، رجل مستقيم لمن لاحظ له. كنا كلنا نشفق عليه. إذ لم يكد يوفر شيئاً من المال حتى تمت إجراءات التخفيض من قيمة النقد. على هذا المنوال سارت أموره واستمرت أوضاعه. لم تسقط آجرة من سطح إذا لم يكن ماراً في الشارع. والتسمية التي أوجدها لنفسه، عاثر الحظ، كانت الأحب إليه لأنها كانت مريحة. وبالنسبة إلى هذا الرجل لم ينقض شهر حتى ولا أسبوع وبالكاد يوم واحد إلا وكان عنده ما يشكو منه. والذين كانوا يعرفونه إلى حد ما نادراً ما تجرأوا على أن يسألوه: كيف حالك؟ ولدى جوابه لم يكن يشكو في واقع الأمر بل كان يكتفي بابتسامة تنم عن سوء حظه الذي يدخل في عالم الأساطير. وبالفعل كان يحدث له باستمرار من المتاعب ما يوفّر على الآخرين. ببساطة سوء حظ، أمر يتعذر إنكاره جملة وتفصيلاً على حد سواء». قلت وأنا أدخن: «لكنه تحمل ذلك بشجاعة نادرة إلى أن حدثت المعجزة». دخنت وانتظرت إلى أن استفسر رجل البار، الذي كان منهمكاً بشكل رئيسي بتنظيف كؤوسه، بصورة عرضية عن نوع المعجزة التي حدثت. قلت: «كانت تلك ضربة موجعة بالنسبة إليه، ضربة حقيقية عندما ربح هذا الرجل الجائزة الكبرى في اليانصيب. نُشر الخبر في الصحف ولذلك لم يستطع أن ينكره. وحين قابلته في الشارع كان ممتقع اللون، حائراً مرتبكاً؛ فهو لم يشك باختراعه تسمية عاثر الحظ، بل كان يشك باليانصيب لا بل بالعالم ككل. لم يكن حاله مثيراً للضحك، بل كان لابد من مواساته. عبثاً. لم يستطع بل لم يشأ استيعاب حقيقة أنه ليس سيئ الحظ وكان مضطرباً إلى درجة أنه حين عاد من المصرف، لم يجد بالفعل محفظة نقوده. وأعتقد أنه كان يفضل ضياع المحفظة على عدم ضياعها، وإلا فقد كان لابد لهذا الرجل الطيب من أن يخترع لنفسه أناً آخر فلا يستطيع بعد ذلك الاحتفاظ بتسميته حتى ذلك الحين: عاثر الحظ. وأنا آخر هو أبهظ تكاليفاً من فقدان محفظة نقود كاملة، ذلك أمر بديهي، إذ أن عليه أن يتخلى عن قصة حياته بأكملها وأن

يعيش كل الأحداث مرة أخرى، بصورة مختلفة عما سبق لأنها لم تعد بعد ملائمة لأناه-»

شربتُ من كأسي.

وقلت: «بعيد ذلك خانته زوجته أيضاً. أشفقت على الرجل، فقد كان بالفعل رجلاً عاثر الحظ».

دخنتُ.

في الخارج كان المطر لاحقاً كما كان سابقاً... لم أعد أعرف ماذا أردت أن أقول من خلال القصة التي رويتها وأخذت ألاحظ وقعها على رجل البار:

وفكرت ربما أنه هو بطل القصة فعلاً؟ مع أنه أنكر ذلك؛ لم أعد أتذكر كيف كان بطل قصتي من جبل الكِش، ربما أنني لهذا السبب لا أستطيع التخلص منه، فدخنتُ، فكرتُ به، لذت بالصمت، تابعت التدخين.

كان ذلك في عام ١٩٤٢، يوم أحد من شهر نيسان أو أيار وكنا نتعرض إلى قصف مدفعي على بلدة سامادن في كانتون غراوبُيندون، كان يوماً خالياً من الغيوم، كنت حصلت على إجازة لآخر الأسبوع لكنني لم أسافر إلى البيت بل أردت أن أبتعد عن الناس وأذهب إلى الجبال. في حقيقة الأمر كان محظراً بشدة قصوى على المجازين أن يذهبوا درءاً للأخطار التي قد يتعرضون إليها؛ إلا أنني ذهبت بالرغم من ذلك إلى قمة بيتس كِش. كنت قضيت ليلتي في شونة للتبن حيث كان البرد قارساً والشونة خالية من التبن، تيار هوائي وليلة ذات سماء صافية؛ أردت أن أتجنب المرور بكوخ جبل الكِش لأن هناك على أغلب الظن ضباطاً كان علي، وأنا مدفعي بسيط، أن أبلغهم عن الهدف من إجازاتي وذلك بالذات هو ما لم أرده. لكي أحصل على إجازة، إجازة دونما أي اضطرار إلى الإبلاغ عنها. وبما أنني كنت أرتجف من البرد طيلة الليل، فقد نهضت ومشيت في ساعة مبكرة، قبل شروق الشمس بفترة طويلة؛ في المنحدر الجبلي المظلم والمفروش بالحصى والدبش

لم يستطع أن يراني أحد طالما كنت مموهاً بلون رمادي شبيه بلـــون الأرض التي كنت فيها، كنت أصعد بسرعة إلى الأعلى وحين وصلت إلـــى منطقـــة مكسوة بالثلج، كان ذلك لا يزال قاسياً كالجرس. وحين أشرقت الشمس لتوها كنت أنعم باستراحة في ثغرة جبل الكِش، على مد النظر لم أر أي إنسان وهنا تناولت طعام الفطور وهو عبارة عن قطعة مجففة من الأوفومـــالتين. كنـــت أحمل معولاً لكسر الجليد، رجل وحيد يحمل معولاً لكسر الجليد. والآن كنـــت مسروراً بهذا المعول الصغير اللامع، ربما لم أكن بحاجة إليه طالما أن الثلج في الشمس سرعان ما أصبح أكثر طراوة، لكن في الظل كان لابد من صـــنع درجات للصعود إلى جبال الثلج. كنت خلعت الـــسترة العـــسكرية المغبـــرة وربطتها في الحزام وكنت أحياناً أراقب من جديد ما إذا جاء أحد من بعيـــد، ربما ضباط. قلت في نفسي: لو وصلتُ إلى القمة فأنهم لن يستطيعوا منعـــي من أي شيء بعد، على الأكثر قد يسألونني عما إذا كنت لا أعرف الأوامـــر وينتهي الأمر ضمن نطاق الزمالة الجبلية. لكنني لم أر أحداً، على أي حال لم أر أحداً على امتداد منطقة الثلج، وإذا لم أكن منشغلاً بتكـــسير الجليـــد لكـــي أصنع درجات للصعود فأنني لم أسمع شيئاً. كنت وحيداً كما لو أننـــي علـــى سطح القمر. كنت أسمع قطع الثلج المكسرة التي تتـــدحرج وتنـــساب فـــوق الصخور، لا شيء غير ذلك، ومن حين لآخر قرعَ معولي علـــى الـــصخور الحادة، صوتَ الريح، لا شيء عدا ذلك، ريح فوق الحافة. وحين وصلتُ في ما بعد إلى القمة، وجدت نفسي وحيداً مع صليب القمة، سعيداً بذلك. أصـــبح الجو تدريجياً أكثر دفأً، وبعد أن بنيت لنفسي قاعدة ركنية محمية من الـــريح، خلعت حتى قميصي المبلل بالعرق وكورت سترتي لكي أصنع منها وسادة أنـــام عليها. وفي ما بعد خلدت للنوم إثر إعيائي من عناء الليلة الماضية، لا أعـــرف كم طال بي النوم؛ على الأقل أغمضتُ عينيَّ ونمت في يقظتي، لم يكن فـــي برنامجي شيء آخر. على أن الرجل، الذي تحدث إلي فجأة وهو رجل مدني -قال لي: مرحبا Grussi! معتبراً هذه الكلمة سويسرية اللهجـــة؛ يبـــدو أنـــه ألماني- لم يشأ أن يزعجني، على حد قوله، حين لاحظ اضـــطرابي؛ لكننـــي

بالطبع نهضت في الحال ولذت بالصمت في البداية. كان يبدو أنه تواجد في المكان منذ فترة غير وجيزة؛ فحقيبة ظهره كانت ملقاة في مكان بعيد عنـــي. قلت له: نهاراً سعيداً ثم نهضت نهوضاً كاملاً بحيث أصبحنا نقــف بجانـــب بعضنا بعضاً. لقد أراد فقط أن يعرف مني، وكان يحمل منظاراً، أيـــن هـــي جبال البيرنينا. قال: أنت جندي، أليس كذلك! بعد أن كان رأى بنطالي الضيق التعيس، قال ذلك وهو يبتسم في حين كنت أشير له على الأمكنة التي أراد أن يعرفها، لكنني فوراً دقة معرفته التامة لتلك المنطقة. بدا عليه أنه يحب منطقة وادي إنغادين حباً جماً، أجنبي لكن ملم بمعرفة المنطقة؛ علـــى الأقــل كـــان يعرف أسماء تلك الأمكنة، بيرنينا وبالو وروساتش لكن وأيضاً أسماء القـــرى المنتشرة هناك في ربوع الوادي. كان في حوزته خريطة، كما يقتضي الحال، مع أن الخرائط خضعت في تلك الفترة لإجراءات المصادرة، كما كـــان فـــي حوزته أيضاً كاميرا ماركة لايتس. كان من شأن رغبته الملحة في تقليد لغتنا المحلية باستمرار كما لو أنها لغة أطفال، نفاق من غير موهبة للنبرة الأخرى ومع ذلك بأسلوب ذوي الفضل وطيبي القلب لكن دون أن يلاحظ استيائي من ذلك، كان من شأن رغبته هذه أن صعَّبت محادثتنا أكثر من الريح. بـــالطبع كنت أجيبه بلغة ألمانية فصحى ولو بنبرة ألمانية، لكن لم أصب نجاحاً. حتى أنه كان يعرف كيف تلفظ كلمـــة «خزانـــة مطـــبخ» باللهجـــة السويـــسرية Chuchichaschtli.هذا أمر ثانوي ولم يكن له علاقة بمحادثتنـــا. قـــال: ثمـــة كثيرون من العساكر هنا، أجل. وكان يبذل جهداً، رأيت ذلك بأم عينـــي، لأن يأخذ ثيابي العسكرية مأخذ الجد. وقلت في نفسي، ربما أكون أنا مـــن يتقيـــد بالدقة في التعامل معه وذلك حين قدم إلي منظـــاره فقـــدمت إليـــه بالمقابـــل زمزميتي، التي هي من صنع منطقة وادي فيلتلين. رأيت آنذاك بفضل منظاره أنه كان يقتفي أثري ويستخدمه في تجواله. وفي ما عدا ذلك لم يأت أحد إلى ذلك المكان. شكرته على المنظار. وقد بقي معي لمدة نصف ســـاعة تقريبـــاً وتحدثنا معاً بالدرجة الأولى عن الجبال وعن النباتات أيضاً فكانت نبرة حديثه في أثناء ذلك مفعمة بكامل التقدير. لم أكن أجرؤ على النظر إلى وجهه (لماذا

في الحقيقة؟)، كما لو كنت متهيئاً لاتخاذ موقف سلبي كان من شأنه أن أربكني سلفاً فلم أعرف ماذا أقول. لا أعرف ماذا يعتبرني، على أي حال كان يعتبرني سمجاً أخرق وقد استغرب أيما استغراب حين تبين له أنني أعرف برلين. وبقدر ما أصبح حديثنا أكثر انسياباً، أكثر انسياباً من خلال إطلاق العنان لنبرته الخاصة، بقدر ما انتظرت بإلحاح أكبر تلك اللحظة التي يهم فيها بحمل حقيبة ظهره. ونصيحتي له حول أفضل السبل التي توصله نزولاً إلى منطقة مادولاين برهنت عن أنها غير ضرورية. كان بات ليلته في كوخ جبل الكِش وما فتئ يمدح ذلك الكوخ كما لو أنني أنا الذي بنيته. قال: ثمة ضباط كثيرون هنا، أجل، شباب على درجة كبيرة من اللطف والتهذيب. أما سؤاله عما إذا كنا هنا نتدرب على تسلق جبال الألب فقد جعلته يذهب أدراج الرياح. وكونه قادراً على إنجاز الوصول في الساعة الرابعة إلى مادولاين، لم يُتح لي أية فرصة للشك في ذلك. ومع ذلك فقد حزم حقيبة ظهره استعداداً للرحيل بعد أن زودني بتفاحة. شعرتُ بشيء من الخجل. تفاحة هنا في أعالي الجبال، كان ذلك أمراً يعتد به. وفي غضون ذلك حين ربط الحقيبة في ظهره لم أعد متهيئاً لأن أكون سلبياً تجاهه، كنا هززنا يديّ بعضنا بعضاً حين داهمه فجأة ذلك الإخلاص الذي نسيتُ التعابير الدقيقة المنمّقة عنه. الرايخ، هذا كفاني؛ كان المغزى واضحاً. لم أقل شيئاً له علاقة بالموضوع كما لم أقل أيضاً شيئاً له علاقة بموضوع آخر، بل لذت بالصمت ووقفت، يداي في جيبتي بنطالي الضيق والرمادي اللون والذي كنت أكرهه، وأجلت نظري في أرجاء البلاد التي - على حد رأيه - ستصبح عما قريب جزءاً من الرايخ. ما رأيت آنذاك: كان عبارة عن صخور، مسودة، ومحمرة جزئياً، ثلج في عز الظهيرة وحصى، سفوح مكسوة بحصى أخضر اللون، ثم مراع جبلية، خالية من الشجر، حجرية، جداول تتلألأ في أشعة الشمس، مروج، مواش تظهر من بعيد كأنها ديدان، واد مكسو بغابة وظلال غيوم؛ وبالقرب من ذلك جمع من الغربان السود. بعد فترة فحسب، بعد أن كان أدخل كاميرا في حقيبة ظهره واختفى أخيراً وهو يلوح بيده بلطف وتودد متمنياً لي من جديد خدمة طيبة

(في الجيش؟ المترجم)، اعتراني الغضب من أنني لم أوقفه في حينه عند حده ثم بدأت أبدي اهتماماً بترميزاته الخاصة وكلامه المبطن؛ وتقدمت إلى الصخور الناتئة (علني أراه، المترجم)، لكن فات الآوان: إذ لم أره من جديد إلا بعد أن دار حول حافة الصخور وأصبح بعيداً عني إلى الأسفل مسافة ثلاثين متراً بحيث لم يتسنَّ لي بعد سوى رؤية قبعته المصنوعة من اللباد. رأيته وهو يتزحلق، لكن سرعان ما نهض واقفاً؛ وصار بعد ذلك يتسلق بصورة أكثر حذراً. ناديته على الأقل أن يريني وجهه من جديد عن طريق نظرة منه إلى الأعلى؛ لكنه لم يسمع ندائي. أردت أن أقول له حبذا لو يتجنب الانهيارات الصخرية. كانت عمليات تدحرج الحصى والصخور تتوالى من حين لآخر، الأمر الذي لم يزعجه على ما يبدو؛ لقد تسلق إلى القمة. وكلما ازددت تحفظاً في إظهار غضبي عليه بسبب الشعار الذي أطلقه سابقاً، كلما ازداد غضبي الآن إلى أقصى حد من طريقة تسلق هذا المجنون. وتدحرجت الأحجار من جديد! أطلقتُ صفيراً عبر الأصابع؛ ربما اعتبره صفيراً صادراً عن حيوان المرموط الذي قد ينضم أيضاً عما قريب إلى إمبراطورية هتلر، إلا أن صاحبنا تلفت حوله. كنت أقف فوق الصخور في العراء إلى أن وصل هو إلى ثغرة جبل الكِش وبدا آنذاك إنساناً صغيراً أسود اللون في الثلج؛ ربما كان يلتقط صوراً من جديد، وعلى كل حال كانت قدماه تغوصان في الثلج جيئة وذهاباً. تناولت سترتي، استعداداً مني فجأة للنزول من أجل اللحاق به. ما الغاية من ذلك؟ بقيت فوق القمة. لكنني صعدت أراقبه إلى أن غادر منطقة الثلج ثم انتقل في ما بعد إلى المنحدر الجبلي المليء بالحصى والدبش ثم اختفى متستراً بجاكيته الجوخ في المراعي الجبلية العالية.

في ما بعد خلدت للنوم–

وحين استيقظت، أغلب الظن لأنني كنت أرتعد من البرد، اعتراني ذعر شديد من تصور: أنني رميت هذا الرجل من فوق الصخور. كنت أعرف: أنني لم أفعل ذلك. لكن في حقيقة الأمر لم لا؟ وأيضاً لم يكن ذلك حلماً؛ فقد

استيقظت وفي ذهني فقط الفكرة الحية: كانت تكفي دفعة باليد حين انحنى لكي يتناول حقيبة ظهره.

وأكلت آنذاك تفاحته.

لقد سرني بالطبع أنني لم أفعل ذلك. ولو فعلت لكنت ارتكبت جريمة قتل. لم يسبق لي أن تحدثت مع أي إنسان حول هذا الموضوع، أبدا، حتى ولا على انفراد، مع أنني لم أفعل ذلك... ما كنت أراه: منطقة واسعة مقفرة من الناس. بضعة غربان سود. لم يكن ثمة شاهد، لا أحد. ريح ولا أذن. لو كنت في بلدة سادمان لتسللت عند إجراء التفقد المسائي إلى النسق الخلفي وأدرت رأسي إلى الجهة اليمنى وحددت الوجهة ووضعت يدي على درزة البنطال، في وضع الاستعداد، مشدود الجسد ومؤدبا، ولاحتسيت بعد ذلك الحين تحدثت مع مجرمين كثيرين، سواء في عربة قطار مخصصة للطعام أو أثناء استراحة حفلة موسيقية أو في أية أمكنة أخرى، لم يبد عليهم ما يثير الارتياب... بعد أن أكلت التفاحة تقدمت مرة أخرى إلى الصفيحة الصخرية الناتئة لكي أرى إلى أي عمق سقط صاحبنا. ثلوج مطلة، متلألئة –خشنة، لا شيء غير ذلك. والغربان، السوداء، كانت تطير فوق المجرى الجليدي الصغير بهدوء وصمت، سوداء وقريبة. وثمة جدار جبلي شمالي صغير، يوشك انتصابه أن يكون عمودياً. نظرتُ إلى ساعتي؛ حان الوقت للنزول. فتناولت سترتي المغبرة وحزامي ومعولي. كان الثلج آنذاك طرياً نوعاً ما واعترفُ بأن حجراً تدحرج ذات مرة إلى أسفل الوادي تحت قدمي أنا أيضاً. وحين أتيت إلى ثغرة جبل الكِش كنت في حقيقة الأمر نسيت الرجل. وبصرف النظر عن أن النزول في الثلج الطري كان يستدعي من حين لآخر كل انتباهي، فإنه غني عن القول أن ثمة هموماً فعلية كانت تشغل بالي والأفضل أن تستحوذ على تفكيري أكثر من غيرها، بدءاً من منغصات الرقيب الذي كان يريد أن يرسلني من جديد إلى الحراسة، لكن بالدرجة الأولى بدءاً من مهنتي التي ظلت في مسقط رأسي بدون ممارسة ومتابعة؛ لم تكن مهنتي في الأصل

جندياً في الجيش. وإبان وقت الظهيرة في ثغرة جبل الكِش، حين رأيت آثار أقدام الرجل طولاً وعرضاً تذكرتُ قوله المؤكد الذي تفوه به هناك في الأعالي حيث بقي الآن صليب القمة وحيداً، تذكرت فحسب أنه كان بإمكاني أن أفعل به شيئاً لكنني لم أفعل. ومع ذلك كان يهمني أن أعرف مكان سقوطه تقريباً. بدافع الفضول فحسب. سرتُ وقدماي تغوصان في الثلج، مع أنني كنت أمشي في المجرى الجليدي الصغير، باتجاه الشمال تحت قمة جبل الكِش. ليس إلى مكان بعيد؛ لكي أرى فحسب؛ بضع خطوات فحسب. كان الثلج في ذلك المكان طرياً إلى درجة أنني كنت أغوص فيه حتى الركبة؛ تصببتُ عرقاً. ليتني كنت أملك آنذاك أدوات للتزلج. كنت ملماً بالسير علة المجرى الجليدي. لابد وأن يكون سيراً رائعاً بدون أمتعة قتالية وبندقية على الظهر. إلى اليمين باتجاه سيرتغ وإلى اليسار باتجاه بيرغُين؛ وهكذا لم استطع قطع مسافة طويلة بغوصي ذاك؛ ثم إن وقت عودتي كان قد حان. الساعة الثالثة! وفي هذا الوقت نزل الرجل إلى مسافة بعيدة في الوادي، في مرمى النظر ظهرت منطقة مادولاين في الجانب الآخر من المنطقة الفاصلة بين المجريين؛ إذا سار صاحبنا بقدر شبيه بسرعته في التحدث فقد اقترب الآن من أولى أشجار الصنوبر المنتشرة هناك. في حين كنت أنا غائصاً في الثلج حتى ركبتي! لكنني أقف آنذاك إلى حد ما تحت الجدار الصغير، وبما أنني لم أكن أعرف بما سأشعر لدى رؤية جمجمة مهشمة فقد فكرت موضوعياً ما إذا كان الرجل قد سقط فعلاً من هذا المنحدر الجبلي. تسلقت بضعة أمتار إلى الأعلى علني أستطيع رؤية الجدار بصورة أفضل وبالتالي لكي أستطيع الوقوف بصورة أفضل؛ ثمة تصدع في الأرض، من تحتي، جعلني في خشية. صرتُ ألهث. وجال في خاطري تصور إمكان أن يكون الرجل قد ظل معلقاً في الصخور وأن آلة التصوير التي بحوزته ربما سقطت على الثلج، وربما أيضاً ليس ثمة شيء من هذا القبيل. وما تصورت أنه جدار لم يكن في حقيقة الأمر لدى الرؤية عن كثب أي جدار؛ ربما بقي الرجل معلقاً في الممر الذي هناك في الأعلى. لم أكن أعرف لماذا كنت منشغلاً بما لم يحدث. هنا، حيث

لم يكن ثمة رياح في القمة، ساد في المكان صمت رهيب فاقتصر الأمر على تنقيط خافت لماء ذائبة حين سطعت الآن أشعة الشمس في أرجاء الممر في أثناء فترة بعد الظهر. كان الجو حاراً وغالباً ما شتمتُ السترة العسكرية التي لم تكن عملية ولم تكن مريحة. أما الصخور فقد بدت الآن في أشعة فترة بعد الظهر كأحجار الكهرمان الثمينة وبدت السماء فوقها بنفسجية اللون، بينما بدى المجرى الجليدي الصغير مائلاً إلى الزرقة، شقوقه على الأقل، وكان الثلج أقرب إلى لون الحليب لكن آثار أقدامي العميقة فيه بدت بلون الزجاج الأزرق. كل شيء بدون حراك. ما عدا الغربان، السوداء، فقد كانت تطير في الجو على ارتفاع شاهق من هنا كانت رؤية صليب القمة أمراً متعذراً. عدت إلى ثغرة جبل -الكِش. وهناك خاب أملي في أن أتمكن من التزلج في بعض الأماكن؛ حاولت ذلك المرة تلو المرة، لكن الثلج كان موحلاً إلى درجة تعذرت معها عملية التزلج. اقتفيت آثار الرجل حتى نهاية حقل الثلج، لكن وأيضاً في الأنقاض الإردوازية كان لا يزال ممكناً التعرف على آثار قدميه وبالتالي تزحلق قدميه وأخرى غيرها، دعسات تشبه الختام وتدل على انه كان يرتدي حذاء من النوع الجيد؛ ولم تختف آثار قدميه اختفاء تاماً إلا عند وصولي إلى منطقة المراعي.

كان ذلك كل ما في الأمر.

في قرية سامادن حين نودي إلى التفقد المسائي، انتظمتُ في الصف الأخير، لكن دون جدوى؛ فقد أُمرت بتأدية خدمة الحراسة ولم أحصل على شيء من البيرة ولا من النوم وعانيت معاناة شديدة من حروقات في جسدي جراء تعرضي لأشعة الشمس وعانيت بالتالي من حمى شديدة. ومع أنني كنت اقتنعت تدريجياً بان ذلك الرجل الذي قابلته في منطقة جبل الكِش لم يكن سائحاً بريئاً، إلا أنني لم أرو عنه لأحد أي شيء. كان موقع حراستي في ساحة القرية وبذلك انحصر عملي، وبندقيتي في ذراعي، بمراقبة مرور قبعة من اللباد خضراء اللون في ساحة القرية.

في ذلك خاب بالطبع أملي الذي كان من نسج الخيال فحسب. وبقيت يقظاناً دون جدوى، عشر خطوات ذهاباً. آنذاك، في عام ١٩٤٢، كانت البلاد في حقيقة الأمر خالية من السياح. كان بإمكاني أن أتعرف عليه، لكنه لم يمر عبر قرية سامادن-

دعنا ننسَ ما حدث!

تُرى ما الذي حدث؟

في السنين التالية، نعرف ذلك، حدثت أمور كثيرة. واقعية. لم أعد بذاكرتي إلى ذلك أبداً، ولم يكن ثمة وقت لأمور تافهة، ناهيك عن أضغاث أحلام وجرائم قتل متخيلة في حين كان يحدث يومياً، كما تناهى إلى علمي في الحال، ما يكفي من الجرائم الأخرى. إذن لم أعد أفكر بذلك ولم أرو البتة قصة ذلك الأحد المقيت التي جرت فوق قمة جبل الكِش؛ فقد كانت قصة مثيرة للسخرية. وبعد ذلك لم أكرر مطلقاً ذهابي إلى جبل الكِش. ومع ذلك فأنني، كما سيتبين في ما بعد، لم أنس ذلك اليوم الذي لم أقم فيه بأي عمل في حين نسيت بالفعل أشياء كثيرة قمت فيها فعلاً بأعمال ينبغي ألاّ تُنسى. هذا أمر من الغرابة بمكان. يبدو أن تلك الأعمال التي تُمارس فعلاً هي بالدرجة الأولى التي تغيب عن ذاكرتنا بمنتهى السهولة؛ العالم فحسب، طالما أنه لا يعرف شيئاً عن لا -أعمالي، هو الذي يتذكر بشغف أعمالي التي لا تسبب لي في حقيقة الأمر سوى الملل وهذا الملل ناجم عن الإغراء الذي يدفع المرء إلى المغالاة والمبالغة في بعض أعماله الخيرة أو الشريرة. لم أعد أطيق سماع أنني قمت بهذا العمل أو ذاك، معيباً كان أو مشرّفاً. على أن حياتي، باعتبار أنها مستقبل فحسب يستعصي على النسيان ولو نقلته إلى الماضي على اعتبار أنه اختراع أو أضغاث أحلام، لا يلعب الملل فيها دوراً يعتد به - أضغاث أحلام: لو أنني قذفت بالرجل من فوق الثلوج المنحدرة... لم أفعل ذلك.

وسوف لن أستدعى عن طريق أحد المحضرين.

دعنا ننسَ ما حدث!

بعد ذلك بفترة طويلة فحسب، طرقت الحادثة فجأة مخيلتي وأنا أقرأ إحدى الصحف. عند ذلك قرأت في ما قرأت أن النية تتجه إلى إقامة معسكر تجميع ألماني بالقرب من بلدة كلوستارس في كانتون غراوبُيندون؛ كانت المخططات جاهزة وأغلب الظن أن مخططات كهذه لم تكن لتعد دون دراسة ميدانية جذرية لموقع إقامة المعسكر. تُرى من استطلع ذلك الموقع القريب من بلدة كلوستارس؟ ربما كان ذلك هو الرجل الذي قام في ذلك الأحد من عام ١٩٤٢ أيضاً بنزهة إلى قمة جبل الكِش لكي يتمتع هناك بالمناظر الطبيعية وبالتالي الرجل الذي لم أقذف به من فوق الثلوج المنحدرة-

لا أعرف ذلك.

وسوف لن أعرف أبداً من كان ذلك الرجل.

ومرة أخرى كان لابد لي من التفكير بهذا الأمر حين عاد بورّي، الذي كان آنذاك طبيباً شاباً، من اليونان حيث كان يعمل لصالح الصليب الأحمر الدولي وروى لنا كل ما شاهد وعاش هناك من أحداث، من ذلك مثلاً: كيف أمسك أحد الجنود بصبي يوناني جائع، كان حاول في وسط مدينة أثينا سرقة رغيف من الخبز من سيارة تابعة للجيش الوطني، ثم أطلق عليه الرصاص في وسط الشارع فأرداه قتيلاً. بالطبع رأى بورّي أيضاً أحداثاً أخرى؛ إذ لم يُقدم كل جندي ببساطة على قتل طفل يوناني أو طفل بولوني رمياً بالرصاص. أعرف ذلك. واكتفيت بالسؤال عن مظهر ذلك الجندي المذكور في مدينة أثينا، سألت كما لو أنني أستطيع التعرف عليه من جديد-

ما الغاية من ذلك!

تجاذبنا أطراف الحديث كما يفعل كل الناس حين يتواجدون فوق قمة جبل، نوعاً ما بروح رفاقية، رجلان كانا الوحيدين على امتداد واتساع ذلك

المكان، تحادثا باقتضاب بروح رفاقية إذ لم تمكن رياح القمة الدائمة من قول جمل طويلة. بدون شكليات، ذلك أمر بديهي، ومصافحة دون أن يقدم أحدنا نفسه للآخر. كلانا وصل إلى القمة، وذلك يكفي، كلانا تمتع بنفس الإطلالة البعيدة. مصافحة أو بدون مصافحة أيضاً، لم أعد متأكداً من ذلك؛ ربما يداي في جيبتي بنطالي. في ما بعد أكلت تفاحته، لا شيء أكثر، ثم جلت نظري في أسفل المنحدر الثلجي. أنني أعرف بالتأكيد ما لم أفعل. ربما كان رجلاً جيداً وحتى طيباً، وما فتئت أكرر على مسامعي هذا القول لكي ارتاح من جراء أنني لم أقدم على رميه من فوق المنحدر الثلجي. ومن الجائز أن أكون التقيت به مرة أخرى دون أن أعرف، بعد الحرب، بلباس مختلف وإلى درجة تعذر معها بكل نية حسنة أن يتعرف أحدنا على الآخر من جديد، وهو واحد من كثيرين ممن يحظون بتقديري ولا أريد أن أفقدهم. لكنني أقع أحياناً في حيرة وتردد. فجأة. لقد مضى على الأمر عشرون عاماً. أعرف أنها مسألة مثيرة للضحك والسخرية. المثير للضحك والسخرية هو ألاَّ تستطيع نسيان عمل لم تقم به أصلاً. لم أخبر أيضاً عن ذلك. لا بل أحياناً ما أنسى ذلك الرجل من جديد نسياناً تاماً...

لكن صوته يبقى في أذني.

أفرغت كأسي.

حان الوقت لدفع الحساب.

قلت: «أجل، الروس!»

وتبين لي عندها أن محدثي، صاحب البار، انشغل في غضون ذلك بالتفكير بأمور أخرى... فقد صُرف النظر عن قصته المتعلقة بالمنجم الروسي والمرتبطة بتماس مع قصتي التي لم يكتب لها الحدوث.

سألني: «هل لك بكأس آخر من الويسكي، أيها السيد الدكتور؟»

فسألته بدوري حين كان يفرغ منفضة السجاير ويمسح بخرقة مخصصة لذلك صفيح الزنك الذي كنت على ما يبدو وسخته برماد سيجارتي، سألته: «هل كنت ذات مرة فوق قمة جبل الكِش؟»

قال: «كلا، سألتني عن ذلك من قبل».

أفرطتُ في الشرب... السيدة التي دخلت في غضون ذلك إلى البار وذكرتني نظرتها الباحثة بأنني أنتظر أحداً منذ ساعة ونصف، هي على ما فهمت زوجة هذا الواحد الذي اضطر –على حد قولها– إلى السفر وهي آتية الآن لكي تعتذر عنه، بينما تزحلقت أنا عن مقعدي الخشبي لكي أحمل عنها معطفها المبلل. لكي أكون لبقاً. لكي أظهر أنني أقبل الاعتذار. أمر بديهي. في حقيقة الأمر كان يجب علي أنا أن أعتذر لها؛ فقد نسيت تماماً أن انتظر. ولكي أكون لبقاً.

«هل تريدين تناول شيء من المشروب؟»

كنت مرتبكاً من جراء أنني لم يسبق لي من قبل إطلاقاً إن رأيت زوجها المقيم في لندن في الوقت الذي كان ينبغي علي أن انتظره والآن أرى زوجته بدلاً منه، ارتبكت قليلاً.

وسألت: «ألا يزال المطر يهطل؟»

في حقيقة الأمر كنت أردت أن أدفع الحساب وانصرف.

قالت لي وهي تجلس على المقعد الخشبي بإزاء البار: «لا أريد أن أشغلك عن عملك، لا أريد فعلاً أن أشغلك–»

سألتها: «ماذا تريدين أن تشربي؟»

قالت: «يا إلهي، ما أغزر هذا المطر!»

قبل كل شيء يجب أن ترتب شعرها، وطالما أنها لاحظت على ما يبدو أنني أفرطت في الشرب فقد طلبت لنفسها كأساً من الجنجرال. تُرى ماذا

ينبغي علي الآن أن أتحدث؟ لقد تراءى إلي في الحال أنها تعمل ممثلة، لا أعرف علامَ بنيت تصوري هذا. رأيت هذه المرأة لأول مرة وأظن أيضاً لأخر مرة. ولكي لا أظهر بمظهر يخلو من اللباقة والتهذيب فأنني لم أسألها عن مهنتها؛ حتى ربما أنها ممثلة مشهورة وسؤالي لن يتعدى في هذه الحالة كونه محض إزعاج. وانشغلت آنذاك بقضم ما استطعت الحصول عليه من الكعك يسرة ويمنة وأنا أصغي إلى تبريرها سفر زوجها، سفوبودا، ثم قدمت إليها في غضون ذلك النار لإشعال سيجارتها واعتذرت منها مرة أخرى بملامح صامتة. كانت تدخن بوتيرة متسرعة حين تحكي عن زوجها. وكان شعرها المبتل بالمطر يلمع بالسواد. عقدتُ العزم على ألاّ أقع في غرامها. عيناها زرقاوان وكبيرتان. في بعض الأحيان لابد لي من أن أقول شيئاً لكي لا أظهر مرتبكاً أو متعنتاً. فقد كان من شأن ترددي في أن اعتبرها ممثلة أم لا أن أدى إلى اضطرابي أكثر فأكثر، ذلك في حين كانت هي آنذاك -لا أعرف لماذا- تتحدث عن بلاد البيرو. وسألت نفسي أي دور قد أعطي هذه المرأة. على أن سكوتي المغلف بنظري إليها ولد لديها على ما يبدو شعوراً بأن كلامها في متناول الفهم؛ وعلى كل حال أصبحت هي أيضاً مرتبكة نوعاً ما. وأخذت تشرب كأسها من الجنجرال كما لو أنها غدت فجأة في عجلة من أمرها. وهي لا تريد ان تشغل السيد الغريب. سألتها عن بلاد البيرو، لكنها -على حد قولها- لا تريد فعلاً أن تشغل السيد الغريب وقد أتت لكي تعتذر لزوجها سفوبودا وهي تريد أن تهم بدفع حسابها، لكنني لم أسمح بذلك. قلت لها معاذ اللّه! وبما أن بي بي Pepe، صاحب البار، تظاهر بأنه أطرش ووقف في الجهة الخلفية فإن دفع الحساب لم يتم وكان علينا إذن أن نتابع الدردشة مع بعضنا بعضاً. تُرى حول ماذا؟ سألتها عن زوجها الذي كان من المفترض أن أتعرف عليه. زوجها كما سبق أن قيل، يقيم في لندن. في تلك اللحظة صحوت فجأة كما لو أنني أُنزرت بخطر، إلا أن السيد الغريب (الكامن في أعماقي، المترجم) الذي لم تشأ هي أن تشغله كان لا يزال لاحقاً كما سابقاً

تحت تأثير الكحول، لابأس، على أي حال كان سكراناً إلى درجة كانت تميزني عنه. قال: أن البيرو هي بلاد أحلامه! وبينما كنت أجد الكلام الذي قاله سخيفاً أصغت السيدة إليه باهتمام، لقد أعجبها حديثه على ما يبدو فتجاذبا أطراف الحديث عن بلاد البيرو التي لا اعرفها. قالت: أنها سافرت إلى البيرو مع زوجها وتجولت في أرجاء تلك البلاد. لابد لي من الاعتراف بأمر هام وهو: ما توجد امرأة قد أهتم بحديثها إذا لم تهمني هي ذاتها إلى درجة معينة بصفتها امرأة. ولذلك تركزت نظراتي على فمها. وحين سمعت بصورة عرضية انها وفية، لم أكن أعلم لماذا قالت ذلك؛ لم أصغ لما قالت. وجهها ينبض حيوية وجمالاً حين تتحدث، صرت أتمعن فيها بصمت (في حين يتحدث السيد الغريب في أعماقي) وأنا أبتسم إلى أن يحمر وجهها خجلاً فتقذف بشعرها إلى نقرتها وتنفض بسخاء وإصرار الرماد من سيجارتها حيث لا رماد فيها ثم تتظاهر بأنها تحل، وهي تغمز بعينيها لأن دخان السيجارة يتصاعد من وجهها، رموز دعاية معلقة فوق البار: «جوني ووكر حصل على أعلى الجوائز في العالم من حيث النوعية»، وأيضاً المنظر الجانبي لوجهها جديراً جداً بالمشاهدة ويداها ليستا غريبتين وحتى شعرها، هذه المادة الأعجب لدى إنسان، لا يقع مع النفس موقعاً غريباً... نظرت السيدة إلى ساعتها الصغيرة.

ثم قالت: «يا إلهي، صارت الساعة الثالثة من بعد الظهر!»

لكن كان في تصرفي مزيد من الوقت.

وهي أيضاً كان في تصرفها في حقيقة الأمر مزيد من الوقت.

وهنا سألتها: «ألا تريدين فعلاً شرب كأس من الويسكي؟» وبما أن بي بي، شأنه شأن كل أصحاب البارات، لا تنقصه المهارة في معرفة الناس فقد تناول كأساً جديداً وأعده للصب بحيث لم يعد لي مفر من أن أقول: إذن صب لنا كأسين!»

وسألت نفسي، ماذا بعد-

الساعة الثالثة بعد الظهر وقت مقيت، إنه الوقت الذي لا تدرج فيه ولا انحدار، وقت مسطح ولا جدوى منه؛ تذكرت مرحلة الطفولة البعيدة حين كنت استلقي على فراش المرض وتكون الساعة الثالثة بعد الظهر، كتب للأطفال مزدانة بالصور، هريس التفاح، ملل أزلي... لمجرد أن أقول شيئاً سألتها ما إذا أنجبت أطفالاً، الأمر الذي لم يكن يعنيني في الحقيقة. وأخذنا ننظر إلى صاحب البار وهو يقوم بعمله: قطعة من الثلج، ويسكي، صودا... والسيد الغريب، حين لمس في ما بعد (في حوالي الساعة الثالثة والنصف) ذراعها العاري، بدا محرجاً لا منها بل مني أنا. لم تنظر إلي باستهزاء كما توقعت ولم تقل: كيف تجرؤ على ما تفعل، أيها السيد؟ كما أنها لم تسحب أيضاً ذراعها الدافئ من تحت يدي وبما أنها إضافة إلى ذلك قد لاذت بالصمت فلم يبق إذن إلا أن تتحمل حركة السيد الغريب وتصبر عليها. ولشد ما أسفت بكل صدق على أنني في تلك اللحظة لم أحس بشيء. لا بل أكثر من ذلك: فقد اعتراني الذهول والهلع. وحين أبعد السيد الغريب يده أخيراً (عن ذراع السيدة، المترجم) لأنني كنت بحاجة إلى تلك اليد لكي أتناول بها كأسي من الويسكي فأشرب منها قبل أن تصبح ساخنة، كانت السيدة لاحظت على ما أظن ذهولي الخفي وأساءت فهمه. وعلى أي حال تنهدت وهي تهم بتناول كأسها من الويسكي تنهيدة عميقة كما لو أن مكروهاً ألم بها وأزاحت شعرها عن جبينها ثم نظرت إلي-إلي أنا!- بعينيها الزرقاوين الواسعتين دون أن تدرك أنني كنت أرغب في أن أكون لوحدي. أمعنًا في التدخين، وما زال المطر ينهمر في الخارج، وأمعنًا في التدخين. وأحسست بأنني أستسلم الآن استسلاماً تاماً إلى الكآبة التي تلائم الرجال إلى حد كبير وتحول دون التمكن من مقاومتهم. لا جدوى الآن من أن أراقب السيد الغريب مراقبة دقيقة. وكما كان متوقعاً (أنا أعرفه) فإنه صار يتحدث بصراحة لعوبة وأكثر حميمية مما كنت أرغب وذلك مباشرة عن مسائل حياتية هامة. على سبيل المثال: هل ينبغي على المرأة التي تعمل أن تتجنب أطفالاً؟ ماذا يُفهم من تعبير الحياة الزوجية؟ سبرتُ غور اللعبة. وهو التلفظ بعبارات قبل أن يكون لهذه العبارات معنى معايشة

شخصية، تلك فحسب هي المسألة، عبارات مثل الحـب، الرجـل والمـرأة، الجنس، الصداقة، السرير والمهنة، الإخلاص، الغيرة، النوع والشخص وهلم جرا وهلم جرا. وبما أن آرائي الخاصة، الممددة هكذا في ما يصلح لكل شيء بوجه عام، توقعني فريسة لملل قاتل فإن السيد الغريب كـان يتبّلهـا بأمثلـة صغيرة من نسج خياله. كان يقول على سبيل المثال: لنفرض جدلاً أن اثنـين مثلي ومثلك يعانقان بعضهما بعضاً. أو: يتيسر لنا، لا يسفر ذلك عن قـصة، لنفرض جدلاً، نتمرد على كل تكرار. ثم يخطو خطوة أبعد لكي يزيـد مـن إيضاح المثال من حيث المبدأ والأساس؛ فيلجأ إلى اختلاق حوارات تمكن من التخاطب بالصيغة الحميمية، هكذا يريد المثال وهي تفهم سـلفاً أن الغريـب يقصد إيراد مثال فحسب حين يقول: نحن. أو: أنتِ وأنا. أو! كنت تعرفين أننا سنفترق عن بعضنا بعضاً وأنا عرفت ذلك. كانت تدخن في تلك الأثناء وكانت تدرك أنه يتكلم عبارات بين مزدوجين وكانت تدخن على غير هدى، وإذا همَّ مرة أخرى بتناول كأسي لكي يبين أننا متواجدون في هذا البار المقفر لا فـي مكان غيره، عاد إلى التحدث من جديد بصيغة التكلف: حـضرتكِ. وتنتهـي اللعبة. وتصمت السيدة بعد ذلك لفترة طويلة ويتصاعد الدخان من فمها نصف المفتوح شبيهاً بحجاب مائل إلى الزرقة يغطي وجهها الذي كان يبدي تفهمـاً لأرائه وبالتالي لما لها من صلاحية مبدأية عامة. لم يقع أحد في غرام الآخر، كلا، هذا أمر واضح. لكن اللعبة التي مورست باستخدام صـيغة التخاطـب الحميمية أسفرت عن تجربة كان من شأنها تغيير الحديث إلى حد ما، الأمـر الذي تعذر إلغاؤه بالعودة مرة أخرى إلى صيغة التكلف. من حين لآخر كنت انظر إلى الساعة إنذاراً مني إلى السيد الغريب، لكن عبثاً. غيـر أن صـيغة التكلف في المخاطبة، مع إصرار الناس على الاسـتمرار فـي اسـتخدامها، اكتست حلة سحرية كان من شأنها أن تبدد الملل. وهكذا تحدثت آنذاك عـن مواضيع عامة وبريئة، عن أحداث عالمية، على شكل حوار ذاتي. من حـين لآخر، كما لو أن الدخان اضطرها إلى ذلك، كانت تطبـق جفنيهـا فتـصغر عيناها كعينيّ امرأة في حالة عناق، وقد كان أمراً طبيعياً لو أن السيد الغريب

- سواء على سبيل المزاح أو بنظرة ولهانة صامتة- لمس مرة أخرى ذراعها العاري، يدها، يدها الملقية مع السيجارة على حافة منفضة السجاير، كتفها الأكثر بعداً عن يده، نقرتها. لكنه لم يفعل.

ربما كان وارداً في الحسبان أن يحاول ذلك بصورة لا إرادية، لو أنه تحرر من رقابتي...

في تلك اللحظة أردت بالفعل أن أدفع الحساب وانصرف إلى حال سبيلي.

فناديت صاحب البار: «بي بي؟»

كان صاحب البار، محاولة منه لكي يعاملنا بصفتنا ثنائياً متكاملاً، أوهمنا بأن تواجده هناك بمحاذاة النافذة أمر ضروري لابد منه وتصرف كما لو أنه لم يسبق له أن رأى من قبل حركة السير في المدينة أثناء هطول المطر ثم تظاهر بأنه أطرش كلما كنت أطرق على صفيح الزنك بقطعة نقود. وفجأة اعتراني من جديد ملل شديد. ولذلك لم أجرؤ على الطرق إلا بصورة منخفضة جداً، بدون إلحاح.

قالت السيدة: «هل لابد لك من أن تتصرف؟»

فاعترفت لها قائلاً: «للأسف».

قالت:«وأنا أيضاً».

ومرة أخرى طرقت بقطعة النقود على صفيح الزنك.

لا أعرف لماذا تحث السيد الغريب، الذي كان بالنسبة إلي أكثر إملالاً من السيدة طالما أنني لم أكن أسمع أحاديثه لأول مرة، بشكل مفاجئ عن جاذبية وظرافة الرجال الشاذين جنسياً؛ لم أصغ للحديث بدقة لأنني كنت آنذاك منهمكاً بلفت انتباه صاحب البار المنشغل عنا - أما هي فقد وافقته على رأيه، بكل تأكيد، في ما تعلق بظرافة أولئك الرجال الذين يحبون التمويه والتنكر (تذكرتُ الآن: لقد تحدثنا عن ممثل محدد ثم انتقلنا بعد ذلك إلى الحديث عن الممثلين بوجه عام) ويتميزون بإحساس خاص إزاء الألبسة النسائية

والعطورات. كانت السيدة ترتدي تايوراً أصفر اللون. واعترف لهـا السيد الغريب بأنه معجب بتايورها، لكنه أضاف: لو أن إعجابه به أقل مما هو عليه فليس لديه أية فكرة عن كيفية جعله محط إعجاب كبير. ثم أقسم على ذلـك. لكن بالمقابل قد يمسك رجل من ذلك الصنف، على حد رأي السيد الغريـب، على الفور في مثل حالة كهذه بقية السيدة – وهنا يقوم السيد الغريب بإيضاح ذلك مقلداً بمثال عملي تصرف الرجل الشاذ جنسياً– ويغير في وضع القبة ثم يؤدي حركات ساحرة. قلده السيد الغريب في ما قد يصدر عنه من تصرفات تمليها راهنة اللحظة. على أن دهشة السيدة من تصرفه لم تزدها إلا جمـالاً، رأيت ذلك بأم عيني، وبشكل مختلف عما كان عليه الحال حتى الآن...

الآن دفعت الحساب.

لا أريد قصة حب.

أريد أن أعمل.

كانت وضعت حقيبتها السوداء الملائمة جداً لتايورها الأصفر، سـوداء كشعرها، تحت ذراعها حين كنت أدخل الفراطة من نقودي في جيبـي، ثـم عبرت عن سرورها بالتعرف علي. إثر ذلك أمسكت بمعطفها لكي أسـاعدها في ارتدائه. كان وارداً في الحسبان تناولُ عشاء مشترك، خاصة وأن زوجها كان على سفر؛ لكنني صرفت عن دعوتها حين كانت تلف شالها حول رقبتها. وأنا أيضاً عبرت لها عن سروري بمعرفتها في حين كنت لأول مرة، قبل أن تدلف في معطفها، أعاين جسدها بكامله وعلى أمل أن تكون هـذه المعاينـة للمرة الأخيرة. ليس أمراً ضرورياً، على ما أعتقد، أن تتحقق معظم قـصص الحب. سألتها كما لو أنني على دراية بعادتها في النسيان: ألم تنسي شيئاً من حاجياتك؟ وقد سرت لهذا السؤال. لا أعرف هل كنت أنا أم كان السيد الغريب هو الذي داعب في تلك اللحظة جبينها بيده –فارتسمت فـي عينيهـا نظـرة حميمية حالمة– على سبيل المزاح، عمداً، ربما استهزاء، للتوكيد بطريقة ودية على ترتيبات القدر؛ على أي حال ذلك ما حدث. على أن وداعنا خارج البار

في أثناء انهمار المطر، حين توقفت أخيراً إحدى سيارات الأجرة، تم بصورة سريعة ومتكلفة. وحين جلست السيدة في مكان جاف لا مطر فيه، مكتفية وبشكل مزر بالانهماك بحقيبتها السوداء، اعتراني ما يسميه الناس شعوراً. فلاحظت السيدة علي ذلك، على ما أظن، وبعد أن انطلق السائق الفظ -فقط لأن توقفه في ذلك المكان لم يكن مسموحاً- بالسيارة التي تقل السيدة في المطر في حين كنت انتظر عبثاً أن تلوح لي بمنديلها، اعتراني هلع مشل من أن تعسفي قد انتهى إلى غير رجعة...

وضعت قبعتي على رأسي.

واستدرت على كعب حذائي -لا أريد أن أكون ذلك الأنا الذي يعيش قصصي، قصصاً أستطيع أن أتصور حدوثها- استدرت على كعب حذائي لكي انفصل بما أمكن من السرعة عن السيد الغريب (القابع في أعماقي، المترجم).

استدرت على كعب حذائي -كانت سيارة الأجرة التي تقل السيدة، وهي تعبر حوضاً من مياه المطر المتطايرة في كل الاتجاهات حين أدرت ظهري مرة أخرى، كغيرها من سيارات الأجرة الأخرى فلم يعد ثمة ما يميزها عن غيرها، حين توقفتْ قبل تقاطع أحد الشوارع، فجأة ظهرت في الشارع كثرة من سيارات الأجرة، كل واحدة شبيهة بالأخرى، وتطايرت المياه من تحت عجلاتها...

سرت بخطىً متئدة إلى الفندق.

وحين استلقيت بكامل ثيابي على السرير وأردت الخلود إلى النوم قض مضجعي هدير مثقب يعمل على الهواء المضغوط؛ ولم يُجدِ نفعاً إغلاق النوافذ حتى ولا إنزال مصاريعها؛ كان زجاج النوافذ يهتز جراء الهدير. لم أكن أعرف ما العمل. وإذا ما توقف المثقب من حين لآخر عن العمل تغير فقط صوت الهدير؛ عند ذلك يهدر الكومبريسور. لم أعرف بالفعل ما الذي يمكن فعله في هذه المدينة، فما كان مني عندئذ إلا أن أخذت -كما لو على سبيل المزاح- أدور قرص الهاتف على رقم السيدة. كانت في المنزل. وكما لو على سبيل المزاح: ما كدت أسمع صوتها حتى أعطيت السماعة على نحو

ما إلى السيد الغريب (القابع في أعماقي، المترجم). تفضل! لم يكن عندي البتة ما أقول، وكذلك كانت هي أيضاً. ماذا إذن؟ كنت مرحاً. لكن ضحكها (دون أن أرى وجهها) كان مملاً بالنسبة إلي. كنت طيلة دردشة مجهدة مستلقياً على سريري وأخذت أنظر إلى الساق اليسرى كيف كانت تتأرجح جيئة وذهاباً كالدمية في مسرح العرائس وانظر أيضاً إلى جوارب السيد الغريب الزرقاء اللون حيث استطعت أن أحرك أصابع قدميه كيفما أشاء، الإصبع الكبيرة استطعت تحريكها حتى بشكل منفرد؛ وكنت أسمع، ليس من غير شماتة، إنها مشغولة في مساء هذا اليوم وعليها أن تذهب إلى الأوبرا لحضور عرض زائر من ضمن عروض أخرى، على ما أظن، على الأقل هكذا فهمتُ من حديثها. بالمقابل كانت بطاقة زوجها إلى الأوبرا حرة لأنه اضطر بكل أسف إلى السفر، أعرف ذلك. كان هدير المثقب المقيت قد توقف فجأة. على أن صوتها، الذي أصبح بعدئذ أكثر انخفاضاً طالما أن الهدوء كان خيم على المدينة التي بيني وبينها -بالمناسبة لم يكن ذلك الصوت ينم بالضرورة عن أنها امرأة جميلة- حين سألني متردداً بعض الشيء عما سأفعل في مساء ذلك اليوم قلتُ بلهجة المعترف أنني لا أحب الأوبرا. ومع ذلك فقد تابع السيد الغريب الدردشة معها. لم أشعر برغبة في الالتقاء بها من جديد. وحين أرجعت سماعة الهاتف إلى مكانها، كان ثمة أمر مضحك -كما يحدث في معظم الأحيان بعد القيام بعمل ما:- فالاتفاق الغامض الذي كان عقده السيد الغريب معها لم أحس بأنه ملزم بالنسبة إلي؛ مقيت لكن ليس ملزماً. هل كان ذلك ضرورياً؟ هكذا فكرت بعد أن أخرجت بدلتي القاتمة اللون من الحقيبة ووضعتها على علاقة ثم استلقيت مجدداً على السرير لكي أدخن، وفجأة صحوت... رأيت السيد الغريب ببدلتي القاتمة اللون، المخصصة للسهرات، جالساً في مقعد زوجها ورأيت نفسي أنني أنا زوجها المسافر، الذي لا يعرف ما سيتصرف في مدينة غريبة طالما أن المطر ينهمر والذي يستلقي بقميصه وبنطاله في غرفة أحد الفنادق التي لا تختلف عن هذه الغرفة ويدخن-

حاولت أن أقرأ أي شيء..

(أحياناً يبدو لي أنا أيضاً أن أي كتاب لا يتناول مسألة منع نشوب الحرب أو إقامة مجتمع أفضل وهلم جرا هو كتاب سخيف، لا جدوى منه، غير مسؤول، ممل، غير جدير بالقراءة، محرَّم. وليس الوقت ملائماً لقصص شخصية. ومع ذلك فإن حياة الإنسان تتحقق أو تفشل في أوساط الأنا الفرد؛ لا في أمكنة أخرى غير ذلك).

لم أعرف ببساطة ماذا أفعل.

بعيد الساعة السادسة (لم أشأ أن أتلقى اتصالها الهاتفي الموعود بين السادسة والسابعة) غادرت الفندق لكي أذهب إلى السينما وبالتالي لكي أتخلص من إزعاج المثقب الذي عاد إلى العمل من جديد. كان المطر توقف عن الهطل، وعلى الإسفلت المبتل انعكست زرقة السماء وملامح الربيع. وبدون معطف، بعد أن كنت غيرت ملابسي من أجل الأوبرا أي بعد أن كنت غيرت ملابسي من أجل الأوبرا أي بعد أن كنت ارتديت بدلة السهرة الفاتحة اللون ويداي في جيبتي بنطالي، دخلت إلى فيلم سينمائي مباشرة بعد بدئه بفترة طويلة بحيث أنني لم أفهم لماذا كان يطلق فيه الرصاص، شعرت بالملل؛ وذهبت في ما بعد إلى أحد البارات ثم إلى بار آخر حيث انشغلت باللعب بصندوق آلي...

السيد الغريب: هو ايندرلين.

في صباح اليوم التالي، حين وجد نفسه من جديد في الشارع وفي العالم، أبكر من المعتاد، كانت الساعة السابعة صباحاً، وحين كان يمشي الهوينا نزولاً، رجل كان يرتدي بدلة سهرة قاتمة اللون، في الزقاق الغريب كالآخرين الذين يذهبون إلى عملهم اليومي، بدون معطف، يداه في جيبتي بنطاله، وهو يحاول جاهداً إظهار تصرف لا يلفت الانتباه قدر الإمكان، وحين تناول في أحد البارات فنجاناً من القهوة، وهو محاط بمجموعة من العمال الذين كانوا يرتشفون قهوتهم الصباحية، واشترى سجاير لأنهما دخنا في أثناء الليل كل السجاير الموجودة في حوزتهما، كان يعرف: -ليلة مع امرأة سوف

تدخل في عداد رقم نادر لا يقوله بتاتاً أي إنسان. رقم الألف! كان يعرف ذلك ويأكل قطع الخبز الصغيرة دون أن يعدها، وهنا طلب فنجاناً ثانياً من القهوة. وظن أن الأمر قد انتهى، لقد أمل أن يظن ذلك. حتى ولو لم يظهر شيء على وجهه الممتقع اللون خلف الزجاجات، فقد اعتراه مع ذلك شعور بأن كل الناس كانوا يرون في ملامح وجهه آثار ما فعل؛ أربكه ذلك كما أربكته الشمس التي في الخارج والمرآة التي خلف الزجاجات وحركة السير في المدينة الغريبة وحقيقة أن ذلك اليوم كان يوم ثلاثاء، يوم الثلاثاء الواقع في كذا وكذا، لم يكن يدري لماذا أربكه كل ذلك. لم يكن هنا أحد يعرفه. ولو أن الوقت كان متأخراً لأن يتخفى تحت جنح الليل ويولي هارباً، إلا أنه أفلح – هكذا كان يأمل – في مغادرة المنزل دون أن يراه أحد. كان يأمل ذلك من أجلها هي. وبعد أن زرع الأزقة مشيات متعرجة، ربما لم يره هناك آنذاك سوى واحد من عمال تنظيفات الشوارع، غسل وجهه على نافورة ماء عامة سوف تبقى حية في ذاكرته... كان يزعجه الآن المنديل المبتل في جيبة بنطاله، فنهض واقفاً وشرب فنجانه الثاني من القهوة وقد زاد من إرباكه أنه كان الآن وهنا، حيث آلة الايسبريسو وضجيج الفناجين والأصوات، بحاجة إلى أن يمشي على رؤوس أصابع قدميه. كما لو أن الرجال المحيطين به ذات اليمين وذات الشمال، وهم سائقو عربات، لم يعانقوا طيلة حياتهم أية امرأة! بالمناسبة كانت الخطة المتعلقة بمفتاحها موفقة، فمفتاح مسكنها أصبح الآن في صندوق البريد حسب الاتفاق، والمفتاح الصغير لصندوق البريد أصبح على الكومودينا. وإذا لم تتأخر في النوم فإن كل شيء على ما يرام... بعد فنجان القهوة الثاني في النوم فإن كل شيء على ما يرام... بعد فنجان القهوة الثاني دب في صاحبنا التيقظ والنشاط كما لو أنه كان خلد إلى النوم من قبل فلم يعد الآن متعباً البتة. كان مسروراً بالدرجة الأولى من كونه الآن لوحده. لوحده بين الرجال. أغلب الظن أنها لا تزال نائمة، والنوم هو أبعد بلاد في الدنيا؛ لم يجل ذلك في ذهنه بل أحسن به: طالما أنها نائمة فهي ليست في هذه المدينة.

أما هو فقد كان في هذه المدينة كالبارحة: وحيداً. بعد أن كان فك الحزام الشفاف عن علبة السجاير الزرقاء والسرور يغمره بالسيجارة الأولى التي دخنها لوحده من جديد، اكتشف أنه لا يملك ولاعة وبدلاً من ذلك كان جيبة بنطاله اليمنى ذلك المنديل المبتل؛ كان نسي الولاعة حيث أقام في الليلة الماضية. كان في حقيقة الأمر في منتهى السعادة لأنه كان يعتقد فعلاً أنهما سوف يتجنبان تكرار ما حدث، ونظر إلى ما حوله وسيجارته التي لم يشعلها بين شفتيه، شارد الذهن منذ أن اكتشف أنه نسي ولاعته. واحد من سائقي العربات كان يبصق على الأرض باستمرار، أرض الحجرة المبلطة بالرخام والإسمنت وتتناثر فوقها نشارة خشب. أين يتأتى لك أن تجد ذلك، رخام مفروش بنشارة خشب، في أية بلدان؟ وفجأة اعتراه خمول ضعيف كان من شأنه أن يضطره مرة أخرى بالارتباط بها، لكنه تخلى عن تردده ورجا أحد العمال أن يقدم إليه عوداً من الثقاب فلم يحصل إلى على ولاعة أمسكت بها راحة كف ممزقة وملطخة بالزيوت، مجرد لهب صغير من النار من أجل هذه السيجارة الوحيد الأولى التي جاز له أن يدخنها من جديد لوحده، وانتهى الأمر. فقدم الشكر لرجل لم ير وجهه بل مؤخرة رأسه فحسب. فالوجه الوحيد في ذلك البار، الذي كان يراقبه من حين لآخر، كان وجهه هو في المرآة التي خلف الزجاجات، وجه نحيل تحت نظارة من العاج وشعر قصير. ولم يكن يعرف ما الذي يثير إعجاب النساء أحياناً في وجه كهذا. العينان الرماديتان فحسب - كانتا تحدقان من المرآة كما لو أنهما متواجدتان فعلاً في المرآة في حين تواجد جسده خارجها - كان من شأنهما أن عرفتاه على نفسه. هنا وجد متعة في تدخين سيجارة لم تنتقل بحركات رقيقة من فم إلى فم، أضف إلى ذلك قراءة جريدة أجنبية كان اشتراها لتوه. أخيراً كان ثمة عالم هو جزء منه ومتواجد فيه. حيلتها، التي بدت ليلة البارحة موضوعية وفكهة وبالتالي اتصالها الهاتفي للتأكد من أن زوجها لا يزال يمكث فعلاً في لندن، لم ترق له فجأة تلك الحيلة التي ترسبت في الذاكرة اللاإرادية في حين كان منهمكاً،

والفنجان في يده اليسرى، بقراءة المزيد عن الجزائر. لم يدر لماذا فكر آنذاك بحيلة تلك المرآة وتصرفاتها. في نهاية الأمر كان ذلك شأنها هي، لا شأنه. لكن ما أحزنه في هذا الأمر هو مجرد فكرة أنه في المستقبل البعيد، الذي بدأ لتوه فعلاً، سوف يتذكر احتيالها بصورة أكثر دقة من أي شيء آخر وبالتالي كيف أمسكت وهي معه في السرير سماعة الهاتف بيدها اليسرى وأخذت تدردش مع زوجها الذي في لندن في حين كانت يدها اليسرى تداعب صدره هو. في تلك اللحظات كان أغمض عينيه لكي يغيب عن ذلك المشهد. لم يستطع أن يسد أذنيه. وبعد ذلك أمضيا فترة طويلة وهما يدخنان صامتين. في النهاية لا شأن له في كيفية تركيب ما حدث في بنية حياتها الزوجية، ولم يرغب الآن وهو يقرأ عن الجزائر والفنجان في يده اليسرى في أن يفكر بهذا الموضوع. لكن لا شأن له في الجزائر أيضاً، بل الآن بالحاجة إلى دفع الحساب. وبعد ذلك بربع ساعة كان ككل الآخرين في ذلك البار، لم يكن فيه ما يميزه وبالتالي لم يكن فيه ما يربكه باعتباره تميزاً عن كل الآخرين وحين دفع الحساب لم يعد يمشي على رؤوس أصابع قدميه كما لم يعد يستغرب من أن ذلك اليوم كان يوم الثلاثاء، يوم الثلاثاء الواقع في كذا وكذا. كان مؤكداً أنه سيتابع سفره في ذلك اليوم. فخرج من البار بخطوات متثاقلة والجريدة الأجنبية أمام فمه إذ اضطر فجأة إلى التثاوب ثم أومأ إلى سيارة أجرة لكي توصله إلى الفندق. أراد الآن أن ينام، أن يستحم وينام... وكونه يعرف اسمها، فأن ذلك أكثر بكثير مما ينبغي معرفته... في سيارة الأجرة وقد أمسك صاحبنا بالعلاقة الرثة، حاول أن يرتب الأحداث في ذهنه: -كان ذلك ليلة البارحة، بعد الظهر في أحد البارات، كان المطر يهطل، وهو ينتظر أحد الناس، لقاء مع زوجة هذا الأحد من الناس، تايورها الأصفر اللون وشعرها المبلل، مشروب الجنجرال، لعبة هذا السيد الغريب التي تسبب له الملل وهو يعرفها ولا علاقة لها به، الهوة التي بينه وبين هذا السيد الغريب؛ أنه يريد أن يسلك طريقه الخاصة به...

كان ذلك يوم أمس.

ثمة جنيّ، هكذا بدا له اليوم، والجني لا يطيق أية لعبة عدا لعبته هــو، يضم لعبتنا إلى لعبته، ونحن الدم والحياة التي ليست دوراً نلعبه، ونحن اللحم الذي يموت، والروح التي هي عمياء في الأزل، آمين... من داخــل ســيارة الأجرة المسافرة ويده ممسكة بالعلاقة الرثة رأى صاحبنا العــالم: واجهــات الأمس، ساحات الأمس، لم تتغير، الشوارع والتقاطعات هي هي كما كانــت بالأمس، الدعاية الهائلة لشركة طيران سبق أن لفتت انتباهه يوم أمس. كــل شيء باق على حاله: لكن الزمن ليس البارحة، بل اليوم. لمــاذا باســتمرار اليوم؟ والسؤال الذي لا جدوى منه عما إذا كان من الضروري أن يحدث ما حدث، كان من شانه أن ضايقه بقدر ما ضايقه ذلك المنديل المبتل الذي في بنطاله. فــأنزل زجاج النافذة لكي يرمي منها في أثناء السفرة المنديل اللعين على الأقل ومن غير أن يلفت انتباه أحد؛ لكنه لم يجرؤ على ذلك. لم تضايقه بتاتاً تلك الخيانة التي ارتكباها، كلاهما، ولم يحن الوقت بعد لأن يفكر في ذلك؛ بــل ضــايقه ببساطة أنها عُدت الآن حقيقة واقعية مساوية لكل حقــائق العــالم الأخــرى. اعترته الدهشة قليلاً. رجل يتمتع بخبرة من الدرجة الوسطى، ماذا كان يتوقع. قبل الثامنة صباحاً، حين كانت السيدة لا تزال نائمة بشعرها المسترسل، عاد العالم الذي كان احترق تماماً في ليلة من العناقات اللاهبة إلى التواجــد مــن جديد وأكثر واقعية من عناقاتهما. عالم لم يتغير، الباصات والدعايات المتسخة بلون ضارب إلى الزرقة لما تزل على حالها، هائلة، أسماء الشوارع والتماثيل أيضاً وتاريخ اليوم لم يشأ أن يتذكره. ومع ذلك فثمة حقيقة واقعية باقية على الدوام، مهما بدت تافهة وعديمة الأهمية؛ غير مرئية، ولا يمكن رميها بعيــداً كمنديل جيب مبلل. لم يندم على شيء. وعلى ما فعل البارحة لم ينــدم بــأي حال من الأحوال. لقد أربكته فحسب حقيقة أن اليوم ليس هو البارحة. لكــن هذا الاختلاف لا يظهر على المدينة. وقد سره ذلك. أنه ذات ذاته. في حقيقة الأمر كان مسروراً للغاية. لا جدوى من أن يلتقيا من جديد، وهــو يريــد أن يلتقي بها لكنه لم يتصل بها هاتفياً حتى ولا من المطار لأنه يعرف ألاَّ جدوى

من ذلك... لم يذهب إلى الفندق، بل أمر سائق سيارة بالتوقف ودفع الأجـرة ونزل من السيارة؛ أراد أن يذهب إلى المتحف. لئلا يكون في العالم. أراد أن يكون وحيداً وخارج نطاق الزمن. لكن المتحف كان في تلك الساعة لا يزال مغلقاً؛ وهنا وقف، بعد أن اختفت سيارة الأجرة، على سلم خارجي، يداه فـي جيبتي بنطاله، بدون معطف، رجل ما زال ببدلة السهرة القاتمة اللون، لـم يحلق ذقنه، في فمه سيجارة، لكن لم يكن في حوزته أعواد ثقاب ولم يكـن في جيوبه ما يطعم به الحمامات الهادلة، لا شيء سوى منديل جيب مبلل.

وتشمم ظهر يده:

رائحة عطرها زالت-

سوف تنتهي العلاقة إذا ما ألتقيا وسوف تنتهي حين يتابع طيرانه إلى الأبد؛ على أي حال سوف تنتهي علاقتهما، كان يعرف ذلك حق المعرفة، وليس ثمة أمل حيال الزمن... وهكذا وقف الآن، وبما أن الجو كان بارداً فقد رفع سترته إلى الأعلى ثم جلس في ما بعد على بـروز قاعـدة أحـد التماثيل تحيط به حمامات هادلة بيضاء ورمادية وتجفل من حين لآخـر- مم؟ - فتطير مرفرفة ومحدثة ضجة كبيرة إلى الأعلى، إلى بروزات البناء الكلاسيكية العليا.

تُرى آلم تزل السيدة نائمة؟

كانا وعدا بعضهما بعضاً ألا يتراسلا، أبداً، إذ لم يرغبا في أن تـستمر علاقتهما في المستقبل. هكذا أقسما:

لا تكرار للقاء-

لا قصة-

لقد رغبا في الشيء الممكن لمرة واحدة فحسب: الآن... كان ذلك بعيد منتصف الليل وقسماً ملزماً بالنسبة إليه أيضاً وهو الآن جالس علـى بـروز قاعدة أحد التماثيل وتحيط به حمامات هادلة بيضاء ورمادية وقد نزلت لتوها

من بروزات البناء العليا وهي تطير مرفرفة إلى الساحة الخاوية والسلم الخارجي، واحدة تلو الأخرى، هذه المرة بدون ضجة كبيرة، لم يكن يعرف ماذا يمكنه أن يفعل حيال المستقبل: -لأن المستقبل، كان يعرف ذلك، هو أنا، زوجها، أنا التكرار، القصة، الانتهاء واللعبة في آن معاً أنا مُضي الوقت من دقيقة إلى دقيقة...

ونظر الآن إلى ساعته، لكنها لم تكن في ساعده؛ إذ كان اكتفى بدسها في جيبة بنطاله لكي يتمكن من الإسراع في الخروج من المنزل. كانت الساعة آنذاك التاسعة وخمس دقائق. بقدر ما كانت ساعته لا تزال تعمل. في الساعة الحادية عشرة والنصف كان على موعد، لقاء عمل، تفاوض يليه غداء على ما يُظن. وقبل أن يربط ساعته بمعصمه قربها من أذنه؛ كانت تعمل. إذن التاسعة وخمس دقائق. منذ أن رأيا بعضهما بعضاً لأول مرة -البارحة بعد الظهر في ذلك البار المقفر- لم يمض بعد على ذلك أربع وعشرون ساعة. لم يتكرر بعد بالنسبة إليهما حتى مجرد ذلك الوقت من أوقات اليوم الذي التقيا فيه. لا بارحة، لا يوم، لا ماض، لا تجاوز لدورة الوقت الواحد: كل شيء هو الآن. صباحهما الأول، وما عدا البضع كلمات العديمة الأهمية التي قيلت حين طلب قهوة واشترى سجاير ورجا العامل أن يقدم له ناراً لإشعال سيجارته، فليس ثمة كلمة قيلت بين وقتي الصباح والظهيرة من ذلك اليوم ولم يجر أي حديث مع أناس آخرين. كان العالم ما يزال بكل بساطة في الخارج. أنهمك صاحبنا الآن بالتدخين؛ وفجأة وجد أعواد ثقاب بجانب منديل الجيب المبلل وكان من أمر واحد من هذه الأعواد أن أعطاه ناراً. وهكذا جلس الآن وأخذ يدخن إلى حذائه الأسود الملمع، الذي غطاه الغبار، ولم يدر ماذا يفعل حيال المستقبل الذي سبق أن بدأ مع انطلاق موجة من تذكره... تذكر المنزل: حيث أرادت أن تريه بطاقات من بلاد البيرو، حين جلبها إلى دار الأوبرا فلم يتوان عن ذلك بالرغم من أن موعد العرض كان قد حان. كان يقف في البهو وينتظر بصبر نافذ، ذلك مع أنها هي التي كانت من عشاق الأوبرا وليس هو. كان يفضل مشاهدة فيلم سينمائي، فيلم وبعده عشاء. انتظر،

ويداه بلا داع في جيبتي سترته، مجيء المعلومات المتعلقة ببلاد البيرو والتي قد تعود عليه برأيها بفائدة كبيرة وكانت تبحث وتبحث بشكل خاص عن خريطة شبكات الطرق في البيرو، ذلك لأنه كان ينوي السفر إلى هناك بالسيارة إذا ما تأتي له ذلك السفر في يوم من الأيام. قبل ثانية واحدة مما حدث لم يكن يعتبر أن ما حدث هو أمر ممكن، وقفت إلى جانبه وفردت بشيء من الارتباك خريطة شبكات الطرق في بلاد البيرو. لم يكن يعتبر أن ما حدث هو أمر ممكن، بعبارة أكثر دقة: لم يفكر بما حدث وحين أحس بأن يده، التي ظن أنها في جيبة سترته، تداعب جبينها، كان أكثر اندهاشاً منها. أما هي فتظاهرت بأنها لم تشعر بذلك. تُرى ألم يسبق لهذه الحركة، على بساطتها واعتبارها بمثابة تافهة، أن حدثت من قبل ذات مرة؟ وكان نسي ذلك فتذكره الآن واعتره الخجل من تكرار تصرفه. فقد سبق أن داعبت يده جبينها من حيث لا يدري في عصر ذلك اليوم (الذي التقيا فيه أول مرة، المترجم) في ذلك البار: بمثابة دعابة. بمثابة وداع. فتظاهرت بأنها تعتبر ذلك شكلاً من أشكال اللياقة خاصاً به، وعكف الاثنان إذن على مشاهدة الخريطة المهترئة للطرق في بلاد البيرو والتي كانت احتفظت بها منذ سنين للذكرى، ومع أن تصرفه لم يجرح شعورها إلا أن جواً من الصمت كان ساد قبل أن يتحدثا عن أوضاع الطرقات في بلاد البيرو، والآن كان حديثهما أكثر موضوعية من أي وقت مضى. حدث ذلك في الساعة الثامنة. ارتدت معطفها، لأنهما كانا عقدا العزم على الذهاب إلى الأوبرا، ولم تكن تلك حيلة؛ فقد كانت آنذاك لا تزال تظن أنهما سوف يذهبان إلى الأوبرا ولو فاتهما فصل واحد. كانت سيارتها، التي حتى لم تقفلها، واقفة في الزقاق حيث كان التوقف مسموحاً حصراً لتحميل وتفريغ البضائع، حتى أن السيدة لم تطفئ ضوء السيارة (فقد رأى في صباح اليوم التالي أنه لم يزل شاعلاً). وبسبب خريطة بلاد البيرو، التي كانت في صباح اليوم التالي لا تزال مفروشة على صندوق حين غادر منزلها، فقد كان حديثهما الآن مختلفاً عن حديث بعد الظهر في البار المقفر حيث كان ذلك الحديث عبارة عن مغازلة ناجمة عن حالة من الارتباك ومن طرفه هو

فحسب؛ ففي البار لم يكن يعرف ماذا ينبغي عليه أن يتحدث معها. والآن كانا يتحادثان معاً كشخصين متزنين بفضل خريطة البيرو. فأبدت هي أسفها كون زوجها على سفر؛ ذلك لأن زوجها، على حد قولها، قادر على إعطاء معلومات أكثر دقة عن البيرو. كانت تظن أن صاحبنا يريد فعلاً السفر إلى تلك البلاد. أما هو فابتسم. البيرو! وغدا ذلك هو الاسم الوحيد الذي لفظه أثناء عناقهما؛ لكنه لم يكن يعرف ذلك بعد حين ابتسم، وكان من شأن ابتسامته أن أربكتها نوعاً ما. ومع أنه بذل بكل لباقة جهداً لإظهار معلومات عن سلالة الإنكاس (الحاكمة في البيرو. المترجم)، في حين تناولت هي سيجارة دون أن تجلس أو أن تقدم له كنبة لكي يجلس عليها، فإنهما لم يعرفا في حقيقة الأمر شيئاً عما دار الحديث. بل رمقا بعضهما بعضاً بنظرات. ربما كانت الساعة التاسعة حين لم تكن هي قد قدمت شيئاً وكانا لا يزالان واقفين يدخنان وكانت هي لا تزال مرتدية معطفها. كان على ما يبدو ثمة ما يدفعها بإلحاح باستمرار إلى ذكر اسم زوجها كأنما كانت تخشى أن تنساه؛ وقد ظهر عليها الارتياح حين أتى هو أيضاً على ذكر زوجها بالاسم، إذ لم يكن يعرف منه سوى الاسم ولم يسبق أن التقى به وجهاً لوجه، أما هي فقد رأت أن من المضحك أنهما ظلا واقفين طيلة الوقت ولم يجلسا. ذكرها بالأوبرا التي كان عرضها مستمراً دون توقف، في حين جلست هي لكن من غير أن تخلع معطفها. وظل هو واقفاً لمدة طويلة أيضاً. وكونه لم يكن من جهته مرتدياً معطفاً، فقد كان هذا الوضع محرجاً بالنسبة إليه؛ إذ كوَّن بذلك انطباعاً كما لو أنه لم يصعد إلى منزلها لمدة قصيرة فحسب. كان يتحدث معها وهو واقف، تحدث كثيراً، لكن من جهته على هامش الملل ويداه في جيبتي بنطاله؛ كان يخاف من يديه حيث لم تصغيا إليه. كان يخاف من فترات الصمت. رمقا بعضهما بعضاً بنظرات للمرة الثالثة، رجل وامرأة، دون أن ينسبا ببنت شفة، وحتى دون أن يبتسما. دونما ارتباك: في غضون ذلك كان جلس على الكنبة، لكن بحيث كانت طاولة تفصل بينه وبينها، وبدا كأنهما يتحرجان من فعل ما من شأنه أن يغير شيئاً في الوضع الخارجي القائم، على سبيل المثال من سماع اسطوانة موسيقية.

فجلسا ودخنا. وتحدث هو عن القطط دون أن يعرف لماذا. كانت الساعة تقترب من الحادية عشرة ليلاً حين اعترف كل منهما للآخر بأنه عطشان. فعمدت هي على الفور إلى هرس سيجارتها في المنفضة. ومع أنه قد يكون من الأريح أن يحتسيا مشروباً هنا في مسكنها إلا أنهما أحسا بأنه ينبغي عليهما الذهاب إلى المدينة وبالتالي العودة إلى أحد البارات لكي يتناولا بعض المشروبات. أدهشته موافقتها، أدهشته الموافقة الصامتة. ونهضا واقفين، فرحين بعطشهما مع أنه -كما أحس- لم يكن مخالفاً للعادة إذا ما قام في حوالي منتصف الليل أحد بخدمتهما. أطفأت السيدة مصباح الكهرباء المحمول. حتى ذلك الحين كان كل المنزل مضاء وكانت كل الأبواب مفتوحة على مصاريعها منذ ساعات، منذ أن كانت السيدة تبحث عن خريطة البيرو، وحتى باب المطبخ كان مفتوحاً كما لو أنهما كانا يخجلان من الأبواب المغلقة. وساد جو غريب حين أطفأت المصباح المحمول ثم مصباح السقف؛ ووقف هو في البهو في حين كانت هي تزرع المكان جيئة وذهاباً بمعطف مفتوح. وهنا رأى لأول مرة، كانت لتوها أطفأت النور في حجرة العمل، قدها مع إدراكه العذب بأنه قد لا ينسى هذا القد أبداً -سوف ينساه! كان يعرف ذلك حين كان يجلس على بروز قاعدة ذلك التمثال وقد أحاطت به حمامات بيضاء ورمادية ولم يكن وقتها متأكداً من أنه سيلتقي بها ثانية أم لا. أراد أن ينصرف. إلى أين؟ كانا وقفا في البهو استعداداً للانصراف وكان هو بانتظار أن تجد مفتاح سيارتها فحسب. في البهو فقط كان النور ما يزال شاعلاً. وفي حين جالت بنظرها في ما حولها، كما لو أن شيئاً ما لم يكن على ما يرام، كانت يدها اليسرى على مفتاح الضوء. قالت: لنذهب! قالت ذلك حين داعبت يده جبينها، كوداع من فرصة، بغير قصد وباستهزاء في آن معاً، إلا أنه كان على وعي بتكرار اللقاء. وقال هو أيضاً: لنذهب! فأطفأت هي النور، ولم يعد ثمة نور في المكان إلى أن دخلت أشعة الشمس عبر النوافذ. كانت السيدة لا تزال مرتدية معطفها حين ظهرت كل الألبسة الأخرى منذ فترة طويلة، بعد أن نتقتها القبل، بمظهر مضحك فكانت عبارة عن كذبة من الفرو والصوف والحرير

صعب خلعها لكن ذلك ضرورة تقتضيها لياقات المشاعر الجارفة. في غضون ذلك قالت السيدة أنها عرضة لفرض غرامة في بطاقة تلصق على سيارتها. قالت ذلك في حين ظن هو على ما يبدو بكل تأنٍ وهدوء من خلال أفعال كان من شأنها أن فضحت معلوماته الفاشلة عن ثياب النساء الفاشلة عن ثياب النساء الداخلية لولا أن بادرت وهي تسخر منه إلى مساعدته وإنقاذه، ظن في خلوة رزينة مع ذاته أنه على دراية بأن المرء لن يكون مختلفاً عما كان عليه دائماً ودائماً. كان رزيناً، أجل، لكن بدون سخرية، رزيناً وصامتاً. في تلك الأثناء أضاء سقفَ الغرفة مصباح كهربائي في الشارع وأضاء الغرفةَ سقفُ الغرفة حين كان يتحسس جسدها الغريب عنه وهو سيد مرتد حذاء أسود ملمعاً من أجل الأوبرا وقميصاً أبيض مع ربطة عنق ولم تزل ساعته في معصم يده، لكنه بدون النظارة التي سبق أن أبعدتها عن وجهه؛ كانت تقرأ بأصابعها ابتسامته من على شفتيه الغريبتين عنها. كان جميلاً أن ما من أحد منهما كان يعرف الآخر وذلك إلى درجة كانت تفوق كل مقدرة على المعرفة.

في الساعة العاشرة، تماماً، فتح المتحف أبوابه.

أغمض صاحبنا عينيه كالطفل الذي قال: تغمض العينان الآن لكي لا تدخل الظلمة إليهما فتطفئ نورهما... وجلس آنذاك على مقعد في صالة المنور... كان يسمع صفرات تطلق باتجاهه من محطة قطارات لنقل البضائع لم يسبق له أن رآها من قبل، بخار قاطرة صغيرة، مصدات صغيرة، وصدى الصفير، وبعد ذلك من جديد مرور قطار للبضائع مع تحزيق محاور، تطريق العجلات فوق تحويلات السكة، صفير، مكابح، صدى الصفير، والبخار من جديد. وهكذا يستمر الوضع طيلة الليل. وحين استيقظ مرة أخرى، كان الصفير قد صمت لم يعرف المكان الذي كان فيه، وهديل الحمام أيضاً كان قد صمت -لم تعد الحمامات متواجدة في ذلك المكان، لا حمامات بيضاء ولا رمادية، ولا حمامة واحدة... كان يجلس على مقعد في صالة المنور حين كان أحد الحراس يزرع الأرض جيئة وذهاباً ويقوم بمراقبته؛ إذ أنه كان قد نام في مكان عام.

ارتعد خوفاً من ذلك.

ربما لم ينم سوى دقيقتين أو ثلاث دقائق، وهو جالس، كما ينام المـــرء عادة في القطار أو في الطائرة، وفمه مفتوح، بشكل جنوني، ووجهه منـــزاح عن مكانه؛ ربما كان مر بعض الناس في الصالة، مجموعة كان يقودها دليل فني، كانت أصواتهم في متناول السمع... لم تكن تلك الليلة، لم يكن جـــسدها في تلك الليلة، بل كان حضوره في صالة المنور هذه هو ما تراءى له بأنـــه حلم، وتراءى له هديل الحمام بأنه ذكريات بعيدة، مجـــرد غيـــاب جـــسدها الصغير هو الذي كان حقيقة فعلية، حاضراً، في حين وقف هو هكذا، ويـــداه في وضع متقاطع على صدره، وسمع أصوات المدينة مـــن بعيـــد كـــتلاطم الأمواج، ضبابية، على وتيرة واحدة، كالأمواج، وكانت تلك هـــي الأمـــواج الخضراء. ربما تضايق الحارس من أن صاحبنا كان يرتدي في الصباح بدلة سهرة قاتمة اللون وقد رفع قبته إلى الأعلى. هكذا كان الوضع! فأنزل القبـــة إلى مكانها المعتاد. وأجبر نفسه على قراءة لوحة كتب عليها:

«هرميس (إله يوناني قديم، المترجم). ربما بداية القرن الثالـــث قبـــل الميلاد؛ مرممة جزئياً، الساق اليسرى مستبدلة، وكذلك الرقبة. وضع الـــرأس (الأصلي) هو أمر مختلف عليه».

ونظر بتمعن إلى وضع الرأس

كان ذلك يوم الثلاثاء.

لم يكن يعرف ماذا يضيع من ساعة إلى أخرى وكان يشعر فحسب أن ذكراه قد انفصلت عن شخصه الحقيقي ولام نفسه على ذلك. وارتاح إليه في الوقت ذاته. كان يتمتع بالحرية. ومد يده ذات مرة إلى محفظته لكي يتأكد من أن تذكرة الطائرة لا تزال معه. كانت موجودة في المحفظة. كـــان عليـــه أن يتواجد على أرض المطار. وحتى ذلك الحين كان يتمتع بحريته. إن ما أنبأته ذاكرته عن المرأة التي شغلت باله كان صحيحاً وسخيفاً، كبطاقة بحث، دقيقاً حسب الطلب، لا فائدة منه كبطاقة بحث، عديم الدلالة إذا لم يكـــن الـــشخص

المعني متواجداً: لون الشعر كذا وكذا، تلبس تايوراً أصفر اللون (لكن ذلك كان في فترة بعد الظهر في البار، وفي الأمسية التي سبقت ذلك كان التايور أبيض اللون)، محفظة يد سوداء اللون، تتحدث بلكنة خفيفة، ربما أنها من منطقة الإلزاس، عمرها يقارب الثلاثين، ممشوقة القد...

انصرف الحارس.

كنت تسمع في بعض الأحيان أصواتاً جديدة، دخول أحد الناس إلى صالة المنور وخروجه منها، وكنت تسمع أحياناً دوي طائرة تمر فوق المنور. ويسود الهدوء بعد ذلك من جديد. وفي الخارج سطعت الشمس. لكن كانت تمر أيضاً أحياناً أخرى سحب فوق المدينة الغريبة؛ وقد تبدى ذلك من خلال أن الجو فجأة ازداد عتمة، وازداد التمثال انبساطاً ثم عاد الجو فأصبح مرة أخرى مضيئاً جداً والتمثال حبيبياً-

لماذا لم يتابع سيره؟

وحيداً في هذه الصالة الكبيرة تحت سقف منور المتحف وذراعاه مسندان إلى الخلف كما لو أنه كان يعاين التمثال المرمري المختَلف على وضع رأسه، كان صاحبنا ما يزال جالساً على المقعد المنحدر: فجأة في عزلة تامة. لكنه لم يذهب للاتصال بها هاتفياً. كان يعلم ما سيحدث في ما بعد. سوف يأتي اليوم الذي يسأل فيه أحدهما الآخر ولو فقط السؤال التالي: ماذا فعلت مساء البارحة؟ اتصلت بك هاتفياً ثلاث مرات. أين كنت؟ لا يزال السؤال بريئاً وسليم الطوية، أجل، فضول الآخر من شأنه أن يرضي الغرور؛ الواحد لا يريد أن يعرف بقدر ما يريد أن يبين كم هو مشتاق إلى الآخر.

كان آنذاك قد نهض واقفاً.

لكي لا يقع في شراك المستقبل...

كان أمراً مضحكاً ومثيراً للسخرية: انهض واقفاً، أجلس، أدخن، أقف، أنام، استيقظ، أنهض، أمشي، أجلس، أنهض.

وفي الخارج الحمامات الهادلة من جديد-

أشار بيده إلى سيارة أجرة.

في الليل، ولو أنهما لم يناما، لم يقل أي منهما شيئاً للآخر لئلا تؤدي الكلمات والأسماء إلى أن يدخل العالم إلى جوهما؛ لم يصمتا، حاشا للّه، بل كانا يهمسان كما لو أنه لا يوجد غيرهما فقط، لا قبل، لا بعد، حتى ولا اسم وحيد، هما فقط، بدون أسماء.

والآن دقت الساعة الحادية عشرة.

أراد أن يلغي اللقاء المحدد في الساعة الحادية عشرة والنصف.

في علبة مفتاحه في الفندق كان ثمة قصاصة ورق قدمت إليه مع مفتاح غرفته وتضمنت خبراً. ممن؟ كان من أمر الطريقة التي قُدم بموجبها المفتاح والقصاصة إليه من أمر السرية التي أحاطت بالعملية أن أشعرته بالإهانة من أجل السيدة. كان ممكناً أن تأتي القصاصة من جماعة من الرجال. لكن القصاصة احتوت خبراً مفاده أن سيدة اتصلت به هاتفياً ورجت أن يتصل هو بها تاركة رقم الهاتف واسمها الذي وقع من نفسه الآن، طالما أنه قادم من عناقها، موقعاً غريباً. أكبر من ذلك. فقد أحس بأن طلبها منه أن يتصل بها هاتفياً، كان قرأ القصاصة وهو في المصعد ونسي في أثناء ذلك الطابق الذي يقيم فيه ورقم الغرفة، هو عبارة عن إخلاف بالعهد، نذالة، خيانة. ففي حين التزم هو باليمين الذي أقسماه في تلك الليلة، أي التزم بالشيء الوحيد المشترك بينهما، تحالفت هي مع العالم. هكذا أحس بالأمر لدى وصوله إلى غرفته حيث أراد أن ينام إلى حين موعد طيرانه؛ لن يتصل بها هاتفياً، خيبت أمله، هكذا أحس حين خلع حذاءه الأسود الملمع وقد أرهقته فجأة خيبة الأمل وسرته قليلاً أيضاً خيبة الأمل التي أدت إلى فصله عنها، عن امرأة دخلت في عداد كل النساء المجهولات واللواتي هن بحاجة إلى رجل. الآن فحسب عكف على قراءة القصاصة بدقة لكي يفعّل امتعاضه فلاحظ الموعد المكتوب، الساعة التاسعة عشرة وعشر دقائق، ولاحظ بالتالي الخطأ الذي وقع فيه. فطلبُها منه أن يتصل بها كان يوم البارحة. وذلك ما غيَّر من جديد كل شيء. فأخذ

يحسب: في الساعة ١٩،١٠ البارحة، كان في طريقه إليها. ما أمكن قراءته على هذه القصاصة: طلب صادر عن امرأة لم تعد موجودة على هذه الشاكلة ولن توجد مرة أخرى، عن مجهولة مرتدية تايوراً أصفر اللون بعد الظهر وهي جالسة على مقعد خشبي مرتفع في أحد البارات الخالية من الزبائن. لماذا هذا البحث من جديد؟ كان سبق أن جعلك القصاصة ورماها في سلة المهملات وهو ممتعض لا من السيدة بل من الزمن الذي يتواجد في كل مكان ولدى كل أمر تافه، الزمن الذي يتجاوزنا دائماً، زوال في كل أمر تافه؛ وألقى بدلته القاتمة اللون المخصصة للسهرة في حقيبته وطوى كميها المشلولتين كما لو أنها جثة هامدة ثم ألقى بنطاله الأسود فوقها وجلس على حافة السرير ثم سحب ساعته من معصم يده ورأى في سلة المهملات مرة أخرى القصاصة المجعلكة باعتبارها الشيء الوحيد الذي بقي له منها ما عدا الحلم. ولدى إعادة القصاصة إلى شكلها الطبيعي قام بتصفحها مرة أخرى؛ لم يكن ما كتب عليها هو بخط السيدة. حتى أنه لم يكن يعرف خطها. وكما لو أنه تبدل الآن ما خشي منه وما علق عليه الآمال، فقد تسللت إلى أعماقه حسرة على أن اتصالها الهاتفي وطلبها أن يتصل هو بها، بإلحاح، لا علاقة له بهذا اليوم. فالساعة ١٩،١٠ لا يمكن أن تكون سوى البارحة. في الشارع خارج الفندق عاد المثقب الذي يعمل على ضغط الهواء إلى الطقطقة من جديد، لكن الصمت الذي كان يسمعه الآن كان أكثر صخباً من المثقب؛ صمتها هي. لا صمته هو، الذي قد يمتعه، بل صمتها هي. ماذا لو اتصل بها الآن؟ لكي يقطع عليها صمتها. جلس ويده على جهاز الهاتف. كان غطاء سريره قد أزيح، لكن السرير لم يُمسّ. أخيراً نهض صاحبنا واقفاً. وأخذ يتدوش... كانت تجول في ذهنه آنذاك فكرة أن كل امرأة كان عانقها ذات مرة أحست بأنه يحبها؛ في حين كانت تقول له عاجلاً أو آجلاً كل امرأة بدأ يحبها لتوه أنه، ككل الرجال، لا يفقه عن الحب شيئاً... كان تحت الدوش الهادر حين رن جرس الهاتف فتردد لحظة ثم اتخذ قراراً (ألاّ يرد، المترجم)؛ وتابع التدويش غير آبه. وحين رفع السماعة، طالما أن الرنين لم يشأ أن يتوقف (-قال صوت إنه مطلوب على الهاتف، لحظة،

وسوف يوصل بالخط-)، كان قلبه يخفق هلعاً إلا أنه تلقى ذلك في الوقت ذاته بشيء من الحبور، حين رفع السماعة صدر عن جهاز الهاتف صوت يشبه الطقطقة. هاللو؟ كان واقفاً وجسده عار كأبينا أدم ومبلل بالماء وكان في انتظار أن يرن الهاتف من جديد واعتراه الصمت جراء خفقان قلبه. لم يعد بإمكان أن يتصور صوتها. لكن خلافاً لكل الأيمان التي أقسمها فقد كان على استعداد لأن يلتقي بها ثانية، ونظر من مكانه إلى الستائر المفتوحة بحيث ربما أمكن رؤيته، لكنه ظل على جهاز الهاتف إلى أن سمع صوت رجل كان ينتظره، كما لو أنهما على موعد، في صالة الفندق.

قال ببطء: أجل، إنه قادم.

لِيكن اسمي غانتنباين.

أتصور: حياتي مع ممثلة كبيرة أحبها ولذلك فأنني أدفعها إلى الاعتقاد بأنني أعمى؛ وتغمرنا سعادة نتيجة لذلك.

اسمها لِيلى فرضاً.

حين وقفنا نحن الاثنين، ممثلة وأعمى، في ضوء الفلاش المعد للتصوير بغية الزواج - اعتبرَ العالم أن ذلك هو ببساطة ضرب من الجنون؛ هذا الزواج بالكاد أُعطي (رأيت ذلك على قسمات الوجوه حين كان الناس يقدمون التهاني) في أحسن الأحوال مهلة صيف واحد، وبهذا الصدد تراءى للناس فقط أن من غير المؤكد معرفة من يستحق من الاثنين، لِيلى أم غانتنباين، يستحق الشفقة والعطف في حقيقة الأمر.

كنا سعيدين أكثر من معظم الأزواج الآخرين.

أتصور:

لِيلى تخدعني (لكي استخدم هذه الكلمة السخيفة) من البداية، لكنها لا تعرف أنني أرى ذلك وتبدي سروراً كالطفل حين استقبلها في المطار وأعود بها إلى البيت، كل مرة.

كنا سعيدين أكثر من معظم الأزواج الآخرين.

أتصور:

لِيلى تخدعني (لكي استخدم هذه الكلمة السخيفة) من البداية، لكنها لا تعرف أنني أرى ذلك وتبدي سروراً كالطفل حين استقبلها في المطار وأعود بها إلى البيت، كل مرة.

سوف أقف في التيراس المعد للمستقبلين، متكئاً على عصاي الصغيرة السوداء، النظارة على عينّي وعلى ذراعي الرباط الأصفر المخصص للعميان. لن تعتاد لِيلى على أن تلوح لي بيدها حين ستمشي ضمن أرتال من المسافرين المقادين في الحقل البيتوني الواسع وبالطبع لن ألواح لها بيدي أيضاً. لكي لا يؤدي سروري إلى أن أتخلى عن الدور الذي ألعبه. سوف أرى رجلاً يحمل معطفها وهي تمسك بمرفقه أثناء أجالتها النظر يمنة ويسرة. وسوف تراني الآن من بعيد! أرى ذلك اليوم بأم عيني. سوف يختفيان في الأسفل في صالة الجمرك. لن أسألها ما حييت من سيكون هذا الرجل. لأن لِيلى لن تعرج يوماً على ذكره، ولن يكون بإمكاني أن أعلن عن معرفتي بوجوده دون أن أتخلى بذلك عن الدور الذي ألعبه. وحين سأسأل كيف تظن لِيلايَ أن بمقدورها أن تحمل في أسفارها كل أمتعتها بما فيها من محافظ ومعاطف وممطرة ومجلات وكل ما إلى ذلك، سوف تؤكد لي أنه يوجد باستمرار من يقوم بمساعدة سيدة وحيدة. ولا حاجة بي إلى أن أقلق عليها. وأحياناً يطول التوقف - على حد قولها- في صالة الجمرك، ولا ذنب لها في ذلك. أحب الانتظار في المطارات والتفرج على الطائرات النفاثة، سيان عندي أيهطل المطر أم لا، وأحب سماع مكبرات الصوت المدوية، العالم مليء بوجهات السفر: فيينا، القاهرة، شتوتجارت، أثينا، بيروت، بانغكوك، طوكيو، ستوكهولم، لشبونه، كاراكاس، براغ، لندن، نيويورك... وقبيل ذهابي إلى صالة الجمرك، أتأكد بالطبع من أن كل شيء على ما يرام وأقف أمام أحد

المرايا لكي أزيح ربطة عنقي قليلاً إلى اليسار أو إلى اليمين فتتمكن لِيلى بعد نشوة اللقاء الأولى من إعادتها إلى وضعها الصحيح.

من المؤكد أن قلبي سوف يتسارع خفقانه.

أولئك الآخرون، الذين ينتظرون تخليص أمتعتهم في الجمرك، أزواجهم أو زوجاتهم في انتظارهم أيضاً يلوحون بأيديهم عبر الزجاج ويحاولون التفاهم بلغة الصم البكم التي لسنا - لِيلى وأنا - بحاجة إليها. أخيراً يأتي دور لِيلى. والرجل، الذي يحمل معطفها الثقيل، هو دائماً الرجل ذاته حتى ولو أن لِيلى لن تستطيع الطيران إلا بعد يوم واحد من الموعد المحدد.

ترى لماذا يهز رأسه؟ لا يزال ينقصنا أن يبدل صبيان الجمرك هؤلاء أمتعة المسافرَين بعضهما ببعض. لكن من حسن الحظ أن ثمة من يدافع عن لِيلاي! في حين لا يهتم كل الرجال الآخرين سوى بأمتعتهم الخاصة بهم فحسب. يفترقان الآن، أرى ذلك بأم عيني: بدون قبلة. تُرى ألا تشكك لِيلى بأنني أعمى؟ بعد ذلك يمر الرجل بجانبي، بينما تمشي ليلى وهي محملة بمعطف ومحافظ ومجلات بخطى أكثر بطئاً منه. وبما أنه، حين يمر بجانبي، ينظر باستمرار إلى الجهة الأخرى فأنني لا أستطيع أن أصف وجهه. يا إلهي، كيف تجر لِيلى أذيالها! وأنا لا أستطيع في هذه الحالة أن أتقدم مرة باتجاهها بل أقف كدمية في واجهات المخازن إلى أن تطالني قبلتها فأقول بعد ذلك: لِيلى؟ وأمسك بأمتعتها. ترى ماذا نسيتِ؟ لا وقت عندها لكي تسوي ربطة عنقي المائلة. ترى هل تبحث لِيلى الآن عن حمّال أمتعتها؟ إنه يمشي خلفنا على بعد عشر خطوات، ولكي ألفت نظرها إلى ذلك أسألها ما إذا استأجرت حمّال أمتعة. لكن الأمر ليس كذلك. من السابق لأوانه أن أسألها عن عملها التي سافرت من أجله والمتعلق بتصوير فيلم سينمائي. سأفعل ذلك في ما بعد. وهنا ترجوني لِيلى أن أنتظر لحظة وألا أبرح مكاني وإلا فسوف لن تجدني من جديد. وتقول: صحيفة، إنها تزيد صحيفة فحسب. إذن علي ألا

أتحرك من مكاني، كدمية في واجهات المخازن، مدججا بمعطفها وممطرتها وواقفا في طريق كل الناس. إنها على ما يبدو نسيت شيئاً؛ وهنا يجول في ذهني أن الرجل الذي اصطحب لِيلى قد فوت على نفسه موعد حافلة النقل وليس من المعتاد أن يسافر معنا في سيارتنا. أرى الآن كيف يرتعد ثم يمد يده إلى جيوبه يسرة ويمنة ويهز رأسه ويتابع البحث عن شيء لا أعرف ما هو. كل ذلك أراه كفيلم من الأفلام: ليس خاليا من التوتر والتشويق ولا مستغنيا عن ذلك القسط من التعاطف الذي يبديه المرء عادة في أول فيلم يشاهده وكله أمل في أن يتضح عما قريب ما يجري من أحداث. وكما في الفيلم: الناس الذين على الشاشة هم وحيدون مع أنني أستطيع أن أراهم، بدوني؛ أستطيع أن أسهم بمشاركة وجدانية فحسب، لكنني خارج اللعبة ومتحرر منها ولذلك فأنا مرتاح ومطمئن. ربما أن جواز سفرها لا يزال معه؟ أنا أكثر صبراً من حمَّال الأمتعة. صحيح! أراهما الآن يضحكان. جواز سفرها موجود بالطبع (لماذا لم تسألني لِيلى عنه؟) في محفظة يدها؛ لا يُليق بي أن أضحك أنا أيضاً. فانشغل إذن بمساءلة حمال الأمتعة عن حالة الطقس لكي أحول نظره عن احتمال أن يقدم كل من لِيلى والرجل الذي فاته بالفعل موعد حافلة النقل، على تقبيل بعضهما البعض لمجرد ارتياحهما بشأن جواز السفر. لم أغدُ بعد حراً كما أريد أن أكون؛ فقد يكدر صفوي أن يظن حمال الأمتعة هذا (وبالتالي المجتمع) أنه يستطيع أن يرى أكثر مني. لِيلى الآن، وهي متحررة من الانفعال وممسكة بذراعي من جديد، أحس بذلك، هي لِيلاي بالتمام والكمال. أسألها بدون نبرة خفية: هل وفقتِ في الحصول على صحيفتك؟ لكنها تجيب الآن على سؤالي عن سفرة عملها إلى ضاحية غايزلغاشتايغ (من ضواحي مدينة ميونيخ الألمانية، المشتهرة بصناعة الأفلام السينمائية، المترجم). أه! والآن تبحث عن سيارتها التي أراها في هذه اللحظة، لكن لِيلى تتذكر تماماً أنها أوقفتها هناك في مكان أبعد، وأنا لا أريد أن نتشاجر. وكيفما أمشي، سواء جيئة أم ذهاباً، لا يحق لحمّال الأمتعة المتجهم أن يضحك ساخراً. وتقول لِيلى:

انظر! هناك تقف السيارة. أما أنا فلن أقول: انظري! إنها المكابرات الصغيرة التي قد تستنزف الحب الكبير. في السيارة بعد ذلك، بينما تقودها لِيلى، يتناهى إلى علمي أنني أكثر عاشق سعادة على سطح هذه المعمورة.

أمل ألاّ يتخلى غانتنباين أبداً عن دوره، الذي يكمن في أنه يؤمن. يا إلهي كم هي رقيقة هذه اللِيلى وحنونة حين تعود في كل مرة من جولاتها الفنية! فهي تجلس على ركبته، متحررة من أي ارتباك أو حرج إلى درجة تعادل قلة ارتباكه، ومتدفقة بالتجاوب والميل وذلك لأنها متحررة من كل نظرة قد تجعلها عنيدة وكاذبة؛ ثم تبدو سعيدة معي بشكل لم يسبق له مثيل مع أي رجل آخر، متحررة من التملق طالما أنها لا تشعر بأنها عرضة للشك والريبة. وبعد ذلك تزيح لِيلى نظارتي السوداء عن وجهي لكي تقبل غانتنباين على عينيه، وحبها صادق، هكذا أحس، لأنها غير مضطرة إلى أن تكذب على غانتنباين. يا إلهي كم هي قادرة على أن تكون جذلة مغتبطة في مواقف الحب! وتقول إنها ترغب في أن تعيش مع أي رجل آخر غيري وأنا أصدق ذلك. لن يكون هذا الأمر باستمرار سهلاً، لكنه يجدي نفعاً؛ ليس بالإمكان خداع رجل أعمى.

لا أعتمد على عينيّ.

حقيبتها، التي ينفتح سحابها نصف فتحة فقط، تقذف بمحتواها إلى أرض الممر، سيناريوهات، رسائل، أحذية، ويبقى الوضع على هذه الشاكلة أياماً عديدة، لكن غانتنباين لن يقول شيئاً بهذا الشأن؛ منزلنا يشبه سلة مهملات، فبالكاد تعود لِيلى من تسوقها إلى البيت، ويبقى الوضع على حاله، أعرف ذلك، إلى أن يقوم غانتنباين سراً بجمع الخيطان وإزالة الأوراق. من دون أن يقول شيئاً. لِيلى تؤمن بأن الترتيب يتم مع الوقت من ذاته، وهي تؤمن بوجود الأشباح المنزلية Heinzelmannchen التي تعج بالنشاط والحيوية وتعنى بشؤون المنزل وتؤمن احتياجاته، وذلك أمر مؤثر.

ماذا يعني الترتيب!

إن من يحتاج إلى ترتيب ونظام لكي لا يؤول إلى الهلاك، هو فحسب ذلك الإنسان الذي يفتقر إلى الوئام والوحدة مع العالم؛ ولِيلى لا تفتقر إلى ذلك.

لِيلى جميلة. هكذا يقول لها كثيرون من الناس. وحين يقول لها غانتنباين ذلك، فهو يغمض عينيه ويداعب شعرها بأصابعه ويمطر الحفرة التي فوق عظم الترقوة بالقبل.

لِيلى أمام المرآة.

تقول: «يا إلهي، سوف آتي بعد فوات الأوان».

ولا تجد قلادتها.

وتسأل: «كم الساعة الآن؟».

سوف تأتي دائماً بعد فوات الأوان، لا يمكن لغانتنباين أن يحول دون ذلك، لكنها لن تأتي بدون قلادة؛ وطالما أنه قام سراً بترتيب المنزل فهو يعرف أين قلادتها وطالما أنه يجب فهو يضعها في مكان يسهل على لِيلى أن تجدها فيه.

تقول لِيلى؛ - «وجدتها!»

وهكذا يتيسر الأمر دائماً.

بطريقة ما.

أتخيل:

أن عندنا ضيوفاً في بعض الأحيان وأن الأمر يزداد صعوبة - لأن الآخرين يراقبوننا- على سبيل المثال حين لا ترى لِيلى أن نفاضات السجاير لا بد أخيراً من أن تفرَّغ من الأعقاب وأن لِيلى أغفلت إحضار السكر من أجل القهوة وأن كلبنا (أفكر أن في حوزتنا كلباً) بشخيره تحت الطاولة لا يسهم بأي حال من الأحوال في مسألة ما إذا كان الأديب ايرنست يُنغر قد عاش تغيراً في أثناء مسيرته الأدبية، ثم يجب علي أن أكون شديد الحذر لئلا أكشف نفسي

فانهض ببساطة لكي أفرغ أخيراً نفاضات السجاير المليئة بالأعقاب. وهنا يغير أحدهم الحديث فينتقل إلى الأديب جويس. وأداعب أنا بأصابعي الكلّب الذي يشخر (وهو من فصيلة داكل أو دوغي؟) ثم أرى كيف ينظر ضيوفنا بأطراف أعينهم إلى شيء من السكر، في حين ألوذ بالصمت، متحرراً بذلك بفضل نظارتي المخصصة للعميان من نفاق أنني أنا أيضاً سبق لي أن قرأت فِنيغانس ويك. ترى متى ستفرغ نفاضات السجاير؟ ويغير أحدهم الحديث فينتقل إلى غوتفريد بِنَ، الأمر الذي لا أستغربه؛ وكان جاء دور كافكا. ولِيلى بعينيها الزرقاوين الواسعتين الجميلتين الكبيرتين! لكنها لا ترى أن السيد المتشدد، الذي يبرز الآن إلى صدارة الحديث مقتدياً بعظمة بريشت، يحمل ذات الملامح تماماً كالسيد الذي كان حتى النهاية في دائرة المنشورات التابعة للرايخ وبالطبع أتظاهر بأنني أنا أيضاً لا أرى ذلك. مثل هذه الأمور هي من الصعوبة والإجهاد بمكان. من حين لآخر أنهض وافرغ نفاضات السجاير... على أن خشيتي من أن أكشف نفسي من خلال تأديتي خدمات من هذا النوع، أعمى يرى أن نفاضات السجاير تريد أن تفرَّغ، خشيتي ليست من لِيلى فقد تعودت لِيلى على ذلك؛ الضيوف فحسب، الذين لا يعرفونني بعد، هم الذين يشكلون خطراً علي، وفي المطبخ حيث أفرغ نفاضات السجاير يبدأ قلبي بالخفقان والتسارع. واسمع من خارج المطبخ صوتاً يسأل:

«قولي يا لِيلى، هل هو فعلاً أعمى؟».

وتقول لِيلى: «أنه يبذل جهداً كبيراً لئلا يُلاحظ عليه ذلك. وحتى أنا أيضاً أتظاهر دائماً بأنني لا ألاحظ شيئاً من هذا القبيل».

«كم هو أعمى في حقيقة الأمر؟».

ويقول أحدهم: «أنه لمن المدهش كم يلاحظ حين يراقبه أحد. ولا يشعر المرء فعلاً بأنه أعمى إلا عندما يتحدث هو ذاته. أليس كذلك؟ حين يتحمس في حديثه كما فعل قبل قليل».

(– في حديثه عن ليتل روك).

ويقول السيد، الذي كان اكتشف بريشت لتوه: «أنت محق، فمن المدهش حقاً أنه يجلس هكذا ويداعب الكلب بأصابعه، ويعتريك باستمرار الشعور بأنه يراقبك».

«أليس كذلك؟»

«منذ متى أصيب بالعمى؟»

تقول لِيلى ببساطة: «منذ أن عرفنا بعضنا بعضاً، ظننت في بادئ الأمر أنه يمزح». استراحة. «ألم أرو لكم ذلك أبداً؟».

«كلا!»

ثم تروي لِيلى قصتنا، بطريقة أكثر إضحاكاً من مرة إلى أخرى، أحب سماع هذه القصة، وهي تزداد دقة في رويها كلما ازداد افتقارها إلى الصحة؛ هذه الأقصوصة الطريفة، التي تتعذر مقاومتها باستمرار، حول لقائنا الأول: – كيف أن غانتنباين أتى إلى غرفة ملابسها، رجل يحمل معه ورود الإعجاب المعتادة لكن لِيلى لم تكن راغبة في استقباله لولا أن المرأة المشرفة على غرفة الملابس أكدت لها أنه أعمى، كانت لِيلى منهمكة بمكياجها ولم تكن مرتدية سوى ثياب داخلية فوقها روب مفتوح على مصراعيه. أعمى؟ وتبدو لِيلى كساحرة، مطلية بالزيت. وتسأل: لماذا أعمى؟، لكن قبل أن تكوِّن فكرة حاسمة عما يدفع رجلاً أعمى إلى الإعجاب بتمثيلها، يقف غانتنباين على عتبة الباب، لا يمنعه أي مانع كعادة العميان؛ لا يرى استحالة الأمر ولا يرى حتى اندهاش المرأة المشرفة على غرفة الملابس. غانتنباين يقف ببساطة على الباب، الورود في يده، ثلاث وردات، ويقول كم هو معجب. ولا بد من تصديقه. بذلك تكون لِيلى في تلك الأمسية بالذات (وهذا أيضاً هو ما تقوله لِيلى دائماً) في وضع صحي أسوأ مما هي عليه في العادة، أقرب ما يكون إلى مصيبة. أما هو فلا يعلم أين يضع الوردات. لِيلى أمام المرأة المخصصة

لزينتها، تلمع كأنما هي مطلية بالزيت، كما سبق أن قيل، ساحرة بشعر مسترسل، تقدم له للأسف كنبة مهزوزة، والمرأة المشرفة على غرفة الملابس تأخذ منه الوردات الثلاث بينما يقبل هو يد هذه (لِيلى تروي ذلك في غيابي فحسب) ولم يلاحظ سوء تصرفه، مؤثر ومحزن على نحو ما، وكيف يتحدث بعد ذلك وهو جالس على الكنبة المتقلقلة عن أويغين ايونيسكو، بشكل غامض، أول زائر لها في غرفة ملابسها لا يجول ببصره في كل الأرجاء بل يهمه الفن أولاً وأخيراً، في حين تسرح لِيلى شعرها وترتدي ثيابها في ما بعد بحضوره، أجل، وبعد ربع ساعة يتراءى لها أنها متزوجة من أعمى. - ويضحك أحد الحاضرين بطريقة حمقاء... والآن أعود أنا ومعي نفاضات السجاير النظيفة. ويسود صمت في أرجاء المكان. وأرى اندهاشهم من أن غانتنباين يضع النفاضات النظيفة على الطاولة، واحدة هنا وأخرى هناك دون أن تصطدم يده بفناجينهم أو كؤوسهم فتقلبها. ويسألهم غانتنباين: لماذا لا تشربون؟ ثم يملأ كؤوسهم الفارغة، وينظر الناس إليه وألاحظ أنا بدقة ما إذا ثمة شك يكمن في نظراتهم أم لا. وحيث يشك أحدهم، إملاء كأسه إلى أن تفيض. على أن حيلاً كهذه تقل الحاجة إليها باستمرار. هنا حوّل أحد الحاضرين الحديث إلى الأديب روبرت موزيل.

نقطة هامة:

لِيلى تنفق علي.

السبب:

نادراً ما يوجد زوجان إلا ويكتشفان على أبعد تقدير لدى انفصالهما عن بعضهما بعضاً أن المشكلة المادية بين الرجل والمرأة لم تجد طريقها إلى الحل أبداً وأنها خلقت بينهما جرحاً لا يندمل. ليس المقصود بذلك هما الزوجين السعيدين من ذوي المال القليل؛ فليست تلك هي المشكلة المادية التي لا تبدأ إلا حيث يكسب كلا الزوجين ما يكفيه من المال وبالتالي ما يكفيهما

معاً أيضاً. ثمة محاولات جرت لإقامة صندوق مشترك، كل زوج يعطي ويأخذ في آن معاً، لكن هذه المحاولات تتحطم على صخرة مجتمع هذه الأيام الذي يمد يده، من أخذ البقشيش حتى الدولة، لاحقاً كما سابقاً إلى الرجل-

أتخيل:

لِيلى وغانتنباين في أحد المطاعم، لِيلى التي تتفق على إذن ويجيء الكرسون بالحساب. تفضل. وانظر إلى الفاتورة بخجل وهي مطوية في الصحن وأمثل دور الأعمى، استمر في الحديث كما تفعل امرأة حين يأتي الحساب، أتحدث بينما تبحث لِيلى عن محفظة نقودها وتدفع، وأتحدث كما لو أن شيئاً لم يحدث. وعندما يعود الكرسون مع النقود المتبقية، أسأله عما إذا عنده سيجارات. ويستمر ذلك فترة من الزمن. لنتابع الحديث إذن. لِيلى رائعة وتلوذ بالصمت كأنها رجل، لا تقول أية كلمة عن النقود ولذلك يتيسر بيننا بالفعل تجاذب أطراف الحديث. من جهتي أنا فقد أشارك على أبعد تقدير بالسؤال: هل دفعنا الحساب حقيقة؟ أحياناً لا أرى ذلك فعلاً لأنه أمر لا يعنيني. نتحدث لِيلى عن طفولتها بينما انتقي أنا سيجاري وكلي حماس وتشوق لأخبار طفولتها. لكن الآن، بينما أقطع طرف سيجاري، لا بد للِيلى من أن تتناول مرة أخرى محفظة نقودها لكي تدفع نقوداً من جديد وإلا فلن بمضي بائع السيجارات الذي لا تهمه طفولتها لا من قريب ولا من بعيد. ليس عندي أية فكرة عن سعر سيجاري بل أعرف فحسب أن ثمنه سوف يُدفع، وأتشوق دونما إزعاج، وأنا أدخن، إلى معرفة كيف استمرت طفولتها آنذاك. وحين ننزل من سيارة الأجرة أقول: الآن توقف المطر عن الهطول! بينما تنبش لِيلى من جديد في محفظة نقودها لكي تدفع الأجرة وتقدر البقشيش. وانتظر أنا وصول ذراعها إلي لكي تمسك بي. وحين لا يأتي البريد إلا بفواتير أقولِ عادة: لا بريد لي أبداً في هذا اليوم! لا نتحدث عن الفواتير إلا إذا كانت غير عادية؛ بينما الفواتير المتعلقة بأجرة البيت والفواتير الدورية للهاتف والكهرباء والتدفئة وترحيل القمامة ومكتب المرور وكل ما يتكرر بشكل دوري طبقاً للتقويم، فتلك فواتير عادية وهي لذلك لا تشكل

موضوعاً للحديث شأنها شأن المبالغ التي تدفع للتأمين الإلزامي على الشيخوخة. في ما يخص كل هذه الأمور تجدني أعمى. وحين لا تكون لِيلى في البيت، أدفع من النقود الموجودة في الدرج. ولِيلى لا تحاسبني في هذه الحالة، إلا أنني مع ذلك أُعلمها في كل مرة، إذا لم أنسَ، أن الدرج أصبح خالياً من المال. فترتاع لِيلى من ذلك أو لا ترتاع. ومع أنني من حيث المبدأ، لكي لا أخلق مشكلة مالية بيني وبينها، لا أهتم بأوضاع الواردات والنفقات، إلا أنني أتفهم تماماً حرص لِيلى المفاجئ - دون أن تكون بخيلة - على وجوب التوفير. أنا أحترم مشاعرها. واستغني عن سيجارات دون أن أُظهر استيائي من ذلك، مع معرفتي في الوقت ذاته بوجود طبقات كاملة من الشعب لا تدخن سيجارات. أنا على استعداد, كما تعلم لِيلى، لأي استغناء عن أي شيء. وحين تزودني لِيلى، بالرغم من ذلك، بسيجارات، بعلبة مليئة منها حتى ولو لم تكن سيجاراتي المفضلة، فأنني أدخنها بالطبع؛ لا بد وأن تعرف لِيلى مدى إمكانياتنا. وكوني أخيراً بحاجة إلى بدله سموكينغ، فإن تلك ليست فكرتي أنا ولا أزال أرجئْ هذا المشروع قدر الإمكان؛ ولا أملك حذاء لماعاً ملائماً للبدلة أيضاً. بالمقابل لا بد لي من الذهاب إلى طبيب الأسنان، أمر ضروري، ولا حاجة بي إلى الإفصاح عن مدى تألمي. لا نتحدث عن ذلك. ولا أسأل كم تكسب لِيلاي من المال؛ هي ذاتها لا تعرف وأنا لا أرى سوى كم هي تعمل وأجد باستمرار أن عليها أن تمنح نفسها إجازة استجمام وراحة. من كل بد. هذا أمر ضروري بالنسبة إليها، ويمكن لأعمى أن يراه. مصروف الجيب، الذي تقدمه لِيلى إلي، هو مبلغ متأرجح، لكنه وسطياً مبلغ يكفي لأن أقدم إليها هدية بمناسبة ذكرى يوم ميلادها أو بمناسبة أعياد الميلاد، الأمر الذي ليس بمقدورها أن تفعله؛ وفي كل مرة تُبدي تأثيراً عميقاً فأقبلها أثر ذاك على شعرها. وعندما أخرج مع سيدة أخرى، وذلك أمر وارد في الحسبان، فلا يتم ذلك بموجب دعوة توجه إلي؛ لهذا فإن تبديل دورينا بعضهما ببعض لا يصبح تماماً. كل امرأة، بقدر ما تكون متأكدة من أنني لا أعتبرها قابلة للشراء، تقبل الدعوة. هكذا هو الوضع وإنني أجد فيه متعة وسروراً. بالمناسبة ثمة حالة من

التعادل طالما أن لِيلى أيضاً عندما تخرج مع رجال آخرين تتلقى دعوات حتماً وأنا أعرف أن لِيلى تجد في ذلك متعة حتى ولو أن السبب الوحيد هو أنها لا تمد باستمرار يدها إلى محفظة نقودها من أجل كل فنجان من القهوة، كل سيارة أجرة، كل سيدة مشرفة على حجرة الملابس، وكل جريدة، كل سينما وكل ساعة موقف للسيارات. في بعض الأحيان أشفق على لِيلى. فأخادعها بأن أدفع من وراء ظهرها؛ ولِيلى لن تلاحظ ذلك أبداً، فهي امرأة ولو أنها امرأة مستقلة. لكنني لا أمارس مخادعتي معها أكثر من اللازم لئلا أسلبها الشعور بالاستقلالية، لا تعرف لِيلى أن لي حساباً بنكياً خاصاً بي ولن أفصح لها ذلك أبداً. وإلا فلن يصح ذلك. ولكي أكون واضحاً؛ لم أدفع أبداً شيئاً من حسابي لصالح أية نفقات تتعلق بي شخصياً. فأنا أعيش بالتمام والكمال، من قمة الرأس حتى أخمص القدم، على حساب لِيلى. إنها تعلم ذلك وهذا يكفي. ما أدفعه من حسابي السري هو عبارة عن نفقات يومية لا تستحق الذكر، ضريبة الكلب وما يترتب عليها من غرامات محتملة مزعجة، غيار زيت وتشحيم، طوابع، رسوم، متسولين، عتالين، جيش الخلاص، كلها مصاريف تافهة. بكل بساطة لا أستطيع أن أرى امرأة، تماماً كما يفعل الرجال، لا بد لها باستمرار من أن تلجأ إلى فتح محفظة نقودها. ويكفي من حيث المبدأ أن لِيلى تنفق على طعامي ولباسي وأنني لا أفعل شيئاً من أجل إطعامها، إلباسها، زينتها، ترفيهها وترفيهنا معاً. وحين تقول لِيلى: دعنا نأكل اليوم طعاماً من سرطان البحر! أنصاع إلى مزاجها البهيج. لماذا ينبغي أن يقرر الرجل متى يحين موعد الترف والنعيم؟ لكل إنسان حاجته إلى الترف في ساعة أخرى وواحد من الاثنين لا بد وأن ينزل عند رغبة الآخر. لِيلى غير متعقلة كرجل يدفع. لكنها تدفع في واقع الأمر. أن تعقّل الآخر، الذي لا يدفع، هو عبارة عن إفساد للعبة وأنا أتحاشى ذلك ولو أنه ليس من السهل دائماً أكل طعام مكون من سرطان البحر بدافع حب الآخر فحسب، لكن من يدع الآخرين ينفقون عليه لا بد وأن ينزل عند رغباتهم. لِيلى تنفق علي.

وهي سعيدة بذلك.

حياتنا اليومية مليئة بالمرح.

في أثناء الأمسية الموسيقية أرى السيدة شتوفل وهي تترقبنا على السلم وأقول في غمرة حديثنا: هل تعرفين بالمناسبة ماذا تفعل السيدة شتوفل؟ ذلك هو الآن آخر ما يشغل لِيلى. وأقول فحسب: أمل ألاّ تكون هنا! وأثر ذلك تشدني لِيلى بذراعي. وتقول: سوف تضحك، فهي تقف هناك! وأضحك أنا كما لو أنني لا أصدق ذلك، في حين كنا نستخدم السلم الآخر.

لِيلى تؤمن بحاستي السادسة.

فقد قرأت ذات مرة أن فاقد العينين يعرف بيته أكثر من أي شخص آخر يعتمد على عينيه؛ فالأعمى لا يخطئ الإمساك بأكرة الباب أو بالحنفية؛ وبقوة شعوره بالمكان، الذي لا يخيبه بسنتمتر واحد، تراه يجول في البيت كملاك لا يحدث أية ضجة. لِيلى قرأت ذلك، ولو بكلمات علمية، في مجلة أمريكية وبقلم بروفسور كان أجرى حول هذا الموضوع أكثر من ألف اختبار. لِيلى تتلو علي ما كانت قرأته. وأنا اعتمدته. لكن ذات مرة حين يؤدي ماس كهربائي إلى انتشار الظلام في منزلنا، أبذل جهداً كواحد يرى وبالتالي لا يرى لأن الظلام دامس وشديد. لكن بما أنه دامس وشديد فإن لِيلى أيضاً لا تستطيع أن ترى كم أبذل أنا من الجهد وعندما أظهر أخيراً وفي يدي شمعة منقذة، أكون من جديد بمثابة ملاك بالنسبة إليها.

أتخيل:

لِيلى وهي تشتري ثياباً لها، على غانتنباين أن يرافقها، لأن ذلك يسهل عليها اتخاذ القرارات، وهكذا أجلس طيلة فتراتٍ من بعد ظهر أيام عديدة باعتباري رجلاً وحيداً في المتجر الصغير، لكن ذي الأسعار العالية، والذي يحظى بتقدير ذوات الذوق الرفيع من جميع أنحاء العالم، وأنا محاط بتايورات معلقة ومرايا منصوبة؛ وحيثما أنظر: أرى غانتنباين بعصاه الصغيرة السوداء

بين ركبتيه والنظارة السوداء في وجهه. وأرى: أن غانتنباين أصبح أكثر تأنقاً منذ أن ضمنتُ إعالتي والأنفاق علي؛ بذلك أدين إلى لِيلى؛ رجـل أعمـى ذو مستوى اجتماعي مرموق. لِيلى تجرب الآن الموديل التالي، الخامس من نوعه الذي ينبغي أن يخضع لرأيه. أنا في حالة من الترقب والانتظـار؛ لا بـشأن الموديل، بل بشأن حكم غانتنباين عليه. والسيدة التي تدير المحل المرمـوق، ليست بائعة بل فنانة وصديقة إضافة إلى ذلك، هي من جهتها مائلة قليلاً إلى السمنة بحيث لا تستطيع أن تضاهي زبوناتها في مجال الأناقة لكنها سيدة ذات مستوى اجتماعي عالٍ وهي لا تعامل لِيلى على أنها زبونة بل أخت أن صح التعبير وذات ذوق رفيع وإنسانة وواحدة تشاركها تذوقاتها وأعجاباتها، وهذه السيدة لا تتطلع - كما تلمّح باستمرار - إلا إلى إبداء تفهـم إزاء سـرورها الغيري والعفوي بهذا الموديل بالذات الذي سوف ترتديه لِيلى الآن، هذه السيدة إذن، التي لا أطيقها معجبة بغانتنباين أيما إعجاب. ففي رأيها أنه ما من رجل، زوجاً كان أم عاشقاً، يرضى بإضاعة هذا القدر من وقته (في انتظار امـرأة تجرب ملابس لتنتقي أفضلها وأنسبها، المترجم). بعد ذلك تجدنا، لِيلى وأنـا، باستمرار مرتبكين حائرين في ما يتعلق بعلنية حبنا. الآن تقوم السيدة بإغلاق الستارة؛ وهي في الوقت ذاته مقتنعة بأنني أعمى بالنسبة إلى الأسعار التـي تدفعها لِيلى في كل مرة برزم من الأوراق النقدية، خفيةً عن الأنظار على حد ظن السيدتين؛ وبما أن صاحبة المحل - بالرغم مما تنسب إلى نفـسها مـن معرفة بالناس - تجهل تماماً من منا يتفق على من، فإنني في نظرها لـست أكثر الرجال الذين ملأوا متجرها الصغير بالدخان، متجرها الـصغير لكـن المرتفع الأسعار، هي لا تسميه بالطبع متجراً بل مشغلاً أو بوتيكاً، لست أكثر الرجال صبراً فحسب بل وأطيبهم قلباً أيضاً. وطيلة وجود لِيلى فـي الـركن المخصص لتجريب الملابس، فأن البائعة تعاملني باستمرار وكـأنني لـست أعمى. سوف ترى! هكذا تقول لي ثم ترسل عبر الشارع من يأتي إلي بفنجان من القهوة لكي لا تقلَّ مقدرتي على الحماس والإعجاب: سوف ترى بالتأكيد! تلك هي عباراتها لكن لِيلى أيضاً تتظاهر من خلف الستارة بأن كل ما يجري

يصب حصراً في صالح مسرتي وترفيهي. وأنا أشرب القهوة أجلس كالباشا الذي يتبضع لمجموعة كاملة من الحريم؛ ولِيلى مجرد عينة من حريم كاملة. وثمة كتاب كامل يعج بنماذج من أنواع الحرير، ماذا يمكنني أن أفعل به؟ لا يساور الناس شك بأنني أعمى، لا بل العكس؛ إلا أنهم مع ذلك يريدون إشعاري بأنهم يأخذونني على محمل الجد. بالطبع لا أزيح نظارتي عن وجهي أبداً. فعندما يقتضي الأمر، انظر إلى لون القماش بطرف عيني عبر النظارة. لا أفعل ذلك لفترة طويلة وإلا فسوف تعتريني الدوخة. بل اكتفي بحول عيني في اللحظة الحاسمة فحسب.

وتقول لي لِيلى: «لقد قررت».

«حسناً».

فتثرثر السيدة صاحبة البوتيك قائلة: «أنا متأكدة من أنك لن تندمي على قرارك. وكما أسلفت، فقد سبق أن رأيت هذا التايور في محلات ديور ففكرت بكِ على الفور يا مدام غانتنبابن»–

وأنظر الآن بطرف عيني.

وأسمع: «من يحق لها أن تلبس هذا إذا لم تكوني أنتِ يا مدام غانتنبابن! لكن القبة، كما أسلفت–»

أرى أن التايور غير ملائم على الإطلاق.

وتقول لِيلى مرة أخرى: «لقد قررت!»

على أن تكرار قولها هذا يدل على أنها غير واثقة من قرارها وبحاجة إلى مساعدة. لِيلى ذواقة وذات منبت أيضاً ككل إنسان. على افتراض أن لِيلى هي ابنة لصاحب مصرف: بالطبع سوف تخجل من أية قبة من شأنها أن تظهرها بمظهر نسائي أكثر من اللازم وسوف تقع باستمرار في أحبولة كل مظهر يتم عن بساطة وترتيب. أو لنفترض أن لِيلى ابنة لتاجر إلزاسيّ في مجال لوازم الخياطة: سواء لاءمها التايور أم لم يلائمها، فإنها سوف تذعن

إلى كل مظهر نسائي – كبير، وسوف تصاب إضافة إلى ذلك بعمى الألــوان في اللحظة الحاسمة – يجب علي أن أساعدها. لا أعرف ما إذا كان مــصمم الأزياء الشهير السيد ديور يحب لِيلى وقد صمم هذا الزي بالذات خصيــصاً لها. أما أنا فأنني أحب لِيلى سواء أكانت ابنة. رجل مصرفي أو تــاجر فــي قطاع لوازم الخياطة أو قسيس بوريتاني متزمت – وذلك أمر وارد أيضاً في الحسبان. أقول في تلك اللحظة:

«حسناً».

«لعلمك، لم يعد علينا إلا أن ندبِّس التايور تمهيداً لإصلاحه–»

لِيلى تُدبِّس.

وأسأل: «هل اخترت التايور الأصفر؟»

فتقول: «كلا، الأحمر القاني».

السيدة والأخت والفنانة، التي عليها الآن أن تجلــس القرفــصاء لكــي تسرِّج حافة التايور بالدبابيس، لم تصدق كم يلائم هذا التايور لِيلاي؛ وأنا أرى كم من الجهد تبذل لِيلى، التي بالكاد تستطيع الآن الإتيان بأية حركة من جراء الدبابيس المغروزة، وذلك بتدوير رأسها إلى المرآة التالية لكي تصدق بالرغم من كل الدبابيس المغروزة في حافة التايور ما يستعصي على التصديق.

وأسأل: «أحمر قانٍ؟ كنبيذ البور غوندر؟».

«نوعاً ما».

وأقول: «أجل، أنه يلائمك».

من الصعب التعامل مع رجل أعمى!

ثم أسألها مرة أخرى: «كنبيذ البور غوندر؟ أم كيف؟».

ويتذكر الأعمى، غانتنباين، أصنافاً عديدة من اللون الأحمر. ويقول في نفسه: قد يلائمها أيضاً لون سمك السلمون الأحمر، حتى لون الأجر الجــاف،

ربما أيضاً اللون الأحمر القاتم كما تظهره عادة الورود الذابلة، أحمر الخّبث الناجم عن صهر المعادن أو ما شابه. غانتنباين يحب اللون الأحمر. وهو يتذكر، على قوله. لوناً أحمر وحيداً قد لا يلائم لِيلى: أنه نوع من لون أحمر ضحل، زائف، كيميائي، شبيه بلون شراب الليمون. استراحة. ثم أخذ يتذكر: أحمر هو لون الدم، لون الإنذار بالخطر، على سبيل المثال الراية الحمراء التي تحذر من حدوث تفجيرات، لون أفواه السمك، لون القمر عند طلوعه وأفوله ولون الشمس عند شروقها وغروبها، لون النار، لون الحديد في النار، وأحياناً يكون لون الأرض أحمر وأيضاً لون النهار خلف أجفان مغمضة، حمر هي الشفاه وأحمر هو منديل الرأس فوق المناظر الطبيعية، البنية والخضراء والرمادية، التي رسمها (الفنان الفرنسي، المترجم) كوزو، حمر هي الجروح وشقائق النعمان، حالات الخجل والغضب، أشياء كثيرة هي حمراء اللون، قماش البلّش في المسرح، ثمر الزعرور، البابا، المناديل المستخدمة في مصارعة الثيران، ويقال أن الشيطان أحمر اللون، والأحمر مشتق من الأخضر، بل الأحمر هو اللون الذي يتصدر كل الألوان – بالنسبة إلى غانتنباين.

تم غرز الدبابيس في كنار تايورها.

تقول لِيلى حينئذاك موجهة كلامها إلي: «ليست حمرة هذا التايور شبيهة بشراب الليمون».

أما أنا فأدخن وانتظر.

وتقول السيدة صاحبة البوتيك: «كلا يعلم الله أنه ليس كذلك!»

أدخن وانتظر.

وتسأل لِيلى وهي تنظر في المرآة إلى الأسفل باتجاه السيدة المقرفصة: «أم هل تجدين أن حمرته شبيهة بشراب الليمون-»

«إطلاقاً!»

وفي المرآة أرى مدى تردد لِيلى ودهشتها.

وتقول البائعة موجهة كلامها إلي، وقد نفد صبرها، إنها تعتبر كل الرجال مصابين بالعمى: «يمكنك أن تكون مطمئناً». وتقول ذلك ثم توجه كلامها إلى لِيلى: - «سيكون السيد في غاية السرور لو أنه يستطيع رؤيتكِ الآن».

باعتباري أعمى وغير ملزم بأن أكون في غاية السرور فأنني أطرح مزيداً من الأسئلة ولِيلى تجيب عليها بثقة تعجز عن مقاومتها في المرآة؛ على سبيل المثال:

«أليس التايور أيضاً بسيطاً أكثر من اللازم؟»

أنها ألفاظ طنانة.

وتقول لِيلى: «كلا، ليس بسيطاً».

أتابع التدخين.

فتقول لِيلى بصوت شبه عال: «أرجو أن نجرب مرة أخرى التايور الأصفر» - ربما تعرف لِيلى منذ فترة طويلة أنني لست أعمى وهي تترك لي أمر الاستمرار في لعب دوري بدافع حبها لي فحسب.

أتخيل

لِيلى، وهي ترتدي المعطف، تمشي على خشبة المسرح، تجري تدريبات، لِيلى تتدرب على دور ليدي ماكبث، وأنا أجلس في ظلمة إحدى المقصورات وأمد ساقيَّ على مقعَد الكنبة الأمامية وأمضغ جوزات إسبانية بعد أن أكسرها في ظلمة جيبه سترتي لئلا أخلف قشوراً (متناثرة في المكان، المترجم)، يعني خبط عشواء؛ القشور تبقى في جيبتي، ويزداد الوضع إثارة باستمرار حين أجد بين القشور المكومة في جيبتي في كل مرة جوزة صغيرة.

إدارة المسرح توافق على وجودي ولو بامتعاض؛ لا بد لها من ذلــك لكــي تستطيع أن تضن على لِيلى، التي تفرض في هذا البيت ما تــشاء، بتحقيــق رغبة أخرى بديلة. ربما تتساءل الإدارة عن جدوى مجيئــي، وأنـــا أعمـــى، لحضور التدريبات على أداء الأدوار. تلك هي رغبة لِيلى. وهـــي تقــول أن حضوري يشكل عوناً لها... إذن: لِيلى تمشي على خــشبة المــسرح، لِيلــى مرتدية المعطف، تحيي الجمهور وتتلقى تحيته كما لو أنها ليست متأخرة، لا أعرف كيف تتمكن من تبرير ذلك؛ أتينا إلى المسرح معاً وتقريباً فــي الوقت المحدد، لأن لِيلى لم تستطيع مرة أخرى أن تجد ساعتها ولم أمررها لها اليوم بقصد أن نتمكن من الوصول في الوقت المحدد. لا بد وأنها أحست بذلك لدى وصولها إلى مدخل المسرح. ربما كان سبب تأخيرها اشتباكها في حديث لها على الدرج مع أحد الناس أو تسلم رسالة من البواب، لا أعــرف، على أي حال تكرر تأخر لِيلى هذه المرة أيضاً؛ وننتظر، هدوء قبــل البــدء بالتدريبات، ضربات مطرقة وراء الكواليس، هدوء، المخرج بمحاذاة المنصة يبحث مع مساعده أموراً ليست ملحة لكنها ضرورية لئلا يشعرا ويشعر معهما الممثلون المنتظرون بأن الجميع ينتظرون قدوم لِيلى. سوف تصل فــي أيــة لحظة، لقد شوهدت وهي تمشي على خشبة المسرح، أنها في غرفة ملابسها. هدوء، ثم شتائم المُخرج التي أفهمها وأنا في المقصورة. ليس في نية لِيلى أن تجعل الناس ينتظرون قدومها، بل تلك واحدة من مواهبها. أنهم ينتظرون. لو قلت لها فيما بعد ما سمعته، فسوف لن تصدقني؛ لم يسبق لها مــن قبــل أن سمعت شتائم بهذا الشكل، بل العكس، سوف يُــسحر النـــاس بهـــا، ســـوف يستسلمون حين تأتي. إذن أنا أنتظر وأمضغ جوزاتي الإسبانية الصغيرة طالما أن التدخين في المقصورة غير مسموح، وأنتظر...

ظهور الليدي ماكبث.

مرتدية كنزه؛ لكن الناس يصدقونها-

بالطبع لا يستطيع غانتنباين أن يتدخل إذا ما أتى المُخرج بفكرة تعيسة؛ فليس ثمة مخرج يرضى بأن يقع تحت تأثير شخص أعمى. ومع ذلك فأنني أشكل عوناً بالنسبة إلى لِيلى. سراً. بعد التدريب.

على سبيل المثال:

المُخرج، في ما عدا ذلك رجل بصري الطابع، منشغل الآن بفكرة أن يقود لِيلى تماماً بمحاذاة مقدمة المسرح حين تريد أن تمسح عن يديها الدم الذي حلمت به. هذه المرة بطريقة مختلفة، لا بأس، لكن سيئة. استغرب من أنه لا يرى المشهد وأعود إلى مضغ جوزاتي الإسبانية في حين تظهر لِيلى رغبة تامة، أعني في التجول على مقدمة المسرح... في ما بعد، في أثناء تناول طعام الغداء بعد التدريبات، أسأل لماذا ألغي دور كل من الطبيب والمرضعة، الذي كان شكسبير وظفه في النص من أجل هذا المشهد المشهور؛ سؤال مسموح لشخص أعمى، ذلك لأنني لم اسمع الطبيب والمرضعة، اللذين صحيح أن ليس عندهما الكثير مما يقولانه لكنهما يقفان بجانب الليدي عندما تتحدث في حلمها الجنوني. في واقع الأمر، كما أسمع، ألغي دورهما بسبب افتقارهما إلى ما يقولان. ما الذي أفكر به في ما يتعلق بهذا الأمر هو في غاية البساطة؛ لكن كيف ينبغي لغانتنباين (دون أن يفصح عن أنه يستطيع أن يرى ما يراه أي إنسان) أن يوصل انطباعه إلى الرجل الذي، وهو أعمى في ما يتعلق بالأفكار، يتناول لتوه طعامه من الفيليه مينون؟ ولكي لا أكشف الآن عن حقيقة أنني أرى كما يرى جميع الناس فأنني اسأل الكرسون عن وجبة من طعام الفيليه مينون... في أثناء التدريب التالي، حين تظهر سيدتي من جديد وتضع الشمعدان في مقدمة المسرح وغسلت يديها أمام الطبيب والممرضة، اللذين اخترعهما شكسبير باعتبارهما متفرجين مختبئين، بل أمام الجمهور وحده، أغمض عينيّ لكي اختصر انطباعي. وأسمع الفرق، حين أستذكرت لِيلى في البيت الدور الذي ستمثله، وهي لا تعرف أن

غانتنباين كان يسمعها وهو مختبئ كالمرضعة والطبيب، رن صوتها بنبرة شبيهة بما يصدر عن إنسان تغمره عزلة خوفه، ووجدت ذلك أمراً مؤثراً ومحزنــاً. والآن اختلف الأمر. إلى ذلك أجدني مستمراً في مضغ جــوزاتي الإســبانية الصغيرة. ذات النص، ذات الصوت؛ ومع ذلك ليس ذات الأداء ولأنها تقــف على مقدمة المسرح، الطبيب والمرضعة لا يسترقان السمع إليها وهــي فــي غمرة جنونها لا تراهما، بل هي وحيدة على مقدمة المسرح؛ النقاد والجمهور يسترقان السمع إليها. يجب أن أقول لها ذلك. أقول في إحدى الاســتراحات: في أدائك نبرة شبيهة بما يصدر عن سيدة من مجموعة – أوكسفورد تعرض تعاستها كفقرة اجتماعية، وضع يدعو إلى التثاؤب؛ وحين ينضم المُخرج إلينا كي يواسي لِيلى، أسأله ما إذا كان يرى هو أيضاً أن النبرة الكامنة في أدائهــا شبيهة بما يصدر عن سيدة من مجموعة – أوكسفورد، عارضة جسد، وفــي أدائها نبرة كما لو أنها تقف على مقدمة المسرح، أجل كما لو أنها تقف علــى مقدمة المسرح–

يغيرّون أحياناً.

دون أن يُعلموا غانتنباين: لكي يختبروا سمعه... بعد التدريبات انتظــر دائماً بجانب باب المسرح الخارجي متكئاً على عصاي الــصغيرة الــسوداء وأتظاهر بأنني لا أعرف حتى أشهر الممثلين، وفي بداية الأمر كان الممثلون يمرون بي باستمرار دون أن يجودوا علي بإيماءة تحية، لا مــن بــاب قلــة اللباقة؛ لكن ما نفع أن يومئ الناس تحية لأعمى. على أبعد تقدير كان يقــول واحد منهم حين يمر بي: سوف تأتي زوجتك في الحــال!. أنــىّ لممثــل أن يتحدث مع شخص لم يره في حياته. لكن هؤلاء الممثلين صــاروا بالتــدريج يومئون لي محيين، لكنني للأسف كيلا أتخلى عن دوري لا أرد بأي شكل من الأشكال تحيتهم؛ بل أحملق كفزاعة الطيور؛ بدون تحيــة، لكننــي أرى أن احتراسهم يزداد. احتراسهم من سمعي. وذات مرة يخاطبني أحدهم ويريد أن

يعرف ما إذا كان أداء التمرد في الفصل الثالث، طالما أن المسافة بينهم تقلصت الآن إلى أقل من سبعة أمتار، يوحي بتمرد واقعي. يبدو أن لِيلى ثرثرت (في أثناء أداء دورها؟ المترجم). الرجل الذي يقدم لي نفسه:

«أنا ما كدوف».

وأقول: «أجل، اليوم ثمة نبرة مختلفة».

قال ما كدوف (لزميل له؟، المترجم): «ألم أقل ذلك؟»

ويقول ممثل أخر وأرى أنه يوجه كلامه حصراً إلى الأعمى غانتنباين: «ألا تجد أيضاً أن من الأفضل، من الأفضل إلى حد كبير بل ببساطة من الأصح أيضاً ألاّ ينظر» – ويشير في تلك اللحظة إلى شخص ثالث – «إلى الساحرات اللواتي من إذا صح التعبير مجرد نسخة معدلة مني أنا؟»

وأغدو معقود اللسان لا أنبس ببنت شفة.

ويسألني: «أم أنك لا ترى ذلك؟» ثم يتذكر أنني لا أستطيع أن أراه فيقول: «أنا ما كبث».

وبدوري أقدم له نفسي أيضاً:

«غانتنباين».

ويأخذون يدي باعتباري أعمى لكي يصافحوني.

ويقول الثالث: «أنا بانكو».

فأقول: «يُسرني التعرف عليك».

لِيلى تخرج من المسرح دائماً آخر الناس.

أتخيل:

أسأم من حين لآخر من لعب دور غانتنباين وأتوجه نحو الطبيعة. بعد الظهر في الغابة الخضراء Crunewald (في برلين، المترجم). وأجمع أكواز

صنوبر ثم أقذف بها قدر ما أستطيع باتجاه غابة كرومي لاتكـي؛ وبـانش، كلبنا، يقفز في المياه الراكدة، المائلة إلى اللون البني وتعلوها الفقاعات. أرى أكواز الصنوبر السابحة في الماء، لكن بانش لا يراها، يعميه الحماس، يجدف بيديه. وأرمي كوزاً ثانياً. وأشير إلى الكلب بذراع ممدود لكي لا يسبح فـي الفراغ ويبدأ الآن باللهاث ثم يدور. أذنان وبوز ممسك بكوز الصنوبر وعينان فوق الماء... أحب حباً جماً بحيرات نهر الهافل هذه، ذكريات، وكيـف هـي أوضاع برلين، لا حاجة لغانتنباين أن يراها؛ اسمع صخب حيـاة ناشـطة... عينان فوق الماء في حين تتخبط أرجله الأربعة وتتقلب وهي مختفيـة عـن الأنظار تحت الماء، هذا هو كلبنا بانش؛ أنه كلب غير مؤهل لقيادة العميـان؛ علي أولاً أن أؤهله للقيام بهذه المهمة وبالطبع لا يتيسر لي ذلك إلا في منطقة خالية من الناس على مدى واسع، على سبيل المثال في فترة قبل الظهر فـي الغابة الخضراء أبان تواجد لِيلى في المسرح. عمل وتدريبات كثيـرة هنـاك وهنا. لكن بانش لم يتقن بعد أداء دوره في تمثيل المشهد الذي يتمكن فيه من إيجاد العصا السوداء الصغيرة لسيده الأعمى. هل يرجع ذلك إلى أنه غبي أم ذكي أكثر اللازم؟ والآن يخرج بانش من الماء إلى اليابسة وكوزنا الصنوبري في فمه. ثم يتسلل عبر أدغال الضفة محركاً ذيله، لاهثاً، ويقف هنـاك أمـام كوز الصنوبر في الرمل وينفض عن وبره قليلاً من رذاذ المطـر. شـاطر، بانش، شاطر! لم أصل بعد إلى وضع يمكنني من تجاذب أطـراف أحاديـث كاملة مع كلبي، في أثناء متابعة سيري في الغابة – المكان خال من النـاس على مدى منطقة واسعة – استخدم عصاي السوداء الـصغيرة المخصـصة للعميان في لعب شكل من أشكال لعبة القاعدة Baseball بـأكواز الـصنوبر. على الشاكلة التالية: كوز من الصنوبر في يدي اليسرى وعصاي فـي اليـد اليمنى، والآن أقذف بكوز الصنوبر في الهواء – لكي أضربة لدى نزوله إلى الأسفل بعصا العميان... سبع إصابات لكل عشر ضربات، لا بأس، وبـانش يركض عبر الرمل البراندنبورغي باحثاً عن كل إصابة. لعبة مخففة من حدة

توتر الأعصاب. احتاج إلى ذلك من حين لآخر. يجلس الكاثوليكي على كرسي الاعتراف لكي يستخرج من عناء ذاكرته، إجراء رائع؛ فهو يركع ويخرج عن صمته دون أن يسلم نفسه للناس ثم ينهض بعد ذلك واقفاً ويعود إلى تأدية دوره بين الناس متحرراً من حاجته المشؤومة إلى أن يتعرف عليه الناس. ليس عندي سوى كلبي الذي يصمت كقسيس، ولدى وصولنا إلى أولى بيوت البشر أداعبه بيدي. شاطر، باتش، شاطر! ونعود إلى وضعنا العادي حيث يقود كل منا الآخر. وتنتهي لعبة أكواز الصنوبر! باتش يفهم الوضع، وبعد أن أرمي كتاب الجبيب الذي اقرأ فيه (اقرأ لكي أعرف الناس من خلال الأحكام التي يصدرونها) في أول سلة للمهملات في طريقي، نمشي من جديد كما ينبغي: أعمى وكلبه. وفي محطة العم توم نستقل حافلة المترو.

تناول القهوة في شارع كور فُير ستندام.

صحفيون، ممثلون، مصورون، دكتور، معجبون من كل المستويات العقلية، أحياناً تنتابني نوبات من نفاد الصبر لا بل من الغضب لأنهم يعتبرونني أعمى، لمجرد أنني زوجها؛ عندما أسمع كيف يظنون أن عليهم أن يعلِّموني:

«لِيلى امرأة رائعة!»

فأداعب الكلب.

ويقول أحدهم: «أنت لا تعلم كم هي امرأة رائعة زوجتك».

استراحة.

ماذا ينبغي أن تعلق لِيلى على ذلك؟

وماذا ينبغي أن أعلق أنا على ذلك؟

لِيلى تزيح ربطة عنقي إلى مكانها الصحيح.

وأنا أرى:

لِيلى مخطوبة الود من كل من لهم في رؤوسهم عيون، وتصبح عيونها من جراء ذلك بفعل الأنبهات والتحديق أكثر جماداً من نظارتها العاجية، لِيلى حيال ذلك عزلاء من أي سلاح إلى درجة أنهم يمسكون يدها أو ذراعها وهي، على حد علمي، لا تطيق هذا التمادي. كيف ينبغي لي أن أقول للسادة هذه الحقيقة؟ قد أستطيع الآن أن اقرأ جريدة دون أن أثير انتباهاً أو ضجة، إلى هذه الدرجة يثقون بأنني أعمى. لماذا يبدو على الرجال المتيمين الغباء أكثر من أي شيء آخر؟ أنهض واقفاً. فتسأل لِيلى المحتفى بها، ما الأمر، ويدير المحتفون رؤوسهم أيضاً لمعرفة ما حدث. لا شيء! معطفها انزلق عن الكنبة ولم ير أحد ذلك، فأقول: أعذرني يا دكتور، أنك تدوس باستمرار على معطف السيدة. ويقول هذا: أوه! ثم يسحب حذاءه في الحال إلى الوراء، لكن لا تُستخلص من ذلك أية نتائج. ويعتذر الدكتور من لِيلى.

الظن ببساطة أن الزوج مصاب بالعمى هو ظن ثابت لا يتزعزع.

أحياناً لا أجد الوضع سهلاً أبداً.

لكن الفوائد، أقول لنفسي بعد ذلك، الفوائد، لا يجوز أبد أن تنسى فوائد دورك، الفوائد جملة والفوائد تفصيلاً؛ ليس بالإمكان خداع رجل أعمى... ثمة رجل أخر يلعب دور كاتب يرتفع اسمه باضطراد على قائمة المبيعات الشهرية لا بل يصل في الحقيقة إلى القمة لأن عناوين الكتب الأخرى، الكلام يسرك، لا تؤخذ على محمل الجد؛ اسمه يحوم تماماً في المجال الذي لا نستطيع بعد أن نسميه المجال الأكثر رواجاً لكن تماماً على أعلى تخوم الحدث الأدبي. لكنه لا يعرف أنني سبق أن رأيت قائمة المبيعات وهو الرجل الوحيد على الطاولة الذي يتوجه في حديثه إلى الأعمى غانتنباين وأنا بدوري الوحيد غير الملزم بمعرفة أعماله الأدبية. أنني أعامل كل شخص يحتاج إلى الشهرة على أنه ذو شهرة. ويقول الرجل المشهور: «انظر-»

فأرى وأنا أمسك باتش، الذي يتمنى الهروب دائماً من الأوساط البشرية البحتة، في مقوده، أرى في حين يتحدث الرجل عن نفسه مع غانتنباين

الأعمى كيف أنه يرقب باستمرار ما إذا فعلاً ليس ثمة آخرون يسمعون ما يقول؛ أرى: أن الرجل يأخذني على محمل الجد لأن غانتنباين لا يستطيع أن يخالف رأي أحد وبما أن الرجل، الذي يعاملني بجدية، هو رجل مشهور في الوقت الحاضر فإن الآخرين أيضاً أخذوا فجأة يعاملونني بجدية مماثلة. وفجأة طلب من غانتنباين أن يبدي رأيه في المستقبل الألماني، أجل، غانتنباين بالذات. راعني الطلب. لا أريد أن يعاملوني بجدية، لكن العميان بخاصة يؤخذون مأخذ الجد.

«كيف ترى إذن مجمل الوضع؟»

فأتظاهر بأنني لم يسبق أبداً أن رأيت الغرب، وعن الشرق ثمة معلومات كافية... في السيارة بعد ذلك. حين أخذت لِيلى تبحث من جديد عن مفتاحها الصغير، أبادر أنا إلى إعطائها محفظة يدها التي كانت تركتها ملقاة على الكنبة؛ كنت رأيتها، ونستطيع إذن الانطلاق في السيارة لكي نشرب كأساً من الشمبانيا في منزل الدكتور المفتون، أفهم الأمر، إذا صح التعبير لوحدنا بين أربعة عيون: لِيلى والدكتور وأنا. المفتون، الذي يجلس في المقعد الخلفي، يتحدث بلا كلل أو ملل كما لو أنني لست أعمى فحسب بل وأخرس أيضاً. أما أنا فأجلس بجانب لِيلى وأرى يداً على كتفها، يد تأتي من الخلف باعتبارها تعاطفاً مع لِيلى ومواساة لها على انتقاد سخيف في الصحف. من القسوة بمكان لو أنني اسكت تماماً على هذه الواقعة؛ فقد كان الانتقاد فعلاً تافهاً إلى درجة ظالمة، وأضع حينئذ يدي، العمياء، فوق اليد الأخرى التي كانت أثقلت كتفها الواهن منذ مرورنا بكنيسة الذكرى، وأقول: لا تكترثي بذلك! ونتابع سفرتنا بصمت.

إلى آخره.

ما تعلمتُه في المسرح:

إن ممثلاً، عليه أن يؤدي دور رجل أعرج، لا يحتاج إلى أن يعرج في كل خطوة يخطوها، إذ يكفي أن يعرج في اللحظة المناسبة. وكلما اقتصد، بدا

أكثر مصداقية. لكن اللحظة المناسبة هي أهم ما في الأمر. فإذا ما عرج حين يعرف أنه تحت المراقبة، بدا منافقاً. وإذا ما عرج دون انقطاع، فسوف ننسى أنه يعرج. لكن إذا ما تظاهر أحياناً بأنه لا يعرج أبداً، ويعرج حين يكون لوحده، فسوف نصدقه. ذلك باعتباره دروساً. أن ساقاً خشبية، في حقيقة الأمر متعرج بصورة متواصلة لكننا لا نلاحظ ذلك بصورة متواصلة وهذا هو ما على فن التصنع أن يؤديه: اللحظات المفاجئة، هي فحسب. فجأة نتذكر أن هذا الرجل يعرج حقاً فنخجل من نسياننا رزيته ونقتنع بفعل الخجل بأن المصنع لا يحتاج طيلة فترة من الزمن إلى أن يعرج؛ ويستطيع الآن أن يرتاح.

أظن أن غانتنباين مولع منذ زمن طويل بلعب الشطرنج. وهذا أيضاً أمر متيسر دون أية صعوبات.

أسأل مُلاعبي: هل حركتَ حجرك؟

فيقول: لحظة! لحظة!

وأنظر وانتظر...

ويقول مُلاعبي: أجل، حركتُ قطعتي.

والآن؟

فيعلن ملاعبي: A٣×B١

وأقول: بالحصان إذن ! وبالدرجةِ الأولى الملاعبون،الذين لم يتعودوا بعد على أن لوحة الشطرنج مطبوعة في ذهني، يندهشون في معظم الأحيان حين أقول وأنا أحشو غليوني بالتبغ: إذن بالحصان! وأكثر ما يدهشهم هو أنني أعرف باستمرار إضافة إلى ذلك أين توجد أحجاري دون أن أمسها أبداً؛ والآن أشعل الغليون في حين أقول:

B٤F٨×

كان مُلاعبي علق آمالاً على أنني نسيت فيلي، واعتراه الخجل؛ وترتب على ذلك أنه لم يفقد حصانه فحسب بل انتابه أيضاً الحرج وتكبيت الضمير، أرى أنه بدأ باللجوء إلى الغش.

وتسل لِيلى: والآن، من يربح الجولة؟

فيقول ملاعبي: غانتتباين! صوته جذل قدر الإمكان لكنه منفعل، أرى حجره، يعد أحجاره سراً، لا يستطيع أن يستوعب الوضع، سابقاً كان مُلاعبي يغلبني باستمرار، ولم أتعلم إضافة إلى ما كنت تعلمت، لم أتعلم البتة شيئاً جديداً ذا علاقة بالشطرنج. لكن مُلاعبي يستغرب. أنه لا يفكر، بل يستغرب.

وأسأله: هل حركتَ حجرك؟

فبدا كأنه لم يعد يرى أي شيء.

ويقول: حسناً $B_{٢}\times A_{٣}$

مُلاعبي يحسبني فعلاً أعمى.

أرجو ملاعبي أن يحرك $B_{٥}\times B_{١}$! وبينما عليه أن يخرج بأم يده قلعته من لوحة الشطرنج لكي يضع ملكته في خط ملكتي أنا – يهز رأسه، وطالما أن غانتتباين ليس في صورة الوضع فإن ملاعبي ذاته يقول: شاخ! – أقول موجهاً حديثي إلى لِيلى: ينبغي عليها ألا تزعجنا، لكن فات الأوان؛ فملاعبي يلقي ملكه على بطنه، الأمر الذي لا يحق لي أن أراه؛ فانتظرُ، منهمكاً في شهق الدخان من غليوني.

ويعلن هو : مات!

كيف؟

فيعلن مرة أخرى: مات!

سأصبح ظاهرة.

والآن تأخر الوقت إلى درجة أن لِيلى تركت حتى رسائلها مبعثرة في كل مكان، رسائل من رجل غريب من شأنها إذا ما قرأها غانتنباين أن تنسف حياتنا الزوجية من أساسها. لكنه لا يقدم على ذلك. بل يضع فوقها في أقصى الحالات نفاضة سجاير أو كأساً من الويسكي لكي لا تعبث بها الريح.

آمل ألا أفشل في يوم من الأيام في لعب دوري. ماذا تفيد الرؤية! من حين لآخر ربما يقدم غانتنباين، الذي لا يرقى إلى مستوى عظمة حبه، على نزع نظارة العميان عن وجهه – لكي يضع يده على الفور على عينيه كما لو أنهما تؤلمانه.

«ما بك؟»

فأقول: «لا شيء ياحبيبتي–»

«صداع؟»

لو عرفت لِيلى بأنني قادر على الرؤية، لشكّت بحبي لها ولحدثت الكارثة، زوج وزوجة، لكن لا زوجين، لأن السر فحسب، الذي يخفيه زوج وزوجة عن بعضهما بعضاً، هو الكفيل بأن يجعل منهما زوجين.

أنا سعيد مع زوجتي بشكل لم يسبق له مثيل.

حين تقول لِيلى لدى خروجها من المنزل، فجأة كما لو أنها مطاردة ومحرضة، لأنها على ما يبدو متأخرة، يجب عليها اليوم أن تذهب إلى الكوافير فشعرها – على حد قولها – شبيه بشعر ساحرة؛ وحين تعود لِيلى من الكوافير المعروف بطول انتظار الزبونات عنده، وفي غضون ذلك أرى من أول نظرة أن شعرها لم يكن عند الكوافير، وحين تخبرني لِيلى – دون أن تشدد على ذلك – عن حادثة ما في المدينة كانت رويت لها وقلنسوة كي الشعر فوق رأسها كما جرت العادة أن يسمع الناس مثل هذه الحكايات في صالون الكوافير، لا أقول أبداً: لِيلاي لماذا تكذبين؟ وحتى لو قلت ذلك بنبرة تنم عن حب كبير، يعني بروح مرحة، فسوف تستاء من قولي؛ وسوف تسأل

غانتنباين من أين له هذا الإدعاء الفظيع بأنها لم تكن عن الكوافير، غانتنباين الذي لا يستطيع أن يرى شعرها. إنني أراه، لكنني لا أجد أن لِيلى تشبه الساحرة. إذن لن أقول شيئاً، حتى ولا قولاً مرحاً. فأنّي لي أن أعلم أين كانت لِيلى منذ الساعة الرابعة بعد الظهر؟ في أحسن الأحوال قد أقول لدى مروري بها، دون أن ألمس شعرها الذي أحب، ذلك أمر بديهي: أنت تبدين رائعة! وهي لن تسأل بعد ذلك من أين لغانتنباين أن يزعم ذلك؛ يسعدها قول كهذا، وسيان عندها من أي شخص يصدر. وأنا أعني ما أقول بكل صدق أيضاً؛ لِيلى تبدو رائعة وبالذات عندما لا تذهب إلى الكوافير.

ولِيلى أيضاً هي سعيدة أكثر من أي وقت مضى.

عن زهور تظهر فجأة في منزلنا لا أتحدث إلا إذا كنت أعرف من الذي أرسلها؛ أي حين أعرف ذلك عن طريق لِيلى. وبعد ذلك أستطيع أن أقول بكل ارتياح:هذه السحالب المرسلة من إدارتك، على ما أظن، نستطيع أن نرميها في سلة القمامة. ولِيلى توافق على ذلك. ومن حين لآخر توجد زهور من الأفضل ألاَّ أمر على ذكرها، وردات لا تعرج لِيلى ذاتها على ذكرها، ثلاثون وردة طويلة العيدان ومع أن رائحتها الطيبة تملأ حتماً أرجاء المنزل فأنني لا أقول شيئاً عنها. وإذا ما أبدى إعجابه فجأة أحد الضيوف بقوله: كم هي رائعة هذه الوردة! لا أسمع شيئاً، وليس ضرورياً أن تقول لِيلى الآن من أرسلها. وحين أسمع منها اسم المرسل لا أفهم لماذا امتنعت حتى الآن عن ذكر الورود التي ما فتئتُ أراها منذ ثلاثة أيام. لِيلى تزعم أن المرسل هو معجب بريء بفنها وفي هذه الحالة لا يربك لِيلى إيجاد أسماء كثيرة تفي بالغرض؛ فعلى حد قولها ثمة معجبون كثيرون بفنها وهم لا يرثون فحسب لحال غانتنباين كونه -كما يعرفون - لا يستطيع أن يرى فنها، بل ويرثون أيضاً لحال لِيلى؛ فهم يجلون هذه السيدة لا إكراماً لفنها فحسب بل يجلونها بنفس القدر أيضاً لشمائلها الإنسانية النزعة طالما أنها تحب زوجاً لا يرى فنها. ولهذا السبب تُرسَل إليها الورود. أو ما شابه. لا أسأل البتة عمن أهداها

الأسوارة البهية. أن ما أراه أو ما لا أراه هو مسألة تتعلق بالكياسة واللباقة. وربما تكون العلاقة الزوجية برمتها مجرد مسألة كياسة ولباقة.

لِيلى تعاني أحياناً، كأية امرأة ذات عقل وثقافة، من انهيارات تعتريها. وتبدأ المشكلة باستياء سرعان ما أراه، وكل رجل لا يتظاهر بالعمى سوف يتساءل بعد برهة من الوقت ما الأمر، بحنو إلى حين وبعد ذلك بغضب طالما أنها تصمت وتزداد في الصمت إمعاناً لكي لا تخرج من حالة استيائها، وفي نهاية الأمر تدرك ذنبها دون أن تحدده بدقة:

هل: أزعجتك؟

قولي بحق إله!

ما الأمر؟

الخ.

كل هذه الأسئلة، سواء بنبرة حنو و انفعال أو حنو مرة ثانية أو جموح، طالما أنها بعد صمت مضن لا تجيب إلا بصوت منخفض وقريب من النحيب قائلة: لا شيء، كل هذه الأسئلة لا تسفر عن أية إزالة للتوتر، أعرف ذلك، بل لا تسفر إلا عن ليلة مؤرقة؛ وأخيراً، لكي أترك لِيلى وشأنها تلبية لرغبتها، أتناول وسادتي دون أن أنبس ببنت شفة وأذهب لأنام في غرفة الجلوس على الأرض، لكنني أسمع نحيبها بصوت عال أثر ذلك بقليل ثم أعود بعد نصف ساعة من الوقت إلى لِيلى من جديد. لكنها لم تعد الآن قادرة على التكلم بتاتاً؛ على أن دعوتي إياها للتعقل تكلفني بالذات أكثر من وسعي، وألجأ إلى الصراخ، الأمر الذي يُظهر أنني على باطل إلى أن يطلع الفجر وفي أثناء اليوم التالي أطلب الغفران دون أن أعرف سبب استيائها، ولِيلى تصفح عني-

غانتنباين مرتاح من كل هذه المنغصات.

فأنا لا أرى استياءها الذي من شأنه أن يجعل القادرين على الرؤية في وضع من الحيرة والارتباك؛ بل أثرثر خبط عشواء أو أصمت خبط عشواء متجاوزاً خرسها المفاجئ - اللهم إلا إذا اضطرت لِيلى نظراً لفقداني البصر إلى أن تخبرنني بصريح العبارة عن سبب استيائها هذه المرة؛ لكن بالإمكان التحدث عن ذلك.

ثمة وضع في حياة غانتنباين ينزع فيه عن وجهه نظارته المخصصة للعميان دون أن يتخلى بذلك عن دوره ففي الحب: وضع العناق.

زوج وزوجة.

أغلب الظن أن لِيلى تعرف رجالاً كثيرين، منهم الجيد ومنهم الرديء، وتعرف أيضاً فاشلين لأنهم يظنون أنهم ملزمون بشيء لا تعول عليه المرأة بالدرجة الأولى، ومغتصبين لا بدافع النشوة بل بدافع الإرادة، وطموحين يتحطمون على صخرة طموحهم، مملين؛ البهلوانيون هم الاستثناء من القاعدة، ربما ذات مرة صياد سمك إيطالي، لكنها في معظم الأحيان تعرف رجالاً ذوي عقول نيرة، عصابيين مشوشين ومتعبين، وحين يرون عينيّ لِيلى فهم يقبّلون بعيون مغمضة لكي يكونوا عمياناً من النشوة لكنهم ليسوا عمياناً، يعتريهم الخوف ويصابون بالصمم، لا يملكون يدي رجل أعمى، استسلام لكن ليس دون شروط، لا يخلو من الإزعاج، رقة، لكن لا رقة رجل أعمى من شأنها أن تحرر المرء من كل ما يريبه إذا عرفه انطلاقاً من الآخر؛ الأعمى لا يأتي من الخارج؛ الأعمى، وهو فانٍ في حلمه، لا يقارنها بنساء أخريات حتى ولا لهنيهة من الزمن، وهو يصدق بشرته-

زوج وزوجة.

في صباح اليوم التالي فحسب، حين تكون لِيلى لا تزال نائمة أو تتظاهر بأنها دائمة لئلا توقظه من حلمه، يتناول غانتنباين بصمت نظارته من جديد من على الكوميدينا لكي يزيل أي شكوك لدى لِيلى؛ فالسر فحسب، الذي يخفيه زوج وزوجة عن بعضهما بعضاً، هو الكفيل بأن يجعل منهما زوجين.

أتخيل:

غانتنباين يقف في المطبخ، لِيلى في حالة يأس فهي لا تستطيع رؤية غانتنباين، زوجها، في المطبخ دائماً. لِيلى في غاية التأثر والحزن. فهي لا تستطيع أن تصدق أنه لم يعد يوجد صحن نظيف في العالم، ولا واحد بتاتاً. وتقول: دعنا نخرج! لكي نعطي فرصة للأشباح التي تقدم المساعدة للناس المعوزين...

وهكذا خرجنا... لا تطيق لِيلى أن ترى القذارة، فرؤية القذارة تدمرها. وتقول لِيلى: لو تستطيع أن ترى منظر المطبخ من جديد! لِيلى تدخل أحياناً إلى المطبخ لكي تغسل كأساً أو كأسين، ملعقة أو اثنتين بينما يجد غانتنباين، المدعي ككل الرجال بأنه أدرى الناس في كل شيء، أن غسل الأواني بشكل متسلسل هو أكثر سرعة وخفة. وقضاء ساعة في المطبخ، سواء وهو يصفر، أم لا يصفر، كاف لأن يغسل كل الملاعق والفناجين والكؤوس ثم ينعم بعد ذلك بالراحة لبعض الوقت. وهو يعلم أنه سوف يصدف باستمرار أن تمس الحاجة إلى ملعقة أو إلى كأس. إلى كأس في معظم الأحيان، إذا كان بالإمكان إلى كأس غير مدبقة، وإذا ما ذهبت لِيلى إلى المطبخ لتعمل فيه فإن غانتنباين مع ذلك لا يرتاح؛ لأنه يعلم أن تنظيفها للأواني غير عملي. لا بل أكثر من ذلك؛ إنه يعلم ألاّ جدوى من أن تسدي نصائح عملية لأية امرأة، فذلك يجرحها ولا يغير من الأمر شيئاً. ما العمل إذن؟ أن رجلاً يفتقد لدى امرأة يحبها نشاطاً معيناً لا بد وأنه يُظهر باستمرار خلواً من الحب ومن الرحمة؛ ثمة مخرج وحيد من هذه المشكلة: وهو أن يرى في ذلك فتنتها الحقيقية والمميزة ولو أنها لا تتطابق مع الواقع. لكن ما العمل؟ فطالما لا تنزل مدبرة منزل من السماء فأنه لا جدوى من استياء لِيلى حين ترى غانتنباين وهو يقف في المطبخ متزنراً بمئزر وكيف أنه يرحّل القمامة كل يوم ويخرج الزجاجات الفارغة من البيت والصحف المجعلكة والمطبوعات وخيطان الطرود وقشور البرتقال المقرفة وهي مليئة بأعقاب السجاير الملطخة بأحمر الشفاه -

أظن أنني وجدت الحل!

طالما أن لِيلى لا تريد بالفعل أن يقوم غانتنباين، أعماها، بغسل الأواني، فقط لأن الأواني لا تغسل ذاتها، حتى أنها لا تحمل ذاتها إلى المطبخ، وطالما أن لِيلى تحزن في كل مرة حين يلمع كل شيء في المطبخ كما في متجر خاص بالمطابخ، تماماً كحزنها لتأنيب خفي، فإن غانتنباين ينتقل إلى مرحلة الامتناع قطعاً في المستقبل عن تنظيف كل المطبخ. وبالفعل لا بد من الاعتراف، كان في ذلك في معظم الأحيان ثمة شماتة رجالية صغيرة، ابتهاج دنيء نابع من إشفاق رجالي على الذات، الأمر الذي جعل المطبخ في وضع مرتق من اللمعان والبريق. ينبغي ألاَّ يحدث ذلك مرة أخرى أبداً! غانتنباين لم يعد يغسل الآن أي صحن ولا أية ملعقة حين تكون لِيلى في المنزل، بل في السر فحسب وفي ما بعد دائماً بقدر لا يلفت الانتباه. وغدا المطبخ وكأنه لا يهتم به أحد، لكن مع ذلك، انظر تر باستمرار بضعة كؤوس وبضعة سكاكين نظيفة، تفي بالغرض باستمرار، ونفاضات السجاير لم يسبق أن كان لامعة إلى هذه الدرجة التي تجعلها براقة كنظرة لوم وتأنيب، ولكن الرماد لا ينمو إلى أن يصبح أكواماً كالجبال. أما نويات التمر المقرفة فتختفي في أكوام الرماد شأنها شأن الحلقات الدائرية اللزقة حول كؤوس النبيذ الواقفة على الطاولة المرمرية الصغيرة؛ واختفت المطبوعات والمجلات من الأسبوع الماضي، كما لو أنها صارت أخيراً على وعي بأنها أصفرت وعفى عليها الزمن – أما غانتنباين فيجلس في الكرسي الهزاز ويدخن سيجارة حين تعود لِيلى إلى البيت، وتبدو هي مرتاحة طالما أنه لم يعد يظن بأن عليه أن يهتم بشؤون المطبخ وتنظيفه.

وتقول لِيلى: «انظر، لا بأس أن يكون الوضع على هذه الشاكلة أيضاً».

الحياة اليومية لا تطاق إلا بحدوث معجزة.

أحب أوقات الصباح في شهر أيلول، ندية – رمادية – زرقاء، الشمس كما لو أنها خلف سحابة من الدخان، وتظهر البيوت الريفية مغلفة بورق من

حرير، البحيرة تتلألأ، والضفة الأخرى تتبخر، إنه فصل الخريف، وأنا أقف بين بيوت النباتات الزجاجية ممسكاً برسن كلبي باتش، بين أحواض مشتل للنباتات – بدون نظارة لكي أتمكن من رؤية ألوان الزهور بشكل صحيح، وقد خبأت شارة ذراعي الصفراء المخصصة للعميان في جيبة بنطالي لكي لا يظن الحدائقي اللطيف أن بإمكانه أن يبيعني نباتات ذابلة. سِكينه تتلألأ كالبحيرة (زهور على شكل، المترجم) مهماز فارس، أجل، أو ما شابه، أومأتُ برأسي، وكل ساق أرحب بها بإيماءة رأس تأتي إلى السكين وتسقط محدثة صوت طقة خفيفة، زهور من أجل لِيلى، طقة، طقة، طقة وامتلأ ذراع الحدائقي برمته بزهور مهماز الفارس الزرقاء اللون، ثم طقة أخرى إلى أن أقول: كافٍ! أريد أيضاً أن تضيف إلى الباقة نباتاً أصفر اللون، كلا، نباتاً أكثر اصفراراً، ليس بهذه الكمية، إضافة إلى ذلك بضع زهرات خيمية Doiden بلون أحمر، بعضاً من زهور النجمة، أجل، زهور من نوع الداليا أيضاً، أجل، زهور حمراء بلون نبيذ البور غوندر، وكثير من...

في هذا اليوم سوف تعود لِيلى من رحلة عمل.

وليتها تعلم كم يتمتع غانتنباين برؤية ألوان هذا العالم، المتأججة والمتوهجة، حين تكون هي على سفر وكيف يخدعها بكل زهرة يراها!

طائرتها سوف تصل في الساعة ١٥,٤٠.

الآن في البيت، أقول بتبويق الزهور ووضعها في المزهرية، أبوّق، أرجع إلى الوراء برأس مائلة جانباً، بدون نظارة، لكي أستطيع التأكد من تناسق الألوان، أبوّق ثانية، في تصرفي وقت كاف، أيام الحنين طويلة والساعات أطول، أحب القيام بعملية التبويق هذه والانتظار وتعديل التبويق ومع أنني على علم بأن لِيلى لا تأتي قبل الموعد المحدد بل تأتي أحياناً بعده، لكن ليس قبله بتاتاً، فأنني منفعل. وأرمي بعيداً هذه السحابة من ورق الحرير الحفاف وأرمي سيقان الزهور، لا لزوم لها! وحين صرت على أتم الاستعداد دقت الساعة تمام الحادية عشرة، نظرة أخيرة دون نظارة:

أنا مبتهج، لا يجوز للمرء أن يمتدح نفسه، لكنني معجب بذوقي، أنا الآن غير مشغول بشيء طالما ليس ثمة زهور بعد بحاجة إلى تبويق، ربما أصفر، جد مضطرب إلى درجة أنني لا أستطيع الجلوس ولا قراءة جريدة، سأبقى إذن واقفاً، مرتين أو ثلاث انحني لكي التقط زهرة كانت سقطت على السجادة وبعد ذلك يصبح هذا أيضاً عملاً منجزاً. أعلم أن لِيلى الآن لم تجلس بعد حتى في الطائرة، وانحني أيضاً مرة رابعة وخامسة لأن زهرة زرقاء سقطت على الأرض من جديد، ربما زهرة من صنف مهماز الفارس نفد صبرها وطال بها الانتظار، ربما لا تزال لِيلى مستلقية في سريرها وأنا أقول في نفسي: أمل ألا يفوتها موعد طائرتها! وأبقى واقفاً، في فمي سيجارة نسيت أن أشعلها لأنني انظر إلى الساعة مرة وإلى الزهور مرة أخرى، ولا تزال متناثرة في أمكنة مختلفة بقايا تزعجني كغصن، أو زهرة خيمية، أو لون، لا يبدو أن الأمر عبارة عن صدفة عمياء وينبغي أن يكون الأمر هكذا حتماً، أقول حتماً، أريد أن تفرح لِيلى في ما بعد، ليس في الحال عند رجوعها بل في ما بعد حين تكون هذه الغرفة مليئة مرة أخرى بمحافظ اليد والمجلات والقفازات، أن تفرح دون أن تضطر إلى مدح غانتنباين، بل على العكس، عليها أن تروي لي كم تبدو الصدفة جميلة، أجل، احتاج أحياناً إلى ساعات إلى أن يحين الأوان - أعود إلى تبويق الزهور، وباستمرار تتطاير زهرة فتهوي إلى الأرض، جميلة أيضاً على السجادة، ندائف صفراء وزرقاء، لا تزال مكسوة بالندى، بالطبع تبقى نظارتي المخصصة للعميان في يدي باستمرار تحسباً لمجيء لِيلى في وقت أبكر، وأضعها بين آونة وأخرى بين أسناني حين أكون بحاجة لكلتا يديّ من أجل باقة الزهور، واسترق السمع كطفل يمزمز وأعماق نفسي ترتعد...

أظن أنني أحبها فعلاً.

في التالي، حين فهمت من البرقية التي أرسلتها لِيلى (لن أصل إلا في يوم الجمعة، في الساعة ١٠,٤٥) أن تصوير أخر مشهد من الفيلم في

العراء لا بد وأن يؤجل ربما بسبب الضباب الخريفي، فقدت باقة زهوري للأسف من نضارتها؛ ومرة أخرى كنست عن السجادة تلك الازهرارات التي فقدتها الباقة في أثناء الليل. وبالدرجة الأولى زهور الداليا، الثقيلة الـرؤوس، تنحني خوافة هيابة. ومن جديد أبوّق ما تبقى من الزهور - دون جـدوى... وأرى: باقتي، وهي تُظهر أنها من البارحة، تقف في المزهرية وكأنها سـقط متاع، صامتة، لِيلى سوف تكون مستاءة مع أنني لن أقول شيئاً ولن أسأل عن شيء. باقة الزهور، كما يرى المرء بكل بساطة لم تعد ذات عفوية وتلقائيـة. ولذلك سوف أرميها قبل أن أذهب إلى المطار: طبعاً لن أرميها في صـفيحة القمامة حيث قد تراها لِيلى، بل في القبو وهناك تذبل بعيداً عن العيون وتحت صفحات مجلات قديمة. وينبغي ألا يظهر في بيتنا ما من شأنه أنه يدل علـى أنني ببساطة نويت أن أجلب زهوراً إلى البيت. وهذا يعني أن المزهرية أيضاً يجب أن تُغسل قبل أن أذهب إلى المطار-

غانتنباين يوشك أن يأتي بعد فوات الأوان (فدرج المنزل أيضاً لا بد في اللحظة الأخيرة من أن ينظف من بقايا الزهور الصفراء، والزرقاء المتنـاثرة هنا وهناك) وأنا لا أزال أرى: أن السيد الذي يحمل أمتعتها إلى الجمرك هـو دائماً الشخص ذاته. باتش يعوي متباكياً حين كان السيد الغريب ولِيلى، سيدته هو، يودعان بعضهما بعضاً على بعد خمسة أمتار من سيده الأعمى؛ وعلـى أنا أن أوقفه بكل ما أوتيت من قوة ممسكاً بقيده، كلبي الغبي.

أمل ألا أصبح غيوراً أبداً!

خباز في قرية O. رجل في الأربعين من عمره، معروف في القريـة بأنه طيب القلب وجدير بالثقة، دفعته الغيرة إلى التصرف التالي: فقد أطلـق النار من بندقية عسكرية يحتفظ بمثلها كل مواطن سويسري اتحادي في خزانة بيته، على عشيق زوجته وهو شاب من إقليم التيرول عمره واحد وعـشرون عاماً، لم يطلق النار كيفما اتفق بل تماماً في منطقة الخاصرة ثم تناول بعـد ذلك السكين العسكرية الخالية من الصدأ والتابعة أيضاً لعدة التسلح المخبأة في

الخزانة وأخذ يشقق بها وجه زوجته التي هي أم لطفلين وحبلى حالياً؛ وإثـر ذلك نقل الخبازُ الضحيتين بنفسه إلى أقرب مشفى بأن وضعهما في شـاحنته كما يضع كميات الخبز حين يود توزيعها على المحلات؛ وطبقاً لخبر ورد في إحدى الصحف: العاشقان هما خارج دائرة الخطر... بعد ذلك بأسبوع يروي لي بورّي، طبيبي، لماذا لم يأت مؤخراً إلى لعبة الشطرنج. فقد اتصلت به في ذلك المساء سيدة تسأله ما إذا كان من الخطر على الحياة بمكـان أن يتنـاول واحد من الناس عشراً من حبات النوم. ولدى سؤال الطبيب عمن يتحدث إليه، أقفل الخط. بعد ذلك بقليل اتصلت مجدداً السيدة ذاتها ورجت الطبيب أن يأتي إليها على الفور ثم أعطته الاسم والعنوان؛ وأضافت أنها في عجلة من أمرها والمسألة لا تحتمل أي تأجيل. (كان ذلك هو يوم خميسنا، يوم لعبة الشطرنج الأسبوعية وكنت صففت أحجار الشطرنج وانتظرت). في الغرفة يجد الطبيب زوجة الخباز، الحبلى، والصانع الشاب الذي يعمل عنده. وبينهما تربط علاقة حب. ولذلك فإن الخباز الذي من قرية O لا يستطيع النوم؛ هذا كل مـا فـي الأمر؛ وهو الآن يستلقي في الطابق العلوي، على حد قوله زوجته. لكن حين يصعد الطبيب إلى الأعلى، يجد الغرفة خالية من الناس. وبعد ذلـك يجـري حديث طويل في الغرفة بين الطبيب والزوجة. وهنا يسأل بـورّي الـصبي التيرولي، الذي كان بدون جاكته، ما إذا كان ينوي الزواج من زوجة الخباز الحبلى، فيجيب الصبي: إليك عني كيف لي أن أتزوج وأنا أفتقر إلى مقومات الوجود! يبدو أن الخباز قد فقد عقله بالفعل. عشر حبات نـوم؟ وفـي تلـك اللحظة – بورّي لا يصدق عينيه – تفتح الخزانة ويخرج منهـا كمـا فـي مسرحية هزلية الخباز الطيب القلب والجدير بالثقة وهو يرتدي مئزراً أبيض. ويقول: أخيراً! أخيراً عرفت ما الأمر. إذن صحيح! وهو في تلك اللحظة أكثر رزانة من الجميع، وقور بالرغم من ظهوره المضحك، متعقل، مرتـاح، لأن غيرته الطويلة لم تكن بدون سبب. ثم يقول: أخيراً اعترفت! لكن بالرغم من حديث طويل مع الطبيب، الذي لم يكن بحاجة إلى فتح حقيبته الصغيرة، لم يتم أي اتفاق على مسألة من هو المحق؛ والاقتراح الواقعي، الذي تقدم به الطبيب

بأن يغادر الصبي ذلك البيت ويبحث عن عمل آخر، لم يقنع الصبي، والزوجة التي تقف حائرة بين بين ترى بالدرجة الأولى أن على الخباز أن يخجل وذلك طلب لم يقنع بدوره زوجها. مع ذلك تحلى الجميع برباطة جأش حين غادر بورّي أخيراً منزل الخباز (فات الأوان على لعبتنا المتفق عليها في الشطرنج، أتفهم ذلك) وفي طريق بورّي إلى بيته أضحكه لاحقاً منظر الخباز وهو خارج من الخزانة... وبعد ذلك بأيام حين يمر الطبيب ذات مرة من جديد بقرية O ويرى الضوء المريح في غرفة الخباز، يحس بأنه ملزم بالقيام بزيارة إلى هناك لكي يستفسر عن حل المشكلة التي هزت ذلك الطبيب. فيجد الخباز هذه المرة وحيداً في الغرفة. ويسأله كيف حاله؟ كان الرجل يجلس بهدوء وواقعية. ويسأل ما إذا أن السيد الدكتور لا يقرأ أية صحيفة بالمرة؟ ويحتسي الاثنان كأساً من المشروب المصنوع من الخوخ في جو رجالي. أكثر مما ورد في الصحف لا يعرف الخباز شيئاً عن هذا الأمر. ما يلي فحسب: - بعد أن غادرهم السيد الدكتور آنذاك طلب الزوج من زوجته أنّيلي أن تصعد برفقته إلى غرفة الزوجية لكي يبدأ في الحال بحياة جديدة وفق ما كان السيد الدكتور قد اقترح إبان خروجه وهو على عتبة الباب. لم تخيب أمله؛ ولأول مرة عاد الخباز إلى النوم من دون أن يتعاطى مسحوقاً للنوم ولذلك لم يكن نومه هذه المرة عميقاً كما في العادة بحيث أدى خواء السرير وبرودته بجانبه إلى أن استيقظ من النوم. كان ذلك تقريباً في الساعة الواحدة صباحاً، أي بعد ساعة من ذهاب بورّي. الآن كاد ينفجر من الغضب. ولكي يهدد فحسب فقد أخرج البندقية من الخزانة وسكين الجيب أيضاً ثم نزل إلى الغرفة التي في الطابق الأرضي. وهنا أسديا له معروفاً، أجل، هنا وجدهما معاً على الصوفا في الغرفة المظلمة بثياب بيضاء في ضوء القمر، بأربعة أرجل. وحين أشعل النور، كانت الواقعة قد وقعت: الصبي الذي لم يشأ أن يبحث عن عمل آخر، أخذ يلف ويدور وهو يولول وينوح، وقد أشفق على عشيقته أنّيلي بسبب وجهها الذي ينزف دماً من جميع مواطن الكذب. ومع أن الخباز هو المرتكب الجريمة، كما رأى ذلك بنفسه ولم يرد في الحسبان أحد غيره، فقد تصرف

كواحد ينضم إلى المشهد من الخارج ويتمتع بكل وعيه وقواه العقلية؛ وعلى الفور اتصل هاتفياً بالطبيب، لكن دون جدوى، فنقل العشيقين بعد ذلك، كما ورد في الصحف، بشاحنته إلى أقرب مشفى حيث عرفه الناس هناك بصفته خبازاً موثوقاً وسلم نفسه إلى الشرطة حيث عُرف هنا أيضاً بالصفة ذاتها.

بالطبع سوف يقدم إلى المحكمة.

أفكر الآن لماذا أطلق النار على الصبي بالذات في خاصرته ولماذا بالمقابل لم يشوه من زوجته جسدها، بل وجهها فحسب: لا ذنب للجسد، فالجسد هو الجنس، أما الوجه فهو الشخص... عندما سافرت مؤخراً إلى قرية O لكي أرى هذا الخباز لم يكن موجوداً في محله. ومع ذلك فقد اشتريت قطعة من الخبز أطعمتها في ما بعد دجاجاً في إحدى المداجن. وأطعمت قطعة خبز ثانية باعتها لي من جديد الصانعة التي تعمل في محل الخبز إوزات يسبحن بالقرب من شاطئ البحيرة. لم أعرف لماذا كنت أظن ألاَّ بد لي من مشاهدة هذا الخباز والتعرف عليه. وحين تجرأت على ذلك مرة أخرى قبيل موعد إغلاق المحلات والمتاجرة، كنت تعودت على رنين باب المحل ثم يهب الهواء المفعم برائحة الخبز في المتجر الريفي، الهدوء، إلى أن يأتي أخيراً أحد الناس؛ لم أر على الرف أي خبز بعد حتى ولا قطع الخبز الصغيرة المعروفة باسم فيغلي، لم يكن هناك سوى بعض المعجنات والفطائر، وفكرت للتو بما يمكن في ما عدا ذلك أن اشتري لإطعام الإوز، ربما خبزاً مقدداً، وأصابني الذعر حين دخل الخباز فجأة إلى المحل شخصياً وهو يجر ساقيه متثاقلاً بشحاطته المعفرة بالطين. رجل مرتكب جرماً، لا يعرف شيئاً شأنه في ذلك شأن دركي يرى دائماً جرائم كهذه من الخارج فحسب، رجل بمعنى الكلمة، أغلب الظن أنه جمبازي ولو شاحب اللون من جراء مكوثه في حجرة الفرن، بلذي من ذلك النوع الذي يظهر ارتكاب الجرائم على أنه أمر غريب عنه، رجل لا يُتوقع منه ذلك بكل بساطة – كمعظم المرتكبين – سألني ماذا أريد. فِعلته، كما رأيت، ليست على تجانس معه. ومثل هذه الحالة واردة في

الحسبان: ففجأة يرتكب أحد الناس جريمة قد تؤدي به إلى السجن، وأقف حائراً من الرعب الذي يجثم على صدري. اشتريت من الخباز قطعة من الشوكولاته كأن شيئاً لم يكن ودفعتُ وأنا على شيء من الارتباك ثم مضيت وشأني ورأيت كيف كان يلاحقني بنظرات مريبة.

كاميلا هوبز لا تقدر بثمن: فهي تؤمن بقصص حقيقية، وهي مولعة جداً بالقصص الحقيقية، ويأسر نياطَ قلبها كلُ ما تعتقد بأنه حدث فعلاً، حتى ولو أن ما أرويه لها في أثناء تجميلها أظافري هو أمر عديم الأهمية إلى درجة كبيرة: -لكنه يجب أن يكون حدث فعلاً... بالطبع لا آتي إليها أبداً بدون موعد مسبق وبعد ذلك بشيء من التأخير اللبق ومزوداً بعصاي السوداء الصغيرة وشارة الذراع الصفراء، ونظارة العميان على وجهي؛ لا أقابل كاميلا هوبر إطلاقاً وهي في لباس البيت؛ بل تتركني منتظراً في الممر إلى أن تنتهي من تسريح شعرها وارتداء ملابسها وترتيب غرفتها. كاميلا لم تعد ترغب في أن ترى من حياتها أكثر مما أرى أنا. وعندما يحين الوقت لدخول غانتنباين إلى حجرتها، لا أرى بعد ذلك أي سوتيان أو أية جوارب نسائية، بل ربما أرى ذات مرة ورقة نقدية من فئة المائة فرنك إلى جانب كأس من الكونياك ومرة أخرى ساعة يد رجالية. ليت الذي نسيها لا يعود ثانية! بيد أن غانتنباين هو الزبون الوحيد الذي يزورها بالفعل من أجل تجميل أظافره. وكاميلا تبدو مسرورة بي، على ما أطن، شأني في ذلك شأن فرصة تتاح لها لثبوت براءتها، وعملية تجميل أظافري تجري بالفعل باستخدام أدوات كثيرة، تحرص كاميلا على امتلاكها تمويهاً وتضليلاً للشرطة، وبصبر مؤثر من كلا الطرفين، لأن كاميلا الشاطرة، كما أحس، تفتقر إلى أية خبرة في مجال مهنة تجميل الأظافر. فهي تقص في أغلب الأحيان أظافر أصابعي إذا لم تتوقع مني في كل مرة أن أروي لها قصة وإذا أمكن فقصة في حلقات؛ اعتباراً من الإصبع الأولى التي أقدمها إليها وعلى أبعد تقدير اعتباراً من الأصبع الثانية تسألني كاميلا بصريح العبارة:

«والآن ما الذي جرى بعد ذلك؟».

«تحدثتُ معه».

«فعلاً؟

«أجل».

كاميلا هوبر، وهي ترتدي الآن معطفاً صغيراً أبيض اللون، تجلس على مقعد منخفض بينما يجلس غانتنبابن إلى جانبها ويده موضوعة على وسادة مخملية لكي تبرد له أظافره بالمبرد المخصص لذلك وغيلونه في اليد الأخرى.

«هل تحدثتَ معه فعلاً؟

فأقول: «أجل، إنه إنسان لطيف».

وتقول هي ضاحكة دون أن تحول نظرها عن أصابعي: «تصور! وأنت أردت أن تطلق عليه الرصاص في خاصرته!»

فألوذ بالصمت وأنا في غاية الخجل.

وتقول وهي تبرد أظافري: «تصور!» ولم تجد بداً من أن تسألني: «وماذا قال هو؟»

«أنه يحترم زوجتي».

«ثم؟»

وأخبرتها: «أستطيع أن أتفهمه، لقد تحدثنا عن المثيولوجيا، أنه يعرف الكثير وقد تلقى دعوة للتدريس في جامعة هارفارد لكنه لا يريد الذهاب إلى هناك، على ما أظن، بسبب زوجتي». «استراحة. ثم أقول وأنا أدخن: «إنه إنسان جيد، فعلاً».

كاميلا مستغربة.

ثم تقول وهي تتابع برد أظافري، وباعتبارها امرأة فهي تقف إلى جانب زبونها الأعمى: «ألم تستجوبه؟- لا أستطيع أن أصدق أنه إنسان جيد!»

فأسالها بصورة تنم عن نبل موضوعي: «لم لا».

«وإلا فلن يقدم على ما فعل؟»

فتجيب: «ما سبق أن قلته، ما تتصوره».

وأخبرها:

«تحدثنا عن المثيولوجيا، أجل طيلة ساعة من الزمن، لم يخطر ببالنا شيء أخر وكان موضوعاً ممتعاً. وبعد أن شربنا الكأس الثالثة من نبيذ الكامباري قال أنه يجل زوجتي ويحترمها، ودفعت الحساب –»

كاميلا تتابع برد أظافري.

قلت: «في نهاية لقائنا أهداني مقالة وهي عبارة عن دراسة عن هرميس (إله الطبيعة والرعيان عند قدماء اليونان، المترجم)»، قلت ذلك بتلك اللهجة المفرطة في التحفظ والتي لا تشدد على الهوة بين رجل مثقف نسبياً وآخر غير مثقف نسبياً، لكنها لا تخفيها بأي حال: «أنه فعلاً ملم إلماماً كبيراً بالعلم والمعرفة».

«وزوجتك؟»

لم أفهم مغزى سؤالها.

«كيف تتصور زوجتك مستقبلها؟»

الآن على غانتنباين أن يعطي يده الأخرى في حين تسحب كاميلا هوبر المعقد الصغير الذي تجلس عليه إلى الجهة الأخرى، كل الأوضاع تتحول إلى عكس ما كانت عليه حتى أن غليوني ينزلق الآن إلى الزاوية من فمي.

«هل تحبه زوجتك؟»

«أظن ذلك».

«كيف يبدو مظهره؟»

هذا السؤال يدل على أنها تنسى أن غانتنباين رجل أعمى. وبعد فترة من العمل المؤلم تسأل كاميلا: «وأنت متأكد من أنه هو الفاعل؟»

«أبداً»

فتقول: «أنك مضحك! –أراك تحكي طيلة الوقت عن رجل له علاقة بزوجتك ولا تعرف مطلقاً من هو هذا الرجل؟»

«أنا أعمى».

وأرى الآن كيف تخفض رأسها ومفرق شعرها الأشقر كالهيدروجين؛ وغانتنباين يستغل تلك اللحظة لكي يعاين أظافر أصابعه التي أنجز تجميلها. كانت كاميلا هوبر اعتذر أحياناً حين تلاحظ أن غانتنباين يرتعش فجأة فيتحول الحديث أثر ذلك إلى موضوع آخر وبالتالي إلى تجميل الأظافر؛ لكن الموضوع إياه يضن عليها بالراحة والهدوء.

وتسأل كاميلا وهي تبرد أظافري: «– لكن يمكنك أن نتصور أنه هو الشخص المعني، هذا السيد ايندرلينغ أو ما شابه؟»

أومأت برأسي.

وتسأل: «لماذا هو بالذات؟»

«أنني أسأل نفسي السؤال ذاته أيضاً».

وتظل كاميلا مصرة على متابعة الحديث في هذا الموضوع.

وتقول وهي تنظر إلى غانتنباين كما لو أنني الإنسان الوحيد الذي في وضعه: «ريب كهذا، لابد وأن يكون أمراً مخيفاً!»

أقول: «وهو كذلك».

في ما بعد، إثر انتهاء عملية تجميل الأظافر، التي يُحتفل بها بشرب كأس مريحة من الكونياك وبعد أن أتناول عصاي السوداء، تعود مرة أخرى إلى ذات الموضوع.

فتسأل بما ينم عن فضول العطف والاهتمام: «– ولكنك متأكد من أن لزوجتك علاقة برجل آخر؟»

«أبداً»

وتصاب كاميلا بالخيبة كما لو أن الأمر لهذا السبب ليس قصة حقيقية ويبدو أنها تسأل نفسها لماذا إذن أروي لها هذه القصة.

«أستطيع أن أتصورها فحسب».

هذا هو العنصر الحقيقي لهذه القصة.

حاشية

ذات مرة أتى شرطي. أنهم يأتون عادة بلباس مدني، هذا هو الوضيع في الأمر. ولم تكد مجمّلة الأظافر هوبر (تلك هي تسميتها لدى الشرطة) أن تفتح الباب حتى دخل الشرطي من دون إذن إلى غرفتها. ودون أن يخلع قبعته. وبدلاً من ذلك فقد اكتفى بإبراز بطاقة بشكل خاص إلى الأعمى غانتنباين: شرطة الكانتون! أبرز غانتنباين بدوره بطاقته المخصصة للعميان وهذه البطاقة هي الشيء الوحيد الذي يصدقه بالفعل الشرطي السمين القصير الذي يضع قبعته على رأسه. وكل شيء آخر هنا يبدو له مثيراً للشك والريبة، حتى لوازم تجميل الأظافر والمريلة البيضاء التي ترتديها الآنسة هوبر عندما تعمل. لاحظ الشرطي أن شيئاً ما يجري هنا. لكن ما هو هذا الشيء؟ وأخيراً قال: حسناً. ولم يشأ أن ينظر إلى بطاقة ثالثة أخرجتها كاميلا في غضون ذلك من بين حوائجها معلنة بوقاحة أنها بطاقة السماح لها بالعمل، كما لو أن الشرطي يخجل من ذلك بحضور الأعمى. بل دمدم قائلاً: حسناً. أنهم لا يرتابون بالعميان ويحدث باستمرار ما يؤكد لي ذلك. إذ لم يسبق على سبيل المثال أن تجرأ أحد منهم على أن ينظر بالفعل إلى بطاقة غانتنباين حين يبرزها لهم. وأخيراً يذهب الشرطي، دون أن يعد تقريراً تفتقر إلى التهذيب، مرتبكاً، ومعتبراً نفسه على نحو ما سمحاً وكريماً. إذ لم يشأ أن يفضح كاميلا أمام رجل أعمى.

حين يُسأل ايندرلين من قبل معارف في ما يتعلق بمسألة تلقيه دعوة من جامعة هارفارد للتدريس فيها: متى يذهب إلى هناك، يهز كتفيه ثم يتحدث على الفور عن موضوع آخر.

لماذا لا يذهب إلى هناك؟

عما قريب تبدو هذه الدعوة إلى جامعة هارفارد كما لو أنها كانت عبارة عن خديعة، كذبة من ثلاثة أسطر كان الناس هنأوه عليها. لكن من أراد أن يكون لطيفاً مع ايندرلين فقد امتنع عن الحديث معه حول هذا الموضوع. وكان هو يفضل ذلك. ايندرلين لا يؤمن هو ذاته بهذا الأمر وهنا لا فائدة من أية وثيقة يحملها في جيبة الجاكيت ويبرزها للناس كما يبرز غانتنباين للناس بطاقته الخاصة بالعميان... إنه لا يستطيع ذلك. كان عليه منذ زمن طويل أن يكتب متى سوف يأتي إلى هارفارد، في الفصل الدراسي الصيفي أو الشتوي أو مثلما يسمونه في هارفارد. لا يستطيع ذلك. وتمضي أسابيع. ببساطة ليس ايندرلين ذلك الرجل الذي هو أهل لهذه الدعوة وكلما كان لابد لايندرلين من ان يفكر بالانشغال في هذا الموضوع، يعتريه الهلع كما لو أنه ملزم بتسلق سارية خطرة. هذه الدعوة إلى هارفارد (ايندرلين لم يعد يطيق سماع الكلمة!) هي تماماً ما كان يتمناه ايندرلين منذ مدة طويلة. لكن ربما نجم اضطرابه إلى هذا الحد من هذه المسألة إلى نشر الخبر على صفحات الجرائد: رغبة كامنة في نفسه تنشر على الملأ هكذا فجأة! ولم يكن ذلك خبراً كاذباً. ومع ذلك فقد تراءى له أنه يخدع نفسه. وهذا ما يتنسمه المرء بالطبع؛ لذلك لم يعد أحد في حقيقة الأمر يؤمن إيماناً بهذه الدعوة، اللهم ما عدا عميد جامعة هارفارد، لكن لا أحد ممن يعرفون ايندرلين. ذلك مع أننا على علم بانجازاته؛ وهي ملزمة بلا ريب بالاعتراف به. هذه هي المشكلة! كل من يخطط، مثل ايندرلين، لاثبات جدارته من خلال إنجازات جاهزة، لا يوحي في حقيقة الأمر بأنه جدير بالثقة أبداً. نحن نهنئه، بلا ريب، على نجاحه. لكن ذلك لا يفيده في شيء. أن المحاضرة، التي سيلقيها ايندرلين في هارفارد، جاهزة. وهو لا يحتاج إلا إلى وضعها في الحقيبة. لكنه لا يستطيع ذلك. أن ما يقنع الناس هو ليس الإنجازات بقدر ما هو الدور الذي يلعبه المرء في أمر ما. وهذا ما يحس به ايندرلين ويخاف منه. ومن أبسط الأمور أن يتذرع ايندرلين بالمرض لئلا يسافر إلى هارفارد. فايندرلين لا يستطيع أن يلعب أي دور.

أعرف حالة مغايرة تماماً:

رجل، وهو سفير إحدى الدول الكبرى، أصيب في مكـــان اصـــطيافه واستجمامه بانهيار، لكن المسألة لم تكن، كما تبين في ما بعد، احتـــشاء فـــي عضلة القلب بل هي إدراك لما أصابه وفي ذلك لا جدوى من إجازة لاسترداد عافيته ولا من وسام جديد يعيد وضعه إلى نصابه. لقد أدرك أنه ليس صاحب السعادة التي يزعم العالم، وهو يستقبله تحت الثريات، إنه صـــاحبها. بقـــوة منصبه يجب على الناس أن يأخذوه مأخذ الجد. لماذا يجب عليهم ذلك؟ ثمـــة رسالة إلى حكومته، طبعها على الآلة الكاتبة بيده لئلا يعرف أي سكرتير أنه عمل في خدمة رجل زائف منذ سنين وأيام، أصبحت جاهزة –طلب استقالة... لكنه لا يستقيل. بل يختار الأمر الأكبر من ذلك: وهو لعب الدور. ومعرفتـــه بذاته تبقى سراً. يُظهر حرارة في عمله. يُرقَّي في منصبه ويُظهر جدارة فيه دون أن يغمز بطرف عينه. ما تصوراته في ما يتعلق بوصفه مستقبلاً، ذلـــك أمر لا يعني العالم. فهو يستمر هكذا، سواء نقل إلى واشـــنطن أو بكـــين أو موسكو، في لعب دور السفير مدركاً في الوقت ذاته أنه يلعب فحسب، وهو لا يضن على الناس الذين حوله ممن يؤمنون بأنه الرجـــل الـــصحيح فـــي المكان الصحيح بإيمانهم المفيد هذا. يكفي أنه هو ذاته لا يؤمن بذلك. أنـــه مرح ووقور، وأؤلئك الذين ينظرون إليه بعين الريبة لا يجرحونه؛ ولا حاجة به إلى أن يخشاهم، ولا إلى لأن يكرههم، بل إلى أن يناضل ضدهم فحسب. ويحدث ما يشبه المعجزة: ففي حين أنه يلعب، فهو لا ينجز أعمالاً عاديـــة فحسب كما اعتاد أن ينجز حتى الآن بل وينجز أيضاً أعمالاً فوق عاديـــة. ويبرز اسمه بخطوط عريضة في صحافة العالم؛ وهذا أيضاً لم يحرفه عـــن مسيرته. إنه يلعب ببراعة دوره، الذي هو بذلك دور رجل محتال، وذلـــك بقوة السر الذي لا يفشيه، أبداً، حتى ولا لشخص واحد بمفرده. وقد توصل إلى نتيجة: أن كل معرفة بالذات لا تستطيع أن تلوذ بالصمت تـــؤدي إلـــى جعل صاحبها أصغر وأصغر. وأيضاً إلـــى نتيجـــة: أن مـــن لا يـــستطيع الصمت، يريد أن يكشف للناس مدى معرفته بذاته التي لا تعد معرفة بالذات إذا لم تستطع أن تصمت، ويصبح المرء ذا حساسية مفرطة إذ يحس بأنـــه

مكشوف، إذ يريد أن يُعرف من قبل الناس، ويصبح المرء موضع سخرية وطموحاً في المدى المعاكس لمعرفته بذاته. هذا أمر مهم: حتى ولا على انفراد لشخصين مع بعضهما بعضاً. ما يقال لا تراجع عنه. وهكذا يتصرف على أساس من إيمانه بأنه صاحب سعادته الخاصة به ويأبى على نفسه مرآة الناس، وخاصة الأصدقاء، الذين يحترمونه بقدر احترامه لنفسه. ليس من شأن أي اعتراف أن يستعبده. وبفضل شخصيته، التي يمثلها، تُنقذ مدينة من التدمير بقاذفات القنابل، وسيدخل اسمه التاريخ، يعرف ذلك، دون أن يبتسم، سوف يُكتب اسمه في الرخام حين يموت باعتباره اسماً لشارع أو لساحة، وفي يوم من الأيام سوف يموت. لن يجد المرء يوميات ولا رسائل ولا قصاصات ورق من شأنها أن تفصح لنا عما كان يعرفه في كل تلك السنين التي عاشها، يعني عن أنه كان محتالاً دجالاً ومشعوذاً. سوف يحمل سره، الذي كان يعرفه، معه إلى القبر الذي لن ينقصه صقل مشرف وأكاليل كبيرة ومراثي طويلة من شأنها أن تغطي إلى الأبد معرفته بنفسه. سوف لن ينظر بطرف عينه إلى ما وراء قبره؛ وفي ما يتعلق بطبعة وجهه في الجبس وهو ميت، التي تظهر شأنها في ذلك شأن بعض الطبعات من هذا النوع ملامح ابتسامة، فسوف نستغرب: فيها مسحة من العظمة، لا سبيل إلى إنكارها. وحتى نحن، الذين لم نعول عليه كثيراً، نبدأ بالتدريج في تغيير حكمنا عليه لأنه لم يسألنا في يوم من الأيام عن هذا الحكم، نغيره بسبب ملامح وجهه العظيمة، المتبلورة في طبعة الجبس.

يوم أمس، في لقاء عند بورّي، جرى الحديث مرة أخرى عن الشيوعية والامبريالية، وعن كوبا، وتحدث أحد الحاضرين عن جدار برلين، وظهرت أراء وأراء مضادة، بحماس جارف، كلعبة الشطرنج، نقلة ونقلة مضادة، لعبة جماعية إلى أن بدأ أحد الحاضرين، الذي صمت حتى ذلك الحين، حديثاً عن محاولة هروبه. دون أن يبدي رأيه في ذلك ببساطة هكذا: عملية تخللها طلقات أصابت رفيقة، وعروس لم تتمكن من عبور الجدار فظلت حيث هي. وحين سئل في ما بعد عما يعرف الآن عن عروسه، لاذ بالصمت. وصمتنا

جميعاً عند ذلك – وسألت نفسي إذ ذاك، وأنا أشهق بهدوء في غليوني البارد، عن الغاية من كل قصة حقيقة من صنع بنات أفكاري:– تصاميم من أجل أنا!...

– استيقظت مجدداً، لم أمشط شعري بعد، لكنني تدوشت وارتديت ملابسي ولو أنني ما زلت بدون جاكيت وربطة عنق، هكذا أظن، لأن الأعمال الأولى ذات طابع آلي. عجز العادة، أعرف فقط أنني أجلس مرة أخرى على حافة سرير، أجل استيقظ من جديد لكن لا أزال محاطاً بأحلام تتربص بي وهي، إذا ما نظرنا إلى الأمور بدقة، كما أخشى، ليست أحلاماً بالمرة بل ذكرى، لكن ليست ذكرى لهذه الليلة بل ذكرى بوجه عام، رواسب الخبرة، في تلك الأثناء كنت مستيقظاً، كما أسلفت، حتى مغتسلاً ومتحرراً من الشعور، حتى مصفراً، لا أعرف ذلك بالضبط، غير مهم، وإذا كنت في هذه اللحظة اصفر بصوت منخفض فذلك فقط لئلا اضطر إلى الكلام ولو مع ذاتي، فليس عندي الآن ما أقوله، يجب أن أذهب إلى المطار، يا إلهي، أكاد أتأخر، ومع ذلك فلست في عجلة من أمري كما لو أن الأمر انتهى، منذ فترة طويلة، استغرب أن ليس ثمة مثقب على الهواء المضغوط يهدر الآن، استرق السمع، هدوء، ولا تقاقي أي دجاجات، وأنصت، ليس ثمة موسيقى تُسمع من حانة قريبة، ذكرى، أبخرة ومصدات من محطة للقطارات تعمل ليلاً في نقل البضائع، كان هذا ذات مرة، صفير وصدى الصفير، أحبس أنفاسي، هدوء، طيلة نفس بدون حركة كتمثال من جماد، هكذا أجلس، متخذاً وضعية ساحب الشوك، لكنني لا أسحب أية شوكة بل ألبس حذاء، على فكرة فردة الحذاء الثانية، ومن حين لآخر يُسمع صوت مصعد، ألا أنني لست متأكداً مما إذا كان صوت المصعد هذا لا يأتي هو أيضاً من الذكرى، ذكرى ليلة، ذكرى أخرى، ذلك لا يزعجني، وأرى فقط أن ربطة عنقي لا تزال متدلية هناك على الكنبة، ساعتي بالمقابل هي في ذراعي، أجل، حان الوقت، هكذا أظن، حان الوقت كما هو الحال باستمرار، حان الوقت للانطلاق إلى المستقبل، صممت وحلقت ذقني، في الحقيقة أنا الآن في حالة من المرح والسرور دون أن

أظهرها، استيقظت من جديد مرة أخرى، متحرراً من الحنين، متحرراً، وعلى ما يبدو أشعلت في غضون ذلك سيجارة، على أي حال لابد من أن أغمز بطرف عيني بسبب الدخان، وإذا لم أكن أنا الشخص الذي يدخن فلا أعرف من يدخن، أعرف فقط متى ستطير، طائرة كارافيل، هكذا آمل، أجل، الطقس، سوف يتبين حاله حالماً أغادر هذه الغرفة، حذار من أن أنسى الآن أي شيء، وينبغي أيضاً ألا أتفوه بكلمات تبقى في مكانها حيث هي، ولا أفكار، أجلس على حافة سرير وأربط فردة حذائي اليمنى، هكذا يبدو لي، منذ أمد غير قريب... وللحظة واحدة، الآن قبل أن أضع قدمي على السجادة أتوقف وأقول في نفسي: -مرة تلو أخرى، أعرف ومع ذلك أرتعد بدون حراك، أكون ايندرلين، وسوف أموت باعتباري ايندرلين.

إذن أسافر إلى المطار.

في سيارة الأجرة، ويدي ممسكة بالعلاقة الرثة، أرى من وراء زجاج النافذة العالم، واجهات، دعايات، تماثيل، باصات-

شيء رأيته سابقاً!

أحاول أن أفكر شيئاً.

على سبيل المثال.

ما كنت أستطيع قوله مؤخراً لدى حديثنا عن الشيوعية والرأسمالية، عن الصين، عن كوبا، عن الموت من جراء القنابل الذرية وعن الوضع الغذائي على امتداد البشرية حين يتضاعف عدد سكان الأرض عشر مرات، وعلى وجه الخصوص عن كوبا، حيث كنت ذات مرة في كوبا _لكنني الآن هنا، وإذ سئلت عن عدد حقائبي في حين كنت أبرز جواز سفر ايندرلين، حصلت على بطاقة خضراء، رحلة جوية رقم ٧٠٥ واسمع بأن الطائرة سوف تتأخر بسبب الضباب في هامبورغ بينما تسطع الشمس.

ما إذا سوف تعترف لزوجها بالأمر؟

ايندرلين ليس الرجل الوحيد، الذي ينتظر هنا. وأنا أحاول أن أسليه بالحديث، الأمر الذي ليس سهلاً أبداً لأنه يفكر سراً في الليلة وبشأن ذلك لا يخطر ببالي أي شيء-

مطار نموذجي!

اشتري صحفاً:

تجربة جديدة للقنابل الذرية!

- بهذا الشأن لا يخطر ببال ايندرلين أي شيء.

- ما إذا سوف يعترف لأحد بما جرى؟

أحاول أن أفكر شيئاً ما -هذه الحالة من عواطف الحب الكامنة في أعماق النفس، اعترف بصراحة، هي بالنسبة إلي مملة ومعروفة أيضاً إلى درجة تفوق الحد- مثلاً: كيف صممت هذه الصالة، بيتون مسلح، الشكل مقنع، متوثب، بسيط ومحلق. حسناً. ما يخص التصميم: في اللغة الاختصاصية يسمى ذلك، على ما أظن، قوس الثلاث مفاصل... لكن ايندرلين غير مهتم بذلك، كما أرى، ايندرلين يريد أن يطير. وكلما كان ذلك أسرع، كان أفضل. ايندرلين يمضي الوقت، الذي خصص له في هذا العالم، من جديد بشرب القهوة وفي ما بعد بشرب الكونياك. سلم أمتعته، وهكذا فانا حر مطلق الحرية ما عدا محفظة أضعها على البوفية؛ وأنظر إلى ما حولي: آخرون يطيرون الآن إلى لشبونة، البعض إلى لندن، وآخرون قادمون من زوريخ، وتدوي مكبرات الصوت قائلة: «هذا هو نداؤنا الأخير»، لكن ليس بالنسبة إلى ايندرلين. واهدئه بتأكيدي له أنني سمعت النداء بدقة. ايندرلين منفعل ومضطرب، وأنا أشعر بالملل طالما أنه من المتعذر فعلاً التسلي مع ايندرلين بتجاذب أطراف الحديث. وأحرص على ألا أنسى محفظته. ايندرلين يشتري عطوراً لئلا يصل إلى البيت خاوي اليدين، شانيل ٥، أعرف هذا الصنف من

العطور. ويوجّه نداء إلى مسافرين آخرين على خط روما –أثينا– القاهرة – نيروبي، في حين لا يزال الضباب يخيم على ما يبدو في جو هامبروغ، أجل، أنها لحظات مملة حقاً...

أتخيل الحجيم:

أتخيل أنني ايندرلين، الذي أحمل محفظته، لكن استعصي على الموت إلى درجة أنه علي أن أعيش حياته مرة أخرى، وليكن جزءاً واحداً من حياته فحسب، عاماً واحداً، حتى وليكن عاماً سعيداً، وذلك مع معرفتي التامة بما سيأتي ودون التوقع وحده على أن يجعل الحياة محتملة العيش، دون الوضوح والصراحة، الغاض من أمل وخوف. أتصور أن ذلك جحيمي. مرة أخرى: حديثكما في البار، مؤشراً أثر مؤشر، يده فوق ذراعها، نظرتها إلى ذلك، يده التي تمسح جبينها وتداعبه لأول مرة وفي ما بعد للمرة الثانية، حديثكما عن الوفاء والإخلاص، عن بلاد البيرو التي اعتبرها هو بلاد الأمل، كل ذلك كلمة إثر كلمة، تخاطبكما مع بعضكما بعضاً بالصيغة الحميمية، قبل ذلك كان الحديث عن الأوبرا التي فاتكما الذهاب إليها، الصفير الآتي ليلاً من محطة قطار لنقل البضائع، صفرات وأصداء الصفرات، لا يُقفز فوق أي شيء ولا يُلغى أي شيء، أي صوت، أي قبلة، أي شعور وأي صمت، أي سيجارة، أي ذهاب إلى الكنيسة لجلب الماء التي لن تروي عطشكما، أي خجل، ولا يُلغى أيضاً ذلك الاتصال الهاتفي من السرير، كل شيء يتكرر مرة أخرى، دقيقة بدقيقة، ونحن نعلم ما سيتبع، نعلم ويجب أن نعيش كل ذلك مرة أخرى وإلا فالموت، نعيش بدون أمل بأن يأتي ذلك على شاكلة مختلفة، قصة المفتاح في صندوق الرسائل، وأنتما تعلمان أنكما ستفلحان في ما اتفقتما عليه، وبعد ذلك كان الاغتسال العلني على نافورة الماء، البار الذي كان يغص بالعمال، نشارة الخشب على الأرض الحجرية، ليس ثمة دقيقة مختلفة عما أعلم من قبل وليس ثمة دقيقة تحذف ولا خطوة ولا قهوة ايسبريسو ولا الأربع خبزات ولا المنديل المبلل في جيبة البنطال، ايندرلين يلوح بيده، سيارة الأجرة ذاتها، لكنني

أعرف أنه سوف يخرج في ما بعد من السيارة لكي يطعم الحمام، كل هذا يتكرر من جديد مرة أخرى، وأيضاً الهلع من قصاصة الورق، الغلطة، الحسرة، النوم تحت ضجيج مثاقب الهواء المضغوط التي تقتلع بلاط شارع تسطع عليه الشمس، وفي ما بعد الانتظار في المطار «الرحلة الجوية رقم ٧٠٥»، الضباب في هامبورغ، وما يتبع: وداع على أمل ألاَّ تنشأ عن ذلك قصة، لقاء، ختام، وعناق، وداع، رسائل ولقاء في شتراسبورغ، صعوبات في كل مكان، حماس جارف، سحر بدون مستقبل، أجل، بدون مستقبل -لكنني أعرف المستقبل: السعادة في كولمار (بعد مشاهدة محراب ايزنهايم وفي الطريق إلى رونشامب) ليست نهاية سعادتكما، كما تخشيان، ولا أكبرها؛ ومع ذلك لابد من العيش مرة أخرى، بالمثل، بما في ذلك الوداع في بازل، الوداع إلى الأبد بالمثل، أجل، لكن مع معرفة ما سيتبع. كل الهدايا، التي تبودلت بينكما، يجب أن تُهدى من جديد، أن تُصر وتربط بخيطان من جديد، أن تُفك ويُعجب بها من جديد وان يُعبّر عن الشكر الجزيل بكل ابتهاج. وأيضاً حالات من سوء الفهم، التي قد تفسد نصف رحلة، يجب أن تتكرر من جديد، وحالات من الخصام والشقاق مما لا يُضحك عليها إلا بعد حين، كل شيء لابد وأن يُفكر به وأن يُحس من جديد، كل حديث يعاد من جديد بالرغم من أنني أعرف كم سيتكرر أيضاً، ومن جديد لابد من إخراج الرسائل ذاتها من الصندوق وفتحها بقلب يخفق، ومن جديد أيضاً لابد من رسم كل الخطط مع معرفة كيف تجري الرياح بما لا تشتهي السفن، إنكما تبحثان منذ أسابيع طويلة عن قطعة أرض وتفاوضان وتشتريان وتعتريكما حالات من القلق أنتما في غنى عنها، وحالات من الأمل تغمركما بالسعادة، وأنا أعرف أنكما لن تبنيا بيتاً أبداً، ومع ذلك فلابد من مسح قطعة الأرض وقياسها، كل ذلك دون جدوى، لكن لا سبيل إلى رد القدر قيد أنملة مع أنكما تعلمان ذلك، ومن جديد سوف أمشي إلى الباب لكي أرحب بحرارة بالرجل الذي يعترض سبيلي، ومن جديد أسأله ماذا يريد أن يشرب، ويسكي أم جن، ومن جديد سوف أروي نكتتي وأبدي ارتيابي وأظهر أريحيتي، ومرة أخرى أيضاً انتصاري المباغت، مرة

أخرى سفرتكما التي تخللها تعطيل السيارة، ليلتي القلقة، ومرة أخرى أوقـات الصبر الأليفة، وأكتب إليه مرة أخرى تحيتي على بطاقة مصورة، تلك التحية الظريفة التي كتبتها دون علم، بالمثل، لكنني على علم هذه المرة بما سيجري، ومن جديد تغلي القهوة لكي تصبح باردة بعد اعترافك، اعرف ذلك، ومع ذلك فلابد لي أيضاً من جديد أن اسب واشتم وامشي عبر الغرفـة واشـتم تمامـاً كالمرة السالفة، ومن جديد الكأس التي تفرقع على الحـائط، الـشظايا التـي اكنسها، تماماً كالمرة السالفة، ومن جديد الكأس التي تفرقع علـى الحـائط، الشظايا التي اكنسها، تماماً كالمرة السابقة، أجل، لكن كل ذلك مع معرفة كيف تستمر الأمور في حدوثها: دون الفضول لمعرفة كيف يستمر حدوث الأمور، دون التوقع، دون الجهل الذي يجعل كل شيء هيناً-

قد يكون وضع كهذا هو الجحيم.

ايندرلين، الذي هو منهمك في تقليب صفحات إحدى الصحف، يتظاهر بأنه لا ينصت إلى حديثي؛ الوضع متوتر؛ وهو يتمتع بجهله ما سوف يـرد على صفحات الجريدة يوم غد، وبالتالي بعدم الثقة من معرفة-

قد يكون ذلك هو الجحيم.

الخبرة هي تذوق أولي لذلك، لكن تذوق أولي فحسب؛ فخبرتي لا تنبئ بما سيأتي، بل تخفف فحسب من التوقع، من الفضول-

«الرحلة الجوية رقم ٧٠٥»

الطائرة هبطت لتوها، كما أسمع، وتتابع طيرانها في غضون نـصف ساعة، وأنا الآن مع ذلك تواق لمعرفة ما سيفعله ايندرلين؛ ما إذا كان سيطير فعلاً دون أن يتصل بها هاتفياً مرة أخرى، دون أن يلتقي بها.

أنتما لا تريدان أية قصة.

أي انقضاء.

أية إعادة.

ايندرلين، كما أرى، يدفع الآن ثمن مشروبه من الكونياك، ثلاث كؤوس، صاحب البار يعرف ذلك، ايندرلين يتظاهر بأنه في عجلة من أمره، فالأمر يستغرق مرة أخرى نصف ساعة من الوقت إلى أن يتمكن المرء من الصعود إلى الطائرة، وفي عجلة من أمره قد يكون حتى الشخص المتردد... أرى الطائرة، طائرة كارافيل تتزود لتوها بالوقود. طائرة جميلة. في غضون ساعتين سوف يكون ايندرلين في بيته إذا ما طار فعلاً. كيف في بيته؟ على أي حال الطائرة تزود الآن بالوقود، وثمة ما يكفي من الوقت لكي يجلس من جديد ويضع رجلاً فوق رجل ويفتح المحفظة ويخرج منها كتاباً.

كتاب جديد؛ على أي حال بدايته جيدة، كما أرى. كتاب اختصاصي لابد لايندرلين في كل الأحوال من قراءته، أجل، سوف يقرأه أيضاً، ما في ذلك أدنى شك، ربما وهو في الطائرة، حين يطير ايندرلين فعلاً، وفي بيته ينتظره بريد، لا شك في ذلك، ربما بريد مريح جداً...

ليتها لا تكتب أبداً!

الآن، هكذا أتصور، لم تعد هي أيضاً مستلقية في ذلك السرير بل ارتدت ملابسها، ارتدت ثياباً لم يسبق لايندرلين أن رآها من قبل، ربما بنطالاً؛ أنها على يقين بأن ايندرلين يطير الآن فوق كل الغيوم، في حين تُباغت هي من جهتها حين يأتي اتصاله الهاتفي.

«أين أنت؟»

فيقول: «هنا، في المطار»

في الخارج يسمع هدير محركات نفاثة، إضافة إلى مكبرات الصوت التي لا تنادي الآن على ايندرلين، ثمة وقت كاف إذن للتحادث، كثير من الوقت؛ لكن ليس ثمة ما يتحدث المرء عنه...

عرفت ذلك.

وعندما يخرج ايندرلين من مقصورة الهاتف وقد عقد العزم على أن يطير، أرى أن طائرتنا الكارافيل لا تزال تزود بالوقود؛ ولا يزال الميكانيكيون بمآزرهم البيضاء على الطائرة، وهذا الوجه الشبيه بوجه الدمية مع ربطة عنق زرقاء وشفاه حمر كالتوت الشوكي وقبعة صغيرة زرقاء فوق شعر أشقر فضي، مضيفة طيران، استعلم منها ايندرلين، لا يستطيع أن يغير عادته، أن تلك الطائرة هي فعلاً (عرفت ذلك) طائرتنا الكارافيل التي لا تزال تزود بالوقود. والآن تُحمل الأمتعة على حزام متحرك. وهو أكثر تصميماً من أي وقت مضى على ألا يراها ثانية، على ألا يرى المرأة التي يحس بها، فإن ايندرلين كان أول مسافر اصطف أمام «البوابة الثالثة»، وحيداً، ينظر إلى ساعة يده ويقارنها مع الساعات العامة في الصالة كما لو أن الأمر يتوقف على نصف دقيقة من الوقت -كما يفعل الفارون...

أتفهَّم فراره من المستقبل.

احترسا من الأسماء!

عاجلاً أو آجلاً سوف يأتي اليوم الذي تعلمان فيه ماذا تقولان حتى ولو اقتصر ذلك على أن يحكي الواحد عمن قابل يوم أمس، أي أحد معارفه الذي يذكر اسمه لأنه لا يلعب أي دور. لا تزالان تشكلان الحقيقة الواقعية الوحيدة على امتداد واسع، والناس الآخرون هم عبارة عن دمى يتحكم فيها مزاجكم؛ لا تزال الخيوط في يديكما، ومن قد يسبب أي إزعاج فلا ظهور له في أحاديثكما أوانه يظهر بالقدر الذي لا يسبب فيه أي إزعاج. لا تزالان حذرين وتقولان: بولوني، لاجئ، أقام عندنا ذات مرة وكان صديقاً لأختي. أو: زوجي الأول. أو زميل لي؛ عمة لي، فتاة شابة التقيت بها مرة في شارع فيا أبيا. الكل بدون أسماء. يصح ذلك لفترة معينة، ثم يصبح بعد ذلك إشكالياً أكثر مما يجوز، والطبيب الذي هو صديقي اسمه إذن بورّي، لماذا ينبغي علي أن أغفل اسمه؟ هذا هو الرجل، الذي يأتي دائماً للعب الشطرنج. وتتتالى الأسماء بعد ذلك، فالأسماء تشبه العشب الذي ينبت منتشراً في جميع الاتجاهات، والأدغال

تنمو لكنكما لا تريانها؛ وتتابعان الحديث إلى أن يتبين فجأة أن لهذا البوريّ زوجة سابقة. أنيتا؟ تضحكان: كم هو صغير هذا العالم! تستلقيان على ظهريكما وتدردشان عن أنيتا، التي هي الآن عشيقة شول، وشول هذا هو أول إنسان تعرفانه كلاكما، هانيس شول الذي رحل إلى بغداد. تستلقيان على ظهريكما وتدخنان. كيف حال شولّ في بغداد الآن؟ لم تباليا بذلك أبداً، لكن هذا الأمر هو مناسبة تستدعي الحديث، فمن الغريب النادر أن يظهر فجأة في هذا العالم ولو بعيداً من هنا أي من المكان الذي تستلقيان فيه جنباً إلى جنب على ظهريكما، أن يظهر إنسان يعرفكما دون أن يعرف إطلاقاً أنكما زوجان. ماذا سيقول شولّ في ذلك! من الغريب كم تتحدثان باستمرار عن هذا الشولّ: إلى أن يكتب ذات يوم من بغداد أنه سوف يأتي إلى أوربا عما قريب. لقد كتب ذلك لكما، لكل منكما، لأنه يعرفكما ويريد أن يراكما. هل يجب ذلك؟ لنتابع، إذ لا سبيل إلى تجنب المحاصرة؛ من الأفضل أن تبقيا مستلقيين وتلوذا بالصمت، لكنكما لا تستطيعان. من حين لآخر تمشيان في الشارع ويلقي عليكما التحية رجل اسمه هاغن. أنىّ لك أن تعرف هذا الهاغن؟ إنه صديق لأخيها. هل لكِ أخ؟ على المرء أن يهرب. لكن إلى أين؟ فجزيرة ايفيثا Ibiza تعد أيضاً كما كانت في يوم من الأيام. متى كنت في ايفيثا؟ على المرء أن يسافر إلى إفريقيا. تضحكان! أعرف رجلاً يملك مزرعة بالقرب من نايروبي ويرتعد خوفاً من قبائل الماوماو، اسمه رامس ايغر، حذرتَ اسمه، جيمس رامس ايغر. من أين تعرف اسمه؟ لم تشأ زوجته أن تذهب إلى نايروبي. الأمر الذي يمكنكما أن تتفهماه، وهي تعيش الآن في لندن مع رجل بولوني كان ورد اسمه في أحاديثكما؛ اسمه الآن فلاديمير، وبما أنه يعمل في الباليه أيضاً فلن يكون سوى ذات الفلاديمير الذي أعرفه عن طريق لوفبير. أليس هذا أمراً مضحكاً؟ أنا لا أمر على ذكر لوفبير؛ لكن خيّاطة، لكي تفتخر بنفسها، روت لكما أنها تعمل لمصلحة لوفبير. هل هذا أمر ضروري؟ وفجأة يتشابك كل شيء ببعضه بعضاً، وينكشف المستقبل عن أنه ماضٍ؛ وأنتما تستلقيان على ظهريكما وتدخنان، كيلا تسميا أية أسماء. دون جدوى! في فيينا

أقيمت أمسية موسيقية خاصة، أخوها كان يعزف على آلة الكمان الأولى وقُدمت إليه للتعارف. هل هذا أمر ضروري؟ وفي شتراسبورغ حين التقيتما سراً في نهاية أحد الأسابيع، خرجت لوفبير من المصعد الذي كان ينبغي أن يوصلكما إلى غرفتكما. لا يبقي شيء خارج الدائرة. حتى بورِّي، الصموت، يدخل الآن في خدمة الشياطين؛ فيلتقي فجأة في جماعة من الناس بالسيدة التي تحب ايندرلين، ويتحدث معها عن ايندرلين، صديقه. لماذا لابد من ذلك؟ تستلقيان على ظهريكما وتدخنان وترويان لبعضكما بعضاً ماضيكما لمجرد ألا يعرف العالم، الذي يجهل عنكما كل شيء، عن ذلك الماضي أكثر مما تعرفان، فمن شأن ذلك أن يميط اللثام عن المزيد من الأسماء. أمر مؤسف! فالشياطين لا تترك أسبوعاً يمضي دون أن توقعكما في شراكها: شولّ، اثر عودته من بغداد، أجبركما على تناول غداء معه، ثلاثتكم. ثم: البروفسور، الذي حصل لتوه على نصف جائزة نوبل في الكيمياء وانتشر اسمه في كل الصحف، هو أبوه. ثم: بمناسبة افتتاح معرض فني بحضور مدعوين، افتتاح تعذر تجنبه، تم أخيراً بكل علانية تقديمكما إلى بعضكما بعضاً للتعارف؛ وكان زوجها، الغافل عن أمركما، حاضراً أيضاً؛ لوفبير، الخفيفة الروح باستمرار، انضمت إلى الحاضرين في ما بعد-

وهلم جرا.

تبدو البشرية أسرة واحدة حالما يكون اثنان من الناس زوجاً وزوجة، كل الآخرين يعرفون بعضهم بعضاً بطريقة أو بأخرى، وهذان الزوجان فقط، الآتيان من العناق، لا يعرفان بعضهما بعضاً من الخارج، لا تزالان تبتسمان طالما لا يعرف أحد ممن يعرفكما شيئاً عن علاقتكما، لا تزالان تمشيان بنعلين لا يلمسان الأرض. إلى متى؟ كل ثالث يطوّق؛ وكل حلم يصقل.

«الرحلة الجوية رقم ٧٠٥».

ايندرلين (أراه كيف ينظر إلى الخارج عبر لوح الزجاج، ووجهه بائن في الانعكاس الأزرق اللون للوح الزجاج) لم يعد ينتظر الآن لوحده؛ قطيع

كامل من الناس، كل يحمل بطاقة خضراء أو حمراء، يتزاحم أمام وجه المضيفة الشبيه بالدمية وهي لا تتمكن بعد من فتح الباب؛ ايندرلين لم يعد في مقدمة الجميع-

لا يزال على مفرق الاختيار.

أؤيد أن يطير.

أخيراً فُتح الباب وبدأ القطيع بالتحرك، يسرع، آخرون يلوحون بأيديهم إلى الوراء، ووجه الدمية يكرر القول:

«الرحلة الجوية رقم ٧٠٥».

أستطيع أن أتصور كلتا الحالتين:

ايندرلين يطير

ايندرلين يبقى.

أراني سئمت بالتدريج من هذه اللعبة، التي أعرفها الآن: تصرف أو كفّ عن، وفي كل حال، أعرف ذلك، يتعلق الأمر بجانب من حياتي فقط، والجانب الآخر علي أن أتخيله؛ التصرف في أمر والكف عنه هما أمران قابلان لاستبدال أحدهما بالآخر؛ فأحياناً أتصرف لمجرد أن الكف، مع أنه ممكن تماماً كالتصرف، لا يغير أيضاً أي شيء من أن الوقت يمضي ومن أنني أصبح أكبر سناً...

إذن ايندرلين يبقى.

أنا لا أبقى...

لماذا هو يبقى وليس أنا؟

أو العكس:

لماذا أنا؟

هكذا أو هكذا:

واحد منا يطير-

واحد يبقى-

الأمر سواء:

من منا يبقى فهو يتصور أنه يطير ومن يطير يتصور أنه يبقى وما يعايشه بالفعل، في هذه الحالة أو تلك، هو الشق الذي يمر عبر شخصيته، الشق بيني وبينه، مهما فعلت دائماً، هكذا أو هكذا: اللهم إلا إذا تعرضت طائرة الكارافيل، التي يسمح لها الآن بالإقلاع وتزحف على المدرج بكل ما أوتيت من قوة، لأسباب مجهولة إلى انفجار ويتم التعرف على الجثث؛ لكن طائرتنا الكارافيل، كما أرى، ترتفع وترتفع...

أتخيل:

في سيارة الأجرة، ويده ممسكة بالعلاقة، ايندرلين يشعر بالاعتزاز بأنه لم يختر الكف عن الطيران ويشعر بالدهشة في آن معاً؛ جسده يجلس في سيارة الأجرة، لكن الرغبة فارقته -إنها في جسدي، في أثناء طيراني، في الأعالي فوق الغيوم- وايندرلين لا يعرف لماذا في حقيقة الأمر يسافر إلى هذه السيدة، التي لم يعد لها فجأة أي حضور، ما هو حاضر هو فقط السفر اللانهائي في أرجاء المدينة، ازدحام السير، ايندرلين يجلس في سيارة الأجرة كأنه على عجلة من أمره وسائق السيارة، وهو ينظر إلى الأمام كما لو أن المستقبل هو باستمرار في الجهة الأمامية، يبذل ما في وسعه لكي يحصل على أفضلية المرور، في حين يخفي ايندرلين، الذي يشعل الآن سيجارة، سروراً عميقاً عند التوقف وراء كل إشارة ضوئية وكل رتل من السيارات وكل عرقلة في السير؛ فالماضي ليس في عجلة من أمره...

أتخيل:

كيف لامست أصابعي جبينها لأول مرة؛ وجهها المستغرِب الذي لم يعد موجوداً، ليس على تلك الشاكلة...

أتخيل:

حين دفع ايندرلين أجرة التاكسي، ظل مضطرباً طيلة هنيهة من الوقت لأنه بدون أمتعة ومذعوراً كما لو أن أمتعته سرقت منه، أمتعته التي تطير الآن في الأعالي فوق الغيوم، لكنه هدأ في ما بعد وبدا مغتبطاً لأنه بدون أمتعته، لكنه محتار، لكنه واقف بكلتا رجليه على الأرض، حتى على حافة الرصيف بحيث لا يمكن أن يصيبه في حقيقة الأمر أي مكروه، ايندرلين لا يعرف تماماً في أي مكان من المدينة الغريبة يتواجد الآن، لكن على وجه التقريب، ايندرلين يتذكر الكشك إذا كان هو نفسه الذي يراه الآن، فإذا لم يكن الآن ذاهباً في الاتجاه الخطأ، فإن بيتها ليس بعيداً عن مكان تواجده، ايندرلين يسمي نفسه حماراً فقد كان بإمكانه أن يسافر بالتاكسي إلى أن يصل إلى بيتها، لكنه لم يفعل بل طلب فجأة من السائق أن يتوقف، ففي رأيه على ما يبدو أنه ما يزال باستطاعته أن يختار الكف عن الطيران. لماذا هو إذن بحاجة إلى أن يجد بيتها، أجل، لماذا في حقيقة الأمر؟ ايندرلين أمام الكشك: يسأل عن شارعها لكي لا يذهب إلى هناك، لكن الناس لا يعرفون ذلك الشارع، على ما يبدو ليس ذلك هو الكشك المطلوب، والآن يقف ايندرلين فعلاً في حيرة من أمره. لماذا لم يطر! ايندرلين يعرف مع ذلك الميزة الناجمة عن أنه (كما أنا) لا يجوز أن يتناول طعاماً في الطائرة، ومن المؤسف أنه لا يعاني من جوعه؛ لايندرلين الخيار في أن يأكل طعاماً فرنسياً أو إيطالياً أو حتى صينياً، ففي تصرفه ما يكفي من الوقت، أمسية كاملة في مدينة غريبة ولا يعلم أحد أين يتواجد ايندرلين في هذه اللحظة وهي أيضاً لا تعرف، لأنه لن يعلن عن قدومه، وحتى هو لا يعرف مكان تواجده، كلا، الكشك هو هو، لكن البار الذي كان بجانبه لم يعد موجوداً. لماذا يمشي إذن؟ بإمكانه أيضاً أن يجلس على حافة الرصيف. ترى لماذا لا يدخل ببساطة إلى أحد المطاعم؟ وفجأة يصبح كل شئ سخيفاً، والطعام أيضاً إذا لم يكن المرء جائعاً، لأتفهّم ذلك؛ ايندرلين يتسكع في الشارع لا ليجد بيتها بل ليجده عن طريق الصدفة فحسب. قبل ذلك لا يستطيع ايندرلين أن يجلس وحده في مطعم ويقرأ قائمة

المأكولات وقائمة الخمور لكي يحتفل بأنه رأى بيتها مرة أخرى –دون أن يرن جرس بابه...

أتخيل:

بيتها من الخارج...

ايندرلين لم يره أبداً من الخارج بعد، لم يره البارحة حين دخل إليه لكي يأخذها معه إلى الأوبرا، كان عبارة عن بيت كغيره من البيوت، لا نصباً تذكارياً، وفي صباح اليوم حين غادره ايندرلين، رأى باب البيت فحسب بنحاسه الأصفر، لكن بعد ذلك لم ينظر إلى الوراء؛ وفي حقيقة الأمر لا يتذكر ايندرلين سوى الباب.

أتخيل:

واجهة مطلية، أربعة طوابق، وأسوار نوافذ من الحجر الرملي، فناء يرجع إلى القرن الثامن عشر أو السابع عشر، مرمم (أعرف أن في داخله مصعَداً) ضمن نطاق الحملة الرامية إلى حماية الوطن وتراثه وآثاره ونصبه التذكارية، علو الطوابق أرستقراطي الطراز ما عدا الطابق الرابع، نوافير مياه، سطح مكسو بقطع الآجر الشبيهة بذيل القدس، في الطابق الرابع يشعل الضوء جزئياً–

أو:

واجهة مكسوة بأحجار الجيري (ترافرتين)، علو الطوابق ديمقراطي الطراز، بناء جديد، لكن بسطح من الآجر بقصد التلاؤم مع أبنية المدينة القديمة، في الطابق الأرضي محل لبيع الخبز والمعجنات فوجئتُ به؛ النوافذ المسورة بالحجر الرملي موجودة في البيت المجاور ونوافير المياه أيضاً؛ باب البيت مزدان بقباب ذات صور على لوحات معدنية، ربما بُني في خمسينات قرننا، اسمنت مسلح لكن بدون أشكال من فن الهندسة المعمارية الحديثة، في الطابق الرابع يشعل الضوء جزئياً–

أو:

ليس للبيت طابق رابع (أنا متأكد أن المنزل كان في الطابق الرابع) في هذا الجانب، ويتعذر الالتفاف حول البيت؛ الواجهة كانت في يوم من الأيام تدل على العظمة والأبهة، لكنها الآن في وضع سيئ من التدهور والانحطاط، البيت من طراز البناء المعروف باسم بيدر ماير، وقد قل شأنه في ما بعد بسبب قربه من محطة للقطارات مخصصة لنقل البضائع بما يصدر عنها من صفير وضجيج جراء اصطدام القطارات والعربات بالمصدات الحديدية، في الطابق الأول والثاني لافتات بأسماء شركات، وثمة نوافذ مزودة بعوارض خشبية؛ في الطابق الثالث يشعل الضوء جزئياً-

ممكن:

ثمة ساعي بريد يخرج لتوه من الباب ويسأل ايندرلين عمن يبحث، وايندرلين، مذهولاً ومعقود اللسان في تلك اللحظة، تظاهر بأنه يضل طريقه وذلك بأن تابع المشي -دون أن تصدر منه ولو كلمة شكر...

(ممكن لكن ليس محتملاً).

أكيد:

أتذكّر انعكاس ضوء صادر عن مصباح كهربائي قوسي معلق في أحد الشوارع، انعكاس ضوء تؤرجحه الريح طيلة الليل وينتشر في الستائر وعلى سقف الغرفة، أتذكر تماماً: إذا لم يهتز مصباح الشارع الكهربائي، فإن ضوءه لا يلامس درابزون النافذة، ولدى هبوب الريح فقط كان ضوء الشارع يتدفق في غرفتنا كما يتدفق زبد الأمواج في زورق، وفي الضوء المنعكس من سقف الغرفة كانت تستلقي امرأة، أي: مهما بدا من الخارج منظر الأشياء التي ينيرها هذا المصباح القوس، فإن النوافذ التي تعلو مباشرة ضوء المصباح القوسي، سواء في الطابق الثالث أو في الرابع، لابد وأن تكون هي (نوافذ المنزل، المترجم)...

أتخيل:

ايندرلين رن جرس الباب.

(- بينما أنا في الطائرة، محاصر بين أكواع غريبة والصينية المعروفة أمامي، منهمك لتوي في إخراج السكين الصغيرة والشوكة والملعقة الصغيرة من السيلوفان، وانظر إلى الحساء المصنوع من ذيل الثور وقطعة باردة من الدجاج وسلطة فواكه).

أتخيل:

أمسية بدون عناق، ولفترة طويلة حتى بدون قبلة، تتلاقيان تلاقياً سطحياً من الخارج، الأمر الذي يلزم بإجراء أحاديث إلى أن تكاد تنتفي إمكانية أن يسيء أحدكما فهم الآخر، أجل..........

أنه لأمر مذهل...

أطلب كأساً من النبيذ.

نطير، وفقاً لإعلان خطي صادر عن كابتن طائرتنا، على علو ٩٠٠٠ متر فوق سطح البحر وبسرعة وسطية مقدارها ٨٠٠ كيلو متر في الساعة.

النبيذ بارد أكثر من اللازم.

أتخيل:

نبيذكما أكثر دفأً...

وأشرب نبيذي بالرغم من ذلك.

أتخيل:

أنتما تعيشان، أنتما على الأرض...

المضيفة تبتسم حين تأخذ أخيراً صينيتي من أمامي. لماذا؟ إنها تبتسم دائماً، هذا أمر معروف عنهن، وهن دائماً فتيات شابات صغيرات السن، حتى

لو انقضت بين السيجارة التي انتهت لتوها والسيجارة التالية أُشعلها من الأولى مدة عشر سنوات.

أتخيل:

عشر سنوات-

أتخيل:

هناك ترقدان الآن إذن، زوجان مات الحب في جسديكما، كل ليلة في غرفة مشتركة ما عدا السفرات القصيرة كالآن. هناك تسكنان الآن إذن. وسواء تعلق الأمر بمسكن أم ببيت، مجهز على هذه الشاكلة أو على تلك، ربما عصري أنتيكي الطراز مع المصباح المعتاد من نتاج الصناعة اليابانية، على أي حال ثمة حمام مشترك، والمنظر اليومي لأدوات من أجل مختلف أشكال العناية بجسدين اثنين، نسائي ورجالي. هناك يهفو قلباكما أحياناً. ليس لأحد منكما إنسان أكثر وداً مما أنتما عليه إزاء بعضكما بعضاً وألفة، كلا، حتى ولا في الذكرى؛ حتى ولا في الأمل. هل يستطيع الناس أن يكونوا أكثر ارتباطاً ببعضهم بعضاً مما أنتما فيه؟ بالطبع لا. لكن أحياناً يهفو قلباكما. إلامَ؟ وعندئذ تسري في أوصالكما رجفة أيضاً. ماذا في حقيقة الأمر؟ هناك تعيشان بحب السنين المتعجلة إلى أبعد الحدود، زوجان، برقة، دون أن تُظهرا ذلك في حضور ضيوف لأنكما هكذا فعلاً، فعلاً زوجان مات الحب في جسديهما ونادراً ما يقترب أحدكما من الآخر مرة أخرى. بعد سفرة فحسب، بعد انفصال على مدى انعقاد مؤتمر مثلاً، يصدف أن تعانقا بعضكما بعضاً في وضح النهار، بعيد الوصول وقبل أن تُفرِّغ الحقائب ويتم الإخبار عما هو ضروري. بتعبير آخر ماذا يعني ذلك؟ أمر منعش، لكنه لا يستأهل أي اعتراف. هناك قضيتما من جديد، كالسابق، يوماً لا تعد ساعاته وأنتما ترتديان روب الصباح وتسمعان اسطوانات الموسيقى. ثم مرة أخرى ذلك الاختفاء الوديع لكل فضول من الجانبين، لا تصريحاً ولا إبداءً؛ تمويهاً فحسب خلف المتطلبات اليومية. وهكذا تعيشان على غير هدى. رسائلكما حين تنفصلان

ذات مرة عن بعضكما بعضاً تكاد تصيبيكما بالذعر والهلع، لكنها تسعدكما بالذات لأنكما تكتبان بإعصار من الكلمات المنسية، بلغة نسيتماها. وتتصلان هاتفياً من غرفة في فندق فيها سرير مزدوج خاو، لا تتهيبان أية تكاليف، من لندن أو هامبورغ أو سيليس لكي تدردشا في أنصاف الليالي، بإلحاح يقتضيه الحب. وهنا تسمعان صوتيكما البائدين مرة أخرى وترتعدان خوفاً. إلى حين اللقاء من جديد في المنزل. ما يبقى هو عبارة عن الميل، الميل الصامت والعميق والثابت. تُرى أليس هذا أمراً هاماً؟ لقد اجتزتما جميع الصعاب تقريباً ما عدا النهاية، ليس جديداً عليكما أن أحداً منكما سيولي هارباً في أحد الليالي، وسوف يثور الغضب، وسف لا يجدي شيء نفعاً حين تلوذان بالصمت طيلة يومين. أنتما زوجان، تتمتعان بالحرية في أي وقت، لكنكما زوجان. وفي هذه الحالة لا يمكن فعل الكثير. وأحياناً تبرز الفكرة الكامنة في سؤال: لماذا أنت أو أنتِ بالذات؟ فأنتما تبحثان عن رجال، وعن نساء. وهنا لا يرد حقاً كثير في الحسبان أو يرد كل شيء. لا شيء يصبح أكثر جموحاً من حبكما آنذاك، في أحسن الأحوال بقدر جموحه. هل كان حباً جامحاً فعلاً؟ لا تتحدثان عن ذلك أبداً. في محاولة لصون الحاضر برقة وحنو. أو توردان مأخذاً زائفاً ككل مأخذ على الحياة. تُرى من يستطيع أن يفعل شيئاً من أجل التعود؟ كيف كان الوضع ذات مرة، لا يعرف ذلك سوى مرآة واقفة في غرفة فندق مزرية، مرآة صدئة -فضية اللون- مدخَّنة لا تتوقف عن إظهار عاشقين، بأذرع كثيرة، رجل وامرأة، بدون اسمين، جسمين ثملين حباً. من منكما رأى ذلك، هذا ما سيبقى سراً. كلاكما؟ لم تكونا ذلّكما بخاصة. لماذا تلاحقكما تلك الصورة التي أظهرتها المرآة؟ ربما كانت أيضاً لرجل وامرأة أخرى، أنتما تعرفان ذلك وتنظران إلى بعضكما بعضاً. أنتما بشكل خاص تسعيان إلى الأريحية عن طريق السخرية التي لا جدوى منها. أنَّى لكما أن تصبرا على واقع أنكما متفاهمان إلى حد كبير وتزدادان تفاهماً، بدون اتصالات جنسية، كما لو أنكما لم تعودا من الناحية الجسدية رجلاً وامرأة؟ وفي خضم هذا المأزق تبحثان فجأة عن سبب للغيرة. فلولا هذه الغيرة، يا إلهي، لكانت

زمالتكما المميتة تامة. حادثة سخيفة على الشاطئ، عناق بسيط بالطبع بين شجرات من الصنوبر تبقى هي الشيء الذي لا ينسى بالنسبة إلى هذه المسألة، خيانة، تقادم عليها الزمن، لُعنت جراء الألم الذي أحدثته، ثم استُوعبت بالطبع، اسمها أو اسمه أحيط بالصمت مثل كنز أسرة ملكية، فلم يذكر إلا في أقصى الأحاديث، يعني نادراً، مرة أو مرتين في العام، لكي لا يُستَهلك كما استُهلِك جسداكما. يا لهذا الاسم! هو وحده يولدُ مرة أخرى الشعور المتوحش بدلاً من الشعور الآخر، الحلو، الحار، المفرط، على الأقل الجانب الآخر من الشعور الأول. والبقية هي الميل؛ في حقيقة الأمر من حسن الحظ؛ الجنون فقط هو الذي يجرؤ على النيل من هذا الميل مع إثارة الشبهات في ليلة قلقة لا نوم فيها. ما الأمر إذن؟ تتظاهران بالتعب وتطفآن النور، ماذا ينبغي أن يكون عليه الأمر. بعد ذلك توضع، في حين ينام الآخر من جديد، خطط، كما يفعل السجناء، وفي هذا تصممان على مواجهة كل تحول، على التوازن، بتهور وصبيانية، أنها ليست رغبة جامحة، بل هي حنين إلى الرغبة الجامحة؛ وهنا تجهزان الحقائب. مرة هي، ومرة هو. بالتناوب. لا يدوم الوضع طويلاً، خيانة زوجية، لكن يبقى الأمر محصوراً في نطاق الحياة الزوجية. أنتما زوجان، مؤكد في واقع الأمر أنكما لن تفقدا بعضكما بعضاً أبداً، زوجان في جسدين مات الحب فيهما وهنا لا يفيد حزم الحقائب في شيء؛ فاتصال هاتفي من الصوت الحبيب، وهنا تعودان لتعترفا أو العيش في خضم الحياة اليومية، التي هي الحقيقة، بالبيجاما وفرشاة الأسنان في الفم المليء بالرغوة أمام الآخر، وأنتما عاريان في الحمام عرياً متخفياً لا يثير الانفعال، في جو حميم، هنا تتحدثان في الحمام عن الضيوف الذين ذهبوا لتوهم وعن العالم الروحي الذي يربط بينكما. هنا تفهما بعضكما بعضاً دون أن تتفقا. أنتما حيويان وتعرضان آراءكما لكنكما تعرفان جسديكما كما يعرف المرء أثاث بيته، وهنا تذهبان إلى النوم لأن الساعة صارت من جديد الثانية صباحاً وغداً هو يوم مضن. الآن ليس هو الآن. ثمة ثورانات، رقيقة، لكن واحداً من الاثنين متعب أو مليء بالأفكار المتواجدة الآن فحسب، بينما جسداكما متواجدان باستمرار.

صفحة ساقطة في الأصل

صفحة ساقطة في الأصل

صفحة ساقطة في الأصل

صفحة ساقطة في الأصل

صفحة ساقطة في الأصل

صفحة ساقطة في الأصل

صفحة ساقطة في الأصل

صفحة ساقطة في الأصل

صفحة ساقطة في الأصل

صفحة ساقطة في الأصل

صفحة ساقطة في الأصل

صفحة ساقطة في الأصل

صفحة ساقطة في الأصل

صفحة ساقطة في الأصل

صفحة ساقطة في الأصل

صفحة ساقطة في الأصل

صفحة ساقطة في الأصل

صفحة ساقطة في الأصل

صفحة ساقطة في الأصل

صفحة ساقطة في الأصل

صفحة ساقطة في الأصل

صفحة ساقطة في الأصل

صفحة ساقطة في الأصل

صفحة ساقطة في الأصل

صفحة ساقطة في الأصل

صفحة ساقطة في الأصل

صفحة ساقطة في الأصل

صفحة ساقطة في الأصل

صفحة ساقطة في الأصل

صفحة ساقطة في الأصل

صفحة ساقطة في الأصل

صفحة ساقطة في الأصل

صفحة ساقطة في الأصل

صفحة ساقطة في الأصل

صفحة ساقطة في الأصل

صفحة ساقطة في الأصل

صفحة ساقطة في الأصل

صفحة ساقطة في الأصل

صفحة ساقطة في الأصل

صفحة ساقطة في الأصل

صفحة ساقطة في الأصل

صفحة ساقطة في الأصل

صفحة ساقطة في الأصل

صفحة ساقطة في الأصل

صفحة ساقطة في الأصل

صفحة ساقطة في الأصل

صفحة ساقطة في الأصل

صفحة ساقطة في الأصل

قال: «تفضل بالجلوس»

فسألته: «كيف حالك؟» ولكي لا أنسى ثانية فقد وضعت، دون أنتظر جوابه، الدفتر على الطاولة البيضاء المليئة بالأدوية والأدوات؛ رأيت زجاجات صغيرة، محقنة، إبراً بين كحول. قلت: «قرأتُ مقالتك، أجد أنها ممتازة». ايندرلين ظل صامتاً. قلت وأنا أخرج إلى الشرفة الصغيرة: «عندك هنا يا عزيزي إطلالة جميلة بالفعل» كما لو أنني أزوره هنا لأول مرة. كنت مرتبكاً، لكن لا أعرف السبب وصرت أفرك يدي. وسألني ايندرلين:

«حسناً، وكيف حالك أنت؟» كان ذلك اليوم في رأيي يوماً رائعاً. ربما توقع ايندرلين أن أعلق على مقالته بصورة أكثر تفصيلاً؛ لكن حين حاولت ذلك نظر ايندرلين إلي شذراً ولم يتمخض عن ذلك أي حوار. قلت وأنا أرى أنه لا يستمع إلي: «ما أجده ممتازاً تماماً»، قلت وأنا أعود أدراجي إلى الغرفة: «شكراً، أنا أعمل» وأخذت أملأ غليوني بالتبغ، رجل يقف في الحياة ثابت القدمين ويجلس، غليونه مندس في كيس التبغ، سوف لن أدخن، غرفة المريض هي غرفة مرضى ولو أن النافذة مفتوحة على مصراعيها، زائر ذو لباقة، لكن سليم الجسم، واحد يتحدث عن مسائل موضوعية، عن قضايا عالمية، بعيداً عن الأنانية، الغليون المليء بالتبغ في فمه دون أن يشعله، يعتريه القلق لا على ايندرلين المحاط بالعناية والمزود بالزهور وعصير الفاكهة، بل هو قلق على أوربا، على البشرية بوجه عام، هذه المرة بالدرجة الأولى في مجال بناء المدن، بناء المدن من حيث أنه مشكلة سياسية، وبهذا الصدد عندي بعض ما أقول مما سبق لايندرلين أن سمعه غير مرة. لن يتمخض ذلك عن حوار بل عن محاضرة طالما أن ايندرلين يلوذ بالصمت. لابد وان يكون إشعال غليوني قد حدث بسبب الارتباك. فسألت: «ماذا عن مشروع مجلتكم؟» لكي أخرج ايندرلين من حالة فقدان شعوره. أنّى لي أن أعرف ايندرلين يعتبر نفسه منذ قبل ظهر هذا اليوم مرشحاً للموت؟ إشفاقه على نفسه، بصمت، لكن بشكل جلي، يثير انفعالي شيئاً فشيئاً ويدفعني إلى أن

أصبح فظاً. صحيح أنني لا أدخن، لكن ثمة جمل تصدر عني لتبرهن له على أنه تماثل للشفاء: «للّه دركم، أنتم ومشروع مجلتكم» ودون رحمة: «هل آمنت يوماً بهذه المجلة؟» الآن أتصرف بفظاظة، أعرف ذلك. قلت: «لكننا نعرف هذا النوع من المشاريع، كل واحد يعد بالتعاون لكي يُشهر اسمه؛ وبالكاد توضع البيضة حتى تراهم ينشغلون بأمور أخرى، وتبقى أنت معلقاً باعتبارك مسؤولاً عن إصدار المجلة». لا أعرف ماذا جرى لايندرلين، وأراني أفشل أكثر فأكثر في العزف على الوتر المناسب وأتحدث مع ذلك أكثر فأكثر. قلت «أجل، لابد وان نكرر تجوالنا مرة أخرى فوق جبل ايتسا!» فابتسم. وقلت: «حالما تصبح جاهزاً لذلك». كان لابد لي في حقيقة الأمر من أن أذهب وشأني. لكن كيف؟ من الأفضل أن أفصح عن رغبتي هذه: «يجب أن أذهب!»، بينما كان ايندرلين يرشف من عصير الفاكهة الذي قدّم إليه، ونهضت أنا واقفاً بينما أمسكت سريره بكلتا يدي كعربة للأطفال، انظر إلى المستقبل الذي يريد أن يُخطط له، بناء المدن باعتباره مشكلة سياسية. وسألت ايندرلين كيف ينبغي لأحفادنا أن يسكنوا وسألت كيف يتصور ايندرلين على سبيل المثال حركة المرور والمواصلات في بحر عشر سنين، ثلاثين سنة، خمسين سنة، إنه بالفعل لسؤال هام لا بالنسبة إلى ايندرلين بل إلى العالم بأسره وعلى وجه الخصوص عالمنا الغربي، بينما لا يقوى ايندرلين (لكن لا يظهر ذلك عليه) إلا على التفكير بمسألة كم من العمر سوف يعيش بعد: عاماً واحداً، في أحسن الأحوال عاماً واحداً... وحين أتت الممرضة ذات مرة لكي تعطي السيد ايندرلين الحقنة اليومية في ساعده، لذت بالصمت لفترة كما تقتضي اللياقات المعتادة وأخفيت غليوني بسبب الممرضة التي كان عليها أن تعزز الإبرة مرة ثانية في ساعد ايندرلين. ايندرلين المسكين! أتفهَّم أنه لا يصغي إلي تماماً، أريد أن أتفهمه؛ إعطاؤه الحقن يومياً، مرة في الساعد الأيسر وأخرى في الساعد الأيمن، أمر يثير الأعصاب وبالدرجة الأولى حين لا تجد الممرضات الوريد اللازم. أتفهَّم ذلك. وحين يُنزل ايندرلين بصمت أكمام بيجامته، أسأله لكي أشتت ذهنه، عن رأيه في كتاب ملقى على كوميدينته. يقول لي يمكنك أن

تدخن بكل ارتياح وطمأنينة. فهو يريد على نحو ما أن أبقى عنده؛ لكن يجب علي الآن أن أذهب فعلاً، الأمر الذي هو من الصعوبة بمكان طالما أن ايندرلين لا يقول شيئاً بالمرة. لكنه في أثناء ذلك تراه ممعناً في التفكير، إنني أرى ذلك بأم عيني، لا ينقطع عن التفكير أبداً. فيدفعني الارتباك في هذه الحالة إلى أن أتحدث عن بعض الناس. استغابة. من أقام مؤخراً علاقة ما مع من. فيسمع حديثي، لكنه يغض النظر عني. العمال هناك على السقالة، انظر إلى هناك، إنهم إيطاليون؛ هذه أيضاً مشكلة: إذا استمر الأمر على هذه الحالة، اجتياح عن هذه المشكلة لا يتحدث ايندرلين. وإذا ما حاولت بطريقة أخرى مختلفة دفعه إلى الحديث، على سبيل المثال أسأله كم محاضرة سوف يلقي في جامعة هارفارد، صحيح أنه يجيبني على سؤالي لكن بطريقة تنم عن أن هذا الأمر لا يعنيه في شيء وكما لو أنني أتحدث هراء بهراء. إذن ما الذي يبقى في هذه الحالة من فرص للحديث؟ مرة سؤاله ما اليوم الذي نحن فيه من أيام الأسبوع وما تاريخه؛ وما عدا ذلك لا شيء...

وأخيراً أذهب من عنده.

الزائر الأول، الأول الذي وجب على ايندرلين أن يختبر مقدرته على إخفاء سره أمامه، نفد بجلده...

ساعة البرج تدق الرابعة.

إن سنة واحدة هي زمن طويل-

ليته يستطيع أن يصرخ!

بورّي محقّ:

٤٢ عاماً ليس عمراً.

في ما بعد مساءً، بعد أن حاول ايندرلين وهو نعسان من الحقنة أن يغرق في تفكيره وعيناه مفتوحتان تنظران في وقت الأصيل إلى هذه المشانق الهادفة إلى تأمين الرعاية الصحية... لماذا لا يشنق نفسه؟ - ربما كان ذلك

هو ما يفكر به ايندرلين وهو ينظر إلى هذا المقبض الأبيض المعلق فوق سريره المخصص للمرضى، بينما ينتشر الظلام من ربع ساعة إلى أخرى. تُرى بما عساه أن يفكر. لا يجدر بنا أن نفكر بالموت... وجه ايندرلين حين أشعل النور، وجهه في مرآة الخزانة حيث لا تزال بدلته معلقة منذ أسابيع، وجهه ورقبته العارية وبشرته بحاجة إلى أشعة الشمس، ليس إلا، أشعة الشمس على سفوح الوديان في انغادين أو على شاطئ البحر. أو في بلاد البيرو! وفجأة تخيل ذلك دون سخرية: البيرو باعتبارها بلاد الأمل! ربما يتخيل نفسه ممتطياً حصاناً يصهل، سنة واحدة في البيرو، رجل يبتعد على ظهر حصانه- لا أعرف... ماذا يمكن له أن يتخيل: كبر السن، الذي يُوفرَ عليه إذا ما قدر لطبيبه وصديقه بورّي ألاّ يكون مخطئاً في نبوءته ولا يُوفرَ عليه إذا كان مخطئاً في ذلك... وهو نعسان من الحقنة لكنه يقظ من الخوف ويتراءى له ما يخفيه كأنه حلم، يستلقي ايندرلين مغمض العينين مبسوط الذراعين ومتدلي اليدين فوق حافة السرير: في حقيقة الأمر لا يريد ايندرلين أن يعيش لئلا يعاني من الشيخوخة، لكن حين أُحضر له طعام العشاء النباتي وعدّلت الممرضة كالعادة وضع وسادته لكي يستطيع الجلوس مرتاحاً، زود ايندرلين جسده بالطعام وحين عادت الممرضة بعد نصف ساعة إلى غرفته لكي تأخذ صينية الطعام، قالت:

«شاطر، يا سيد ايندرلين، شاطر!»

سوف لن يشنق نفسه-

بالنسبة إلى بورّي، أفهم ذلك، الوضع في منتهى الدقة والحساسية. فهو يعرف فقط أن قصاصة الورق كانت على طاولته، واشتباه أن ايندرلين ربما قرأها يشغل بال بورّي إلى درجة أنه مني بفشل ذريع في لعبتنا المسائية بالشطرنج. على أي حال كان تصرف اندرليننا الطيب، حين أنبأه الطبيب بشفائه التام وخروجه الوشيك من المشفى، غريباً إلى حد ما. بالمناسبة لم يشتبه الأمر على بورّي إلا في أثناء فترة بعد الظهر حين افتقد قصاصة

الورق التي لم يكن كتبها بخصوص حالة ايندرلين الصحية بل تعلقت بوضع مريض آخر اقترب موعد ترحيله إلى أحد المصحات وحين وجد القــصاصة في سلة المهملات وعلى ظهرها وصف للوضع الصحي الجيد الذي يتمتع به ايندرلين. حالة سهو سخيفة! وهنا بدت نصيحتي التي أسديتها إلى بورّي بأن يتحدث في هذا الأمر مع ايندرلين تماماً في غير محلها. لأن ذلك من شأنه في رأي بورّي، أن يعزز في ذهن ايندرلين فكرة إخفاء الحقيقة عنــه. أدركــت ذلك. وبورّي لا يرى أية إمكانية أخرى: ســوف يــسمح ببــساطة بخــروج ايندرلين من المشفى ويراقب وضعه الصحي عن كثب. فإذا استقر الرأي على أنه لن يعيش بعد سوى عام واحد، فإنه لن يعيش بنفس الطريقة التي اتبعهــا حتى الآن، هكذا كان رأي الطبيب. فلم أعارضه، أملاً في أن نستطيع متابعة لعب الشطرنج، مباراة ثانية، على أمل أن تكون أكثر إمتاعاً مــن الأولــى. الأحجار البيضاء هي من نصيبي هذه المرة. لكن بورّي لم يهدأ له بال؛ ولذلك كان يصفُ الأحجار ببطء قاتل كما لو أنه لابد له من التفكير في مسألة أيــن يضع الفيل وأين يضع الحصان. وسألني، بعد أن افتتحــت اللعــب بجنــدي الملك، ما إذا كنت سأستمر في العيش بنفس النمط الذي عشته حتى الآن إذا ما عرفت أنني سأموت في بحر عام واحد على أبعد تقدير. لا أعرف. كلمة شرف. لا أستطيع أن أتصور حالة كهذه. وتابعت اللعب، محاولة مني لتغيير الموضوع، بإجراء مناورة افتتحتُ اللعب بموجبها بالمغامرة ببيــدق ثــانوي أملاً في تحسين موقعي في اللعبة.

ما يمكن أن أتخيله:

(لأنني عرفته)

استيقاظه في اليوم التالي، مطلع الفجر أمام النافذة المفتوحة (المطــر يسقط) معتم وبدون صدع كالغرانيت: ومن هذا الغرانيت يخرج، كصرخة، لكن بدون صوت، فجأة رأس حصان ذو عرف أحمر صاهلاً، لكن بــدون صوت، بين أسنانه زبد، لكن الجسد يبقى في عتمة الفجر، الرأس فقط هــو

ما يخرج منها، العينان كبيرتان وزائغتان، تبحثان عن رحمة -طيلة لحظة- ثم تمثال من الطين، مزين بمهارة فنية عالية، المناخر السوداء والأسنان البيضاء كالطباشير، كل شيء مزين فحسب، الشعر الطويل الأحمر جامد، وشيئاً فشيئاً ينسحب المشهد إلى الصخور التي تنغلق بصمت، وبدون صدع كمطلع الفجر أمام النافذة، قاتم اللون كالغرانيت في سفوح غوتهارد؛ في الوادي، في الأعماق السحيقة، شارع بعيد، منعطفات مليئة بسيارات صغيرة ملونة، تطوي الأرض باتجاه القدس...

كنت ذات مرة في القدس.

قبل ذلك بساعة واحدة حين عبرت نهر الأردن، الشبيه بساقية، ثم بعد منعطفات عبر وادٍ ميت وفيه بعض الجمال حين رأيت فجأة تلك الجدران البعيدة المرتفعة فوق الصحراء، صفراء اللون كالكهرمان، جدران تسطع عليها أشعة الشمس في الصباح، كانت تلك هي القدس -كما سبق لي أن تصورتها... الآن أقف هنا بعد أن ترجلت من سيارتي، سائح. لست السائح الوحيد، لكن السائح الذي لا يرافقه أحد. بوابة دمشق. في أثناء إغلاقي السيارة خطر ببالي: جبل الزيتون، مررت به لا من قبيل اللامبالاة بل متوقعاً أنه لابد وأن يكون هو جبل الزيتون بذاته. الجو حار إذا ما توقفت عن قيادة السيارة. سافرت طيلة سبعة عشر يوماً لكي أقف الآن هنا وأفتح السيارة مرة أخرى وأشرب الشاي من زجاجة ترمس وأغلق السيارة ثانية؛ لكن بعد ذلك يكفي هذا أيضاً. بوابة دمشق: عظيمة، جميلة، ذلك السور الروماني المعروف. لماذا هذه الرحلة؟ هكذا سألت نفسي؛ لكنني الان هنا. وليس حقيقاً أنني هنا. بوابة-دمشق وشمس الصباح تسطع عليها، عرب، نهيق حمار. وجودي هنا باعتباره حقيقة واقعية: لست في أي مكان آخر. أرى رقم سيارتي في القدس، أسلاكاً شائكة فوق جدار، بنادق خلف أكياس من الرمل. ولكي أمرّ عبر حدود الدول العربية فقد استهلكت لا أقل من ست شهادات تعميد، تلك ملاحظة عرضية عابرة؛ لمجرد أن أقول أنني قمت بالرحلة فعلاً.

بضعة آلاف من الكيلو مترات. وأعرف منذ الآن أن هذا، حتى بعد ساعات من قيامي بزيارات ومشاهدات من الأماكن إلى درجة الإرهاق، غير حقيقي.

أرى: بيت بيلاتوس، على الأقل هو بيت بيلاتوس الحقيقي على أرض الطبيعة والواقع، يوم جمعة، فسحة سماوية، ظلال حيث أتفيأ، أغصان مورقة بثمار الليمون، نظرة عبر ممر مقنطر إلى المسجد العربي المقام في مكان معبد سليمان، قبابه الشبيهة بفقاعات الصابون اللامعة. لا أعرف ما إذا كان هذا يحدث في كل يوم جمعة: أرى رهباناً يركعون في ساحة وفرانسيسكانيين، كلهم بثياب بنية اللون، وبعضهم يرتدي خوذات ضد الشمس، بيضاء أو مائلة للاصفرار، وجوه بنظارات أنفية، وهنا وهناك تأز كاميرا وهي تصور صلاتهم، حجاج يرتدون بناطيل قصيرة، رجال شماليون، يعتبرون الجنوب مصيفاً، يصلِّبون على أنفسهم ويركعون، إلى أن ينهض الفرانسيسكانيون واقفين لكي يجتازوا الدرب المقدسة مشياً على الأقدام. لحقت بالموكب المدمدم. موكب يسير عبر السوق العربي، موكب الأقلية، مسموح به قانونياً والشرطة العربية تؤمن مرور الموكب بسلام، حر شديد، في الأزقة الضيقة ثمة أمكنة مشمسة وأخرى ظليلة وحيث تسطع الشمس، بأشعة ضبابية، لا يخترقها النظر، وفي الأمكنة المعتمة تنهمر المطارق على النحاس الأحمر، وتنهق الحمير هنا أيضاً، ويقرفص المواطنون العرب أمام أكشاكهم صامتين وراء أراكيلهم الطويلة، سوق، أرى لحماً، خروفاً يُشق، لحماً دامياً في الشمس، رائحته كريهة ويغف عليه الذباب، يركع الفرانسيسكانيون ويصلون في كل محطة، والسياج أيضاً، منديل القديسة فيرونيكا الذي مسح به عرق السيد المسيح، ودائماً ثمة بعض الرجال الذين يصلِّبون أنفسهم قبل غيرهم، لكي ينهضوا واقفين ويلتقطوا صوراً للآخرين، ورهبان أيضاً يلتقطون صوراً لأخوتهم. أتفرج فحسب على هذه المشاهد. واعتراني الخوف وأنا فوق غولغاتا (المكان الذي صلب فيه السيد المسيح، المترجم). (خدعني رسامونا، برويغل وآخرون؛ فغولغاتا ليست خارج أسوار المدينة). نحن الآن فوق غولغاتا. (توقعت: صخوراً أو أرضاً صخرية، بدون ظلال منذ آلاف السنين،

ربما بعض الأشواك، أعشاباً في مهب رياحِ الصحراء الساخنة). هنا سقط يسوع مع الصليب، أرى الموقع، هناك غرز الصليب في الأرض، وإلى القبر يؤدي سلم مرمري إلى الأسفل، عتمة في ضوء الشموع، غولغاتا من الداخل، كطراز بناء لابد من صرف النظر عنه، تسلل الحجاج فوق المرمر، على المرء الآن أن يزيح عن وجهه النظارة الشمسية لكي يستطيع الرؤية. وتصبح حقيقة أنني الآن هنا أقل فأقل بصورة مستمرة. مرمر، قضبان، مرمر، شموع، مرمر، بخور، كل ذلك فاخر ومتعفن. لا أستطيع أن أعود نفسي على البخور، لكنني أبقى إلى أن يذهب المصلون، بصفتي سائحاً. وأرى: المكان الذي نُصب فيه الصليب، المرمر مشقوق كقطعة ثياب، والصخر العاري كاللحم، الثقب الذي في الصخر، الثقب من أجل الصليب... ثم أتابع مشاهداتي ومعايناتي، فأعرج على الجثمانية أيضاً (الحقيقة الكائنة على سفح جبل الزيتون والتي اعتقل فيها السيد المسيح قبل صلبه، المترجم)، عند الظهيرة، الحر شديد جداً، بحيث يتعذر على المرء أن يتناول شيئاً من الطعام، وحولنا لا شيء سوى صحراء، وديان وجبال من الرمل الأصفر، لا قرية، لا مزرعة، بل القدس هي المدينة الوحيدة تحت قبة السماء، الشمس تدور حول القدس، أتجول مشياً على الأقدام، الجثمانية حديقة صغيرة، ظلال وارفة جنة للناظرين لكنني لا أجلس فيها. وأرى: هذه هي الزيتونة التي صلى تحتها يسوع المسيح، إنها الآن شجرة مشوهة يابسة، رمادية كلون الفضة. وهناك حارس في زي رسمي، مسيحي عربي، يدلني على أثر القدم الأسطوري في الصخر فأعطيه – كما يتوقع – قطعة من النقود. فن البناء هنا أيضاً، مرمر وبخور، وهنا أيضاً نرى الأرض المرمرية مصدعة لكي يستطيع المرء رؤية الصخرة المقدسة–

كل ذلك يظل مظاهر خارجية.

عند المساء، حين قدمت السيارة إلى الوادي وتوقفت في أحد المنعطفات لكي أنظر مرة أخرى إلى القدس التي خلفتها ورائي، أسوارها في ضوء

الشمس المعكوس على وجهي، عرفت فحسب ما كنت أعرفه لدى وصـولي إلى تلك المدينة وحين تابعت سفري عقدت العزم على ألا أحكي عنها. لكـن في ما بعد لم أستطع السكوت.

وذات مرة جرى احتفال:

لم يعرف أحد ما مناسبته، وبورّي أيضاً لم يعرف ومع ذلك فقد أتـى، بالطبع متأخراً كالعادة («كنت لتوي في مهمة توليد»)، احتفال يعج بـالمرح والابتهاج، سيدات بثياب السهرة يجلسن في الصالة ويجلـس بيـنهن رجـل ظريف (Siebenhagen?) واضعاً رجلاً فوق رجل، في الحديقة ينهمك النـاس في الرقص، مصابيح محمولة، العشب الـشديد الاخـضرار تحـت المـصابيح المحمولة، بورّي في بدلة سموكينغ، انطلت عليه الحيلة، وهو الوحيد الذي كـان بإمكانه أن يتكهن ما هي مناسبة الاحتفال، أليس هو دكتور التنبؤ المشهور-

انقضى العام الذي تنبأ به بورّي.

ايندرلين، المضيف، كان اشترى بيتاً مع حديقة ومسبح مُـضاء، وقـد رُميت فيه للتو سيدة شابة، وعلا صراخها بسبب برودة الماء، إنه لمرح هائل على ما يبدو، بورّي وحده، الذي كان ساعد في عملية الولادة وهو في بدلـة السموكينغ، يقف متلكئاً على غير هدى وهو جائع، وتشنف الآذانَ موسـيقى منطلقة من أسطوانة «لا شيء من لا شيء، لا أسف على شيء»، في حـين أكل بورّي من الطعام المتبقي ولم يدرِ بعد ما الأمر، أصدقاء بعيون زجاجية وربطات عنق منزاحة من أمكنتها، واثنان يتعانقان على الديوان، ايندرلين في الخارج مستلق في أرجوحة معلقة، ايندرلين يبلغ الآن من العمـر ٤٢ عامـاً و١١ شهراً و١٧ يوماً تماماً؛ وقد اعتراه صداع من جراء أنه بقي على حاله-

إذن سوف يتقدم به السن!

مطلع الفجر-

لكن دون رأس حصان-

عتمة-

لكن دون صراخ-

قال بورّي: هذا استهتار، أنك تعرض نفسك للبرد والزكام.

طبيب- النبوءة!

قال ايندرلين، هذا هراء، سوف أبلغ السبعين من العمر عما قريب.

ذهب الضيوف-

قال بورّي: تعال الآن.

طيور تغرد-

ذهب بورّي-

سوف يتقدم سنه إذن!

ايندرلين لم يحتسِ الكحول. لم يعد يتحمل الشرب. وثمة تقليل معين من ذلك نجم -إذا صح التعبير- عن إرادته الطوعية وبدون أوامر الطبيب؛ ليس من صالح المرء في شيء أن يكون في صباح اليوم التالي متوعكاً صحياً في كل مرة. إلى هذا الحد وصلت أوضاعه. ايندرلين لا يزال يشعر أنه فتي إلى حد ما. لكن لابد له من توخي الوقاية. وهو يشعر بمجاملة مريحة إذا قدّر الناس عمره بأصغر مما هو في الحقيقة. إلى هذا الحد وصلت أوضاعه. إنه يهدي مجوهرات حين يحب. في السابق لم يخطر ذلك بباله. فعند بائع المجوهرات، حين كان يتفرج على الخواتم واللآلئ، كان يرتعد خوفاً: من يهدون مجوهرات هم عبارة عن رجال طعنوا في السن. حتى الآن لا يقف أحد في حافلة الترام من أجل أن يقدم مكانه إليه لكي يجلس فيه. سوف يأتي ذلك في ما بعد. وحتى الآن لا يرد في الحسبان الحديثُ عن الكبر في السن. لكنه يندهش حين يرى بالصدفة صورة قديمة له، حين يرى وجهاً لم يعد له وجود. ثم يعمل على أن تُلتقط له صور مع من هم أصغر منه سناً. لكن

الأوضاع وصلت إلى حد أنه ينظر إلى كل واحد على الصورة ما إذا كان أصغر منه سناً، ويعارضه الناس إذا ما تحدث عن كبر السن، بحق. حتى الآن لا يبدو عليه من ذلك شيء. وكون المواليد، التي ينتمي إليها، لم تعد تتمتع بأي قسط من الطموحات، فذلك لم يسترع انتباه أحد غيره، هذا أمر بديهي. البشرة المرتخية والأخاديد تحت العينين، حين يضطر في أثناء الحلاقة إلى النظر في المرآة، كل ذلك يظهر فقط كعلامة على إرهاق عرضي. وهو يرفض أن يخاف من ذلك. لكن الأسنان، أحياناً يراها في منامه وقد سقطت من فمه، من المعروف ماذا يعني ذلك، الأسنان تخيفه، والعينان أيضاً: فكل ما كان أبيض اللون يصبح رمادياً أو مائلاً إلى الاصفرار. إلى هذا وصلت أوضاعه. شعره لا يسقط، بل يترسل بشكل أكثر تسطيحاً فحسب، وما ينمو هو الجبين؛ ولم يحن الوقت بعد لتسمية ذلك صلعة. لكن الصلعة سوف تأتي في ما بعد. الشفتان أصبحتا رقيقتين أكثر مما كانتا من قبل، أكثر قدرة على التعبير على ما يبدو لكنهما عديمتا اللون. تحقُق النبوءة لا يزال قريباً، وبورّي محق في نبوءته. وثمة نساء يقدمن أنفسهن بشكل لم يسبق له مثيل. شعر الصدر غدا فضي اللون، لكن ذلك لا يُرى إلا في الحمّام. إن من شأن الصيام وقليل من الرياضة، التي تمارس باعتدال ونشاط، أن يحولا دون تشكل الشحم المترهل، والعضلات لا تصبح فتية من جراء ذلك. حتى الآن لا يزال ايندرلين سيمشي بدون جهد، لكنه يرى واقع حاله من خلال ظله: رجل في الخمسين من عمره، مشيته تصبح أكثر تقتيراً وحركاته لم تعد تسير عبر جميع أرجاء جسمه. الوجه يصبح أكثر حيوية من الجسد، أكثر ذاتية من عام لآخر، على جانب من الأهمية، إذا صح التعبير، إذا لم يكن متعباً لكنه متعب في أغلب الأحيان. ايندرلين يخفي تعبه عن الناس، بقدر ما يستطيع، وإذا اقتضت الضرورة فبواسطة أقراص من الحبوب. لم يحن الوقت بعد لأن يستلقي في السرير بعد طعام الغذاء. لكن سوف يأتي هذا كله في ما بعد. إنه لا يزال يعمل كامل عمله. هذا صحيح. حتى أنه ينجز الآن أكثر من السابق لأن الخبرة تجعله

يدرك بوتيرة أسرع ما يتعذر عليه أن يفلح فيه، وعلى الصعيد المهني تحل الآن أفضل فترة. هذا صحيح. وسوف يأتي ما يخشى منه: أن يعامله الناس باحترام حين يلتقون به. احترام إزاء أعوامه. سوف يترك الناس له الكلام لأنه أكبر سناً وهنا لن تفيده أية صحبة أو رفقة ولن يفيده أن يخطب ود الشبان. فسوف يبدون باستمرار أقل عمراً مما هم فيه. سوف ينصتون إليه من قبيل التهذيب واللباقة ونادراً ما سيقولون بم يفكرون. كل هذا آتٍ لا ريب فيه. سوف يبدي اهتماماً كبيراً بهم وسوف يرفض في الوقت ذاته أن يلبسه الناس معطفه ويبرر لهم قلة تجاربهم وطموحاتهم المتصاعدة. سوف يجده الناس جديراً بالإشفاق وثقيل الظل قليلاً أيضاً دون أن يلاحظ ذلك. وسوف يبدي إعجابه لئلا يظهر بمظهر الحاسد، سوف يحسد حتى على كل ما سبق أن ملكته يداه، طالما أنه لم يعد موضع طموح بالنسبة إليه. كل هذا سوف يأتي عما قريب. وطالما أنه معتاد على الازدياد الطبيعي لحالات الموت في صفوف مواليده ومعتاد أيضاً على تكريمات معينة خُص بها ماضيه، رجل ستيني بدأ الناس يؤكدون له نضارته العقلية وذلك بإخلاص متزايد -هذا الرجل لن يشكو من عمره، بل العكس، سوف يعتز بعمره وسوف يدهشه أن هذه العزة لا تظهر بأي حال من الأحوال بمظهر يدعو إلى السخرية بل أخيراً بمظهر ملائم ولائق. كل هذا لا يمكن إيقافه. وربما سيصل إلى سن السبعين، أجل، بفضل وسائل الطب الحديث. حتى الآن لم يحن الوقت بعد لأن يشمله الناس برعايتهم في كل روحاته وغدواته. بالطبع هو بحاجة إلى مساعدة. وبالطبع يجب عليه أن يتوخى الوقاية. من أجل ماذا؟ ذاكرته، مع أنها لم تعد تكفي لتعلم لغة أجنبية، سوف تصبح مثيرة للدهشة، فسوف يتذكر أبعد الأشياء التي كانت شغلته ذات مرة. الشبان (في الأربعين من العمر) سوف يتشاجرون مع بعضهم بعضاً في حين يجلس هو إلى جانبهم مرتاح البال. ولم يعد ثمة سبيل لتغيير آرائه. سوف يقوم كل يوم بنزهة، ربما مستعيناً بعصا وفي كل الأحوال مرتدياً قبعة وسوف يقرأ كل يوم الجريدة لئلا يتنزه في الماضي. أما الحاضر؟ فهو يعرف كيف نشأ هذا الحاضر وتبلور. وسوف يحكي أحياناً عن

لقاءاته الشخصية مع رجال صنعوا هذا الحاضر وعن عصره، والقصة هي هي في كل مرة..

لماذا لم يشنق المرء نفسه؟

كاميلا هوبر، لدى سؤالها ماذا يمكن أن تفعل أو لا تفعل إذا ما قدر لها أن تعيش بعد عاماً واحداً فقط، في أحسن الأحوال عاماً واحداً، تعرف الجواب فوراً:

«-تتوقف عن العمل».

ماذا تقصد كاميلا بالعمل، بالطبع لم يسألها غانتنباين عن ذلك بل تظاهر بأن الحديث إنما هو عن عملها في تجميل الأظافر.

فسألتُها: «حسن، وبدلاً من ذلك؟»

لم تقل كاميلا ما ستعمل بعدئذٍ، لكن بإمكاننا أن نحرز ذلك من خلال شعرها الأشقر بفضل الهيدروجين حين اتصل بها هاتفياً بعيد ذلك زبون آخر فأجابته:

«أنا آسفة، لقد أخطأت في الرقم المطلوب». وحين رن جرس الهاتف مجدداً بعد دقيقة من ذلك، أجابت أيضاً: «قلت لك إنك أخطأت في الرقم المطلوب».

ثم تابعت تجميل الأظافر.

إنها المرة الأولى التي تحتاج فيها كاميلا إلى قصة؛ فتخترع لنفسها واحدة، على ما يبدو، بصمت: -عامها الأخير على الأرض، قصة مع بعض التغيير على أغلب الظن، قصة حسية، مواسية.

تخليت عن لعب دور ايندرلين.-

(ثمة أناس آخرون لا أستطيع التخلي عن لعب أدوارهم، حتى ولو أنني نادراً ما ألتقي بهم أو لن ألتقي بهم بعد الآن أبداً. لا أريد يلاحقونني

في تصوراتي، بل أنا الذي ألاحقهم لأنني أبقى فضولياً محباً لمعرفة كيف يريدون التصرف في هذا الوضع أو ذاك مع أنني غير متأكد من كيفية تصرفهم بالفعل. قد يكون تصرفهم الفعلي مخيباً للأمل، لكن ذلك لا يهم؛ ويبقى لهم هامش توقعاتي وطموحاتي. مثل هؤلاء الناس يتعذر علي التخلي عن لعب أدوارهم. فانا بحاجة إليهم ولو أنهم عاملوني معاملة سيئة. على فكرة، قد يكونوا في عداد الأموات أيضاً. فهم يقيدونني طيلة حياتي، من خلال تصوري أنهم، إذا حلوا محلي ذات مرة، قد يحسون ويتصرفون ويجدون مخارج بطريقة مختلفة عن طريقتي أنا، الذي لا أستطيع أن أتخلى عن لعب دور ذاتي. لكنني أستطيع أن أتخلى عن لعب دور ايندرلين).

قصة من أجل كاميلا:

(قصة مواسية)

علي، كما يدل الاسم، هو عربي، راعي غنم في أعالي حوض الفرات وقد حان الوقت لكي ينوي الزواج. لكن علياً كان فقيراً. وفتاة معقولة كانت تكلف في تلك المنطقة آنذاك ١٥ ليرة؛ ذلك مبلغ كبير بالنسبة إلى راعي غنم. لم يكن ببساطة في حوزة علي سوى ١٠ ليرات. وحين سمع أن العرائس في المناطق الجنوبية أقل تكلفة، لم يتردد طويلاً بل أخذ حماره وملأ القِرب بالماء ثم امتطى الحمار ماضياً باتجاه الجنوب طيلة أسابيع عديدة. لقد آن الأوان ببساطة لكي يتزوج، فقد كان فتياً وصحيح الجسم. وهكذا مضى في طريقه يحدوه الأمل، في جيبه ١٠ ليرات، إلى منطقة الفرات الأدنى، كما سبق أن قيل، طيلة عدة أسابيع، حيث كان يتغذى بالتمر. وحين وصل علي أخيراً إلى المنطقة الموعودة، كانت كثيرة تلك الإنبات اللواتي أعجبنه وما أكثر الآباء الذين أرادوا بيع بناتهم؛ لكن في الجنوب أيضاً ارتفعت الأسعار في غضون ذلك فتعذر الزواج إذن بعشر ليرات فقط، حتى ولو كانت الفتاة المعنية بشعة. كانت التسعيرة آنذاك ١٢ ليرة، أما السعر البالغ ١١ ليرة فقط فهو فرصة نادرة. ساوم علي أياماً

عديدة، لكن دون جدوى، فعشر ليرات لم تكن عرضاً بل إهانة وحين أدرك علي تعذر مطلبه، أخذ حماره من جديد وملأ القُرب بالماء ثم مضى باتجاه الشمال، يقض مضاجعَه حزن عميق على بقاء ليراته العشر في جيبه، لأنه لم يصرف شيئاً منها كما لو أنه لا يزال يؤمن بحدوث معجــزة. وبــالطبع حدثت المعجزة التي استحقها علي إذا كان قادراً على تقديرها حق قــدرها. حدث عند منتصف الطريق بين الجنوب والشمال، حيث كان علي وحماره الحزين يستريحان من عناء السفر بجانب بئر من الماء، حين رأى فتاة لــم يسبق أن رأى مثلها من قبل، أجمل من كل الفتيات اللواتي أمكنه الحصول عليهن بليراته العشر، لكنها كانت فتاة عمياء. كان ذلك أمراً مؤسفاً. لكــن الفتاة لم تكن أجمل من جميع الفتيات فحسب، بل كانت ألطفهن أيضاً، وبما أنها كانت عمياء ولم يسبق لها أن رأت في أي بئر كم هي جميلــة وحــين أفصح لها عن جمالها الخلاب بكل الكلمات التي يجيدها راعي غنم عربي، أحبته في الحال ورجت أباها أن يبيعها إلى علي. كان ســعرها رخيــصاً، ونظراً لعماها فقد أراد أبوها أن يتخلص منها، بسعر رخيص إلـــى درجــة مخيفة: ٦ ليرات. ذلك لأنه ما من أحد على ضفاف الفرات كله كان يريــد عروساً عمياء. لكن علياً أخذها وأجلسها على حماره المــستريح وســماها عليلاً، بينما مشى هو على قدميه. وفي القرى، حيث ظهر علي باســتمرار مع عليله، لم يصدق الناس أعينهم إذ لم ير أحد منهم طيلة حياته فتاة أجمل وحتى لم يحلم بفتاة أجمل؛ لكنها للأسف عمياء. لكن لم يزل في جيبه علي ٤ ليرات، وحين وصل إلى بيته أتى بها إلى طبيب معجزة وقال له: هــاك أربع ليرات، هلم الآن واعمل على أن تشفي عليلاً فتستطيع أن ترى عليَّها. ولما أفلح الطبيب المعجزة في ذلك ورأت عليلُ أن عليَّها –مقارنة برعيان الغنم الآخرين من حوله– لم يكن جميلاً بالمرة، أحبته بالرغم من ذلك لأنه أهداها كل ألوان هذا العالم عن طريق حبه لها وكانت سعيدة به وكان سعيداً بها وكان علي وعليل الزوجين الأكثر سعادة في منطقة أطراف الصحراء...

كاميلا أصيبت بخيبة أمل.

وقالت دون أن ترفع بصرها وتتوقف عن عمليــة تجميــل الأظــافر: «حسناً، لكن قصتك هذه خرافة».

لم تشأ كاميلا أن تستمر في الإنصات إلى ما أقص عليها.

فقلت لها: «انتظري!، انتظري!»

كاميلا تتابع برد أظافري بالمبرد.

...الخرافة استمرت عاماً واحداً، وانتهى الأمر؛ فالاختلاط بعليــل أدى إلى انتقال العدوى إلى علي بحيث أصيب بالعمى، بالتدريج لكــن بالتأكيــد، ومرت في حياتهما إثر ذلك فترة عصبية، لأن علياً لم يكد يصاب بالعمى حتى أقلع عن تصديق أن زوجته تحبه، وكلما خرجت عليل من الخيمة اتقدت فيــه الغيرة. ولم يُجدِ نفعاً أنها كانت تقسم له على براءتها. ربما كانت تذهب فعلاً إلى الرعيان الآخرين، لا أحد يعرف. لم يستطع علي أن يرى ذلك وبما أنه لم يتحمل حيرة كهذه فقد بدأ يضرب زوجته. فكان ذلك تصرفاً سيىء العاقبــة. وفي ما عدا ذلك لم يعد علي يلمس عليلّه. وهكذا سارت الأمور علــى هــذا المنوال فترة طويلة إلى أن انتقم علي لنفسه بأن صار يعانق فتاة أخرى غالباً ما كانت تسلل إلى خيمته. لكن هذا أيضاً لم يماثله للشفاء، بل العكــس، لقــد ازداد وضعه سوءاً. وحالما كان يعرف أن عليله هي التي تستلقي في الخيمة وقتذاك، كان يضربها فكانت تبكي ويسمع الناس بكاءها إلى خارج الخيمــة، بذلك كان علي وعليل أتعس زوجين في أطراف الصحراء. وعُرف أمرهما. حين سمع الطبيب المعجزة بذلك رق قلبه وأتى لكي يشفي علياً بالرغم من أن هذا لم يعد بمقدوره دفع حتى ليرة واحدة. وشفي علي واستطاع أن يرى مــن جديد، لكنه لم يفش سره هذا إلى زوجته لأنه أراد أن يتتبعها، وهكــذا فعــل أيضاً. لكن ماذا رأى؟ لقد رأى عليلاً كيف كانت تبكي حــين يــضربها فــي الخيمة وكيف كانت تغسل وجهها لكي تتسلل إلى خيمته باعتبارها هي الفتــاة الأخرى لكي يقدم علي الأعمى على معانقتها-

قالت كاميلا: «غير معقول، هل حدث ذلك فعلاً؟»

انتهت عملية تجميل الأظافر.

فسألتني وهي تجمع المقصات والمبارد الصغيرة وتضعها في المحفظة المخصصة لذلك: «هل هذه بجد هي قصة حقيقية؟»

قلت: «أجل، أرى ذلك».

إن اللعبة بالنظارة المخصصة للعميان والعصا السوداء الصغيرة على حافة الرصيف وشارة الذراع الصفراء، التي تتواجد كل مرة - حين يخرج غانتنباين من منزله - بالضبط على كم بدلة أخرى، الأمر الذي يجبره على الرجوع مرة أخرى إلى المنزل، هذه اللعبة أصبحت أخيراً مملة، هذا رأيي أنا أيضاً؛ وقد أبرز لغانتنباين تخليه فجأة عن لعب دوره هذا إذا ما اتخذ يوماً قراراً بذلك وأسأل نفسي قبل غيرها عن رد فعل ليلى إذا ما اعترف لها غانتنباين ذات مساء بأنه قادر على أن يرى.

الأغراء يزداد يوماً بعد يوم.

لماذا التصنع؟

جلستُ بجانب الموقد، عند منتصف الليل، في يدي كأس مليئة بقطع الثلج التي ترتطم بجدران الكأس الداخلية حالما أحركها فتحدث صوتاً يشبه الرنين. ربما أفرطتُ في الشرب. راح ضيوفنا أخيراً؛ كان من جديد أمراً مضنياً أن ألعب دور غانتنباين الأعمى فامتنع عن إعلام الناس بما أرى. كنت رميت لتوي قطعة من الحطب في الموقد في حين كانت لِيلى منشغلة بقراءة الجريدة، ورأيت كيف بدأت قطعة الحطب في الموقد تدخن ببطء فوق جمر هذه الأمسية: وفجأة قفزت شعلة أولى، نزوة صغيرة عابرة مائلة إلى الزرقة ومتوحشة، سرعان ما تتبدد لكي تعود من جديد بعد هنيهة من الدخان، والآن شعلة تأز مشتعلة. وفي ما عدا ذلك لا يحدث شيء. لِيلى روت لضيوفنا من جديد، بنجاح كما في معظم الحالات السابقة، تلك النادرة المتعلقة بغانتنباين الأعمى حين كان في غرفة ملابسها. الضيوف، كما سبق القول، غادروا

منزلنا؛ ونحن أيضا سوف نذهب حالاً إلى النوم، على ما يبدو. وكأسي في يدي، فيها قطع من الثلج ترن لدى ارتطامها بداخل الكأس حين أهزها، أرى سعادتنا. ما إذا لِيلى لا تزال تصدق فعلاً أنني أعمى؟ أرى ساقيها، اليسرى تلتف فوق اليمنى، ركبتها ثم تنورتها على امتداد وسعها، وأرى إضافة إلى ذلك كلتا يديها وهي تمسك بهما الجريدة المفتوحة: عنوان بالخط العريض حول جريمة قتل.

ولِيلى تسألني: «تُرى هل قرأتَ هذا الخبر؟»

حين تسألني أسئلة كهذه، لا يخطر على بالها أمر غير عادي. وغالباً ما تفعل ذلك دون محاولة منها أن تختبر غانتنباين أو تجربه.

قلت: «أجل –قرأت الخبر».

استراحة.

قالت: «كيف يمكن ذلك؟»

كانت تقصد جريمة القتل.

وتجد «أن الأبدان تقشعر لها!»

شربت كأسي إلى أن لم يبق فيها سوى الثلج وانتظرت، والكأس في يدي متلهفاً، ما إذا أدركت لِيلى فجأة ما قلته لتوي؛ لكنني انتظرت دون جدوى، وطالما لم يلِ شيء من هذا القبيل كررت قولي:

«أجل– قرأتُ الخبر».

ببساطة لم تسمع ما قلتُ.

وسألتني: «هل بقي شيء من الويسكي».

بقي.

فقالت فيما بعد: «شكراً، شكراً».

وساد صمت لفترة.

قلت بعده: «لِيلى، سبق أن قلت لكِ شيئاً».

قالت: «أعذرني!»

وأخيراً وضعت الجريدة من يدها، لكن لم يظهر على وجهها أبداً أثر لأي تعجب أو استغراب، كما أرى، واكتفت بأن مدت يدها إلى كأس الويسكي المخصص لها، لكي تصغي، لكي تسأل:

ماذا قلتَ لي؟

ترددتُ.

ثم ابتسمتُ بهدوء ووضعت كأسي مرة أخرى على شفتي، ماء ناجمة عن ذوبان الثلج لا طعم لها، بحيث زالت الابتسامة عن شفتي وأنا أكرر: «قلت لكِ –قلت لكِ أنني قرأت الخبر».

«ألا ترى بأن ذلك مما تقشعر له الأبدان؟»

لا تزال تقصد جريمة القتل.

«أجل–»

أرى أن غانتنباين كان آنذاك بحاجة إلى أن يصمت ويدخن فقط ويبقى كل شيء على حاله كما كان من قبل، لكن ربما نوبة من الصرع –يمكنني أن أتصور ذلك– نوبة غضب لا تنتهي على خير، أدركت ذلك وأمسكت كأسي الفارغة من الويسكي بكلتا يدي لئلا يقذف به غانتنباين باتجاه الحائط. ما هذا! أرى قطعة الحطب المشتعلة في الموقد، وأرى لِيلى كيف تحتسي الويسكي ثم تتناول الجريدة مرة أخرى، العنوان العريض المتعلق بجريمة القتل. لكنني أتخيل الوضع على النحو التالي:

هو صامت إلى حين، يظهر أنه سيطر على نفسه بعد أن رمى كأس الويسكي على الحائط، ممتقع اللون من الانفعال دون أن يعرف هو ذاته ماذا

يريد حقاً بل يعرف فقط أن من الأفضل أن يلوذ بالصمت، لكن الشظايا تبقى شظايا ولا سبيل إلى تغيير الوضع حتى ولو لجأ إلى الصمت، غانتنباين في وضع ترتاح له لِيلى فعلاً، بدون نظارة (وليس في العادة أن يكون كذلك إلا حين يعانقها أو حين يسبح) ويرتجف ندماً على أنه الآن (لماذا في الحقيقة) يفشي سره، والنظارة في يده، إذ يقول إنه ليس بأعمى، في حين يذرع الغرفة جيئة وذهاباً، كلا، إنه ليس أعمى، ويضحك، دون أن ينظر إلى لِيلى، أعمى من الغضب، وهو يصرخ بصوت مبحوح ويعدد كل الأشياء التي كان يراها منذ زمن، أجل، رآها، سواء صدقت لِيلى ذلك أم لم تصدق، كلا، إنه ليس أعمى، هكذا كان يصرخ إلى أن سمعه كل الجيران، يرغي ويزيد غضباً من أن لِيلى لم تسقط على الأرض من جراء إفشائه سره بل انشغلت بتكنيس الشظايا الناجمة عن الكأس المحطمة، في حين أخذ غانتنباين -لكي يُظهر أنه ليس أعمى- يرفس الكنبات بقدمه، بصمت، ثم يقول مرة أخرى أنه كان يرى كل شيء، كل شيء، بيد أن صمتها لم يهدئه، بل أخذ يهوي بقبضة يده على الطاولة التي كان يراها منذ زمن طويل ويتظاهر بأنه ليس هو ذلك الشخص الذي يتصنع وينافق طيلة كل هذه السنين بل هي التي كانت تفعل ذلك، لِيلى، وهنا أمسك بها وأخذ يهزها إلى أن أجهشت بالبكاء، فقد صوابه، أجل، إنه يرى بنفسه كيف فقد عقله، الكنبات مقلوبة على الأرض، أجل، إنه يراها، ولا جدوى من أن يعيدها غانتنباين بنفسه إلى ما كانت عليه من قبل، لقد قيل ما قيل وسبق السيف العزل، لِيلى تنوح كما لو أنه خدعها، عقدها اللؤلؤي انقطع أيضاً، وبينما أراد غانتنباين أن يهدئ فورانه بتدخين سيجارة كان يكرر قوله: كلا، لست أعمى، لكن الأمر لم يدم طويلاً، لم يدخن نصف سيجارته بعد، حتى انفجر غضبه من جديد ولو بالكلام فحسب، واعتراه الارتباك كحصان كبا وهو خائف على نفسه-

كيف تتواصل الأحداث؟

بينما، بعد أن هدأ غانتنباين واعتذر عن قطع عقد اللؤلؤ، لم يتغير في حقيقة الأمر شيء بالنسبة إلى لِيلى طالما أن اعترافه بأنه مبصر لم يزده ولم ينقصه عمىً بالنسبة إليها عما كانت تعرفه عنه من قبل، فإن حياة أخرى قد بدأت بالفعل بالنسبة إلى غانتنباين طالما أنه لن يعود من الآن فصاعداً إلى لعب دور الأعمى...

أتخيل:

ذات مرة (إثر ذلك بوقت قصير) تعود لِيلى إلى الموطن وحالتها عجيبة غريبة. لم تكن هي المرة الأولى، لكنها تعرف الآن لأول مرة أنني أرى تصرفاتها، وذلك بدءاً من رصيف المحطة. وأنادي على سيارة أجرة في حين تقول هي: هنري يقرئك السلام! فأقدم الشكر. وفي ما عدا ذلك لا جديد؟ فتقول: كان الطقس سيئاً جداً وقد انشغلتُ بعملي طيلة الوقت. وسألتها: ماذا عايشتِ من أحداث في هذه الفترة؟ ليس لسائق التاكسي علاقة بالأمر. إذن فلنتحدث عن ذلك في ما بعد! أول البارحة كانت لِيلى في زيارة هنري وزوجته، التي تقرئني السلام أيضاً. ولِيلى تروي هذه المرة عن سفرتها أكثر مما روت عن كل السفرات السابقة. لم يسبق أن رأيت طيلة حياتي من قبل فرقة بالية روسية، إلا أنني صدقت في الحال أنها فرقة رائعة. وماذا بعد؟ أظن، وهذا ما أخشاه، أن لِيلى تعاقدت من جديد على تمثيل فيلم ألماني. اعترفي بذلك! أنا متلهف لمعرفة الأمر. لماذا لم أقبّلها؟ لأنني أدخن. أوضاع أبي الصحية في تحسن مستمر. شكرتها على هذا الخبر، والطقس، أجل، أمر لا يصدَّق كيف أن الطقس يختلف من منطقة إلى أخرى. في هامبورغ، على سبيل المثال، كان الطقس مشمساً، أجل، بالذات في هامبورغ. قلت وهنا جو ماطر منذ ثلاثة أيام. ثم علمتُ أن لِيلى التقت بالمناسبة؟ قالت بكل صراحة إنه كان مملاً. لماذا قالت بصراحة إلى هذا الحد؟ إذن سفوبودا كان مملاً. من كان يتوقع ذلك! لأول مرة، منذ أن سمعتُ بسفوبودا، تقول عنه الآن أنه ممل تماماً. وماذا بعد؟ بالناسبة سفوبودا يقرئني السلام؛ كل العالم يقرئني السلام.

بالمناسبة لابد من أن أدلي أيضاً باعتراف: تعرضتُ لحادث بسبب الجليد! جعلني ببساطة أدور. جليد! الآن يهطل المطر، لكن أول أمس كان الطقس جليدياً، سائق التاكسي الذي كان معنا يمكن أن يشهد على ذلك. إثر وصولنا إلى البيت تناولتُ معطفها ووضعته على علاّقة ثم سألتها: إذن، يا صغيرتي لِيلى، ما الأمر؟ أحضرتُ كأسين، وهنا أبدت لِيلى سرورها من أنه لم يلحق ضرر من جراء الحادث إلا بالسيارة، لأبي أنا. لابأس في أن أروي الحادثة مرة أخرى: كنت أقود السيارة بسرعة ٥٠، على الأكثر ٦٠، لكن لا حول ولا قوة ضد الجليد. إذن في صحتك! لكن لِيلى لا تستطيع أن تستفيق من الصدمة بسبب زوجها الأول، الذي يقرئني السلام الآن من جديد. كيف يمكن لزوج أول أن يصبح مملاً إلى هذا الحد! أحضرتُ قطعاً من الثلج. لماذا فات لِيلى موعد الطائرة؟ سؤال ظل بدون إجابة لأنني، كما سبق أن قلت، منشغل لتوي بإحضار قطع الثلج بينما تتذكر لِيلى في غضون ذلك من الذين يقرئونني السلام أيضاً. أظن أنه لا يزال ثمة أشخاص آخرون واردون في الحسبان. والوحيد، الذي لا يقرئني السلام، لا اسم له، لا أعرفه، ولذلك فهو لا يقرئني السلام. أفهم ذلك. أفهم ذلك. بعد العرض الذي قدمته الباليه الروسية كان هناك، كما أسمع من لِيلى، مجموعة من الطلاب الشباب. أخطأت الفهم. بالطبع ليست المجموعة بأكملها هي التي أرادت أن تتزوج لِيلى، بل طالب واحد فحسب. كيف تصور الطالب ذلك؟ لِيلى أيضاً، كما أسمع منها، ترى أن هذا ضرب من اختلال العقل، لكنها تتوقع أن أتفهم الوضع. كيف يمكن لامرئ أن يتفهم ما لا يعرف. فطالبتُ باطلاعي على تفاصيل الموضوع، أصبحتُ مهتماً بصغائر الأمور، الأمر الذي لم يكن في يوم من الأيام من شيم غانتنباين، وقد شكل ذلك خيبة أمل مؤلمة بالنسبة إلى لِيلى. لكنها لاذت بالصمت لكي تظهر خيبة أملها تلك. تُرى هل ينبغي علينا أن نصبح زوجين عاديين؟ إذن حدث في يوم الاثنين، أم كان ذلك يوم الأحد، كلا، كلاهما واحد، على أي حال حدث ذلك بعد العرض الذي أصاب نجاحاً كبيراً. ماذا؟ ألم تقل لِيلى ذلك: مجموعة من الطلاب، لكن وأيضاً من راقصي الباليه. أحاول أن

أتصور الوضع، وأنا أيضاً كنت طالباً، لكن لم أكن جريئاً كهذا الطالب الذي تسميه لِيلى، باختصار، شخصاً مقيتاً. توقعتُ في الطالب ملامح عبقرية حين سمعتُ لِيلى وهي تقدم لي تقريرها المزعج وملأت كأسي بالمشروب. إنني أتفهم، أجل، لا بل أجد أن الأمر من الإثارة بمكان حين يقدم طالب عمره واحد وعشرون عاماً أو ما يقارب ذلك على إبلاغ سيدة، وهو يُعدّ لها معطفها لكي ترتديه وبعد محاولاته دون جدوى لاقتناص أية فرصة للحديث معها، حين يقدم على إبلاغها بدون أية مقدمات بأنه يريد أن يطير معها إلى أورغواي لكي يعيش معها هناك، الأمر الذي يذهل السيدة التي هي لِيلى طبعاً. لماذا، برأيها، أسيء فهم كل شيء؟ إذن لم يكن طالباً، بل راقص باليه، كلا، ولا هذا أيضاً؛ ببساطة شخصاً مقيتاً. ما اسم هذا الشخص المقيت، ليس ذلك أمراً مهماً. المهم هو أنه رافقها إلى حيث تقيم، وإلى الفندق. ثم ماذا حدث بعد؟ عدتُ، برأيها، إلى إساءة الفهم. لم يحدث بعد ذلك شيء، كما قالت. وهكذا اكتفيت بأخذ العلم بوجود طالب أو راقص باليه، أغلب الظن أنه عبقري، طالما أنه يعتبر كل شيء يحمل اسماً هو في عداد الأمور المعروفة منذ زمن طويل، بما في ذلك الباليه الروسية أيضاً وانه يريد أن يتزوج لِيلى في الحال. هكذا القضاء والقدر! سألت فقط ما إذا كان يعرف أن لِيلى متزوجة. لماذا أنا شخص غريب عجيب؟ فأنا لم أسأل ما إذا كان الطالب يملك نقوداً، شربتُ ولذتُ بالصمت، كل ما يخطر ببالي يبدو أنه أمر تافه. فحيث يوجد حب، توجد أيضاً طائرة إلى أورغواي. وهكذا هدأتني لِيلى، مع أنني أهدأ منها: لم يكن الشخص الذي طلب الزواج منها راقصاً، كلا، ولم يكن طالباً أيضاً، كلا، لِيلى لا تعرف ما هو هذا الشخص في الحقيقة. وذلك هو الأمر الرائع فيه. الأمر، في رأيها، لا يتعلق بزواج بالمعنى البورجوازي للكلمة، أفهم ما تعني، بل بشيء آخر لا تريد لِيلى أن تسميه، فأسميه أنا: شيء مطلق. وتعترف لِيلى بأنه من جانبه لم يكن يعني غير ذلك. لقد أدهشني في تلك الأثناء تصور كم يحلو لي أن أصفعها، لأول مرة في حياتي طبعاً. وحين استفسرتُ بشكل موضوعي كيف تتصور الطقس في أورغواي، هي، التي

هي على درجة كبيرة من الحساسية بالنسبة إلى الطقس، تبين أن ذلك الشخص لم يحكِ أبداً عن أورغواي بل عن باراغوي، لِيلى أخطأت التعبير فحسب. أربكتُها تماماً، على حد قولها طبعاً. إنني أسيْ إليه بوجه عام، على حد رأيها، وفي ما يتعلق بأنه يرغب بزواجها، فإنه لم يقل ذلك في الأمسية الأولى من لقائهما، فأنا أحرّف على حد رأيها كل شيء، بل طلب منها الزواج وهما فوق رصيف المحطة قبل رحيل لِيلى. اعتراني الخجل وبدلاً من اعتراف من شأنه أن يفتح بوابات إشفاقي الرجالي على نفسي، سمعت فقط عن معايشة لا يمكن أبداً الإحاطة بها بكلمات. لندع جانباً إذن الكلمات حول هذا الموضوع! لِيلى في حيرة من أمرها. أرى ذلك بأم عيني. من المؤكد أنها لا تطيقه، يضاف إلى ذلك أنه جميل، لكنه غير مريح، بل مقيت، لقد قالت ذلك من قبل، يا إلهي، كيف يتحدث وعم يتحدث، كل شيء فيه يمقتها. غطرسته صبيانية على حد قولها، وهي تجده ثقيل الظل لكنها لا تستطيع أن تتماسك نفسها حين ينظر إليها – الخنزير الغيني والأفعى! لِيلى لم تقل ذلك بهذا الشكل، لكنني فهمته. لا أعرف بلاد باراغوي، لكنني أتفهم كيف أن ذلك الرجل لا يستطيع بدوره أن يفهم لماذا لِيلى، وبالتالي امرأة مثل لِيلى، سوف تعود إلى غانتنباين. هلا سمعنا أسطوانة؟ مجرد فكرة. ليتنا جائعين على الأقل! لم أجد سؤالي عما ينبغي أن يكون عليه وضعنا من الآن فصاعداً في غير محله إلى درجة أنه يدفع لِيلى إلى الصراخ في وجهي. لن يتغير شيء من الوضع، يا إلهي الذي في السماء، لا شيء سيتغير البتة! ولم يحدث أيضاً شيء غير عادي. ما ذنب لِيلى في أنها التقت بشخص مجنون؟ هذا التعبير صدر عنها هي. وضعتُ أسطوانة موسيقى على الفونوغراف والإبرة على الأسطوانة دون أن ترتجف يداي، لم يحدث أي شيء عادي، لِيلى ترى أنني مقيت، ألم تقل لي أنها لم تستطع أن تطيق الرجل، لم تطقه أبداً. وللأسف أنها لم تستطع أن تقول له ذلك، بل تقوله الآن لي أنا. كان هذا هو الحدث المعايش: كيف يمكن لامرئ أن يجد شخصاً مقيتاً على درجة كبيرة من الجمال. اسطوانة الموسيقى استمرت في دورانها، لكننا لم نصغ إليها. بل

سمعت من لِيلى قولها حين كان ينظر في عينيها، كلن يستطيع قول ما يريد، هذا الولد! وكررت القول: هذا الوغد! من جهتي لا أريد أن أتبنى هذه التسمية، فهي لا تليق بي؛ ثم أنني لا أعلم ما إذا كان وغداً. سوف يتبين ذلك في ما بعد. ربما يأتي إلى هنا في هذه الأيام؟ أظن: لكي يأخذ لِيلى معه. لِيلى وجدت أن المزاح هنا هو في غير محله. ما كنا نسمع من الاسطوانة كان عبارة عن أمسية موسيقية برانذنبورغيه، الخامسة، على ما أظن، وما أردت أن أعلم هو: كيف ودعا بعضهما بعضاً في ظهيرة هذا اليوم، لا أعني ما إذا تبادلا القبلات على رصيف المحطة في مدينة هامبورغ المشمسة، بل أعني فقط: بأي مغزى؟ لم تجب لِيلى على سؤالي، بل كررت قولها: إنه مجنون! ما أردت أن أعلم أيضاً هو: ما إذا أعلمته لِيلى بشكل ما من الأشكال بوجود غانتنباين. هنا فضلت لِيلى أن تسمع موسيقى من إبداع برامس. بالطبع يفترض أن يفكر بأن لِيلى لا تعيش بدون رجل. بحثت عن اسطوانة لبرامس، لِيلى محقة، سؤالي يخيف. فكيف ينبغي لها أن تطلع رجلاً غريباً، لمجرد أنه يريد يتزوجها، على حياتها الخاصة؟ لِيلى محقة. ما شأن هذا الوغد في الحياة الزوجية السعيدة، على حد علمي، التي تعيشها لِيلى وغانتنباين معاً؟ وضعتُ الأسطوانة على الفونوغراف، لِيلى محقه، ووضعت الإبرة على الأسطوانة التي بدأت تدور...

إلى هنا لا يزال الوضع مقبولاً.

لم تدهشني البرقية التي أتت في صباح اليوم التالي. كان مكتب البريد أعطاها، دون أن يعرف شيئاً عن الموضوع، عبر الهاتف. فكتبتُ نصها:

«سوف أصلُ غداً. آينهورن». (اسم الرجل:آينهورن، ومعناه بالعربية: وحيد القرن، المترجم)

شكرتُ مكتب البريد، لِيلى كانت نائمة، وإذا ما أرادت أن تسافر في هذا اليوم إلى أورغواي فقد حان الوقت لكي تحزم أمتعتها، يعني عليَّ أن أوقظها. ربما ينبغي علي أن أنتظر إلى أن أصبح أقل توتراً؛ ربما لن أكون مرة أخرى

على نفس القدر من قلة التوتر كما أنا الآن. تابعت فطوري لفترة ثم ارتـديت ملابسي ولم أنسَ ربطة العنق. ربما أُرسلت البرقية يوم أمس حين كنا لا نـزال نسمع موسيقى برامس وهذا قد يعني: غداً هو اليوم. لِيلى ترى بـأنني مجنـون، أجل، مجنون تماماً؛ وقد بدت حانقة كما لو أنني أنا الذي أرسـلت البرقيـة. قالت: إن الأمر غير وارد في الحسبان، لكن من السهولة بمكان قـول ذلـك أحضرت لها روبها المنزلي. أم هل تتوقع لِيلى أن أتقدم من وحيد القرن هذا وأقول له أن لِيلى تعتذر عن مقابلتك؟ أجل إنها تتوقع ذلك فعلاً. ألن يـضحك وحيد القرن من ذلك؟ لِيلى ترى بأني فظ غليظ القلب، حين لا أسميه وغداً بل وحيد قرن. قالت جازمة أنهما لم يقفا على أي شيء! لِيلى مستغربة أكثر مني من أنه اعتمد على نظراتها، وقالت لي بصريح العبارة أنها نسيت أن تعلمـه بأنها غير راغبة البتة بلقاء جديد بينهما. لكن بما أنه الآن في طريقه إليهـا؟ لِيلى لا تستطيع ببساطة أن تفسر من أين حصل على عنوانها. علن عنواننـا. أتساءل بالطبع كيف سأتصرف حيال وحيد قرن، والآن تتهمني لِيلى بأنني مجنون لأنها جادت عليه بنظرة فأخذ نظرتها على محمل الجد. كنت لا أزال أمسك بروبها المنزلـي لكي ترتديه. لكن لا تريد في حقيقة الأمر أن يأتي وحيد القرن إلى هنا بأي حال من الأحوال، ليس هذا الأمر وارداً في الحسبان. لا أفهم لماذا تمعن لِيلى الآن في زجري. وأرادت أن ترسل في الحال برقية معاكسة. سألتها بموضوعية فـي حين أخذت تبحث في محفظتها: هل عندكِ عنوانه؟ وجدت عنوانه. للّه الحمد. أول ما خطر ببالها أن تكتب له في برقيتها: «أنا على سفر». إذا ما سئلتُ ما إذا كنت أجد هذه الصيغة، فلابد من أن أعترف بأنها لن تقنعني إذا ما كنـتُ وحيد قرن. لاشيء ضد الكذب! لكنني مرتبك، لا بل مـذهول، مـن وجـود علاقة حميمة، على ما يبدو، لِيلى ووحيد القرن هذا، الأمر الذي يُضطر إلـى الكذب. ما إذا كان وحيد القرنِ ولِيلى يخاطبان بعـضهما بعـضاً بالـصيغة اللغوية الحميمة، وإذا ما سئلتُ عن زيارته فإنني لا أجدها غريبة، العكس هو الصحيح، بل منطقية. لكن لِيلى لا تريد أن تراه. وهو، في رأيي، لـن يظـن بأي حال من الأحوال أن هذا هو السبب حين يقرأ برقيتهـا لـه: «الزيـارة

للأسف غير ممكنة». لماذا «للأسف»؟ سوف يتكشف له من جراء ذلك أن لليلى زوجاً رعديداً. إذن: «الزيارة متعذرة». لِيلى لا تريد فعلاً أن تراه، هذا أمر مبتوت فيه، لكنني أريد أراه. لم يسبق لي أن رأيت البتة وحيد قرن. الصيغة الثالثة من البرقية: «أنا متزوجة». هذا الخبر لن يفاجأه. لماذا أصعِّب الأمور على لِيلى، على حد رأيها؟ ربما كان أمراً مستحسناً أن يعانق الاثنان بعضهما بعضاً قبل أن يذهبا معاً إلى أورغواي أو باراغواي. لم أتلفظ بذلك، كلا، بل أخجل من حقيقة أنني أفكر به. إذا لم ترتد لِيلى أخيراً روبها المنزلي، هكذا كنت أقول لنفسي في تلك اللحظة، فإنها ستكون عرضة للبرد والزكام. إذن صيغة أخرى للبرقية: «أرجوك». هذه الصيغة واضحة. سألتني لِيلى ما إذا كنت راضياً الآن؟ كما لو أن رضاي هو بيت القصيد. سوف يكون هو راضياً. يا لها من صرخة! أنا موافق، أجل، لا شيء عندي ضد الشقة حيثما يُحسُّ بها. إنها برقية لا يمكن لكل شخص بالغ واحداً وعشرين عاماً من العمر أن يدسها خلف المرآة. ومع أنني سئلت، فقد فكرتُ في غضون ذلك بدور دوّنا بروتسا، الذي مثّلته لِيلى ذات مرة، لكنني فكرتُ بالدرجة الأولى في كيف أتصرف حين يأتي وحيد القرن بالرغم من كل ذلك. عموماً ليس اسمه وحيد القرن! بل ترى لِيلى أنني أعيِّره. ليتني أعرف ما الذي يجب علي أن أعد نفسي له. فأنا أيضاً، ربما، أجد صعوبة في إيجاد الكلمة المناسبة. لا أعرف ما الذي جرى. بل أرى مجرد ارتباك زوجة ناضجة. أخمن. أمر تافه أم قضاء وقدر؟ يبدو لي أنه يجب علي أن أكون مستعداً لكل الاحتمالات ولذلك كنت متوتراً حين نهضت لِيلى واقفة ومشت بصمتٍ (مستاءة مني!) إلى الهاتف لكي ترسل البرقية. أية صيغة سوف تختار؟ لكن لِيلى تغلق الباب، فلا أسمع ماذا تقول، بل أقف وأدخن...

على هذه الشاكلة كان المشهد.

غانتنباين، منذ أن أقلع عن لعب دور الأعمى، أصبح مقيتاً. صرت قلقاً... في المساء، يوم الخميس، تحدثنا باتزان وصراحة كما لو أن هذه

المشكلة عفا عليها الزمن ولا تستحق التوقف عندها، حتى أن حديثنا تخلله مزاح وفكاهة لا يجرحان؛ ورافق ذلك احتساؤنا النبيذ، لا بكميات كبيرة، لكنها كانت زجاجة نبيذ متميزة، ولم نضع أسطوانة على الفونوغراف بل تحدثنا فجأة بصراحة أيضاً عن أحداث من الماضي لم يسبق من قبل أن تحدثنا عنها أبداً؛ واقترب غانتنباين ولِيلى من بعضهما بعضاً في جو حميم لم يشع في حياتهما المشتركة منذ مدة طويلة مثيل له...

إلى هنا، الوضع في أحسن حال.

في صباح اليوم التالي، الجمعة، أتت برقية سرعان ما مزقتها لِيلى نتفاً، أمام ناظري، رأيت ذلك بأم عيني. حدث ذلك في أثناء الفطور. وجمعت النتف ثم دستها في جيبة روبها المنزلي. ثم سألتني: هل تريد مزيداً من خبز التوست؟ في حين تحدثت أنا عن أحداث عالمية إلى أن نهضت لِيلى فجأة لكي تحضر منديل جيب؛ فهي تحتاج المنديل لكي تدسه في جيبة روبها لئلا تتناثر نتف الورق وتخرج من الجيبة. سألتُها عن تدريباتها تمويهاً مني على موضوع البرقية. وفي ما بعد لم تَرمِ نتف الورق في سلة النفايات بل اختفت في غياهب دفقات الماء المستفيضة الجارفة في سيفون المرحاض. كان علي أن أخرج من المنزل، أجل، وكنت واقفاً وقد ارتديتُ معطفي حين رجتني لِيلى أن نسافر إلى مكان ما، وحتى قبل انقضاء هذا اليوم. أنا في الصورة: إذن سوف يأتي آينهورن! لِيلى ملتزمة في الأسبوع القادم بجولة تدريبات وحيدة سوف تعتذر عنها؛ فهي لا تريد أن ترى هذا المجنون. نسافر؟ وسألتها لماذا لا تسافر لوحدها. تُرى هل تخشى أن أوجه صفعة لأول أفضل رجل يرن الجرس على باب منزلها؟ لا أنوي ذلك، لكن المرء لا يعرف أبداً مكنونات نفسه ولا علام تنطوي، وبما أنني أرى خوف لِيلى فأنني أستطيع صرف نظرها عن هذه السفرة المفاجئة، التي تتعارض مع برنامجي وانشغالاتي، إلى أن تجهش بالبكاء لكنني لا أستطيع على ما يبدو لي أن أرفض طلبها التي ستناشد فيه عقلي وحسن تدبيري، بالذات في هذه الأيام لن أستطيع رفض طلبها. إذن لنسافر!

صحيح أن المطر ينهمر الآن، لكن في مكان ما من العالم لابد وان يكون نـور الشمس ساطعاً على كل الأرجاء، في إيلبا أو إنغادين أو مالLorca...

أتخيل:

غانتنباين وليلى على الشاطئ الخالي من الناس تقريباً، شمس ساطعةً، لكن الجو مشبع بالرياح، وليلى لا ترتدي بدلة سباحة المعروفة باسم بيكيني، كعادتها، بل نموذجاً من موديلات السباحة لم يره غانتنباين من قبل وقد أثـار الاهتمام أيما إثارة، لا بالنسبة إلى غانتنباين فحسب بل وأيضاً لدى الـصبيان السمر الحفاة الذين يستأجرون مظلة شمسية وبالدرجة الأولى لـدى ضـيوف آخرين على الشاطئ يتسكعون جيئة وذهاباً بحجة البحـث عـن الأصـداف البحرية وبشكل خاص أثير الاهتمام لدى تلك السيدات اللواتي كن يرتدين البكيني ويخلن أنهن يفتقرن إلى الإثارة، كما يرى غانتنباين، وهو محق في ما يراه، أما ما ترتديه لِيلى فهو مخالف للبكيني: الفخذان فحسب عاريان والساقان طبعـاً، الجسد مغطّى، فانلّه، مشدودة، نسيج أبيض كريش النورس، بدلة سباحة بأكمام طويلة، أجل، حتى مفصل اليد، أضف إلى ذلك تقويرة طوق كما في فـستان سهرة كبير، يعني مفتوح من كتف إلى آخر، ثم شعرها الأسود، مبلل، طالما أن لِيلى تسبح بدون قبعة سباحة، مخـصـلّ بفعـل المـاء كـشعر التماثيـل الأنتيكية...... هكذا تستلقي لِيلى في الرمل، يدها على ركبتـي، غانتنبـاين يقرفص، وليس ثمة أي حديث عن وحيد القرن، أو أنها تستلقي على بطنهـا وتدخن وتقرأ في حين ينهمك غانتنباين في صيد الحيتان، ويشعر بالسعادة هو أيضاً، أجل، يمكنه الآن أن يمارس من جديد هوايته في صيد الحيتان منذ أن تخلى عن لعب دور الأعمى وهو لم يعد بحاجة إلى أن يسكت عن كل ما يراه من الأخطبوطات والقنافذ وقناديل البحر. إنه يرى أن لِيلى أيـضاً لا تفكـر بوحيد القرن، حتى ولا لحظة واحدة يرى ذلك بادياً على وجهها. حسناً. لِيلى وغانتنباين يلعبان بكرة ملونة أو يقفزان في الأمواج المتلاطمة دون أن يعرفا في أي يوم من أيام الأسبوع هما الآن. لا يعـرف أحـد عنوانهمـا (فنـدق

فورمنتور، مااللوركا)، لا أحد في العالم ولا أحد في المسرح، ولا أحد يستطيع مجرد أن يرسل إليهما برقية. لِيلى ببيت شاطئ البحر، بحياة خالية من تمثيل أدوار، بعيداً عن الفيلم والتلفزيون ولو لم يكن ذلك بالذات في فورمنتور، بل في مكان ما من هذا العالم، ببساطة بيت على شاطئ البحر، يجب أن يوجد ذلك، مسألة مادية بحتة، مسألة فيلم. غانتنباين ولِيلى رسما مخطط البيت على الرمال لكن سرعان ما أزالته موجة منسابة تطوي الرمال طياً، لكن ذلك لا يهم طالما بالإمكان رسم مخطط جديد. إلى أين أنت ذاهب؟ وعاد غانتنباين يحمل أغصاناً، من الدفلى، لكي يدلل على الحديقة التابعة للبيت الحلم. الرجال ذوو عقلية اختراعية وماهرة، في حين يدور في ذهن لِيلى، وهي ترتدي فستانها المسائي الأبيض كريش النورس والمخصص للمكوث على شاطئ البحر، تدخن سيجارة وتبتهج أيما ابتهاج بمخطط البيت فوق الرمال ولو أنها لا تستطيع قراءته، يدور في ذهنها فحسب: ينبغي أن يكون بيتاً فيه غرف كثيرة، مزداناً بأشجار الزيتون الخاصة به وبأشجار الكرمة طبعاً، وبمنتهى البساطة، أجل، لكن بالطبع ينبغي أن يزود أيضاً بحمامات ومسابح وسجاد ممدود ومثبت بالأرض، هذا ضروري، والحاجة إليه ماسة، وطالما أننا سنبنيه فليكن إذن مكمَّلاً من كل شيء. غانتنباين ولِيلى كانا يتحدثان عن هذا الموضوع بكل جدية حتى أنهما تحدثا عما سيكون عمرهما آنذاك، عمرها آنذاك، عمرها المشترك، على غرار فيليمون وباوكيس (زوجين مسنين وفيين، من عالم الأساطير اليونانية، المترجم)...

أتخيل:

لا صراخ بعد اليوم، أبداً!

وأتخيل:

فيليمون وباوكيس، حين يعودان بعد أسبوع إلى البيت، سيجدان رسائل كثيرة بانتظارهما، لكن فيليمون لا يكترث إلا بما يخصه، فيليمون من جديد هو رجل ذو ثقافة وفكر.

وباوكيس؟

إنها تملك درجاً له قفل أنتيكي قديم يبقى مقفلاً باستمرار. من أين أعرف ذلك؟ لم أحاول أبداً أن أفتح الدرج. أنّى لي أن أحاول! بل أرى فحسب كيف تفتح باوكيس هذا الدرج كل مرة بمفتاح صغير حين تحتاج شيئاً منه، وكنت أقول لفيليمون كل مرة ألاّ علاقة له بدرج باوكيس. اتفقنا. إلا أن حرصها الشديد على اخفاء المفتاح الصغير كان بالنسبة إليه يزداد طرافة يوماً بعد يوم، لكن في صباح أحد الأيام تشاء الصدفة أن يبقى هذا الدرج مفتوحاً على ما يظهر عن طريق السهو والنسيان. أم أرادت باوكيس أن تجرب فيليمون؟ إن له، يعلم اللّه، مشاغل أخرى. تُرى هل ينبغي عليه أن يذهب إلى الدرج ويغلقه لئلا تصاب باوكيس في ما بعد بالذعر والهلع؟ أرى أن هذا التصرف هو أيضاً غير جائز وأفضّل بدلاً من ذلك أن يجلس فيليمون وينشغل بإعداد إقراره الضريبي المقيت أو بأية مشاغل أخرى يقتضيها الحال. أما باوكيس فقد اتصلت لتوها بالهاتف وأخبرته أنها عند الكوافير وسوف تعود إلى البيت في ما بعد. أرفض الظن بأنها حيلة. من غير اللائق طبعاً أن يذهب إلى الهاتف ثم يتصل بصالون الكوافير لكي يتأكد من أن باوكيس لن تعود قبل ساعتين من الزمن. ليس هذا هو الأسلوب المتبع بين فيليمون وباوكيس. وإذا ما فعل ذلك في ما بعد فلمجرد أنه فعلاً بحاجة إلى معلومات تتعلق بالإقرار الضريبي، الرغبة التي لا يمكن لباوكيس أن تلبيها في وقت لا تزال رأسها في أثنائه تحت غطاء الجهاز المخصص لكيّ الشعر. على أي حال باوكيس هي فعلاً عند الكوافير. تُرى هل شك فيليمون بذلك؟ إنه لا يستطيع أن يمر بجانب الدرج دون أن يرى ما فيه: درج مليء بالرسائل. وقد يستطيع قراءتها طيلة ساعتين من الوقت. تُرى هل هي رسائل من وحيد القرن؟ أحد أمرين: إما أن يقرأها أو يتمالك نفسه. بالطبع لن يقرأها. لكن تزعجه من باوكيس حقيقة أنه لابد من أن يتمالك نفسه ويتحكم بأعصابه. إن لديه، كما سبق أن قيل، مشاغل أخرى بالفعل. باختصار، لم يقدم على قراءة الرسائل المكدسة في الدرج. كان ذلك مدعاة لارتياحي.

من الطبيعي أن تتلقى ممثلة يراها الملايين على شاشة التلفزيون رسائل كثيرة. أمر واضح؛ لكن ليس واضحاً تماماً لماذا تأتي معظمها من الدنمارك. يبدو أن الدنماركيين شعب يحب مشاهدة التلفزيون بشكل خاص وأنهم يمتلكون نموذجاً واحداً من الآلات الكاتبة. وليس واضحاً تماماً: لماذا لا توجد رسالة واحدة بطوابع دانماركية بين كل الرسائل التي غالباً ما تتركها باوكيس أسابيع عديدة ملقاة هنا وهناك. النصيحة الوحيدة، التي يمكنني أن أسديها إلى فيليمون هي ألاّ يكترث بهذا الأمر. وهي تتناول طعام الفطور تسأله ما إذا أتاه بريد لا يبعث على الارتياح، ذلك في حين دست الرسالة ذات الطوابع الدنماركية (فيليمون صار يعرف الطوابع الدنماركية من على بعد ثلاثة إلى أربعة أمتار) في روبها المنزلي دون أن يقرأها لئلا يحترق خبز التوست. على أن سؤاله: هل من جديد؟ يتعلق حصراً بتلك الرسائل غير الواردة من الدنمارك وعلى هذا الأساس أيضاً تجيب باوكيس على سؤاله. وسطياً تتلقى باوكيس رسالتين إلى ثلاث رسائل أسبوعياً، من الدنمارك، كلها دون ذكر المرسل. بالطبع يخجل فيليمون من أنه يعدّ هذه الرسائل، وأنا لست بحاجة إلى أن أقول إليه أنه، بتعبير مهذب، رجل مجنون.

دعنا نهتم بأمور أخرى!

مثلاً:

ألمانيا المقسّمة، حيث لابد من السؤال تحت أي ظروف لن تشكل إعادة التوحيد المطالب بها فعلياً أو ظاهراً خطراً على أوربا وبالتالي تهديداً للسلام؛ لماذا لا نفعل كل شيء من أجل توفير هذه الشروط-

أو:

الأوضاع في إسبانيا-

أو:

تلوث بحيراتنا-

دعنا نهتم بهذه الأمور!

أما ما يتعلق بكل من فيليمون وباوكيس، فإن من المعروف أن الغيرة، مبررة أم غير مبررة، نادراً ما أزيلت عن طريق العزة الناجمة عن تمالك النفس بقدر ما أزالتها الخيانة، ولو أن الأسطورة الكلاسيكية عن فيليمون وباوكيس أخفتها وكانت محقة في ذلك؛ يكفي أن فيليمون على علم بها. لم يكن يعرف كم يمكنه أن يكذب بدون أي ارتباك أو تحفظ؛ وهو يستغرب من ذلك. فيليمون لم يعد يكذب منذ زمن طويل؛ وذلك ما جعله حساساً إلى درجة كبيرة(في اللحظة الأولى فحسب، حين رأى باوكسهُ، اعتراه الارتباك؛ وفي رأيه أن شفتيها لابد وانها لاحظت ذلك. إلا أن باوكيس لم تلاحظ ما لاحظته شفتاها، وهي سعيدة، وفيليمون هو من جديد رجل يشع غبطة وحبوراً وحين يقول أنه يحبها فهو يقول الحقيقة مع أنه كان قبل ثلاث ساعات يحب امرأة أخرى؛ إنه يستغرب كم ينطوي ذلك على حقيقة، أجل، أمر حقيقي كسره تماماً.

إلى هنا، كل شيءٍ على ما يرام.

إنه لعبث صرف أن أقدم فيليمون ذات مرة طيلة أسبوع كامل وبكل بساطة على حجب الرسائل الدنماركية، التي لم تنقطع بالرغم من كل شيء. لا أعرف ما الآمال التي علقها على ذلك. عبث صرف ربما أراد بذلك أن يريني كيف يواجه الآن هذه المسألة بغطرسة وغرور. ويسأل باوكيس: هل من جديد؟ في حين تزيل هي رأس البيضة أو تصب الشاي دون أن تسأله: ألم يأتني بريد؟ وبعد ذلك بأسبوع يصبح فيليمون هو الذي يعاني من الاضطراب وانعدام الهدوء؛ فثمة الآن ثلاث رسائل في جيبه صدره، رسائل ممهورة بطوابع دانماركية. ولحسن الحظ فأن باوكيس لا تكترث ببدلاته. كيف يقف هكذا ببلاذة! تعليق عرضي منها، وحتى تعبير وجه فحسب يفصح عن الاضطراب، قد يكون كافياً لأن يمد فيليمون يده فوراً إلى جيبة صدره وبالمس ما فيها ثم يعتذر عن نسيانه ويسلمها الرسائل الدنماركية. سليمة

ودون أن تعبث بها أي يد! لكن بدلاً من ذلك تأتي رسالة سريعة، مسجلة، يحملها ساعي بريد فتستلمها باوكيس شخصياً. ثم تقرأ، دون أن تنسى بذلك خبز التوست، ولا تسأل أبداً ما إذا كان اختلس بعض الرسائل. لم تذكر ذلك، ولا بكلمة واحدة. فيليمون يطلي خبز التوست بالزبدة وهو ينظر إلى جريدة الصباح. في حين أسأل نفسي:ما مصير الرسائل الثلاث الآن؟ طيلة برهة من الزمن، حين كان جلس في سيارته وهم بتدوير محركها فكر فيليمون ما إذا كان من المستحسن أن يعود إلى البيت لكي يحاسب هذه الممثلة الداهية، باوكيس، على تصرفها. قلت لنفسي: فيليمون! وظلت يدي على مفتاح تشغيل المحرك. أليس من قبيل التكريم له أن هذه الرسائل تأتي إلى البيت بهذا الشكل الصريح؟ حاولتُ أن أهدئ من روعه. ألا يعني ذلك أنهما على الأقل لا يعتبر أنه تافهاً ويهتم بصغائر الأمور؟ قلت له: انطلق! كان المحرك يدور منذ فترة طويلة وكان من دواعي ارتياحي أنه أرتدى قفازيه: لكن منظر وجهه في المرآة الخلفية كان من شأنه أن أقلقني. لماذا كان متجهماً إلى هذه الدرجة؟ لم يقل بمَ كان يفكر، ربما لم يكن يفكر بأي شيء البتة. أما أنا فقد دارت في ذهني فكرة: أن فيليمون قد صمد حتى الآن صموداً لا غبار عليه. حتى الآن! وحين أتت رسالتان دنماركيتان دفعة واحدة، وضعهما فيليمون بكل بساطة بجانب منديل السفرة، دون أن يبتسم، وباوكيس، التي هي في العادة متحررة من كل حيرة وارتباك، بدت هذه المرة متذمرة، ملولة، ساخطة، منزعجة. ماذا يريد المرء أكثر من ذلك؟ أتفهَّم: أن فيليمون يرغب في التخلص من الرسائل الثلاث. دون أن يقرأها! نريد أن نأمل ذلك. لماذا يدهشه أن حبيبته باوكيسن، كما يستنتج من ناقوس الدنماركي على ما يبدو هي أيضاً تكتب بدورها رسالتين على الأقل كل أسبوع؟ ذلك ما يدهشه بالفعل. تُرى هل ظن أن الدنماركيين يلعبون كرة الطاولة بكرات تذهب، لكن لا تعود؟ يجب أن أذكرِّ مرة أخرى بأن فيليمون تصرف حتى الآن بشكل لا غبار عليه، إذ لم يسبق له، وإلا عُدَّ ذلك منافياً للياقة، أن وضع الرسائل الدنماركية على الرف. وما أزعجه هو هذه الرسالة المسجلة وما نجم عنها من تذكر باوكيس أن ثمة

رسائل مفقودة. هل ينبغي عليه ربما أن يصعد إلى باوكيس ويعتذر لها؟ أخيراً أول فكرة دارت في ذهنه هي: سأسافر الآن إلى المركز الرئيسي للبريد وأرمي بكل بساطة الرسائل الثلاث المختلسة مرة أخرى في صندوق البريد. وينتهي الأمر. لكنني أخشى أن يمهرها البريد، المعروف بنظاميته، من جديد بخاتمه. خاتم وتاريخ. وماذا بعد ذلك؟ ليس ثمة سوى تصرف واحد: أن يصعد فيليمون إلى الغابة، مع أنه منشغل فعلاً بأمور أخرى، لكي يحرق الرسائل الثلاث.

وهكذا ينطلق فيليمون بسيارته..

لا أتفهم لماذا إلى مسافة بعيدة إلى هذا القدر؟

فيليمون لا يريد أن يراه أحد، حتّى ولا عمال الغابة. الجو ممطر، فترة ما قبل الظهر، في ما عدا ذلك لا أحد في الغابة. من المؤسف أن المرء لا يكثر من ذهابه إلى الغابة حين يهطل المطر وأنه لا يخصص وقتاً للغوص في نباتات الرخس الأخضر، حتى الركبة في الأغصان المبتلة، أو للوقوف تحت شجرة من أشجار الزان على أرض جافة كما في خيمة، في حين يسمع المرء حوله قيثارة المطر الخضراء التي تشنف الآذان: كومة من النمل في المطر، هضبة من شجر الصنوبر، بنية اللون ومبتلة، أو طحالب، مائلة للسواد وهشة، فطور تبعاً لفصول السنة، جذوع أشجار، وتسقط قطرات ماء من كل الأغصان والأوراق، ويتوجس المرء خيفة من الأدغال، كل غصن هو بمثابة دوش من الماء، لا طير يتحرك، هدوء تحت مظلات خضراء، دون حراك، عشوش العنكبوت، لكن بدون عناكب، جذور سوداء، تلمع من الابتلال، في بعض الأحيان تنزلق قدمك وأنت تسير ثم تنتقل من جديد إلى مكان جاف كالسجادة، يهطل المطر هناك في مكان ما في الأعالي، حفيف لا يصل إلينا، في الطرقات بُرك من الماء بنية اللون، الحفيف يصل إلى هناك، بالإمكان رؤيته، رشات من الماء، وعلى الأغصان تتدحرج ببطء القطرات المكتنزة، قامات من الخشب، هناك تقيم الصراصير متحررة من

قطرات الماء، جف الخشب مرات عديدة، القشور مكسوة بالطحالب، مقاطع الجذوع المستديرة تتلألأ بلونها الأصفر الشبيه بلون البيض المقلي، وفي ماعدا ذلك فإن العالم بمثابة بخار رمادي اللون بين أعمدة مبللة ومزدانة بثقوب خضراء، والسماء التي فوقه، التي تمطر، هي ليلكية اللون... إنه لوبال ألا يرى فيليمون شيئاً من كل هذا، بل يعتريه الخوف من عمال الغابة الذين رآهم لتوه، رجال ينتعلون أحذية عالية ويقرفصون كالعفاريت تحت شادر عازل للمطر، لكن ذلك المكان يقع على مسافة كيلومترين اثنين أو ثلاثة كيلومترات من هنا، أجل، تماماً هناك حيث يريد فيليمون أن يحرق الرسائل. في غضون ذلك فكر فيليمون في إمكانية ما قد يترتب على ذهابه إلى البنك لكي يحفظ الرسائل هناك في خزينة فولاذية. إيجابية ذلك قد تكون: إذا ما ذكرت هذه الرسائل ذات مرة، فبالإمكان تسليمها في أي وقت. وسلبيته: هي لأنها في هذه الحالة سوف تبقى متيسرة القراءة في كل وقت ما عدا أيام الأحد والعطل العامة. أنا أؤيد حرقها، لكن بسرعة. وأريد أن أبدأ بالعمل. لماذا لا أحرقها في حفرة الحصى هذه؟ لستُ صبوراً، أجل، وفيليمون مشتت؛ فحين نزل من السيارة نسي أن يوقف مسّاحات الزجاج عن عملها. البرك في حفرة الحصى قد تذكّر بالشواطئ الدنماركية الموحلة. إذن هاتِ الرسائل! المكان ملائم، وهو عبارة عن حفرة حصى قاحلة ومهجورة وعليها لوحة صدئة كتب عليها «الدخول ممنوع تحت طائلة معاقبة الشرطة»، هدير طيارة فوق الغابة، خفاش مصاص للدماء، ربما أنه فوق حفرة الحصى تماماً، منخفض في الجو لكن تخفيه غيوم المطر، ثم تأتي بعد ذلك الهدوء الذي تتخلله قطرات الماء الساقطة على الأرض، سيارة فيليمون السوداء، الملطخة بالوحل جراء مرورها ببرك كثيرة من الماء، تقف بشكل مائل ومساحات زجاجها لا تزال تتحرك جيئة وذهاباً؛ ويخرج الآن مرفرفاً عصفور أبو زريق من أدغال شجيرات صغيرة ويصبح معربداً في الأجواء، لكن ليس ذلك كله هو ما يدفع فيليمون إلى التردد. فالرسائل، التي لم تعدّ لأن تُرمى في المطر لأن توضع في درج طاولة، تبدو مهترئة جراء الدموع التي زُرفت عليها. تُرى هل لا تزال

بعد قابلة للاحتراق برمتها؟ يُفترض أن الرسائل، وهي مغلقة، لا تحتـرق إلا جزئياً في أطرافها وزواياها لكي تكون بعد ذلك عبارة عن أوراق مرميّة هنا وهناك بحواف بنية اللون، تعطي في أحسن الأحوال وهجاً ثم تتقـوس إلـى رماد، وعلى فيليمون في هذه الحالة أن يركع لكي يـنفخ الحافـة المتوهجـة ويطفئها ولكي يقرأ وهو جـاثٍ على ركبتيـه بضع كلمات لم تـتـفحم بعد ولا تعنيه في شيء، بقايا جملة، خاوية من المحتوى إلى درجة ساخرة بحيث يضطر فيليمون إلى حل رموز الرماد أيضاً، كلمات لا تزال مـستمرة فـي الاشتعال في ذهنه بطريقة تتعذر على النسيان، طالما أن عليه أن يختلق هـو ذاته سياقها ومدلولها. سوف يندم على أنه لم يقرأ الرسائل فعلاً، وإذا ما قرأها فسوف يندم أيضاً. ما إذا كان من الأفضل فتح حفـرة فـي الأرض ودفـن الرسائل فيها؟ أرى الآن كيف أنه يبحث عن عود لكي يحدث به حفرة. لكـن العود ينكسر؛ الطين طين. وينكسر أيضاً عود آخر؛ الحصى حـصى. وأرى كيف أن الاحمرار يعلو محياه من الغضب، أجل، من غـضبه منكمـا. الآن يهطل المطر بغزارة، إنه يحس بذلك، إنكما تسخران من فيليمون. أنتما! لكن هذا هو بداية الغيرة، إذ أفكر: أنتما الاثنين، أنتما! والآن يفتح فيليمون الرسائل فعلاً، كل الرسائل الثلاث، بغير تسرع، كما أرى، بل بكل تصميم. لا أستطيع أن أمنع ذلك. أفكر فحسب ألاّ داعي إلى أن يذهب المرء إلـى الغابـة لهـذا الغرض. يا له من منظر، منظر فيليمون الآن، بنطاله، حذاؤه الملوث بالطين! حين ذهب إلى السيارة لكي يقرأ الرسائل في مكان جاف على الأقل، قلت مرة أخرى: فيليمون؟ الرسائل عليها طوابع دنماركية فتحت جميعها، أرى ذلـك، لكن لم تُقرأ بعد. تُرى ما الذي يمكن أن يكون مكتوباً فيها؟ فيليمون يتردد-

أستطيع أن أقول له ما تحتويه هذه الرسائل:

- كوبنهاغن في فصل الربيع، باريس الشمال، لكنها خاوية من النـاس (حسبما ورد هذه الرسائل) كالقمر، ولا ترد أية امرأة دنماركية في الحسبان، الحياة في كوبنهاغن لا تطاق، لا تطاق بدون باوكيس، لكن المهم في الأمـر

هو أنها استعادت عافيتها، كوبنهاغن أيضاً كثيرة المطر، ليس في الرسائل أية كلمة عن فيليمون، بالمقابل ثمة كلام كثير مفعم بالحب والود عن لِيلى، سفرة إلى هامبورغ أرجئت جراء تفهم وحسن تقدير، إشارة تعجب، أمل في المجيء بزيارة فنية إلى مدينة ميونيخ، أداة استفهام، فندق الفصول الأربعة، في بعض الأحيان يتسلل عبر كوبنهاغن هذه الرسائل ويضيع قبل أن يتكلم، يتسلل شخص وبالتالي شبح يريد الانتحار ولذلك يرد عنوان وهمي، يرد وقت، ترد نصيحة، وفي غضون ذلك نجاحات على صعيد المهنة، يتم التطرق إليهما ببساطة، ذلك أمر بديهي، في حقيقة الأمر أمر لا يستحق الذكر، ويرد ما ينم عن ذكاء مرموق في ما يتعلق بالأفلام، موافقات عبر ألف ميل، كوبنهاغن مدينة ملايين، لكن الإنسان الوحيد الذي يفهم، ليس هو في كوبنهاغن، والطريق إلى مركز البريد الرئيسي، حيث لا يمكنك منذ أيام خلت أن تجد شيئاً، يبدو أنه غير محاط ببيوت بل بذكريات عن درب العذارى، في كوبنهاغن توجد مساكن جميلة جداً بالذات للنساء اللواتي يردن العيش مستقلات، تعبير عن الشكر على الصورة، وتمر لتوها طائرة فوق البيت، وهكذا ينقضي الوقت، الوقت، تقديم الشكر مرة أخرى من أجل الصورة، حنين إلى كأس من الويسكي في حمام ساخن الخ..

إذن:

فيليمون لم يقرأ الرسائل، وهو الآن يختار السرعة الأولى لمحرك السيارة ويحل المكابح إيزاناً بالانطلاق، لا ينقصه إلا أن يراوح بسببكما في مكانه في هذه الحفرة فلا يخرج منها، العجلات تدور في الوحل، لكنه يفلح في ما بعد في إخراج السيارة من الوحل في حين لا يزال هو غائصاً في أوحال مشاعره، وأفكاره تراوح وتراوح دون أن تستطيع الخروج من مكانها.

وهكذا طيلة اليوم كله!

وكان من شأن التودد اليومي البريء الذي تبديه باوكيس، سؤالها البسيط والبريء من أين أتى متأخراً إلى هذا الحد، ملاحظتها التي تنم عن

رضى وارتياح حول شرائه أخيراً زوجاً جديداً من الأحذية وأن السيارة غُسلت مجدداً أيضاً، هذه البساطة الطبيعية والحقيقية وغير المصطنعة بأي حال من الأحوال، التي تقابل بها باوكيس رجلها فيليمون، كان من شأنها أن أغاظته إلى درجة صارخة - اعترف بذلك - على افتراض أن الرسائل الدنماركية الثلاث تحتوي تقريباً على ما أظن أنها تحتوي فعلاً؛ لكنني لا أستطيع أن أؤكد ذلك!... صحيح أن السيارة مغسولة، لكن فيها طعجة، لابد وأنها اصطدمت في مكان ما بعود شجرة جاف، واغلب الظن أن ذلك حدث حين خرج من الحفرة الزلقة؛ كعجة جد واضحة. تلك مسألة ثانوية.

فيليمون يكذب:

قال: «آخ، هي طعجة قديمة».

لا ينقصه الآن سوى أن يعاني هو، فيليمون، من تكبيت الضمير، أجل، من أنه هو الذي لا يستطيع أن ينظر في عيوب الآخرين-

فيليمون شرب كمية كبيرة من الويسكي.

باوكيس لا تقول أنه لم يعد رجلاً فتياً، فأن رجلاً في مثل سنه حري به أن يكون حريصاً على صحته. لم تقل أية كلمة من هذا القبيل! لكنه سمع هذا الكلام-

فيليمون يعمل فوق طاقته، على حد رأيها.

قال: «أجل، لنذهب إلى السينما».

قالت: «يوجد الآن فيلم يقال عنه أنه رائع فوق العادة، أسلوبياً رائع تماماً-»

«من قال هذا؟»

«ألا ترغب بمشاهدة الفيلم؟»

«ماذا يعني أسلوبياً؟».

قالت: «فيلم لا قصة له بتاتاً، أتفهم ذلك؛ الحدث الوحيد هو، إذا صح التعبير، الكاميرا ذاتها، لا يحدث شيء في الفيلم، أتفهم ذلكن حركة الكاميرا فقط، أتفهم ذلك، القرائن التي توجدها الكاميرا-»

«من قال هذا؟»

للحظة يبدو كما لو أنه يريد أن يحاسبها على أنها لا تعرف عن فيلم يعرض في هذه البلاد لأول مرة مجرد أنه لا يحتوي على قصة فحسب، بل تعرف أيضاً أن الطابع الأسلوبي يطغى عليه-

«قرأتُ عن ذلك»

قرأتِ!

قالت: «أجل يوم أمس في الجريدة».

رمى فيليمون الرسائل الثلاث، التي كان فتحها من قبل، في مجرى ماء بجانب الشارع وبحضور باوكيس، لكنها لم تلاحظ شيئاً غير عادي، على الرغم من أنه استعان أيضاً ثلاث مرات، مرة لكل رسالة، بأصابع قدمه على دفع الرسائل إلى الأمام لكي تهبط إلى المجرى؛ كانت ترى أن الأمر يتعلق برسائل لكنها لم تكن تهتم ببريده.

إلى هنا، ولا يزال كل شيء على ما يرام.

الحنين إلى كأس باردة من الويسكي في حمام ساخن، كان علي بالطبع ألاّ أقول ذلك؛ لا أعرف في حقيقة الأمر ما الذي كان مكتوباً في هذه الرسائل، كان الأمر عبارة عن تخمين لا أكثر، والآن أرى كيف يقف فيليمون أمام الستائر ويحدّق، وهو يمسك بيده كأساً باردة من الويسكي.

وأتساءل بم يفكر فيليمون.

لا جواب على ذلك.

هل تغار؟

كيف؟

أسألُ فحسب.

قال، الأمر يتوقف على ما يفهم المرء من تعبير الغيرة. مثلاً فكرة أن المرأة التي أحبها تشرب الويسكي باردة في حمام ساخن مع رجل آخر -من خطأي أن أتصور ذلك، أنا على علم بهذا الأمر! هكذا قال.

لكن؟

قال، بصراحة، التصور بحد ذاته مزعج بالنسبة إلي-

ضحكتُ.

فحدق بي.

وسألتُ فيليمون، لماذا يتخيل أشياء أنا على يقين من أنها لا أصل لها، تخمينات لا أكثر ولا أقل. أم أنه يعتقد فجأة بأنني عرّاف يستطيع معرفة ما تحتويه الرسائل دون أن أقرأها؟ ذلك بصرف النظر عن أن أشياء كهذه لا تعنينا البتة-

قلت، فيليمون اذهب إلى عملك!

إنه لأمر جيد أن تكون الرسائل الآن في مجرى مائي بجانب الشارع، وأظن أنه سوف يقرأها الآن فعلاً لمجرد أن يرى تخميني مفنداً.

قلت، فيليمون-

في هذه الأثناء دخلت باوكيس.

وسألتُ، ماذا يريد فيليمون في حقيقة الأمر.

باوكيس تدندن.

كأسٌ من الويسكي البارد في حمام ساخن، يجبُ أن أقولها مرة أخرى، إن الأمر يتعلق بتخمين أعمى لا أكثر، دون أي دليل فعلي، تخمين من ترسانة أسراري الخاصة، لا أكثر.

باوكيس تدندن.

لماذا لم يحاسبها؟

لا جواب.

خوف؟

أتخيل: فيليمون يحاسبها، وباوكيس عندها ما تعترف به -فيليمون لن يزمجر. فأنا أعرفه. سوف يتصرف كما لو أن شيئاً لم يحدث، وفي ما بعد يشعل غليونه من جديد بعد أن انطفأ. هكذا إذن! هذا هو الشيء الوحيد الذي خطر بباله: هكذا إذن! إن الأمر لا يعدو كونه شبيهاً بحقنة لم يظهر تأثيرها بعد، حتى أن من الممكن أن أبتسم، وباوكيس تخال نفسها مجنونة لأنها لم تقل ذلك في شهر كانون الثاني الماضي. في كانون الثاني؟ يسأل فيليمون: في كانون الثاني؟ لكنها ترى أن التواريخ أمر لا يعتد به، إذ يكفيها الآن الارتياح الناجم عن أنني أحتفظ بهدوئي. لماذا يريد فيليمون الآن أن يعرف ما اسم الرجل الآخر؟ ربما يصر على ذلك لمجرد أنه ما من شيء آخر يخطر بباله. ماذا إذا كان الرجل الآخر يسمى نيلس أو أولاف، ماذا يهمني من هذا الأمر! لكن فيليمون يريد أن يعرف الاسم. وهو يحبذ ألاّ أكون موجوداً. أعرف تماماً أنه سوف يجتاز المحنة بسلام. ما إذا كانت تحب فعلاً هذا الرجل الآخر وكيف تتصور المستقبل، كلها أسئلة سبق أن ألقيتها من قبل، ولا أستطيع بالطبع منع فيليمون مع ذلك من إلقائها، لكن دون مشاركتي، لماذا يجب علي أن أكون دائماً حاضراً معهما في كل شيء؟ أنا لا أسمع أجوبتهما، بل أصب لنفسي فنجاناً آخر من القهوة وأفهم أن باوكيس، وهي تتمالك نفسها، لا تقدم أية قطعة من السكر، إنها كياسة مؤلمة هي تلك التي تمنعها الآن من هذه اللفتة المعتادة، وهي لا تريد الآن أن توحي بجو من الرضا والطمأنينة. قالت، الآن يعرف واقع الأمر! في حين كنت أتناول قطعة من السكر، طعم على اللسان أعرفه جيداً. إنها الساعة الثانية، في الحقيقة حان الوقت للذهاب إلى العمل؛ باوكيس تجمع الفناجين. لماذا لا يصفعها؟ تتهذب ملكة التمييز بين

مشاعر يمتلكها المرء وأخرى كان المرء يمتلكها. وليس لهذا الأمر علاقة بالنضوج. أحس بهذه اللحظة وكأنها ذكرى. هذا كل ما في الأمر. أتذكر كيف أنني قبل سنين خلت أيضاً لم أصرخ (في وجهها؟ المترجم) لأنها لم تكن المرة الأولى، وحين سمعت لأول مرة عن امرأة أنها كانت عند رجل آخر صرخت لمجرد أن ذلك تطابق تماماً مع حدسي، كما يتطابق الأمر ذاته منذ ذلك الحين مع تذكري المرة الأولى...

إذن:

فيليمون لا يحاسبها.

أنا ذاهب للعمل.

بعد ذلك بأسبوع واحد، فجأة، حصلت باوكيس على سيارة خاصة بها، وذلك ما كانت تتمناه دائماً، أجل، سيارة اوستين صغيرة- رياضية. أنّى لها أن تستوعب الوضع. وهي التي لا حدس عندها عن مشروع المشاجرة، التي لم تحدث،لدى شرب القهوة السوداء؟ أراها في سيارة الاوستين الرياضية الأنيقة، حين شرحتُ لها تقنية تغيير السرعة، مغتبطة أيما اغتباط بهذه الهدية بدون مناسبة، بالطبع مرتبكة قليلاً وليس عندها أية فكرة عن كيفية عمل كل هذه الآلات-

إلى هنا، والأمور ما زالت على ما يرام.

أنا مرتاح من أن فيليمون لم يحاسبها - وعلى افتراض أنه فعل ذلك، فأنا أعرف: في غضون عشرة أيام سوف لن ينسى ما اعترفت به باوكيس، إلا أنه سوف يتخطى هذا الأمر ويتحرر منه كما يجب أن يكون أو على الأقل سوف يتظاهر بذلك بعد أن يكون قد اعتذر من باوكيس. لم أعرف بعد أية امرأة لا تنتظر اعتذاراً إذا ما كانت من قبل عند رجل آخر وهي تحصل عليه، أي على اعتذار من جهتي لئلا يقف أي شيء في طريق المستقبل. أي مستقبل؟ مستقبل فيليمون وباوكيس. ماذا غيره؟ إذن، لماذا لا تُشرب

الشمبانيا؟ يعيش المرء مرة واحدة فحسب. لماذا التوفير؟ باوكيس توشك ألاّ تعرف فيليمونها من جديد، إنه يتمتع الآن بحرية المزاج، أجل، يكاد أن يكون مخيفاً، فضلاً عن حظه في اختيار الألفاظ، الأمر الذي يدفعها فعلاً إلى الضحك، رشاقة الفاتحين، إنه يلاحظ ذلك بنفسه، وهي تنظر إليه الآن حين يتكلم، كفتاة ضائعة في العظمة القريبة لهذا الرجل الفريد من نوعه. إذا ما تعلق الأمر بحديث يتجاذبان أطرافه في أثناء تناول الطعام وقرمشة عظام سرطان البحر، فبإمكان فيليمون المجازفة بكل شيء. لكنه إذا ما خلى إلى نفسه من حين لآخر فهو يرتعد هلعاً حين يرى كيف أن باوكيس من جهتها، بدون نفاق، تنسى صديقها الدنماركي الذي يغيب عن الأنظار ويعود إليه الفضل في أمور كثيرة. الكراسين في زيهم الرسمي، هؤلاء الشياطين، إذا ما جلس أحدنا وهو يعاني من شقاق وخصام مع ذاته فأنهم ينحنون أمام مزاجه ويهرولون لإحضار قطعة أخرى من الليمون. والقمر أيضاً يطل كما لو تحت الطلب، لا أي قمر بل بدر التمام بعينه. باوكيس سعيدة؛ تحس بحماية دافئة. ولأول مرة يجرؤ فيليمون على ألاّ يوافق على زجاجة مشروب أزيلت سدادتها الفلينية، لم يوافق بإيماءة رأس مندهشة بل رفضها دون تعليلات معقدة لا تفضي إلى شيء ولا تؤدي كما هو معلوم إلا جعجعة مزعجة وبالتالي إلى شجار ينتهي بعد جرعتين تجريبيتين أو ثلاث إلى أن يستسلم الضيف ويومئ برأسه بأريحية ساخرة، كلا، لأول مرة تكفي نظرة صامتة، تقطيب حبين، ابتسامة عابرة وقصيرة لم تقطع الحديث بين فيليمون وباوكيس حتى ولا للحظة واحدة، وتختفي الزجاجة المعفرة بالغبار في يد الكرسون المندسة في قفاز أبيض. لماذا لا يجوز للمرأة التي تحبها أن تصادق رجالاً آخرين؟ هذا أمر في عداد طبيعة الأشياء. سألها فيليمون، هل يطيب لك المذاق؟ دون أن يعلق أهمية كبرى على الطعام. وكان من شأن لعبة بالألفاظ أن وقعت عليه ذات مرة كسكين جارحة؛ إلا أن باوكيس لم تفهم ترميز اللعبة، لحسن الحظ، والديك البري كان طيب المذاق، ديك بري بالبرتقال، إلى ذلك أيضاً قمر في مرحلة البدر، كما سبق أن قيل، وتخيُّل فيليمون الجذل بأن يعيش وحيداً. سألته، ماذا تعني بذلك؛ الآن عليه أن

يجرب النبيذ الجيد. كيف سيعيش وحيداً؟ ويومئ برأسه، موافقة عن طريق الصمت ثم يملأ الكرسون بكل رشاقة الارتياح كؤوس نبيذ البورغوند ببطء وتثاقل. إنهما يتمتعان بالهدوء المخيم على هذا الجو. باوكيس تحدثت من جديد عن قطع من الأرض مخصصة للبناء في حين رأى نفسه فيليمون في نيويورك في جو من العزوبية. من المؤسف أن باوكيس فاقدة الشهية للطعام. وسألته، ماذا يريد في نيويورك؛ إلا أنه بحاجة الآن إلى سيجار: من صنف روميو وجولييت. ماذا لو ولدت باوكيس الآن طفلاً، لكن لم يبدُ أن السؤال على وجه الخصوص عمن سيكون أب الطفل كان يشغل بال فيليمون؛ على أي حال كان فيليمون يدخن سيجاره ويتحدث، وهو يمتع النفس بمنظر البحيرة الليلي، عن تلوث بحيراتنا، الأمر الذي يشكل مشكلة جدية. لم يسبق لفيليمون أن تحدث منذ فترة طويلة بهذا القدر. وفي جلسة عامرة بشرب الكونياك، حيث يصبح الجو بطبيعة الحال أكثر رزانة وطمأنينة بفعل حسن الهضم لا يجد فيليمون أي سبب لبكاء باوكيس، وعندما دُفع الحساب -ولم يبق على فيليمون إلا الانتظار لاسترجاع بقية النقود- كان واضحاً أن فيليمون وباوكيس سيذهبان معاً إلى البيت...

أتخيل:

في أحد الأيام، بعد ذلك بفترة طويلة، أسافر إلى مدينة ميونيخ لإحضار لِيلى إلى البيت وأنتظر في البهو مجيء أمتعتها، فندق الفصول الأربعة، وأرى رجلاً شاباً يدفع لتوه حسابه، غرفة مفردة أو مزدوجة، لا أسمع ذلك، ومن المضحك بالطبع أن أفكر بالرجل الدنماركي وذلك بصرف النظر عن أن الرجل الشاب ليس أشقر اللون أبداً. أنتظر، وأما أقرأ جريدة، لكي أقف على الحقيقة. وأدرك أنني لا أعرف ما احتوت عليه تلك الرسائل الدنماركية، ولمجرد أن أمنع فيليمون من قراءة الرسائل فقد وضعت أمام عينيه ما قد يمكن على سبيل المثال أن يكون محتوى تلك الرسائل التي كان فيليمون رماها في ما بعد في مجرى مغلق بالقرب من الشارع: مثلاً كوبنهاغن في

فصل الربيع، نجاحات على صعيد المهنة، حنين إلى كأس-من الويسكي في الحمام، الحكم على بعض الأفلام، التطلع إلى لقاء ميونيخ، فندق الفصول الأربعة. لختلاق بحث من قبلي. أما الحقيقة الواقعية فهي أنني الان أجلس في هذا البهو، فندق الفصول الأربعة وأن شاباً غندوراً (لماذا غندور؟) دفع لتوه حسابه. من المؤكد أن ثمة دنماركيين من ذوي الشعر الأسود، حتى أنني لا أعرف ما إذا كان كيركيغارد الفيلسوف أشقر البشرة؛ كما لا أعرف أيضاً ما إذا كان هذا الغندور الشاب (لابد وأن يكون غندوراً، طبقاً لما يرتدي من ملابس) دنماركي الجنسية. وكونه يؤرجح بيده صحيفة ألمانية، فإن ذلك لا يبرهن على العكس، فكل الدنماركيين يقرؤون اللغة الألمانية، ولا توجد هنا أية صحف دنماركية. زد على ذلك أن لِيلى، كما أعرف لا تفهم اللغة الدنماركية؛ وبالتالي لابد له من أن يفهم الألمانية. من جهة أخرى، هكذا أقول لنفسي، ليس كل شاب وسيم المظهر هو بالضرورة عشيق لِيلى لمجرد أنه يفهم الألمانية. أضف إلى ذلك إلى أنني لا أجده على نفس تلك الدرجة من الاعتبار، التي يتظاهر هو بها. على أن الطريقة التي يؤرجح بها الصحيفة وكيف يضرب الصحيفة بفخذيه تدل على أنه منفعل. تُرى لأنني أتيت؟ ربما ثمة أسباب أخرى لذلك. ثم كيف يتأتى له أن يعرفني؟ وكونه أيضاً سينظر إلي الآن للمرة الثانية، فربما لذلك أيضاً أسباب أخرى. فكل إنسان تنظر إليه، من الطبيعي أن يبادلك النظرات من حين لآخر... وتقول لِيلى حين تقف بجانبي فجأة بكامل جهوزيتها للسفر: يا إلهي، ها أنت هنا! إنها، كما أرى، مأخوذة تقريباً بتمثيل الأفلام كالعادة. تجاهلت سؤالي عما إذا كانت دفعت حسابها، ففي تلك اللحظة كانت مشغولة بأمتعتها في حين طويت أنا صحيفتي وتبين لي أن الغندور الشاب قد اختفى. كنت أحب الآن أن أرى وجهه، لكنه مر أمام أعيننا عبر الباب الزجاجي، وعلى الرصيف في الخارج أخذ يضرب بالصحيفة فخذيه وهو يمشي. أخبرتني لِيلى حين أصبحنا جالسين في السيارة بأن الفيلم الذي مثلته سوف يكون فيلماً مروعاً؛ لبست قفازيَّ ونظرتُ إلى المرآة العاكسة إلي الخلف دون أن أنبس ببنت شفة. فلم أرَ للأسف سوى حذاء وساقين ببنطال. لا أكثر. نصفه الأعلى، ذو الطابع

الشخصي أكثر من الأسفل، مقطوع ولم أجرؤ على تغيير مكان المرآة العاكسة إلى الخلف. أدرت محرك السيارة وانتظرت كما لو أن المحرك بارد. لماذا لا أشعل سيجارة قبل أن ننطلق بالسيارة؟ والآن لا أعرف حتى ما إذا كان الرجل ملتحياً أم لا، ذلك ممكن، إلا أنني فجأة لم أتأكد من ذلك. قالت لِيلى، إننا نعرقل حركة المرور إذا لم أبدأ بالتحرك، لكنني لا أرى أية حركة مرور، أرى مجرد النصف الأسفل لرجل يرتدي سترةٍ وهو يدس الآن يده اليمنى في جيبة بنطاله لكي لا يلوح بيده، أفهم ذلك، إنه رجل ذو لياقات. ما رأيه بمؤخرة رأسي؟ انشغلتُ وقتها بنفاضة السجائر التي كانت معاقة من جديد. لماذا ينبغي على الرجل الشاب ألاّ يرتدي سترة؟ بعد ذلك سألتُ مرة أخرى ما إذا كانت لِيلى دفعت حسابها فعلاً. فالرجل يجب أن يفكر في كل شيء. والآن حسناً: وضعتُ السرعة وحللتُ الفرامل وأشعلتُ الغماز، كما يقتضي الأمر، كل ذلك إيذاناً بالانطلاق بالسيارة، ونظرتُ في المرآة العاكسة إلى الخلف لكي أتأكد من انه ليس ثمة خطر محدق، إلا أن المرأة العاكسة إلى الخلف كانت بالفعل منزاحة من مكانها، ببساطة منزاحة إلى الأسفل أكثر مما ينبغي، وعلي أن أضعها في مكانها الصحيح، كلمة شرف، انطلاقاً من دواعٍ موضوعية. في غضون ذلك خرج الدنماركي الموهوم من مجال مرآتي وتنحى جانباً. ماذا يهمني لو كان ملتحياً أم لو يكن! ولدى انطلاقي بالسيارة في الشارع حين نظرتُ من غير قصد كالعادة إلى الجهة الخلفية عبر النافذة الجانبية المفتوحة لكي أتأكد مرة أخرى من عدم إحداق أي خطر، كان الرجل أدار ظهره. فظلت إذن مسألة اللحية عالقة بدون حسم. هنا رجتني لِيلى ألاّ أقود السيارة كالمجنون. وسألتها بطمأنينة تلميحاً مني إلى أن الكلام عن السرعة أمر في غير محله: كيف حالكِ؟ وحين سألتُ مرة أخرى عن الحساب، غدت لِيلى شبه غاضبة: أؤكد لكَ أنني دفعت الحساب! الهروب من دفعة تحت اسمي هو أمر مروع بالنسبة إلي. وحين هددتْ لِيلى لدى بلوغ السرعة ١٦٠ كيلو متراً في الساعة في شارع واسع بأنها سوف تنزل من السيارة، خفضتُ السرعة في الحال إلى ١٠٠ لكي أسهل عليها النزول، حتى أنني، حين اشتكت

مرة أخرى، توقفت وقلت: تفضلي إن شئتِ! أعرف أنني أصبحت غير مستساغ بالمرة...

ماذا حدث في الحقيقة؟

باوكيس تملك الآن سيارة أوستين رياضية خاصة بها، وكل شيء آخر لم يحدث: لا حوار لدى شرب القهوة السوداء، لا تناول لطعام سرطان البحر والقمر في مرحلة بدر التمام فوق البحيرة، لا تصرف أحمق ونحن على الطريق العام خارج المدينة. لا شيء من هذا كله! وتبقى حقيقة واقعية وحيدة: هي أن باوكيس تملك الآن سيارتها الأوستين البيضاء الرياضية التي تغمرها بالغبطة والحبور وتسير بصورة لا غبار عليها.

إلى هنا، وكل شيء على ما يرام.

وفيليمون هو رجل يسمح له من جديد بالظهور بين الناس، رجل بين الرجال، واحد من بني عصره بين الشرق والغرب، مواطن يندد بالسلاح النووي ولو بدون جدوى، قارئ، صديق يمد يد العون، لاعب شطرنج، ذو عقل، جزء من المجتمع الذي يبدو أن تغييره هو أمر لابد منه بالنسبة إليه، رجل يعمل من الصباح إلى المساء، رجل فعّال، مساهم ومناوئ، إنسان منشغل بقضايا العالم ومعاناة الشعوب وتطلعات الشعوب وكذب أولي السلطة والأيديولوجيات والتقنية والتاريخ والمستقبل وغزو الفضاء –إنسان... ما يبهره: هو فكرة أن الحياة البشرية يمكن أن تُنقل إلى الفضاء إذا ما بردت كرتنا الأرضية في بحر ملايين من السنين، في حين يبرد بدوره كوكب الزهرة ويكوّن بدوره عبر ملايين السنين جواً محيطاً به («العلم والمستقبل»).

أنا مرتاح.

أما ما يتعلق بالرسائل ذات الطوابع الدنماركية فأنني لا أرى في اختفائها فجأة أي سبب لتجدد تصرفات سخيفة وبليدة. فكل تبادلات الرسائل الغرامية تتعرض بطبيعة الحال مع مرور الوقت للإهمال وقلة الاكتراث. إنه

الضمير الموحش فحسب هو ما يدفع فيليمون بوجه عام إلى إمعان التفكير في هذا الوضع الطبيعي إلى أبعد الحدود. واشتباهه النابع من تجربته الذاتية هو بسيط إلى درجة كافية: لقد لاحظا أن ثلاث رسائل قد اختُلست، والآن هما يكتبان إلى بعضهما بعضاً تحت عنوان مستعار. حتى ولو كان الأمر كذلك فعلاً! – لا أرى أي سبب لخلع درجها المقفل بقوة إزميل. إنها الساعة الثالثة صباحاً. قلت: أنتَ في قمة الثمالة؛ لابد وأن الأمر أتى فجأة، لم يستطع أن ينام، في حين نامت باوكيس، وأخذ يبحث عن مسحوق منوم. ما علاقة هذا الدرج بالموضوع؟ وما المشكلة إذا كان مفتوحاً! والآن؟ نحن نعلم أنه مليء بالرسائل. ماذا بعد؟ إنه يأمل على وجه التقريب أن تستيقظ باوكيس ثم تدخل إلى الغرفة لتباغته وهو على مكتبها. ماذا بعد؟ لكن باوكيس نائمة، ولم تستطع دقات أجراس الكنيسة معلنة الساعة الثالثة صباحاً أن توقظها، فهي تتركه إذن وحيداً في وضعه المحرج والمخجل. إنه يكرهها. إنه يرتعد من البرد، فيليمون في البيجاما وحافي القدمين، إلا أنه مسرور بأنه يكره. وهذا هو مرة أخرى شعور شبيه بالشعور الأول: حار جداً وواضح جداً. إنه يكرهها. هي التي دفعته إلى ذلك. بمَ دفعته في الحقيقة؟ أنه يكرهها وهذا يعطيه أكثر فأكثر الحق في خلع درجها، الأمر الذي سبق أن حدث فعلاً –لم أعد استطيع أن أمنع فيليمون من ذلك... «يا أحبُّ الناس إلى نفسي»، لا اعتراض على ذلك، وهو أمر وارد في الحسبان «يا أحب الناس»، إنه في الحقيقة يريد أن يعرف فقط كيف تخاطبان بعضكما بعضاً «يا أنتِ يا أحب الناس إلى نفسي»، لا حاجة إلى أن تأتي روح من الدنمارك لكي تخاطب بقولها «ليلاي الصغيرة». لقد سبق أن وردت هذه المخاطبة، ففيليمون أيضاً بهذه الصيغة، وبوجه عام يظهر أن الرجال متشابهون في هذه المسألة، ولا يختلفون إلا في شكل خط الكتابة. يا إلهي كم هو قادر هذا السيد على التعاطي مع الكلمات التي لها طابع شخصي بحت، إلا أن كلمات كثيرة تتعذر قراءتها نتيجة التسرع في خلع الدرج، زد على ذلك دقات القلب المتسارعة أيضاً وحين تبقى النظرة معلقة كمرساة متحركة ثم لا تلبث فجأة أن تبقى معلقة، من هذه الرسائل لا يحصل

المرء على معلومات كثيرة. رموز حب ليس من الصعب حلها، إلا أنها غير مجدية حالما يتوقف المرء عندها ويقرأها؛ ومن الغريب العجيب كم قليل هو الكلام الذي تحتويه رسالة حب أصلية، تقريباً لا شيء حين لا تدخل إشارات التعجب في عداد المشاعر والأحاسيس، خبر وحيد: «أنتظرُ بجانب الكشك»، تحديد الوقت مكتوب في أعلى يمين الصفحة: «في منتصف ليل الخميس، بعد زيارتك»، بدون تاريخ، أجل، كل بهجة تريد أن تدوم إلى الأبد، أدرك ذلـك، إلى أبد سحيق، سحيق، وينتهي الأمر. ربما يعرف خاتم البريد متى كان ذلك؟ لكن المغلفات لم تعد موجودة، هذه هي المشكلة درج مليء برسائل عاريـة، من دون مغلفات، ولم يكن وارداً في الحسبان أن يجلس فيليمون بهدوء ويرتب هذه الرسائل ويعمل كمؤرخ، كلا، فهو ثمل إلى درجة يتعذر معها ذلك؛ وهو واقف، هكذا على غير هدى، ويرتعد من البرد وحتى دون أن يغلـق بـاب الغرفة، هكذا كما لو أن تصرفه لا ينطوي على أي قصد، هكذا فحسب يسمح لنفسه من غير استئذان ذوي الشأن أن ينبش في رسائل قراءتها متعذرة إلـى حد كبير بسبب الأحاسيس الجارفة، لكن ولو أن هذه الرسائل عديمة المحتوى إلا أنها من التودد بمكان بحيث لم يرَ فيها رسائل خاصة به. كان ثمة رسالة وحيدة لا تزال في داخل مغلفها، وحيدة في الدرج كله؛ لكنها، كمـا يظهـر، رسالة من زوجها الأول «زوجكِ القريم سفوب»، في الحقيقة رسالة جميلـة، موضوعية. وهي تحمل أيضاً تاريخها. إنها الرسالة الوحيدة، التي يـستطيع فيليمون قراءتها الآن بصورة تامة وهو مقرفص على مسند الكنبة، مـذهولاً ومطمئناً في آنٍ معاً. التودد، الذي هو في حد ذاته ليس موضوعاً من مواضيع الرسالة، بل متضمناً فيها فقط بالطريقة التي يُكتب فيها عن شيء ما وبالتالي بالطريقة التي يشير فيها الكاتب إشارة فعلية إلى المرسل إليها لا أكثر، أنننـي أجد أيضاً أن تودداً كهذا يحافظ على نفسه أكثر من هذه البرقيـات المفعمـة بالنشوة: «قريباً. توقف. مساء بعد غد توقف . بعد يومين فقط قريباً قريبـاً». حسناً. لماذا لا يريد فيليمون، طالما أنه منهمك في نبش الرسائل والبرقيـات، رؤية تاريخ البرقية؟ إنه قلق ومتعطش إلى أمر خارق، لكن ما يجـده هـو:

«صوتكِ البارحة على التلفون، صوتكِ البعيد، لكن صوتكِ، وفجأة صـــوتكِ»، ببساطة شيء ممل، هكذا أرى، ابتذال في الحياة، لكن حيث تظهر فـــي هـــذه الرسالة شخصية حقيقية، لا مجرد رجل صغير يدعو للمغازلة بقلم حبر ناشف أو بآلة كاتبة، شخصية تتفوق عليه في الذكاء على الأقل في حالته الثملة، كلا، عندئذٍ يحجم فيليمون عن القراءة، من قبيل الاحترام لزوجته النائمـــة، تـــودد رزين بإمكانه إظهاره بكل صدق، كلا، لن يقرأ الرســـالة في هذه الحالة. أما ما يبحث عنه فهو مثلاً: «اكتبي لي إلى أين أستطيع أن أرسل رسائلي إليكِ، لئلا تقعي في متاعب». هذا أقرب إلى الجرح. «لئلا تقعي في متاعب»، البقية على الصفحة التالية، «في حال أن ســـفوبدوا لا يريـــد أن نراســـل بعـــضنا بعضاً...» لماذا سفوبودا؟ هذا قد يعني أن هذه هي رسائله الذي كتبها إليهـــا ذات مرة. أقول، حسناً، ألم تلاحظ هذا إلا الآن؟ إنه لأمر عجيب كم يمكن أن يكون خطنا في بعض الأحيان غريباً عنا، خاصة إذا كان المرء على حـــين غرة وبالتالي حين يخلع المرء درجاً لكي يهتك ستر امرأة نائمة فإذا به يهتك ستر ذاته.

قلت، فيليمونن اذهب للنوم!

قفل الدرج أصبح معطلاً-

هذا أمر.

لابد لفيلمون من اعتراف من شأنه إنذار باوكيس في كل الأوقات، فـــي حين أنـــه لا يعرف من هذه الســـاعة فصاعداً سوى أن مخبأً آخر في مكان ما من المنزل...

هذا أمر آخر.

قلت، فيليمون، اقلع عما تفعل!

والآن أرى الزوجة النائمة:

شعرها المسترسل أسود، إنها تدير جسدها الآن إلى الجانـــب الآخـــر، أذنها حمراء كالمرجان، يدها بأصابعها المبسوطة على الوسادة بجانب وجهها،

وهي تتنفس ببطء وانتظام كمن يخلد فعلاً للنوم، وبشفتين لا حراك فيهما، شفتاها مفتوحتان قليلاً وطفليه، كتفها الأيسر مع جزء ملحق بالصدر عاريان، جسدها مغطى بقطعة من الكتان فحسب، جسدها تحت الكتان واضح كتمثال إلهة النصر اليونانية نايكي تحت الثنيات الرخامية المعبِّرة، لكن دافئ، حتى أنه ساخن جراء النوم، جاف، متوهج، أذنها الحمراء كالمرجان تحت الشعر الأسود الذي أمكنني أن ألمسه دون أن تلاحظ هي ذلك، ومرة ارتعشت أهدابها، لكنها كانت نائمة، أجفان عينيها المغمضتين مائلة إلى الزرقة وشمعية اللون وتومض ببرود كشحوب الزعفران المخيم على العينين النائمتين، بلا حراك، الشعر فحسب كان يبدو عصياً على النوم، والأنامل أيضاً التي هي بجانب الوجه قد تكون تقريباً يقظة، لكن باوكيس نائمة، النوم كامن في النقرة وهناك بالذات يمكن النوم بعمق، بدون أحلام، نوم رطب، أعمق مما هو الوجه الذي يبدو أنه يسبح في نوم غامض كسراب قابل للتشويش-

لِيلى ليل.

قلت، فيليمون، أنت تحبها!

كل ما عدا ذلك هو محض هراء.

في أفريقيا (هكذا يقول أحد الضيوف) ثمة شعب بدائي من تقاليده أن تُجرى القرعة حول مسألة أي رجل يخص أية امرأة وذلك بحيث يتكفل بها ويرعاها حين تكون شابة ومتمتعة بصحة جيدة وحين تكون مريضة وحين تنجب أطفالاً وحين تتقدم في السن؛ وفي واقع الأمر يتزاوج الكل مع الكل. وهو (على حد قول الضيف) أكثر شعوب هذه القارة السوداء مسالمة. الحب الحسي باعتباره مشاعاً، بما يتطابق مع الفطرة، الجنس والشخص لا يخضعان لقانون واحد، ولذلك لا يحدث في قبائل التوهولي (أو كما يُسمُّون) أن يطلق الرجال النار على بعضهم بعضاً من أجل امرأة. إذ هم يحتاجون إلى عقولهم ونبالهم في ممارسة الصيد؛ ولا تنشب بينهم نزاعات إلا بسبب غنائم الصيد. ويعاقب على السرقة بالإعدام، وطريقة الإعدام لها علاقة بقيمة الشيء

المسروق. سارق الأدوات المنزلية ينتظره موت سهل هو عبارة عن قطع شريان الرقبة. أما سارق الحلي، مثلاً حلقات امرأة، فيربط بين شجرتي نخيل إلى أن يُمزق جسده السارق بفعل الريح التالية التي تهز النخلتين وتحنيهما. وسارق النبال، التي تشكل على ما يبدو أثمن أنواع الملكية، يعاقب بالخصي والدفن حياً. والسارقات تُحرقن من قبل زوجهن. وما عدا السرقة ليس بين هؤلاء الناس ما من شأنه أن يكون حرياً بالازدراء أو المعاقبة أو حتى ما من شأنه أن يقلق حياتهم-

باوكيس مبتهجة!

لكن ما عدا هذا الابتهاج، الذي شاطرتها إياه السيدات الأخريات المتواجدات في السهرة، وما عدا تلك الرسائل الدنماركية التي هي أيضاً لا تبرهن عن شيء طالما أننا لا نعرف شيئاً عن محتواها فضلاً عن أنها، كما سبق أن قيل، قد اختفت مؤخراً؛ ما عدا ذلك لم يحدث في حقيقة الأمر شيء ذو بال وبالتالي ذو طابع واقعي من شأنه أن يجعل فيليمون، إذا ما احتكم إلى عقله، محقاً في ظنه أن باوكيس تمارس حياة زوجية على طريقة قبائل توهولي، لم يحدث بتاتاً شيء من هذا القبيل-

قلت: فيليمون، أريد أن أعمل!

والرجل الغندور الذي يرتدي سترة ويظهر في المرآة العاكسة إلى الخلف؟

قلت: لا يجوز يا فيليمون أن تتعاطى مع هذا الظن، الذي يتسلل عبر ذهنك، بلا تبصر ولا روية، على أنه حقيقة واقعية.

لكنه لا يستطيع أن يتخلى عن هذا الظن:

ولكي يعيد الثقة إلى سابق عهدها فهو يلجأ إلى وسيلة الصراحة، ودون أي دافع ملزم، دون أن يُسأل، فهو يحكي فجأة عن قضيته مع السيدة الصغيرة ضاربة الآلة الكاتبة، وانظر، باوكيس لم تكن تعرف شيئاً عن ذلك لكنها لا تريد أيضاً أن تعرف، كلا، وفي المستقبل أيضاً لا تريد أن تعرف شيئاً عن ذلك...

فاشل!

لا أعول كثيراً على الصراحة، وأعرف صاحبي فيليمون، وأعرف حقيقة أن الاعترافات هي أكثر تقنعاً من الصمت، باستطاعة المرء أن يقول كل شيء لكن الأسرار تتسلل خلف كلماتنا، عدم الحياء ليس هو الحقيقة بعد وذلك بصرف النظر عن أن المرء لا يقول أبداً كل شيء، على سبيل المثال لا يحكي القصة المتعلقة بدرج الرسائل؛ إن استقامتنا، حين تظهر على أساس أنها استقامة، هي في معظم الأحيان مجرد عملية تهريب قائمة على الكذب وبالتالي عملية تثبيت لخبايا أخرى.

صمتها أكثر سلامة.

الاعتراف المتعلق بدرج الرسائل المخلوع والذي لابد من أن يحل أوانه في يوم من الأيام لئلا تكون المرأة التي تنظف المنزل عرضة لشبهة باطلة وللطرد من عملها بسبب ذلك، هذا الاعتراف تم إبان شرب القهوة السوداء، أجل، تماماً وهما جالسان في الكنبتين وبحيث -كما تخيلتُ اعتراف باوكيس- تبادلا الأدوار فحسب، الأمر الذي لم تستطع مجدداً أن تعرفه؛ فالآن هي التي يمتقع لونها ولا تنبس ببنت شفة في حين تهرس بقية سيجارتها في منفضة السجاير، وهو الذي يصب الآن القهوة السوداء في الفنجان لكنه لا يجرؤ على تقديم السكر؛ وهي لا تستطيع أن تنظر إليه ولو أنه ينتظر ذلك بفارغ الصبر. الحب وحده يكتم الحزن هكذا في أعماقه. باوكيس لا تفلح بابتسامة في حين يعتذر فيليمون عن فعلته بأنه أقدم مساء أحد الأيام على قراءة رسائله الخاصة به، فلم ترَ هي في ذلك شيئاً من الفكاهة أو الدعابة.

وسألته: «نعم، وماذا الآن؟»

فأمسك يدها.

قالت: «كلا، أرجوك».

باوكيس لا تريد أية قبلة من رجل يقرأ رسائله الخاصة به؛ لم تتوقع منه ذلك وكانت تظن أنها تعرفه؛ إنها تجلس أمام رجل غريب عنها-

كيف تتواصل الأحداث؟

باوكيس مريضة، ليس ذلك أمراً جدياً إلى حد كبير، حمى مع صداع، على أي حال هي باقية في السرير وأنا أعد شاي، أقف في المطبخ وأفكر في عملي إلى أن بدأت الماء بالغليان، جلستُ على حافة سريرها، فيليمون وباوكيس، كما ورد في الكتب. أؤمن بفعالية الأسبرين، لكنني لا أجد منه أي قرص. باوكيس في حالة تعيسة، رجتني أن أبحث في محفظة يدها. لا تسمح لي بذلك فحسب، بل ترجوني أن أبحث لأنها تحس بتعاسة كبيرة. لكن محفظتها ليست في الغرفة، أنا آسف، محفظتها ملقاة هناك في غرفة الجلوس. لشد ما أدهشتني منذ البداية تلك الفوضى التامة في محافظ اليد التي تقتنيها باوكيس، وإنها لمعجزة إذا تمكنت ذات مرة من إيجاد قرص من الأسبرين عن طريق قبضة عمياء، كما تتوقع المسكينة؛ حاولت ذلك لكن المعجزة لم تحدث. وجدت في المحفظة: مفاتيح، أوراق نقدية، أحمر شفاه، مناديل جيب، جواز سفر، عطورات، قطعاً نقدية، قلماً آخر من أحمر الشفاه، قفازات، تذكرة طائرة، علبة فيها ملاقط، قطعاً نقدية لعملات مختلفة، تذكرتين لزيارة أحد المتاحف في مدينة ميونيخ، قلم حبر ناشف، إجازة سوق، مشطاً، سجاير، علبة بودرة، فاتورة فندق الفصول الأربعة لغرفة مفردة مع حمام، مفاتيح سيارة، مقطعاً من جريدة، حلقات أذن، رسالة بطوابع بريد دنماركية يعود تاريخها إلى يوم أول أمس، العنوان هو الحفظ في مكتب البريد لحين استلام المرسل إليه، الرسالة مفتوحة-

قلت: فيليمون، دع هذا!

ليس بهذه البساطة.

صرخت: أجل، وجدتها!

وجلستُ مجدداً على حافة سريرها، في يدي كأس ماء فارغة ويدي الأخرى على جبينها الساخن المتصبب عرقاً...

فيليمون صاحب المفاجآت.

في اليوم الذي سبق سفرها إلى هامبورغ رأى فجأة أن من الأفضل أن تسافر لوحدها، فجأة ومضة تفكيره هذه، ومضة مرحة، لقد فكر: الآن إلى هامبورغ، اعترف بصراحة، لا يناسبني ذلك. قالت: كلا، إذن لن أسافر أنا أيضاً. كيف؟ قالت: كلا، في كلِ الأحوال لن أسافر إلى بلدة كامبن. قال: هذا هراء، سوف يعود عليك بالفائدة على ما أعتقد إذا ما قضيت أسبوعاً في كامبن. فسألت: بدونك؟ وبقي الأمر على تلك الحالة بالرغم من حرارة رجائها. هل كان يأمل أنها لن تجرؤ على السفر لوحدها؟ هذا محض سخف. لماذا لا يهمه هذا الأمر؟ لا يهمه في شيء. حيلة؟ سخرية؟ لا شيء من هذا القبيل. ما برنامجه؟ العمل. قال: ماذا ينبغي أن أفعل في هامبورغ؟ وبقي الأمر عند هذا الحد؛ في يوم آخر أوصلها إلى المطار، كان مرحاً بدون أي تصنع، كامبن بلدة صحية، كل شيء واضح وصحيح وليس بحاجة إلى بحثه ومناقشته-

ليس ثمة حل آخر.

ببساطة: فسحُ مجال-

إلى أن قرع الجرس في صباح أحد الأيام الجميلة، وبما أن لِيلى كانت لا تزال نائمة فقد ذهبت باتجاه الباب، خارج الباب كان يقف شاب فتي ظننت في الحال أنني أعرفه بالرغم من أنني لم أراه من قبل في حياتي. رجوته للدخول. وقد سرني أنني كنت مرتدياً ملابسي ولو بدون ربطة عنق. دخل الرجل الشاب دون تردد، غليونه في يده. لا حاجة بي إلى أن أقدم له نفسي طالما أنه لم يفعل هو ذلك. الآن يقف إذن هنا، وهو يبتسم، إنسان طويل القامة متثاقل الحركة، فتي، بالمقارنة بنا، طالب ذو شعر مائل أو راقص، لكن بدون لحية وأيضاً بدون سترة. لا أستطيع البت في أمر ما إذا هو شاب جميل أم لا، لكن من المؤكد أنه ليس قرفاً. لم يكن لنظرته أي سلطان علي، لكنه

أيضاً لا يأتي إلى عندي – سألته عما إذا لديه أمتعة. فكـان جوابـه مـشوباً بالاضطراب والإيهام. قال إنه لا يريد الإزعاج وبإمكانه أن يعود في الساعة الحادية عشرة. ربما ترك أمتعته في المطار لكي يفرغ يديه لأمتعـة لِيلـى، فسوف لن تكون أمتعتها قليلة حين ستطير إلى الأورغواي. لم يخلع معطفـه. وكان مرتبكاً بعض الشيء، لكن أغلب الظن أن ارتباكه كـان بـسببي أنـا فحسب. فربما سبق أن أبلغته لِيلى في إحدى رسائلها إليه أنني ممن يثيـرون النزاعات والشجارات. سوف أتمالك نفسي وسوف أحيِّره لكنني لن أغير شيئاً من واقع الحال، يبدو أنه يعرف أن لِيلى لن تستطيع أن ترفض حـين تـرى نظرته إليها. إذن لنختصر الموضوع! قلت فقط: أنتَ تريد الذهاب إلى لِيلى؟ فابتسم لكلامي التقليدي. أضفتُ: لِيلى موجودة! ثم قدته صعوداً إلـى غرفـة النوم: تفضل.

وكانت كلمتي الأخيرة حادة بعض الشيء إلى درجـة أن الـشاب لـم يعرف ماذا يفعل. ترى هل خذله زخم القدر؟ على أي حال تبعني، غليونه في يده إلا أنه أدخله حين كنت أطرق الباب في جيبة معطفه لكي يحـرر علـى أغلب الظن كلتا يديه. في اللحظة التي طرقت فيها الباب لم أكن أدري لمـاذا أفعل ذلك، لم يكن عندي أية فكرة، بل كنت أفعل ذلك باعتباره الشيء الوحيد الممكن وبدون خفقان قلب. طرقت الباب مرة أخرى، لئلا ترتعب لِيلى مـن جهة ولئلا أجعل من نفسي عن طريق تصرف المالك أضحوكة أمام الرجـل الشاب الذي يعرف أن ليس ثمة بالطبع أية ملكية في الحب. لذلك تابعت طرق الباب. لكن لا جواب. لذلك ضغطتُ على قبضة الباب بهـدوء لـئلا أحـدث ضجة من شأنها أن توقظ لِيلى؛ لأن ذلك هو ما لا تتحمله أبداً. وينبغي علـى ضيفنا أن يلاحظ هذا. ترُى لماذا ظل الآن واقفاً على عتبة البـاب؟ أشـعلت النور طالما أن الستائر كانت لا تزال مسدلة. ألم يكن يعلـم أن لنـا غرفـة مشتركة؟ يبدو عليه فعلاً أنه مرتبك، كما أرى، وإلا فسوف لن يعيد غليونـه من جديد إلى فمه. وكالعادة، حين لا ترغب لِيلى أن يوقظها أحد من نومهـا، فقد أدارت جسدها إلى الجانب الآخر؛ فأمسكت بكتفهـا. آن الأوان لمواجهـة

الحقيقة يا عزيزيّ، آن الأوان لمواجهة الحقيقة! مضت فترة غير قصيرة إلى أن اشرأبت ليلى وسط يختلط فيه الاستياء بالسرور. قلت: لِيلاي الصغيرة؟ وبما أنها لم تكن بعد قد فتحت عينيها لترى بهما، أخبرتها: وحيد القرن وصل! كان حديثي كأنما هو موجه إلى طفل. وسألتني وهي تتثاءب: من الذي وصل؟ يبدو أن الطالب الواقف ومعطفه مفتوح، الطالب والراقص في آن معاً، الذي كان توقع شكلاً آخر من أشكال الاستقبال، تظاهر بأنه لا يعرف شيئاً مما يحدث وتناول غليونه من جديد في يده؛ أما لِيلى فقد صرخت كما لو أن منظف مداخن يقف في غرفة نومها، صرخت بكلمة واحدة فقط: نادت اسمي لم يكن له في رأيي أية علاقة بالوضع القائم آنذاك. ضحكتُ لكنني تماسكت على الفور. قلت وأنا أخرج من الغرفة: اعذراني! ثم قفلت الباب من الخارج ووضعت مفتاحه في جيبة بنطالي، دب الذعر ببطء في أوصالي بسبب فعلتي هذه، حيث لم أكتف بالتفكير بذلك بل نفذته فعلاً، تناولت ربطة عنقي من على باب الحمام وربطتها ثم تناولت سترتي ووقفت لكي أتأكد من أن مفاتيح السيارة قد استقرت في جيبة البنطال فعلاً، وقفت، وطالما لم يحدث شيء فقد مضيت وشأني وجلست في سيارتي وقمت بتدويرها على مهل وانطلقت بها. وبما أن الصباح كان مشمساً فقد سافرتُ بشكل مكشوف والريح تهب في شعري، مصفراً، يدي اليمنى فقط على مقود السيارة، وانا أصفِّر، أما يدي اليسرى فقد تركتها معلقة من خارج السيارة التي كانت تتدحرج ببطء وهدوء عبر المنطقة؛ كان في تصرفي وقت كاف. كان ثمة أمر مزعج لم أستطع أن أتخلص منه وهو الشك الذي كان يتجاوزني حتى ولو رفعتُ وتيرة السرعة إلى حد كبير، شك مفاجئ ما إذا كان الرجل المجهول، الذي أقفلت الباب عليه وعلى لِيلى معاً، هو فعلاً ذلك الرجل الذي أظنه، هذا الشك أجبرني ببطء لكن بتصميم، مثل دركي له أحقية المرور، على أن أتوقف في عراء الطريق لكي أثبت هويتي إزاء شبهتي بالذات. وإذا لم يكن الرجل هو من أظنه؟ ليس عندي ما يثبت ذلك، فعلاً، ليس عندي. أنَّى لي أن أعرف الشكل الحقيقي لواحد من وحيدي القرن؟ مددت إلى جيبة بنطالي؛ فوجدت

فعلاً مفتاح غرفتها في جيبة البنطال اليمنى. ليس هذا حلماً. تظاهرت طيلة فترة من الزمن بأنني أتذكر شيئاً. ما هو الشيء في الحقيقة؟ ورميتُ سيجارة كنتُ عولتُ عليها أن تهدئني، رميتها قبل أن أشعلها ثم تهيأت للرجوع إلى الوراء وأدرت مقود السيارة بكلتا يدي وركبتُ سرعة وأسرعت كما لو أن المشكلة قد تحل بالسرعة... باب الغرفة كان مخلوعاً وغرفة النوم فارغة، كان الاثنان جالسين في غرفة الجلوس الواقعة في الطابق الأرضي، لِيلى مرتدية ثوب الصباح الأزرق، وفي غضون ذلك كان الضيف خلع معطفه ثم لفه ووضعه على ركبتيه، شاب يدرس علوم الطب لكنه يريد التحول إلى المسرح ويتلقى النصح من لِيلى، اعترته الدهشة بعض الشيء من العادات السائدة في منزلنا لكنه تظاهر بأنه لا يلاحظ شيئاً غير عادي. الحديث، الذي تخوضه لِيلى بموضوعية جعلتها تنسى أنها لا تزال ترتدي لباس البيت، استمر نصف ساعة أخرى. وحين مضى الضيف، قالت لِيلى:

«– أنا ذاهبة».

بعد ذلك بأسبوع (للأسف لا تُشطب من حياتنا أحاديث لا لزوم لها ولا أهمية) غادرت لِيلى المنزل؛ فهي لا تستطيع أن تعيش مع رجل مجنون، أفهم ذلك.

ماذا يفيد النظر!

قرفصتُ على مسند كنبة منجَّدة وأخذت ألهو بمفتاح لسدادات الفلين. كل الأثاث المنجَّد مغطى بقماش أبيض، نفاضات السجاير مفرَّغة، كل المزهريات مفرَّغة لكي لا تنتشر منها رائحة كريهة من التعفن قرفصت وأنا أرتدي معطفي وقبعتي لأن المطر يهطل في الخارج. السجادات ملفوفة، ودرفات النوافذ مغلقة. من الثابت أن شخصين كانا يعيشان هنا: شخص ذكر وأخرى أنثى. رأيت بلوزات في الخزانة، بعض الثياب الداخلية النسائية التي زادت عن سعة الحقيبة، وربطات عنق في الجانب الآخر، سترتي، وفي أسفل الخزانة توجد أحذيتي وفي البعض منها توجد قوالب وهي مصفوفة على نسق

كما لو أنها جاهزة لكي يُنادي عليها. كل الأبواب مفتوحة؛ وفي المطبخ تنقط الحنفية قطرات من الماء، لكن ما عدا ذلك فالمكان هادئ كما في مدينة بومبيجي. لا زلت مقرفصاً بالسترة والقبعة، وكلتا يدي في جيبتي بنطالي. كما بومبيجي: بإمكان المرء أن يتسكع عبر هذا الخلاء ويداه في جيبتي بنطاله ويحاول أن يتصور كيف كان الناس يعيشون هنا قبل ردم المكان فجأة بالرماد الساخن. كل شيء ما زال موجوداً، إلا الحياة فهي لم تعد موجودة. لم يمض على هذا الوضع وقت طويل. ففي الحمام لا يزال ثوبها المنزلي الأزرق معلقاً. لا أعرف ما الذي حدث بالفعل...

لا نزال جالسين أمام الموقد، منتصف الليل مضى، لم أنبس منذ فترة طويلة ببنت شفة. لِيلى خلف الجريدة الممتدة بين يديها. وأنا مبتهج من أن كأس الويسكي، ولو أنها فارغة، لا تزال في يدي. لَيلى تتثاءب، وانطفأت مجدداً قطعة الحطب فوق جمر الرماد. حان الوقت للنوم. أتذكر تماماً آخر كلام قلناه:

«هل قرأتَ هذا؟»

قلت: «أجل، قرأته».

استراحة.

قالت: «كلا، كيف يمكن ذلك؟»

كانت تقصد جريمة القتل.

وسألتْ: «هل بإمكانك أن تتصور كيف يقدم امرؤ على فعلة كهذه؟ أرى أنها جريمة تقشعر لها الأبدان».

قلتْ: «أجل، قرأت الخبر».

وسألتني: «هل بقي شيء من الويسكي؟»

قلت: «لِيلى، سبق أن قلت لك شيئاً».

فقالت: «أعذرني!» ونظرت إلى وجهها حين عادت لتسألني: «ماذا قلت لي؟»

قلت: «قلت لكِ –قلت لكِ أنني قرأت الخبر».

«ألا ترى بأن ذلك مما تقشعر له الأبدان؟»

«أجل–»

ثم صمتنا منذ ذلك الحين.

الآن قالت: «لنذهب إلى النوم!»

سوف أبقى غانتنباين.

أتساءل أي المهن واردة في الحسبان بالنسبة إلى غانتنباين دون أن تضطره مهنة إلى التخلي عن أداء دور الأعمى؛ يبدو لي أن ثمة خيارات كثيرة، على سبيل المثال مهنة مرشد سياحي؛ غانتنباين، مزوداً بنظارته المخصصة للعميان وبالعصا الصغيرة السوداء التي يطرق بها على الدرج الرخامي ليرج الأكروبوليس، محاطاً بمجموعة من السيّاح، غانتنباين باعتباره الإنسان الوحيد في أيامنا الذي لم يرَ أيضاً كل ما يراه المسافرون، كلا، حتى ولا في أفلام أو صور –فهو لا يقول للناس ماذا يرون الآن يمنة ويسرة بل يسألهم عما يرون وعليهم أن يصفوا له بكلمات ما يرون هم أنفسهم، تضطرهم أسئلته على ذلك. غانتنباين يجلس أحياناً ويمسح العرق عن جبينه؛ غانتنباين يحملهم على ألا يلاحظوا كل ما لا يرون. إنهم يلتقطون الصور لكن غانتنباين لا يرى وفرة المناظر الجديرة بالتصوير، بل يملأ غليونه بالتبغ إلى أن ينتهي السيَّاح من التقاط الصور. أسئلته تمس شغاف القلب. ما إذا كانت أعمدة البارتينون كلها بنفس الارتفاع؟ لا يريد غانتنباين أن يظن ذلك؛ وعنده الأسباب التي ترهف لها الآذان. ما إذا كانت المسافة التي تفصل بين هذه الأعمدة جميعها واحدة؟ أحد الناس يقدم له خدمة ويقيس بُعد كل عمود عن العمود الآخر. كلا! غانتنباين ليس مستغرباً، فالإغريقيون لم يكونوا عمياناً،

في بعض الأحيان لا يبرح الواحد مكانه؛ وعلى غانتنباين أن يجيب على أسئلة كثيرة مما لا تستطيع الكاميرا الإجابة عليه؛ غانتنباين لا يرى الباص الـذي ينتظر لكي ينقل الجماعة إلى سونيون أيضاً. ويتظاهر بأن النـاس لا ينتظرونـه؛ ويملأ غليوناً آخر بالتبغ ثم يتظاهر بأنه هو الذي ينتظر الناس وهؤلاء لا يشبعون من النظر إلى برج الأكروبوليس هذا. وبالدرجة الأولى تشكل قلـة ابتهاجـه السبب في لفت انتباه الجماعة. إنه لبؤس كم هي الأشياء التـي لا يـستطيع غانتنباين أن يراها! إنه يقرفص فوق قطعة من عمود كما لو أنه غير متواجد فوق برج الأكروبوليس، يشغله غليونه فحسب، يعتريه الملل ولا يغمره حتى الأمل في أن الأفلام الملونة سوف تُظهر في ما بعد المكان الذي تواجد فيـه اليوم. يقوده الناس من ذراعه لكي يدلوه على الايريشتيون، على معبد نيكـي الصغير هناك في العراء وفي الأفـق البعيـد خلـيج سـالاميس، مـسرح ديونِيسوس، ويكفي أن يضع نفسه غانتنباين المرة تلو الأخرى فـي الاتجـاه المعاكس لكي يقرب إلى فهمهم الأماكن الأثرية الجديرة بالمشاهدة والمعاينة. بعضهم كان يشعر بالإشفاق عليه إلى درجة أنهم، لكي يجدوا كلمات تمكنه من تصور قدسية المكان وحرمته، هم أنفسهم يبدأون بالرؤية. كلماتهم لا جـدوى منها، لكن عيونهم تعج بالحيوية؛ غانتنباين يومئ برأسه ويصغي ثـم يـومئ ثانية ويترك غليونه إلى أن يبرد، حزنه من أنه سوف يموت دون أن يـرى هذا الأكروبوليس ذات مرة في حياته هو ما يحمل الآخرين على تقديم الشكر من أجل رحلتهم مهما كلف ذلك. ليس التعامل سهلاً مع مرشد سياحي أعمى، لكن ثمة جدوى من ذلك: نفسياً بالنسبة إلى المسافرين، اقتصادياً بالنسبة إلـى غانتنباين، لأن ما يوفرونه على أنفسهم من الأفلام الملونة يشكل راتباً جيداً-

سوف أعمل على نشر إعلان:

«سافروا مع رجل أعمى! أكبر مغامرة تعايشونها! سوف أفـتح لكـم عيونكم! سافروا إلى اسبانيا، المغرب، اليونان، مصر الخ..»

سوف أبقى غانتنباين:

لِيلى سعيدة بذلك...

من أين أعرف هذا؟

بالطبع ليس هذا الغانتنباين لطيفاً إلى هذا الحد الذي أزعم، وذات مـرة قرأ على ما يبدو بالفعل رسالة دنماركية واحتفظ منها في ذاكرته بجملتين أو ثلاث جمل.

«سوف أكون دائماً على أهبة الاستعداد».

(للأسف بدون تاريخ).

«الوضع على ما يرام. لماذا تبكين؟ أفهم كل شيء. لماذا ينبغي أن أكـون غاضباً طالما أنك هناك، كما تكتبين إلي، سعيدة؟ الوضع إذن على ما يرام».

لِيلى هي إذن سعيدة.

ماذا يريد غانتنباين أكثر من ذلك؟

«متى سنسافر إلى السماء السابعة؟ المخلص نيلس».

غانتنباين باعتباره مرشداً سياحياً–

غانتنباين لدى تقطيعه سمك الفوريل–

غانتنباين باعتباره لاعب شطرنج–

غانتنباين في غابة كرومي لانكي البرلينية–

غانتنباين بصفته مضيفاً–

غانتنباين أمام الطبيب الحكومي–

غانتنباين لدى حدوث ماس كهربائي في البيت–

غانتنباين في بوتيك ديور–

غانتنباين وهو يحزم باقات الزهور–

غانتنباين في المطار–

غانتنباين بصفته زوجاً أعمى-

بمقدوري أن أتصور كل ذلك.

- لكن غانتنباين باعتباره صديقاً؟

نتلاقى في الشارع، غانتنباين بشارته الصفراء المخصصة للعميان بحيث أشفق عليه، ونتجاذب أطراف الحديث عن العالم الذي لا يراه. صحيح أنه يسألني في كل مرة عن أحوالي؛ لكنني لا أجرؤ على أن أخبره شيئاً عنها. نعرف بعضنا بعضاً منذ الأيام الخالية. لا يتحدث أي منا عن عمله ومهنته طالما أن الآخر لا يراها. لست من المدَّعين. وغانتنباين يعرف آرائي السابقة، وطالما أنني مقتنع من أن غانتنباين لا يرى كيف يتغير نمط حياتي من عام لآخر فأنني أتظاهر إذن بأننا باقيان على العهد القديم من مصافحة لأخرى وغانتنباين يتظاهر بالشيء ذاته...

لكن سوف يزورني غانتنباين ذات مرة.

نسيت كيف تغير نمط حياتي، لقد تعودت على ذلك، أعود إلى البيت مصفَّراً على غير هدى ولا أتوقف عن التصفير إلا لدى تعليق قلنسوتي: إنها قلنسوتي، بلا شك، لكنها جداً. قلنسوة باسكية دون بطانة متعرقة من الجلد الاصطناعي. وسترتي أيضاً، كما أرى، بالكاد عدت من جديد إلى مزاجي الهادئ الذي أعبر عنه بالتصفير، سترتي جديدة: من الجلد الطبيعي لكن من دون قبة متعرقة. أنني أقتني على ما يبدو سترات عديدة من هذا النوع ويتم تنظيفها دون أن أعلم؛ في النهاية لابد من التعرق وكما أتذكر فإن الجلد الطبيعي الفاتح اللون شديد الحساسية. على أي حال، ارمي سترتي كيفما اتفق، بكل إهمال ولا مبالاة، كما لو أنها جاكتتي القديمة وكما لو أنني أدخل إلى غرفتي البائسة حين كنت لا أزال طالباً. في الخارج يُسمع نباح كلب. وأرى نفسي ممسكاً بقيد مخصص للكلاب، من جلد الخنزير، جديد أيضاً. هذا النباح يدهشني. ربما اقتنينا مؤخراً كلباً ضخماً للحراسة من فصيلة الدرواس؟ آمل أنه لا يعض أحداً. وحين أردت من جديد أن أرتدي سترتي الجلدية المرمية

جانباً دونما أي اكتراث، حيث دفعني النباح إلى الظن بأن أحداً ما قادم إلينا، رأيت على الرغم من تشتتي: السترة الجلدية معلقة منذ فترة في علاقة ثياب. على ما يبدو ثمة خدم في المنزل. ودون أن أتابع إلقاء نظرة إلى ما حولي سألت لماذا ينبح الكلب على هذه الشاكلة. فقيل لي أن رجلاً ينتظر في الصالة. هنا لابد من أن أقول إنه لأمر جديد أيضاً أن يكون لنا صالة. والخادمة التي تحمل على رأسها غطاء قالت: إنه سيد اسمه غانتنباين. كانت نبرتها توحي بأنها، في حال تعذر الانسجام بين كلبي وكلبه، منحازةً تماماً إلى جانبي، الأمر الذي يبرهن عن أننا ندفع لها مكافأة مجزية، أي لهذا الشخص الذي يمسك الآن بسترتي في وضع يمكنني من ارتدائها. أربكني النباح بعض الشيء وغانتنباين، على ما يبدو ثمة خادم ثان يقوده إلى الصالة، لابد من أن يعذرني، قبل كل شيء يجب أن أمسك بقيد كلب الدرواس الضخم أو الذي هو. قلت للرجل الأعمى الذي يأتي إلى بيتنا لأول مرة: أعذرني! ولم أرَ كلباً درواساً واحداً فحسب بل ثلاثة كلاب سرعان ما هدأت لدى رؤية صاحبها وتوقفت عن النباح. قلت لكلبي: إلزم مكانك! ولم يكن ثمة حاجة لمقوده المصنوع من جلد الخنزير، لابأس إذن من أن أرميه في الصندوق الذي هو ليس جديداً، بل على العكس، فالصندوق قديم جداً. قلت مرة أخرى: أعذرني يا عزيزي! وغانتنباين يتظاهر بأنه لم تقدم خادمة على أخذ معطفه منه وتعليقه في غضون ذلك في علاّقة للألبسة أيضاً، بل أنا، الذي أصافحه الآن محيياً، هو من فعل ذلك. مصافحتنا بعضنا بعضاً من الأيام الخوالي. كانت فرحتي بلقائه صادقة. الكلاب فحسب كانوا السبب في ارتباكي واضطرابي. وبما أنه لم يقل شيئاً عن لوحة الفنان ماتيس، المعلقة هنا في الصالة، فقد يجوز لي أن أظن أنه أعمى فعلاً وذلك ما يعيد بالتدريج ارتياحي وحرية تصرفي؛ لكن السترة المصنوعة من الجلد الطبيعي لا تزال تزعجني. قلت: خذ راحتك! وطالما أنه لم ير الكنبة فقد قدته إليها وقد أراحني أن غانتنباين لم ير المكان الذي نقيم فيه؛ أنا فقط الذي أراه كما رأيته أول مرة. وسألته كما لو أن كل شيء هنا قد بقي على حاله منذ القديم: هل من جديد؟ كيف حال

زوجتك لِيلى؟ في غضون ذلك تتبعتُ غانتنباين، صديقي في الأيام الخــوالي، بدقة. ما إذا كان فعلاً لا يجيل النظر في ما حوله؟ يبدو على أي حال أنه كان يشعر أن على البار أكثر من زجاجة واحدة وقد فضل، حين اقترحت عليه أن أقدم له كأساً من الكامباري، أن يأخذ كأساً من الكونياك. قلت وأنا مرتاح نوعاً ما: ليس عندي شيء من الكونياك. عندي بدلاً من ذلك نبيذ الأرمناك، معتــق منذ تسعين عاماً، الأمر الذي لست بحاجة إلى أن أقوله. لكنه يتذوقه. ويقول: يا إلهي! يبدو أنه رأى أيضاً الزجاجة، إنها زجاجة من نوع خاص، ســعتها سبعة ليترات ومظهرها ينم عن الاختيال والمباهاة؛ ومع ذلك كله فهي أرخص من غيرها عندما تُشترى بالجملة-

لا أعرف الآن عم نتحدث.

لا أرى سوى سجادة ممدودة-

غانتنباين، وهو في غمرة ابتهاجه بشرب نبيذ الأرمناك، أخذ يتحــدث عن لِيلى -لحسن الحظ- كالعادة بتودد كان من شانه أن تحول إلى إعجاب بفنها (لكن لا يمقت الجو بحديث عن علاقاتهما الحميمة) إسهاماً منه في إبطال مفعول الثرثرة التي تدور حول هذه المرأة والتي أعرفها أنا كباقي الناس. ليته لا يُخدع بها! ذلك ما أتمناه له من كل قلبي. هذه المرأة هي، دون أدنى شك، ممثلة كبيرة.

لنتحدث إذن عن الفن-

أرى:

سجادة ممدودة، لونها أزرق كتوت العليق، وأرى أمامها فردة حــذائي اليسرى التي ِهي جديدة، لا فائدة من أنني أغير في بعض الأحيــان وضــع ساقيّ المتشابكتين بعضهما ببعض ففردة الحذاء اليمنى هي أيضاً جديدة، حذاء متقن الصنع فأري اللون مع جوارب ملائمة؛ لكن البشرة والشعر، الذي على ظنبوبي، ليسا جديدين. وأطفالنا أيضاً، الذين اندفعوا إلى الغرفة ثم حيوا السيد

غانتنباين بعد ذلك بشيء من الاندهاش حيث كان يلعب دور الأعمى بكل براعة، ليسوا جديدين، إنهم يظهرون كذلك فحسب لأن كل ما يرتدونه من لباس هو جديد كما في واجهات المحلات ومن النوع الأول، حتى الشحاطات. قلت لهم: اخرجوا من هنا! لكن ذلك أيضاً لا يغير شيئاً من واقع أن أزرار أكمامي هي ببساطة من الذهب، سحبتُ كمّي كنزتي بصورة لم تلفت الانتباه وغطيت بهما أسوارتيّ القميص الحريري الكشميري الصنف. عمَّ تحدثنا؟ عن الأطفال، أجل، وكيف يكبرون، وتذكرت في تلك اللحظة قولاً مأثوراً عن الأطفال منعشاً للقلب لكن بما أن مغزى ذلك لن يُدرك إذا لم نذكر أننا كنا في جزر كناريا فقد صرفت النظر عن الموضوع وسألت غانتنباين عن همومه التي أملت ألاّ يكون لها أية علاقة بالمال، وإلاّ فقد يمكنني مساعدته بسهولة وسوف يكون بادياً للعيان أنني أصبحت رجلاً غنياً.

فترة صمت.

على الصعيد السياسي نحن متفقان لاحقاً كما سابقاً، أجل، ولسنا مختلفين إلا بدرجة جديتنا؛ كلانا يساري لكنني أصبحت أكثر جدية منه، غانتنباين ينكِّت على اليساريين، الأمر الذي لا أجيزه لنفسي-

وذات مرة دقت الساعة ذات الرقاص المتأرجح جيئة وذهاباً.

قلت: إنها قطعة موروثة-

غانتنباين لم يجل النظر من حوله، بل كان يصغي فحسب إلى أن صمتت من تلك القطعة الموروثة فطلب مني بعد ذلك كأساً ثانية من نبيذ الأرمناك. وسألته بالمناسبة: ألا تجد المكان هنا شديد الحرارة؟ ثم ارتديت سترتي المصنوعة من الجلد الطبيعي وربطة عنقي أيضاً. ما لم أستطع خلعه هو الستائر وأوراق الجدران والسجادات الممدودة والمثبتة في الأرض. غانتنباين لا يجد أن الجو حار بشكل خاص، بل على العكس من ذلك، إذ أنه بالنسبة إليه أقرب إلى أن يكون بارداً، وقد فكرتُ آنذاك ما إذا كان يجدر بي أن أشعل النار في الموقد. ولصرف الانتباه عن الموقد الذي جُلب إلينا أصلاً

من قصر توسكاني وبما أنني أرى لتوي جدار الكتب فقد تحدثت الآن عن طبعة أولى من مؤلفات بلزاك كنت وجدتها مؤخراً. رخيصة إلى درجة السخرية! قلت هذا وذكرت السعر لئلا يظن غانتنباين إن السعر باهظ، وبما أنني كنت واقفاً في تلك اللحظة فقد قدمت له سيجارات. فسألني عن نوع السيجارات التي أقتنيها، وفجأة لم أرَ تبريراً لخداعه. عندي كل الأصناف. حتى أن عندي صنفاً متميزاً لا يعرفه غانتنباين بعد: صنف هافانا، لكنه مجدل كضفيرة شعر، أجل، يوجد شيء من هذا القبيل؛ فالتاجر الذي يزودني بالسيجارات يدللني. قلت دون أن أقطع حديثنا لهذا السبب: جرب هذا الصنف! حديثنا حول ماذا؟ على أي حال قطعت بأسناني شيئاً من مقدمة سيجاري كما لو أنني لم أرَ القضامة الفضية للسيجارات ثم عدت إلى الجلوس في مكاني. كان هناك أيضاً نفاضة سجاير، من البورسلان، صينية، وقطعة حلي أيضاً لكن لم يرها غانتنباين أما أنا فكنت أرى كل شيء. أظن أننا تحدثنا عن الموسيقى وعن العاملين في مجال الإلكترونيات. كنت آمل ألاّ تأتي زوجتي؛ إنها تُري عاجلاً أم آجلاً كل ضيف، حالما يرد ذكر للموسيقى، قيثارتها التي كنتُ وجدتها مؤخراً. هذه القيثارة هي أيضاً ليست غالية السعر. واعتادت زوجتي أيضاً أن تعزف للضيف على آلتها الموسيقية هذه، والصندوق الذي تحفظ فيه النوتات الموسيقية هو أيضاً قطعة أثرية، من العصور الوسطى، أعتقد أنه من جنوب فرنسا. إذا لم يتكلم غانتنباين يسود الهدوء، لكن لا بكل معنى الكلمة؛ وبعد ذلك يحس المرء كما لو أن الصوفا المصنوعة من جلد الغزال الأبيض هي التي تتكلم، وحيثما وجهتُ نظري أرى ما ينم عن ذوق رفيع دون تباه أو اختيال، كلا، لكن لا شيء يترك مجالاً لشيء آخر قد يصبح أفضل منه أو أجمل أو حتى مجرد أكثر فائدة. كدت أفرح من أن غانتنباين، لكي يلعب دور الأعمى، كان أحدث ثقباً من جراء حرق في صوفا جلد الغزال الأبيض؛ لم أقل شيئاً عن هذا الأمر. بل سألت غانتنباين: ما رأيك بشرب كأس من نبيذ البورغوندر؟ كان غانتنباين لا يزال يتحدث عن الفن وهو يمتدح في الوقت ذاته بصورة عرضية سيجار الهافانا

الشبيه بضفيرة الشعر، أما أنا فلم انضم إلى الرأي القائل بأن على الفن أن يصبح حراً في محتواه، بدون مقومات افتراضية، هذا أمر واضح، وبأنه ليس على عاتق الفن مهمة تغيير العالم. لحسن الحظ كان ثمة زجاجة من النبيذ موجودة في الغرفة فلم أكن إذن بحاجة إلى استدعاء خادمة قد يقطع مجيئُها حديثنا. وانهمكتُ في إزالة فلين الزجاجة لكي تفرغ بعد ذلك إلى العبث. لا أعرف ماذا يعتبرني غانتنباين ليست البصائر والآراء هي التي تفصلنا عن بعضنا بعضاً، بل فقط نفاضة السجاير هذه التي لا يستطيع هو أن يراها، وكل شيء آخر. هل غيَّرني الغنى؟ ليس بالأمر الجديد أنني صاحب ذوق رفيع، لكن لم يكتب لهذا الذوق أن يتحقق في السابق. ماذا إذن؟ إلى ذلك انضم أيضاً ذوق زوجتي... لكن غانتنباين لم يقل شيئاً أبداً عدا أنه أخذ يمتدح نبيذ البورغوندر. سرني ذلك. لماذا لا أرسل صندوقاً من هذا النبيذ إلى غانتنباين؟ وإذا لم يُسئ فهم ذلك فسوف أكون مسروراً. هذا أمر عرضي. أنا أيضاً أرى بأن الجو هنا أقرب إلى البرودة ولابأس بإشعال النار في الموقد. واستغرب أن أعواد الثقاب، التي أُخرجها من علبة مصنوعة من الأحجار الكريمة، لا تزال لاحقاً كما سابقاً من خشب، وقطع الصنوبر والزان، التي صرت أكومها في موقد-القصر، كانت هي أيضاً من خشب عادي، رخيصة السعر إلى درجة السخرية؛ إنها بوجه عام ذلك الرخص الذي يذكرني المرة تلو الأخرى بالمال-

في ما بعد أتت زوجتي.

يبدو أنها لم تؤمن تماماً بأن غانتنباين أعمى بالفعل، وكان من شأن ذلك أن أوجد نوعاً من التوتر بيننا، أما من جهتي فأنا أظن أن غانتنباين لا يرى شيئاً من حليها؛ على أي حال كان غانتنباين حريصاً على ألاّ يلاحظ أحد عليه أي شيء من هذا القبيل كما لو أنه معتاد على ذلك مثلي أنا.

تحدثتُ عن عملي.

أنا أعمل كثيراً: لا لأصبح أكثر غنىً. لكن لا محيد عن ذلك. ما أفعله الآن سوف يزيدني غنى. وفي هذا المجال أنفق من المال ما أستطيع في نطاق

المعقول. إنني بصدد شراء هضبة في كانتون تيسين وخليج بالقرب من مالاغا وغابة في النمسا. وأشرف على محام فأجعله في عداد الأغنياء ولـذلك فهـو يريد أن يرد الجميل بحيث يزيدني غنىً هو أيضاً، لكنه ليس الوحيد في ذلـك فالكل يريدون إغنائي. وأصبح للمال انحدار آخر لا أستطيع تغيير مجراه: إنه يسيل باتجاهي. ما فائدة الهضبة في كانتون تيسين بالنسبة إلي وأنا لم أشاهدها سوى مرة واحدة؟ أهديت العشب الذي هناك إلى أحد الفلاحين المسنّين لقاء أن يحشه كما أهديته أيضاً محصول الكستناء الذي لم أكن بحاجة إليـه وتـوت العلّيق. لكن ماذا تفعل هذه الهضبة؟ لقد ضاعفت قيمتها ثلاثة أمثال. بالمقابل من المتعذر الفوز بأبسط تبدل في نمط العيش. بإمكاني أن أتوب إلـى اللّـه، طعامي مكون من النقانق وسلطة البطاطا حين أكون دائماً لوحدي، لا أعمـل في الأسبوع خمسة أيام فحسب كالذين يعملون عندي بل ستة وحتى يوم الأحد هو يوم عمل بالنسبة إلي وغالباً إلى أن يحل الليل؛ وذلك لا يغير في شـيء من واقع أنني أزداد غنىً يوماً بعد يوم. أم هل ينبغي على أن أمارس لعبـة الغولف؟ - بالطبع لا أقول هذا بل أفكر به فحسب حين أتحدث عن عملـي، الأمر الذي يسبب لزوجتي مزيداً من الملل، فهي تعرف هذا الوضع.

«أنت تعمل أكثر من طاقتك».

لكنني أتحدث إلى غانتنباين لكي يعرف هو أيضاً الوضع الذي أنا فيه. لماذا لا يقول أي شيء؟ إنه يضطرني فحسب إلى أن أرى بنفسي كل شـيء اسكت عنه. لماذا لا يقول أنه يجد كل شيء هنا من لوحة ماتيس المعلقة فـي الصالة إلى ساعة البلاتين التي تلبسها زوجتي أمراً مقيتاً؟

لم نعد أصدقاء.

وذلك يحزنني.

ومع أنه يلعب دور الأعمى، لن تنقضي الأمسية على خير، وفي ما بعد حين أوصلته إلى المحطة أخذت سيارتنا الفولكس فاجن، لا الجـاكوار، لـئلا يسمع التبدل الذي طرأ على نمط حياتي في حال أنه فعلاً أعمى.

غانتنباين يزعزع ثقتي بنفسي.

وأتساءل ما إذا كنت أطيقه.

حديث مع بورّي بعد لعبة شطرنج، فاز بها علي، عن النساء، في الظاهر عن النساء لكنه بالفعل حديث عن الرجال الذين يعيشون فساداً بإعطاء المرأة أهمية أكبر بكثير مما تستحق-

بورّي (كما فهمته):

إن رجلاً يعاني من زوجته هو نفسه الذي يتحمل وزر ذلك.. وما يجعل الرجال مملوكين مغلوبين على أمرهم هو: ازدراؤهم المرأة، الذي لا يعترفون به لأنفسهم؛ ولذلك فهم يضطرون إلى التمجيد ويتظاهرون بالعمى؛ وحين تلقنهم الحقيقة الواقعية دروساً فهم يهرعون إلى المرأة التالية كما لو أن هذه التالية ليست بدورها امرأة، ولا يستطيعون في هذه الحالة أن يتخلصوا من حملهم.. ما يحتقره المرء: هو سلبيتهن، دلالهن لا يزال يطغى على الساحة حيث يتعلق الأمر بمسائل أخرى مختلفة تماماً، استمرارية موقعهن القائم على ثنائية - المرأة - الرجل، كل الاهتمامات الأخرى تتكشف عن أنها ذريعة أو تمويه أو واقعة عارضة، حاجتهن الجامحة إلى الحب، تعودهن على أن يخدمهن الناس (أعواد الثقاب) وعلى أن تكون لهن أفضيلة خيبة الأمل، تعلقهن عموماً بالاتهام وحيث لابد لهذا الاتهام من أن يُحل باعتباره لغزاً، قدرتهن على الصمت، فهن يردن ويستطعن أن يبقين بعيدات كل البعد عن الشفافية والوضوح، مقدرتهن على الاحتمال وطول الأناة، حيلتهن في أن يكنَّ الضحية، ذلك فضلاً عن قابليتهن للمواساة في كل لحظة، استعدادهن للمغازلة حتى في لحظات السعادة، استعدادهن وتحايلهن في أثناء ذلك لأن يلقين على عاتق الرجل أعباء ما يحدث وأيضاً حين يريد الرجل أن يعرف، لكي يحسن التصرف، ما يواجه من أحداث، فنهن في إبقاء الأمور مفتوحة على كل الاحتمالات، إذ يتركن للرجل أمر الحسم وتحمل المسؤولية منذ البداية، قابليتهن إجمالاً للتصدع والاستياء، حاجتهن إلى الحماية والأمان، إضافة إلى

التقلب والتلون المخيف من جهتهن، باختصار: سحرهن... ويتسربل الرجل بشيم الفروسية بقدر ما عليه أن يخفي من الازدراء... الفرق البيولوجي: هو أن المرأة تستطيع في ليلة واحدة أن تنام مع عشرة رجال، أما الرجل فلا يستطيع ذلك مع عشر نساء، إذ لابد له من أن يمتلك رغبة وطاقة جنسيتين لذلك، تستطيع المرأة أن تتيح الفرصة للقاء الجنسي دونما رغبة وطاقة، لذلك يمكن أن تكون المرأة عاهرة في حين يتعذر ذلك على الرجل. المرأة، باضطرارها للتمثيل لكي ترضي زهو الرجل، تتظاهر بذوبانها في المتعة حتى في غياب هذه المتعة؛ لا يتاح للرجل بتاتاً أن يكون واثقاً من معرفة ماذا يحدث فعلاً لصالح المرأة؛ الرجل هو دائماً ذلك الشخص المتنازل عن حقوقه ورغباته، لا المرأة؛ وذلك ما يزعزع ثقته... المرأة هي إنسانة قبل أن تُحب، وأحياناً بعد ذلك؛ وحالما يحبها الرجل تصبح أعجوبة لا يمكن تحملها-

قلت: «أجل، لنلعب».

«هل أنت موافق على ما قلتُ؟»

قلت: «ليس تماماً. جاء دورك في اللعب».

قال بورّي بعد أن لعب:

«ما يتعلق بلِيلاك-»

«لِيلاي؟»

أنجزت لعبتي.

فقال بورّي: «أها».

أبدّل مهنة لِيلى.

(سئمتُ من المسرح).

لِيلى ليست ممثلة، بل هي عالمة، طبيبة، لِيلى في رداء العمل الأبيض، مساعدة في معهد رونتجن التابع للجامعة، كل شيء مختلف تماماً، لِيلى تشع

رقة وظرفاً، لكنها ليست سوداء بل شقراء، تعابيرها المختلفة التي تخيف غانتنباين في بعض الأحيان، وعلى الأقل في البداية لم يكن التعرف على لِيلى من جديد أمراً متيسراً تماماً، فهي تفصح عما تخفيه ممثلة وتصمت حيث ينبغي على ممثلة أن تتكلم، تحويل الحياء، اختلاف الاهتمامات، مجموعة أخرى من الأصدقاء وبالدرجة الأولى مفرداتها التي هي مختلفة عما قبل إلى درجة أنه لابد مرة أخرى من إعادة كل الأحاديث التي سبق أن جرت بين لِيلى وغانتنباين، بدءاً من القبلة الأولى. أن أدواتها في الحمام، التي يراها غانتنباين، تبقى على حالها–

أو:

لِيلى كونتيسا، كاثوليكية، في البندقية، مدمنة على المورفين، تتناول طعام الفطور في السرير ويقوم على خدمتها رجل يرتدي بلوزة زرقاء اللون. عينان بلون نبات ست الحسن. التعابير والمفردات التي تستخدمها اختلفت من جديد عما كانت عليه من قبل، وثمة مجموعة جديدة من الأصدقاء يعتبرون أن غانتنباين رجل أعمى؛ مكان المشهد هو أحد القصور. أدواتها التي في الحمام والتي يراها غانتنباين تبقى هي هي.

ملحوظة:

غانتنباين يبقى أيضاً هو هو.

صدرت المجلة الجديدة، إيندرلين باعتباره مُصدر المجلة، العدد الأول ليس سيئاً، حتى أنه مدهش؛ لكن يبقى أنني تخليت عن لعب دور إيندرلين.

لِيلى باعتبارها كونتيسا:

(لماذا لا يتيسر ذلك أيضاً).

هي بالفعل كونتيسا، ومعتادة منذ قرون عديدة على ألاّ يصرخ في وجهها أحد، وسوف لن تخطر في بالي بالمرة فكرة أن أصرخ في وجهها لولا أنها لا تفتأ مرة إثر مرة أنه لا يجوز لي أن أفعل ذلك – وفي غضون

ذلك اكتفيت بالسؤال عمَّ إذا لم تسمع الجرس وهو يرن. كان ذلك في بداية سعادتنا؛ ومنذ أن عرفت كم هي مرهفة الإحساس، كم ترتاع لأي سبب، كم ترتاع لأي سبب، وكم هي أيضاً مرهفة السمع إزاء النبرة الكامنة في سؤال كهذا، أقلعت عن سؤالها مرة أخرى عما إذا لم تسمع الجرس وهو يرن. صرتُ أنتظر ببساطة إلى أن تأتي إلى المائدة. لا إحساس عندها للوقت، بل عندها إحساس كبير لأشياء أخرى أكثر أهمية، يعلم اللّه، على سبيل المثال إحساس خاص للأسلوب. ليس طراز الأثاث الإيطالي المعروف في البندقية فحسب، ليس تعابيرها ومفرداتها فحسب، التي تخرج من دون كلمة بذيئة واحدة وتستطيع أن تعبر عن كل شيء لا تريد أن تصمت عنه، وحتى صمتها له أسلوبه الخاص؛ فليس وارداً في الحسبان بكل بساطة ألاّ يعاملها أحد باعتبارها كونتيسا. حتى أن الناس الذين يقابلونها يكتسبون أسلوباً خاصاً بهم. ذلك ما أراه المرة تلو الأخرى. حتى أنني أرى ذلك لدى غانتنباين؛ إنه ليس كونتاً، بيد أنه يتصرف كواحد من الكونتات، على أنني لم أر بعد كونتاً يتصرف كواحد من الكونتات. أنا أنتظر إذن.

لا أنتظر طعام الغداء. أنتظر لمجرد أن وقت الغذاء قد حان. أنتظر الكونتيسا، التي يمكن أن تظهر في كل لحظة لأن وقت الغداء قد حان. لا أستطيع أن اعمل حين أكون في انتظار أمر ما. إذن أنا أنتظر: لا أنتظر الكونتيسا بل أنتظر اللحظة التي تظهر فيها من الشرفة أو لدى مجيئها على الدرج... ربما أنها لا تزال نائمة ولم تسمع رنين الجرس... قد أستطيع الآن، من أجل إمضاء الوقت، أن أصف كيف ستظهر الكونتيسا من الشرفة وتنزل على الدرج آتية إلى هنا: في ثوب الصباح، لكن مسرَّحة الشعر، في روب الصباح أو مرتدية بنطالاً، مستغربة من أن وقت الظهيرة حل في العالم من جديد وهي بحاجة إلى استقبال مواسٍ، لونها ممتقع، لكنها جميلة، وتعيسة بعينين لونهما كلون نبات ست الحسن، وفي فمها مشرب سيجارة من الكهرمان في داخله سيجارة تنتظر الإشعال... إذن أنا أنتظر... ربما أنها الآن منهمكة في تسريح شعرها... وأنا أنتظر إذن دون أن أنظر إلى الساعة وأحاول أن أحزر ماذا

تفعل هي بالوقت، بوقتي أنا، بوقتها هي؛ عندها وقت آخر ولذلك فلا فائدة من أن أنظر إلى الساعة؛ الساعات تزعجها، الساعات توحي باستمرار كما لو أنه يوجد وقت وحيد، وقت عام إذا صح التعبير... ربما تتهمك الآن في قــراءة كتاب بدأ لتوه بالتشويق والإثارة أو أنها في طريقها إلى هنا – سوف يكــون أمراً مؤسفاً لو نفد صبري الآن في نصف الدقيقة الأخيرة من انتظاري (الذي دام حسب تقديري ثلاثة أرباع الساعة). الكونتيسا تحس بأن كل حالة من نفاد الصبر، ولو كانت تحت السيطرة، هي نوع من الزجر والتأديب؛ وكل زجــر نوع من الصراخ. إذن فأنا أنتظر وأنتظــر دون أن أنظــر إلــى الــساعة؛ ويغمرني فرح، لكي لا ينفد صبري، بالمنظر الذي أشاهده–

على هذه الشاكلة كل يوم.

لِيلى هددت بأنها سوف تحزم أمتعتها وترحل ولا يحتمل أن تعود أبداً، إذا ما صرختُ في وجهها ولو مرةً وحيدة فحسب–

أنطونيو، خادمنا بقفازيه الأبيضي اللون، يفتح الباب الزجاجي المؤدي إلى غرفة الطعام، لقد تم إعداد المائدة العائلية، لكن بما أننا في فصل الصيف فأغلب الظن أنها وجبة طعام باردة، وعلى أي حال فإن غانتنبــاين لا يبــدي استعجالاً وبما أن الخادم الذي أتم عمله (لم يعمل عندنا إلا منذ شهر واحــد) يظن أن غانتنباين لا يراه فهو لم يقل: فوراً!، بل يجيل نظره بصمت في ما حوله ليتأكد من أن الكونتيسا قد حضرت أيضاً. إنها نائمة. وبالرغم من أن أنطونيو أصبح يعرف بعد شهر من خدمته في بيتنا أن انتظار الغداء قد يستمر حتــى الساعة الثالثة من بعد الظهر، فإنه لم يقل بعد: فوراً! بل نظر إلــى ســاعته. أنطونيو يثير الشفقة، فهو لا يعلم أن غانتنباين يراه في المرآة ولــذلك رجــع بهدوء إلى الوراء على أصابع رجليه متظاهراً بذلك بأن الساعة أتمت لتوهــا الثانية عشرة. و غانتنباين يتظاهر بذات الشيء. لكن للأسف توجــد ســاعة حائط باروكية الطراز وذات رقاص وهي لا تخفي أيضاً على رجل أعمى أن الساعة صارت الثانية بعد الظهر. لابد من أن يحــدث شــيء. صــحيح أن

غانتتباين ليس جائعاً، لكنه رجل يرغب في أن يعمل، وأنطونيو الـذي يـنعم بعطلته بعد الظهر ينبغي عليه أن يكون بحلول الساعة الرابعة في ميدان كرة القدم أو عند صديقه، هذا حقه الطبيعي.

ناديته: أنطونيو!

أنطونيو لا يتظاهر فحسب بأنه آت من المطبخ البعيد لكي يقول أخيراً: فوراً! بل يتظاهر أيضاً بأنه قال ذلك إلى الكونتيسا، فهو يعلم بان السيد يستاء من نوم الكونتيسا طيلة النهار، ذلك بالرغم من أنه لم يمض بعد على وجـود الولد الشاطر – كما سبق أن قيل- أكثر من شهر واحد في البيت الـذي هـو بطبيعة الحال عبارة عن قصر من طراز بناء عصر النهضة.

قلت: لِيلى، تعالي!

وتُبذل كل الجهود لئلا ينزعج غانتتباين، لئلا يلاحظ أنه يجلس من جديد وحده على الطاولة؛ على وجه غانتتباين يبدو بعض الارتياح، وهـو يـتلمس بصمت مكان فوطة الطعام، والخادم بقفازيه الأبيضي اللون، وهو أيضاً يبدو على وجهه بعض الارتياح طالما أنقذت عطلته بعد الظهر من الضياع، لا يألو جهداً في جعل حضور الكونتيسا، الذي لا يراها غانتتباين، مـسموعاً علـى الأقل. أرى الآن كيف أنه يزيح كنبتها بركبتيه. من المعروف كم أن العميان مرهفو السمع، الخادم يؤدي عمله بصورة ممتازة؛ حتى أنه يكسر قطعة مـن الغريسيني قبل أن يذهب لإحضار الحساء البارد وأرى الآن كيف أنه يعجـل لئلا يطول صمتنا العائلي قبل أن يجد تبريراً له عن طريق تناول الطعام. لكن لابد من أن يستمر ذلك بعض الوقت.

سألتُ: هل مارستِ هوايتك في ركوب الخيل؟

لِيلى لم تقل؛ لا تزال نائمة، ربما تناولت البارحة مخدراتها مجدداً، هذه التعيسة، وبما أنها مقتنعة بأن غانتتباين لا يرى مخدراتها فهـي لا تـستطيع تقدير التبعات المترتبة على هذا الموضوع.

وسألتُ: هل كنتِ عند الطبيب؟

أنطونيو في الباب، أراه في المرآة كيف ينتظر دخوله بتثاقل وتـــردد؛ إنها غرفة طعام فاتنة، مليئة بسجادات الجدران والمرايا بحيث يستطيع المرء أن يتحدث أيضاً مع مؤخرة رأسه؛ لا أعرف لماذا ينتش أنطونيـــو بقفازيـــه الأبيضي اللون ويتردد.

وسألتُ: ماذا قال لكِ طبيبك؟

الآن يأتي الخادم ومعه الكؤوس، ومن الواضح أن الكونتيسا – حتـــى ولو كانت حاضرة العقل والذهن– لن تخبر شيئاً عن أوضاعها الصحية خادم، لذلك فإن من الطبيعي ان يسود الصمت من جديد. وهذا ما جعل أنطونيو من جديد واثقاً من نفسه. فوضع الفنجان الأول بطريقة لائقة في صحن كونتيستنا، النائمة، محدثاً صوتاً كافياً لأن يسمعه غانتنباين. لقد فعل ذلك بطريقة رائعـــة فعلاً، هذا الصبي الذي هو ابن لصياد ســـمك فقيـــر بـــسترته البيـــضاء ذات التقليمات المذهبة، وظل في غرفة الطعام طيلة الوقت، في حين كان غانتنباين يلتهم الطعام. لا يستحسن التحدث بحضور خادم. لم يبـــق ســـوى أن يقـــرع بملعقتها على صحنها. لكنه لا يفعل ذلك، كنا نسمع فحـــسب كيـــف يرشـــف غانتنباين الحساء البارد؛ بينما لا يسمع المرء رشف كونتيسا...

لكن ماذا بعد؟

آمل فقط ألاّ تظهر لِيلى الآن وألح على العجلة، لكن على المائدة وجبة شهية من السمك ولم يبق سوى أن يقطِّع غانتنباين السمكة الرائعة؛ ولكي أُلهي أنطونيو شكوكه بأن غانتنباين أعمى فعلاً، سألتُ عن اسم السمكة، عن مـــدى تواجدها في مياه البندقية، وعموماً عن كل ما يتعلق بمهنة صيد السمك، عـــن طريقة رمي الشباك في الماء، عن الأسعار، عن عوز الصيادين؛ ليس طريفاً فحسب كم يعرف أنطونيو، ابن صياد السمك، عن هذا الموضوع، بـــل مـــن الجميل أيضاً كيف يتظاهر المرء تلو الأخرى بأن صيد السمك يثيـــر أيـــضاً اهتمام الكونتيسا التي تركت سمكتها تبرد في صحن البورسلان فلم تأكل منها

شيئاً. لكن غانتنباين لا يستطيع أن يتجاذب أطراف الحديث مع الخادم فحسب، هذا أمر بديهي، وإلا فسوف يدل ذلك على وجود خصام عائلي. وبالدرجة الأولى الآن، حين خرج الخادم من غرفة الطعام، على غانتنباين أن يقول شيئاً إلى أن تأتي الجبنة. حول أي موضوع؟ تحدثتُ عن الشيوعية ومناهضة الشيوعية وذلك موضوع لا يستدعي على كل حال، أينما وقف المرء، أي وقف المرء، أي رد معارض طالما أن هذا الرد أصبح معروفاً وقد تم دحضه وتفنيده. وفي غضون ذلك لم أتحدث بصورة مستمرة دون أن أستريح. وبالتالي دون أن أكسر من حين لآخر قطعة من الغريسيني أو أحتسي جرعة من المشروب؛ لم أتحدث بقصد تعطيل أو إعاقة أمر ما بل بقناعة مقتضبة بأن صمت الكونتيسا له ما يبرره. لا يهمني في هذه الحالة رأي أنطونيو، الذي ربما يسترق السمع الآن في غرفة الخدمة، حول هذا الموضوع؛ غانتنباين كان يتحدث إلى لِيلى التي كان أخوها شيوعياً محضاً. حين كان أنطونيو ينصت خارج غرفة الطعام، فلابد وانه لاحظ انعدام الزهو الطبقي عند الناس الذين يقوم بخدمتهم وفي كل الأحلام ليس حيال ابن صياد سمك مسكين؛ نحن في إيطاليا. بالطبع ثمة كونت أو آخر فاشي النزعة، ولذلك فهو يشعر بالمرارة؛ لكن ذوي العقول النيرة في الأسرة ليسوا كذلك، بل العكس. والطابع الأرستقراطي (في إيطاليا) يتجلى بان المرء لا يشاطرك الخوف البورجوازي من الشيوعية الذي ينطوي، شأنه شأن كل خوف جماعي، على ابتذال وسوء عادة. بهذا المفهوم استطاع غانتنباين بكل حرية أن يتحدث بصراحة، حتى في حضور الكونتيسا ولذلك لم تلفت الانتباه حقيقة أنها لم تكن حاضرة حين كان يتحدث ويتابع حديثه. لكن ماذا كان أنطونيو يفعل طيلة هذه المدة؟ إذا كان المرء يتحدث ويتحدث دون أن يعترض عليه أحد فقد يبدأ هو ذاته بالاعتراض على ما يقول؛ هذا أمر يكاد يتعذر تجنبه. لكن من هو الذي ينبغي على غانتنباين أن يعارضه إذا كانت الكونتيسا نائمة؟ إنه يعارض أخاها؛ ويجد أمراً غريباً في أن دينو، هذا الشاب من كبار الملاكين، هو شيوعي، وهو بذلك ليس شاباً رومانسياً بل هو شاب متنور ومنظره شبيه بإله

وثني ذي ضفائر، ربما شبيه بإله الطبيعة والرعاة، هيرميس، منغلق على نفسه، يلازم غرفته المخصصة للأطفال وذات الجو الكاثوليكي، أعني بكلامي دينو، أخاها، وحقيقة أن الكونت (هكذا يسمي دينو نفسه لدى صداماته بالبوليس فحسب) شيوعي لم يلاحظها حتى خدمه. دينو ليس واحداً من الطبقة العاملة بقبضة مرفوعة إلى الأعلى، دينو يبتسم خفية تقريباً لأولئك الناس الذين يدينون إضراب عماله الزراعيين، ولا يوزع مواعظ، وليس ثقيل الظل بشيوعيته، بل يفهمها فحسب وهو واحد من القلائل الذين استطاعوا إتمام دراستهم للشيوعية وهو يخدم الشيوعية بالذات من خلال تصرفاته باعتباره رأسمالياً. كلا، دينو ليس رومانسياً حالماً، كلا، وهو يعلم أن العالم لا يُثوَّر عن طريق مبادرات خاصة – يمكن الحديث مطولاً عن هذا الموضوع، وغانتنباين لم ير بالفعل أن الجبنة قد أُحضرت منذ فترة طويلة؛ وقد أمسك الخادم الصينية بقفازيه الأبيضي اللون وبملامح وجه تنم عن أنه لم يسترق السمع للحديث. غورغونتسولا؟ وغانتنباين يكتفي بإيماءة رأس دون أن يقطع حديثه لهذا السبب مع الكونتيسا النائمة، في حين ملأ أنطونيو كأسه مرة أخرى.

وسألتُ: أجل، أم أن الأمر ليس كذلك؟

وساد الصمت.

غانتنباين تابع حديثه، ورأيتُ كيف أن أنطونيو أمسك مرة أخرى بكأس الكونتيسا النائمة لكي يشربه؛ بغير هذا التصرف لا يستطيع أن يملأه ثانية، لذلك ما يبرره، وحين يملأ الكأس من جديد بعد ذلك فهو يملأه من علو لا يستهان به لكي يسمع غانتنباين فعلاً القرقرة الناجمة عن صب المشروب في الكأس.

ما إذا كان يظن بالفعل أن غانتنباين لا يلاحظ شيئاً مما يفعل؟

أم أن غانتنباين وحده هو الذي يظن أن الخادم يظن ذلك؟

في ما بعد، في أثناء شرب القهوة السوداء على الشرفة، لم تعد اللعبة في حقيقة الأمر ضرورية؛ فأنطونيو مضى وشأنه إذ انتهت خدمته الأخيرة

بعد أن صب القهوة في الفنجانين الصغيرين النفيسين منجزاً بذلك مهمة الكونتيسا البيتية. حتى أنه في غضون ذلك أعطى الكونتيسا، التي لم تكن موجودة إلا جسدياً، جواباً قصيراً؛ من الممكن أن غانتنباين تغافل عن سؤالها العرضي، خاصة وإنها معتادة باستمرار على أن تتكلم بصوت منخفض، بسبب رفرفة الحمام.

«كلا، كونتيسا، كلا!»

شاب موهوب.

ثم ضحك وقال: «الحال كما هو، الحال على حاله!»

صدر جوابه الثاني هذا وهو على مسافة بعيدة، ورأيت كيف كان يسحب في غضون ذلك قفازيه الأبيضي اللون من أصابعه؛ لن يفعل ذلك أبداً بحضور الكونتيسا. ثم ذهب، لكن حان الوقت الآن لأن يتحدث غانتنباين فعلياً (لا إكراماً للخادم فحسب) مع الكونتيسا التي لا تزال نائمة جراء المخدرات التي كانت تناولتها من جديد، وهي تتعاطى المخدرات لأنها تعيسة.

سألتها: لِيلى، لماذا أنتِ تعيسة؟

لحسن الحظ لا يضع غانتنباين أية كمية من السكر في القهوة، والكونتيسا تعرف هذه العادة، لذلك لا يلفت غيابها الانتباه إذا هي لم تقدم السكر.

وسالتُ: ألستُ رجلاً؟

إلى ذلك كان غانتنباين يدخن سيجاره وينظر إلى القنال الكبرى مما قد يثير الاستياء والمقت.

هل أنا من جعلك تعيسة؟

وطالما أن الكونتيسا لم تنبس ببنت شفة، فإن هذا السؤال على الأقل قد أجيب عليه، والصراحة تولِّد صراحة. الحقيقة مؤلمة، لكن الرغبة في معرفة

ذلك بصورة أكثر دقة واكتمالاً هي الآن واضحة تمام الوضوح. فإذا كان لابد من ذلك، فلا غرو من أن يتم بشكل صحيح. ولمنا لم يبق علـــى المائـــدة إلا الفنجانان الصغيران النفيسان بعد أن شرب غانتنباين كل ما فيهما قبل متابعة كلامه، سألتُ ما إذا وإلى أي مدى يختلف عناق المرأة رجالاً آخرين (عـــن عناقها زوجها، المترجم)، وذلك سؤال لن تجيب عليه أبداً، على كـل حـــال امرأة متحلية بذوق رفيع، وصمت الكونتيسا يعني مرة أخرى أنهـــا ليـــست حاضرة ذهناً وعقلاً.

حمامات البندقية تمعن في الهديل.

قلت: لِيلى، لا يمكن أن يستمر الأمر على هذه الشاكلة!

فلم تسأل:

كيف؟ ماذا تعني بقولك هذا؟

إنها ليست حاضرة، لكن غيابها لا يلفت النظر؛ لكن حتى ولو أنهـــا حاضرة فهي ستبقى صامتة إذا ما طلب منها أن تتكلم، إلـــى أن ســـألتها بصريح العبارة:

ماذا بشأن نيلس في الحقيقة؟

وساد الصمت.

سألت: أم أنّ ثمة رجلاً آخر في حياتك؟ كانت هي المرة الأولى التـــي نتحدث فيها بهذه الصراحة وبهدوء تام؛ لا يمكنها أن تقول إنني أصرخ فـــي وجهها، ولذلك فهي تصمت في حين يبتسم غانتنباين؛ يمتعني هدوء غانتنباين، رجولته، استعداده الأعمى لمواجهة كل حقيقة، وكررتُ سؤالي مرة أخرى: أم أن ثمة رجلاً آخر في حياتك؟

لا جواب.

وسألت: من هو إذن؟

لكنني أفهم أنها لا تستطيع الجواب على ذلك؛ لا علاقة لغانتنباين بذلك. أم أنها لا تزال خائفة من أنني قد أصرخ في وجهها؟. ولمجرد أن أقول شيئاً ولكي أُظهر في غضون ذلك هدوء غانتنباين، قلت بعد فترة مع هديل الحمامات الشهيرة.

ظننت دائماً أنه نيلس.

كانت تلك هي المرة الأولى التي أذكر فيها اسمه بما ينطوي ذلك على المجازفة بأن تحزم الكونتيسا حقائبها إثر ذلك لكي ترحل إلى غير رجعة، اليوم وليس غداً، ولو أنها لن تذهب إلى نيلس، لأن مدة طويلة مضت على علاقتهما، ولذلك فإن الأمر مضحك لكن لا يُضحك عليه، وعلى كل حال فإن الكونتيسا لم تضحك، وبما أن غانتنباين، الجالس لوحده في شرفة القصر البندقي، قد تلفظ بهذا الاسم فلابد لي إذن من أن أدلي باعتراف:

لقد قرأت ذات مرة رسالة دنماركية-

ماذا ينبغي على الكونتيسا أن تجيب على هذا الخبر الفظيع، الذي أنشره الآن؟-

الكونتيسة، النائمة...

حديث مع بورّي حول حديثنا مؤخراً؛ كان بودي أن اعرف رأيه في لِيلاي. فهو يتحدث عنها باحترام يشوبه التملق مراعاة لخاطري. وفي الوقت ذاته كنت في ارتياح. وحين ذهب بورّي تابعت الجلوس ساعات طويلة كالمحنط ويداي المثنيتان تسندان ذقني. لقد تحدث عنها (بالمناسبة كان حديثاً قصيراً) كما لو أنها إنسانة حقيقية، ويبدو أنني الشخص الوحيد الذي لا يراها.

ليلى باعتبارها ممثلة:

(ملحق)

لعبتها الظريفة بمئزر المطبخ حين يأتي ضيوف إلى البيت، ولم يسبق لضيف أن سبرغور هذه اللعبة، وحتى بورّي الذكي الرزين لم يستطع ذلك، يحتمل أن تكون لِيلى ذاتها على إيمان بلعبتها - قبل وصول الضيوف بربع ساعة تأتي لِيلى إلى البيت، منهكة حتى الموت جراء التمارين التي أنجزتها قبل الظهر لتقديم مسرحية ماكبث على خشبة المسرح، والآن حل المساء، فتغرق في كنبة منجدة بغية قراءة المجلات الجديدة، وهي منهكة حتى الموت، دون أن تلقي أية نظرة على المائدة التي يعدها غانتنباين في هذه الأثناء؛ بإمكانها أن تعتمد على غانتنباين. على كل حال جاء سؤال مبهوت وبسرعة. هل فكرتِ بالمايونيزي؟ فكر بذلك. لحسن الحظ أن الضيوف يأتون متأخرين في معظم الأحيان؛ وفي نهاية المطاف لا بد للِيلى أيضاً من أن تسرح شعرها بعد. غانتنباين لم يفكر بالمايوتيزي فحسب بل وأيضاً بالخبز الذي قلما يلفت الانتباه إذا كان موجوداً. كانت لِيلى طلبت كمية من طعام سرطان البحر فأرسلت إليها وبذلك يتعذر في حقيقة الأمر أن تنتقص المائدة شيئاً. إنها فخورة بالكمية الجميلة من سرطان البحر، ومن المؤسف أن غانتنباين لا يستطيع رؤية كم هو جميل هذا السرطان البحري التي انتقته عبر الهاتف. حيوان عجيب، أحمر بلون الأرجوان، سرطان بحري من شأنه أن يفكر بكل شيء: لا بالمايونيزي فحسب بل وأيضاً بالنبيذ الذي يناسبه وباللحم البارد إذا صدف أن أحداً من الضيوف لا يطيب له طعمه وبالفاكهة التي سيرحب بها في ما بعد حين تكون أحشاء سرطان البحر وبقاياه قد ألقيت في سلة النفايات. لحسن الحظ، كما سبق أن قيل، يتأخر الضيوف عن القدوم باستمرار بحيث تستطيع لِيلى في أثناء تسريحها شعرها أن تخبر الأعمى غانتنباين من سيأتي؛ في كل

جماعة يوجد أيضاً باستمرار أناس قلما يتحدثون ولذلك فإن من المـزعج أن يستنتج غانتنباين من ذلك أن بإمكانه أن يتكلم عن هؤلاء الأشخاص كما لـو أنهم غير حاضرين. من الضروري أن يلم غانتنباين بمعرفة قائمـة أسـماء الضيوف. وحين رن الجرس أخيراً لم تستطع لِيلى، بالرغم من أن شـعرها كان ممشطاً على أفضل وجه، أنت تذهب إلى الباب لكي تفتحه؛ فتلـك هـي اللحظة المناسبة لأن تربط مئزر المطبخ حول وسطها مـن أجـل اسـتقبال الضيوف. وغانتنباين بدأ الآن يوزع الأسماء التي حفظها ويخصص كنية لكل اسم. بالكاد في تصرف لِيلى وقت للترحيب، الذي هو من ناحيـة الـضيوف استغراب وحيد: الليدي ماكبث في مئزر مطبخ. منظر مـؤثر حقـاً، الكـل يريدون تقديم المساعدة ما عدا غانتنباين لأنه يعرف أن كل شيء قـد أنجز من قبل.

كانت تقول: من فضلك، دعني أعمل هذا!

بالكاد في تصرفها وقت لإعداد المقبلات.

وتقول: من فضلك، دعني أعمل كل شيء!

كانت مهمة غانتنباين تكمن في مشاطرة الضيوف بهجتهم، على الأقـل في عدم إزعاجهم، في حين كانت لِيلى تزرع المكان جيئة وذهاباً وهي ترتدي مئزر المطبخ، داخلة، خارجة، داخلة، وغانتنباين كالباشاوات. ما الذي كانت تفعله لِيلى في المطبخ، في حين أخجلت الضيوفَ، وهم يـشربون الويـسكي وفي قمة ابتهاجهم، حقيقةً ما تبذل هذه الممثلة الكبيرة من جهود في سـبيلهم، كانت فِي تلك الأثناء تعد السلطة التي سبق لغانتنباين أن قام بغسلها وتنظيفها من باب الحيطة والاطمئنان. وغانتنباين كالباشاوات جالس بكل ارتياح فـي كرسي هزاز وساقاه متباعدتان عن بعضهما بعضاً. ليتها لا تنسى شيئاً. إنها مرتبكة تماماً، لكن ارتباكها هذا يظهرها بمظهر لائق. قالت: للأسف ينقصنا بعض الليمون وهذا أمر مؤسف؛ ثمة ليمونات في المطبخ لكن لِيلى لم ترها،

أمر مؤسف حقاً. في ما بعده، بامتعاض، خلعت لِيلى مئزر المطبخ الشهير. ومنذ تلك اللحظة أدرك غانتنباين أن باستطاعته أن يفعل كل شيء دون أن يزيل بذلك الانطباع الأول عنه؛ فأحضر الليمون من المطبخ وهلم جرا.

ومرة أخرى أغيِّر الدور:

لِيلى ليست كونتيسا وليست ممثلة. ولا أفهم كيف أمكن أن تخطر على بالي هذه الفكرة. لِيلى هي ببساطة امرأة، وامرأة متزوجة، متزوجة رجلاً كان ينبغي أن ألتقي به في وقت سابق في أحد البارات. عمرها واحد وثلاثون عاماً. غير مدمنة على المخدرات، ليست كاثوليكية المذهب؛ لا مهنة لها. امرأة مبهرة؛ ولا حاجة إلى أن تقال لي هذه الحقيقة كما لو أنني لا أعرفها. لماذا ينبغي أن تمارس لِيلى مهنة؟ ربما مارست ذات مرة وهي فتاة شابة علوم الطب حتى أنها نجحت في الامتحانات الأولى، ثم تخلل ذلك زواجها، أو أنها تعلمت في مدرسة للتمثيل حتى أنها مثلت طيلة شتاء كامل إلى جانب ممثلين كبار، كل هذا ممكن إلا أنه ليس مهماً. فبإمكانها أن تقلع عن هذه المهنة، إنها امرأة. وتحس باستقلاليتها حتى دون أن يكون لها دخل خاص بها. وإلا لكانت في أي وقت على استعداد للقيام بأي عمل ولما جاز أن تكون بحاجة إلى المال وأن تخيط ملابسها بنفسها، إنها بإجادتها لغات كثيرة باستطاعتها أن تعمل سكرتيرة على سبيل المثال في إحدى دور النشر، لا في القطاع التجاري ولا في مكتب للرعاية الاجتماعية، ولا في الاصطفاف مع الآخرين دون جدوى؛ تقول إنها تفضل العمل مراجِعةً علمية في إحدى دور النشر. إنها مستعدة لذلك في أي وقت. والآن لا حاجة بها إلى ذلك طالما أنها متزوجة. إلا أنها تحن إلى العمل في بعض الأحيان، إنه الحنين إلى المهنة التي أصبحت في ما بعد في غنىً عنها. ليست ربة منزل بمعنى الكلمة. تفضل أن تنشغل بالمطالعة. تملك سيارة خاصة بها، وإلا فلن تشعر بأنها مستقلة، إنها هدية من زوجها الذي يكسب مالاً كافياً. لا تزال متزوجة للمرة الأولى. صحيحة الجسم، حتى أنها قويته، ومع ذلك رقيقة ورشيقة بحيث يحلو

للمرء أن يخاف عليها بكل حنو ومودة، إصابتها بمرض السل تماثلت للشفاء وتلك ذكريات لا تستخدمها إلا نادراً في طلب الرعاية والاعتناء بها، عند الضرورة فحسب. ليست خاملة (كالكونتيسا) وليست بخيلة (كالممثلة) لكنها أيضاً، كما سبق أن قيل، ليست ربة منزل؛ لأنها ذات ثقافة وعقل ولا تستطيع حجج الرجال إقناعها أن على المرأة أن تكون موهوبة بالفطرة في ما يتعلق بالذات بذلك الأعمال التي هي مملة بالنسبة إلى الرجال أنفسهم إلى أبعد الحدود. إنها امرأة لكنها ليست مرؤوسة تابعة، يعني تماماً امرأة عصرية، امرأة رائعة، في رأيي، واحدة من أوائل النساء في هذا القرن، اللواتي يعترفن لأنفسهن دون أي تصنع أو تكلف بأنه ما من دافع البتة يدفعهن في حقيقة الأمر إلى ممارسة أية مهنة.

حاشية:

لا أعلم كيف تناهى أو سوف يتناهى إلى زوج لِيلى أنها تحبني ولا يهمني هذا الأمر. لا أعرف هذا السفوبودا. ولا ذنب لي في أننا لم نلتق آنذاك في ذلك البار وفق الموعد المتفق عليه. من اسمه، فرانتيسيك سفوبودا، يستنتج أنه ينتمي إلى منطقة بوهيميا التشيكية. لا أعلم كيف يتصرف رجل من بوهيميا إذا أحبت المرأة التي تحبه رجلاً آخر غيره-

أتخيل:

في المنزل ضيوف، الحضور يشربون ويتجاذبون أطراف الحديث، سفوبودا كعادته يحكي عن لندن، لِيلى كعادتها، الضيوف في جو من المرح والحبور، سفوبودا يزيل من زجاجات المشروب سدادات الفلين، ويدور حديث الناس عن تفوق الروس في مجال الفضاء، لِيلى ترتدي الثوب الأصفر اللون (كان مضى تماماً شهر واحد على ليلتنا الأولى معاً) أو ثوباً آخر لم أعرفه بعد، وفي رأي الضيوف أنها تبدو رائعة، أحد الحضور يتحدث لتوه عن الأوبرا التي ضيعت لِيلى على نفسها فرصة العمل بها، وإذا لم تكن لِيلى

موافقة على كل ما قلته من حيث المبدأ ضد الأوبرا فإن ذلك في رأيها عبارة عن رأي لا يمكن لسفوبودا ببساطة تجاهله أو تسفيهه. (بديهي أن الأوبرا كما أبدعها موتسارت رائعة ومستعصية على المقارعة، لكنني لم أتحدث عن موتسارت، بل عن الأوبرا المعاصرة). سفوبودا شخص غريب، إنه الآن متوتر الأعصاب كما لو أن الرأي الذي أبديته قد أهانه شخصياً؛ فوضع أسطوانة لكي يدحض رأيي أمام كل الضيوف: أوبرا موتسارت دون جيوفاني. فأصغى الحضور، لِيلى تهللت أساريرها وغمرتها السعادة لا بشأن الصياد ديسكاو فحسب، مع أنه كان رائعاً، بل بشأن تسير لينا الشخص الوحيد في كل هذا الهرج والمرج، الذي هو على صواب والذي لم يجعل من ذلك قصة مأساوية طالما أن الطبيعة إلى جانبه، الشخص الوحيد المنقَذ، الأمر الذي يجد له تعبيراً في الموسيقى. أحد الضيوف المزودين بالعرض الذي قدمته تسير لينا رأى بأنها على صواب بعد أن أعيد سماع المقطع مرة أخرى. وفي ما بعد تحدث الحضور عن الناس... الساعة الثالثة صباحاً، بعد أن نام فترة من الزمن استيقظ سفوبودا دون أن يشعل الضوء، استيقظ كما لو أنه سمع طلقة نار. لكن المكان هادئ. كما لو أن لصاً اقتحم المنزل. لكن ليس ثمة أحد في المنزل عدا لِيلى وسفوبودا.

«هل تنامين؟»

«لماذا؟»

قال: «لا أعلم، أنا يائس».

لِيلى تلوذ بالصمت.

قال: «إنني يائس، هل تسمعين؟»

لِيلى تلوذ بالصمت.

وقال: «أظن أنكِ لا بد من أن تتركيني».

«ماذا تقول بحق السماء؟»

يُجب أن تتركيني».

من الصعب أن نقول، إنها معرفة لا أساس لها حتى ولا عن طريق اشتباه، ببساطة تيقن يقتحم أرجاء الذهن. ربما أنه أفرط في الشرب، أجل، ثمة حبوب لمعالجة مثل حالته، لكن لا حبوب لمعالجة إشراقه زوجته أمام الضيف؛ ذلك ما أيقظه. كما لو أنه استيقظ من حلم.

«لماذا أتركك؟»

شعوره بأنها ترتدي قناعاً، في حقيقة الأمر هو يشعر بذلك منذ أسابيع. منذ متى؟ أن يُضطرها حضوره إلى ارتداء قناع، ذلك غير صائب؛ بل لا بد من أن يكون السبب خللاً فيه هو، ويتعذر العيش إلى جانبه.

قالت: «تعال، خذ مسحوقاً منوماً».

وحين أشعلتِ النور، ظن أنه كان فريسة أشباح؛ لم يشأ أن تقدم له خدمة بل أحضر بنفسه الماء الذي كان ِفي حاجة إليه ولم يقل أي شيء بعد؛ لقد أفرط فعلاً في الشرب.

(أنا أنام).

حين كاد سفوبودا أن ينام، على كل حال لم يعد يجيب على أسئلتها، قالت لِيلى في الظلمة أنها كتبت إليه رسالة، أجل، إلى لندن، لكنها لم ترسلها، باستطاعِته غداً أن يقرأها إذا شاء، لكن يستحسن الآن أن ينام...

أتخيل:

في اليوم التالي لم يتسنَّ لسفوبودا نفسياً جراء انهماكه بأمور مهنية أي وقت للتفكير بالحديث الذي جرى وهو في حالة شبيهة بالحلم، لا بل نسي ذلك، واعتراه الخجل، على كل حال لم يطلب الرسالة لكن لِيلى لا تصدق أنه نسي كل شيء؛ وتفاؤلها المرح والبريء بأنه غافل عما يجري من حوله ولّى إلى غير رجعة. للأسف. وأحست بأنها مضطرة، مع أن سفوبودا لم يطلب أي شيء وبدا الأمر من البساطة بمكان، إلى التحدث معه...

أتخيل:

إنها غلطته أن يتم تسليم الرسالة المذكورة على الأخص في أحد المطاعم، يعني في لحظة يُحرس فيها الاثنان من قبل الكراسين وعلى مرأى من ضيوف آخرين يسترقون السمع أيضاً ولو أنهم منشغلون لتوهم بالضحك أو بتقليب سرطان البحر في صحونهم – غلطته لأن لِيلى لم تشأ في الحقيقة الخروج من البيت أو ربما من حسن حظه أنه لم يقرأ الرسالة في لندن بل هنا في مطعم يعرف الناس فيه سفوبودا؛ وجبة السمك ممتازة كالعادة، لكن من المؤسف أن لِيلى فاقدة الشهية للطعام، والكرسون يبدي اهتماماً وتعاطفاً، لِيلى تدخن وسفوبودا لم يستطع ببساطة.إسقاط أدوات الطعام إلى ما تحت الطاولة' لذلك استغرقت المسألة فترة إلى أن بدأ يقرأ الرسالة من فوق الصحن، أجل، بصورة جدية، لكن على ما يبدو بدون توتر خاص، بهدوء، لم ينس السلطة، وهو يعرف الآن الصفحة الأولى من الرسالة: تقريباً ما يشبه الكلام الذي احتوته رسالة أخرى كانت أرسلتها إليه بالفعل، أي ما يتم عن الشعور بالرفاقيه، التمنيات الطيبة في سفرته، قلقها حول ما كان يشكوه من مرض في معدته، إخباريات. في حقيقة الأمر رسالة ودية. لماذا لم ترسلها إليه إذن في البريد؟ لِيلى تدخن بينما لم يستطع سفوبودا التخلي عن سمكته، وإلا فإن عليه أن يتحمل فظاظة الكراسين، وإبان قراءته الرسالة: أحبكَ كالعادة وأريد فقط أن تكون معي كما تعودت أن تكون، حتى ولو أن في داخلي شعوراً آخر أيضاً. ما علاقة الكرسون بهذا الكلام؟ سفوبودا يطلب نبيذاً مرة أخرى لكي

يغيب الكرسون فيتمكن في أثناء غيابه من قراءة بعض السطور على انفـــراد وبالتالي لكي يفهم لماذا في حقيقة الأمر، كما تؤكد هذه الرسالة بقوة، لا يوجد دافع للطمأنينة والارتياح. عاد الكرسون بالنبيذ وبدأ يصب نبيذاً في الكـــأس، وأتى كرسون آخر لكي يبعد صحن سفوبودا عن الطاولة لئلا يضطر هذا إلى متابعة قراءة الرسالة من فوق الصحن كما فعل حتى الآن؛ ومع ذلــك فــإن سفوبودا لم يغير وضع الرسالة عما كانت عليه من قبل بعد أن توقــف عــن القراءة لكي يشعل سيجارة قبل أن ينتهي من قراءة الرسالة. يبدو أنه يطمــح إلى أكثر مما بالإمكان. لا داعي للاضطراب: سوف أقول لكَ ذلك حين يتغير شيء مما بيننا. هنا تنتهي الرسالة، ويمسح الكرسون الفتات عن الطاولة. إنها في الحقيقة رسالة لطيفة. ماذا سيقدّم بعد الطعام؟ ثمة كمية من الكرز. لكــن لمن هي هذه الرسالة؟ لا تزال الرسالة بجانب نفاضة السجائر. تُــرى هــل ينبغي على سفوبودا أن يضعها في جيبه أم يستحسن أن يعيدها إلى لِيلى؟ من محاسن الكرز أنه يُشغل أكله؟ كرز وإلى جانب ذلك سيجارة، أنّى للواحد إذن أن يتمكن من التكلم في هذه الحالة؟ يبدو أن سفوبودا يتمسك فعلاً بالرسالة، لا داعي للاضطراب، لِيلى تأسف الآن لأنها أرته الرسالة مــن حيــث المبــدأ، وسفوبودا يدفع الحساب، سفوبودا يشتري جريدة ويتصفحها حتى في منتصف الشارع كما لو أنه متشوق لأخبار جديدة، ويشرب قهوة في أحد البارات ثــم ينتقل إلى جدول الأعمال، لِيلى تبدي ارتياحها ولم تتوقع على ما يبــدو مــن سفوبودا أن يتصرف كما تأمل هي. وهنا ينهض سفوبودا واقفــاً ويرتــشف قهوته؛ بهدوء لكن ليس بصمت، ليس كتوماً بل ممعناً في التفكيــر، بلطــف، نظرته باتجاه أشياء أخرى أيضاً، متأثراً بما حوله لكن مسيطراً ومصغياً إزاء لِيلى التي كانت تنظر إليه بدهشة واستغراب.

(لم يسبق لي من قبل أن كنت كما أنا الآن).

ربما يذهبان الآن إلى السينما...

(انتظرتُ عبثاً اتصالاً هاتفياً منها).

في ما بعد إلى البيت...

أتخيل:

سفوبودا، رجل طويل القامة من إقليم بوهيميا التشيكي، لكن صوته رخيم (ليس رقيقاً بل رخيماً)، وهو باستمرار أكثر ثقة بنفسه بدرجة واحدة حين يفتح زر قبته الأعلى ويزيد من حلحلة ربطة العنق، إنه رجل لن يفهم البتة إذا ما قيل له إن طيبة قلبه (ليست معتمدة، بل فطرية) ظلمة، باختصار، سفوبودا – لا أعلم لماذا أتوقع أن يكون، إلى أن يثبت لي العكس، رجلاً ذا عينين رماديتين وحاجبين كثيفين ومائلين إلى الصفرة – سفوبودا إذن، بعد أن ذهب إلى المطبخ وأحضرَ جليداً لكي يحضر لحبيبته لِيلى كأساً من الويسكي، يتكلم بطريقة مازحة لا بسخرية لاذعة، لكن كما لو أنه يتكلم مع طفل كان عبث بلوح من زجاج النافذة وكسره ثم لاذ بالصمت خوفاً وهلعاً كما لو أن من المستحيل تعويض هذا الضرر.

قال سفوبودا: «إذن ما الأمر؟».

مع أن كل شيء موجود في الرسالة.

ثم قال: «لم يعد ثمة صودا»

كل شيء موجود في الرسالة، هكذا ترى ليلى – لكي تتهرب من سؤاله الملح– نهضت واقفة ثم تأكد لها بعد بحث مشتت أن الصودا نفدت فعلاً، حتى أنها أبدت ملاحظة تحض على أن الصودا لا بد وأن تُطلب ويؤتى بها؛ ووقف سفوبودا والكأس في يده، وبدا طيلة فترة من الزمن أن البريد يشغل باله لكن لم يفتح الرسائل بل اكتفى بالنظر إلى المرسل، إنه يمسك الآن بالرسائل في يده كما لو أنه يريد الذهاب إلى غرفته، ثم يشرب.

قال لها: «هلا تحدثتِ!»

ماذا يريد؟ ما باله؟

قال: «لقد كتبتِ إلي أن شعوراً آخر يكمن في أعماقكِ»

استراحة.

قالت: «أحب رجلاً حباً شديداً».

استراحة.

وجهها لم يكن يعبر عن نشوة، كان غريبا فحسب، صوتها مع ذلك موضوعي. في غاية الرقة واللطف. وجهها شهد بذلك. في غاية الرقة واللطف. التعبير البسيط تجاوب مع الحقيقة؛ ولذلك ليس ثمة ما يُضاف على ما قيل. لماذا يضع بريده على الطاولة؟ انقضت فترة إلى أن أدرك سفوبودا بالتدريج، وهو يحشو غليونه بالتبغ، على نحو ما بفعل الصدى الذي كان يتردد في داخله، أن البراءة الكامنة في تعبيرها ليست تبرئة صائنة مغلفة بالحيلة، بل هي تعبير ملائم عن حقيقة واقعية لا تسمح جديتها بأية كلمات مغالية. ونظر سفوبودا إليها وهو ما يزال يحشو غليونه، طيلة هنيهة على أمل أن المسألة ليست سوى سوء فهم متسرع من جهته؛ إلا أن غرابة وجهها دحضت أمله القصير. في غاية الرقة واللطف. وانتهى الأمر. في غاية الرقة واللطف. لم يتوقف الصدى عن التردد، حين أشعل سفوبودا غليونه أخيراً وأخذ يدخن؛ وصوته أيضاً ظل موضوعياً حين سأل:

«من هو؟»

استراحة.

«ألا تريدين أن تقولي من هو؟»

قالت وفي صوتها نبرة من تحد وعناد: «طبعاً»، لكنها انتظرت دون أن تقول شيئاً. تُرى ألا يعلم من هو؟ وأرجأت إخباره بذلك كما لو أنها كانت تفضل لو أنه يلفظ اسم الرجل الذي تحبه بحيث لا تحتاج هي بعد ذلك إلى أكثر من أن تومئ برأسها مؤيدة قوله. لماذا لا يساعدها للخروج من هذا المأزق؟ سفوبودا لا ينتظر بالتأكيد بدون تخمينات تتراءى له أنها مجنونة، وقد سُرّ إلى حين عندما قالت أخيراً: «أنت لا تعرفه».

فشرب.

يصعب عليها أن تقول

وأخذ يبحث عن أعواد ثقاب لأن غليونه لم يشأ أن يسحب ثم لجأ إلى تنظيفه؛ لا بد لسفوبودا الآن من أن يفعل شيئاً، شيئاً بيديه لكي يعود إلى نبرة كلامه الانسيابية والمشجعة بطريقة لعوبه ولكي لا يستطيع أن يسأل:

«ما اسمه؟»

استراحة.

«إيندرلين»

وبينما تابع سفوبودا تنظيف غليونه نهضت لِيلى واقفة ولسان حالها يلهج بالشكر لأنه لم يكرر هذا الاسم بل لاذ بالصمت، في حين كان على وجهها ما ينم عن أنه لم يعد ثمة ما يقال بهذا الشأن... فلا حاجة، بعد أن ذُكر الاسم، لأن يُقال أين ومتى قابلتني لِيلى؛ يتذكر سفوبودا موعدنا الغرامي في البار الذي لم يكتب له أن يتم، لكن ليس بمسببه؛ ربما ندم سفوبودا الآن على أنه لم ير في حياته وجهاً لوجه ذلك الرجل الذي تحبه لِيلى. لقد انتظرت سفوبودا. متى كان ذلك؟ بدأ يحسب ويتذكر. متى كان في لندن؟ وبدا له أن تاريخ ذلك أمر مهم. بداية آذار؟ وانقشعت عن عينيه غشاوة بينما كان ينظر

إلى السجادة، إذ تذكر حياتها البهيجة منذ شهر آذار. ذلك كان إذن ما جعله مؤخراً في سعادة غامرة؟ لِيلى لم تستطع أن تسبر غور أفكاره النابعة من أصوله التشيكية، وصلت الساعة إلى الواحدة صباحاً وبما أنها لم تشأ أن تسمع مزيداً من أسئلة غير لائقة، قالت لِيلى دون أن تُسأل:

«سوف يذهب إلى أمريكا تلبية لدعوة من جامعة هارفارد، إنه مدرس في الجامعة».

ماذا يريد أن يعرف بعد؟ «إنه رئيس تحرير إحدى المجلات، كما تعرف»

سفوبودا يلوذ بالصمت.

قالت: «أجلِ، ماذا تريد أن تعرف أيضاً»

كانت تتحدث كما لو أنه ألح عليها بالأسئلة وأمطرها بها وعذبها أيضاً؛ تعابير وجهها تثيره، إلا أنه أصغى إليها طيلة فترة وغليونه في راحة كفه، لِيلى لانت بالصمت، وبعد كل ما أخبرته عن مسيرتي الأكاديمية، فقد فاجأها سؤاله الخبيث:

«هل نمتما معاً؟»

استراحة.

قال: «لماذا لذتِ بالصمت؟ - إذن فعلتما ذلك».

«أجل».

وهذا الاثنان.

قالت: «أجل، لماذا؟».

«أجل»، قال ذلك لكي يسمع هدوء صوته، لكن لم يخطـر بباله في الحقيقة ما يمكن لهذا الصوت أن يقول بهذا الشأن، فيلوذ سفوبودا بالصمت إذ يجلس. لا يزال الألم يفعل فعلته باعتباره متعة جسدية تقريباً. وإذ أرخت لِيلى جفونها, حيث كانت عينا سفوبودا تبحثان عنها، فإنها لم تفعل ذلك خجلاً، أمر بديهي، بل باعتبارها جريحة، جرحها سفوبودا حين أجبرها على هذا الاعتراف ثم أنه ليس صحيحاً في هذه اللحظة أنها تحبه، كما ورد في رسالتها إليه. سفوبودا لم يتكرم عليها بعد بأيِ إزعاج أو إيذاء؛ ولم يزل جالساً ويداه في جيبي بنطاله، منقبض الوجه لكن لا مشوهه؛ وما زال عصياً على أيِ استقرار قد يدفعه إلى المطالبة بأي حق، حتى ولا حقه في أن يقول بصراحة ما يعتلج في نفسه. ما زال سفوبودا يمتلك من القوة ما يمكنه من الاعتراف ببساطة بأن الحياة محققة. إلى متى؟ لكن لا بد لسفوبودا من أن يقول شيئاً. أي شيء. مثلاً:

«كم عمره؟»

لِيلى متعبة.

قالت: «لا تسألني عن أي شيء، قلت لكَ كل ما أستطيع قوله».

«إنكِ تحبينه جداً».

للأسف لا يظل الزمن واقفاً؛ وللأسف لا تسدل أية ستارة طالما أن سفوبودا، وهو الآن يسند مرفقه على ركبتيه وكأس الويسكي الفاترة في كلتا يديه، يحافظ بصمت على كرامة المهزوم ولو لمجرد أنه لم يخطر بباله بعد ما يقوله أو بتصرفه بهذه المناسبة. حتى السؤال عما ينبغي الآن أن يحدث في المستقبل هو سؤال سابق لأوانه؛ إنه يعرف فحسب أنها سوف تتصدى

للأمر.. يعرف ذلك بوجه عام. أجل. لكنه لا يشعر بشيء، بل يذوق الطعم الفاتر لويسكي حولتها قطع الجليد الذائبة إلى ماء وقد احتفظ بها في فمه كما لو أنه يريد أن يتمضمض بها.

قالت لِيلى: «سفوب، أكاد أقع على الأرض من التعب».

لو لم يكن سفوب جالساً على هذه الشاكلة، لأمكن أن تكون لِيلى الآن على جانب كبير من التودد الذي تقتضيه الرفقة؛ وإذا ما كانت تعامله بجفاء وجمود فذلك ذنبه هو. لِيلى انهمكت في تلك الأثناء بإفراغ نفاضات السجاير. أما هو فكان يرى أنه لا بد وأن يحدث شيء، شيء يقلب كل شيء رأساً على عقب: لِيلى لم تفرغ نفاضات السجاير فحسب بل أخذت ترتب البيت كله، لِيلى باعتبارها ربة منزل، ثم تناولت جاكيته وعلقتها في علاقة ثياب. فراعه الأمر. لم يسبق لها أن قامت بأعمال كهذه. إذا دل ذلك على شيء فإنما يدل على درجة ارتباكها؛ يبدو أنها لم تعد تعرف ما هو الشيء المألوف في حياتها الزوجية. تُرى إلى هذا الحد وصلت الأمور؟ كان ينظر إليها وهي ترتب البيت، ومرفقاه ممتدان على ركبتيه.

قالت: «سبق أن أخبرتك بأن اتصالاً هاتفياً أتى اليوم من الكراج. بسبب التأمين».

«أجل قلتِ ذلك».

قالت: «بسبب الحساب، يجب أن يرسل الحساب إلى شركة التأمين».

سفوبودا يلوذ بالصمت.

قالت: «لئلا ننسى».

«ماذا؟».

لِيلى تفكر الآن بكل شيء، حتى بعيد ميلاد أبيه، بالزائرين في الحسبان، بالطرد الذي لا يزال في دائرة الجمرك، لِيلى سوف تذهب لإحضاره، أجل، إنها ذاهبة غداً إلى المدينة بطبيعة الحال، برنامج يومها يعج بأمور ملحة، لِيلى تفكر بكل هذه الأمور ولو لم يمض منتصف الليل لاتصلت الآن هاتفياً بالرجل المعني بأمر البراد، لكن على لِيلى أن تذهب غداً بطبيعة الحال إلى المدينة إذ لم يبق في البيت شيء من اللوز المملح، وفي يوم الجمعة سوف تأتي عائلة هنريكسن، في يوم الأحد أمسية مالر الموسيقية ولِيلى سوف تذهب لإحضار البطاقتين اللازمتين لذلك، إنها تفكر الآن فعلاً بكل شيء، لا فحسب بالطرد المبهم الذي لا يزال ملقىً في دائرة الجمرك وبعيد ميلاد أبيه وحتى بدفع الضريبة المترتبة على الكلب... الحياة مستمرة - بينما يلوذ سفوبودا بالصمت.

سفوبودا يقف وراء النافذة

سفوبودا يتذكر، متى كان عليه أن يلاحظ علاقة زوجته برجل آخر. لماذا؟ بالطبع كان بإمكانه أن يلاحظ ذلك. يومياً! إنه لأمر مُسلٍّ أن يستعرض كل ما لاحظه بدءاً من حقيقة أن لِيلى بدت ببساطة لدى عودته من لندن أكثر جمالاً مما كانت عليه من قبل، أصغر سناً، ثم الهدية الكبيرة فوق العادة التي قدمتها إليه بمناسبة عيد ميلاده؛ قبل ذلك زوال صداعها التي كانت تعاني منه من حين لآخر، مرحها، زهوها المشرق بالدرجة الأولى حين تكون في جماعة، بوادرها، لون بشرتها. لاحظ سفوبودا كل ذلك. كمعجزة. رسالتها إلى لندن، تلك الرسالة الأخرى التي أرسلتها إليه فعلاً: كانت مقتضبة، لكن رسالة غرام. ثم امتناعها عن إخباره عن الذهاب إلى الأوبرا. ذكرها العابر ذاك الرجل الذي لم يلتق سفوبودا المسافر: بدون أي تعليق - ثم زوال فضولها لمعرفة البريد المعتاد، تكرار تقصيرها إزاء أسرتها، اهتمامها السافر بالمجلة الجديدة وامتناعها عن إبداء أي رأي فيها. رغبتها الجامحة في ذكر من قابلت من الأشخاص في ما عدا ذلك. تسريحتها الجديدة. تقلبها بخصوص كل

ما يتعلق بخططهما المشتركة. انعدام فضولها لمعرفة الأشخاص الذين التقى بهم سفوبودا بلوره، بالمقابل فرحها الأخوي بنجاحاته على صعيد المهنة. وذات مرة رآها منكبه على دراسة مواعيد طيران دولية. التزامها المنفعل بدقة المواعيد في بعض أيام الأسبوع. كل ذلك خطر الآن ببال سفوبودا، إضافة إلى بعض الجمل الفرعية، من قبيل المزاح، وبعض الجمل الساخرة حول الرجل بوجه عام، إضافة إلى إعجابها بفيلم قليل الحياء وخاصة بالمشهد الذي يعرض امرأة تداعب بقدمها جسد رجل آخر في حين كان زوجها منهمكاً بتقبيلها، روح الفكاهة التي تتحلى بها بوجه عام، مقرونة بقلق مقنّع على سفوبودا إذا ما بدا عليه الاكتئاب؛ ذلك إضافة إلى إشفاقها على الحيوانات الحبيسة في حديقة الحيوانات، ملاحظتها حول الإوزات اللواتي تسبحن مع بعضهن بعضاً بتواضع واحتشام، وهلم جرا... لِيلى لا ذنب لها في أن سفوبودا لم يفهم شيئاً، لم تخفِ حبها للحياة؛ وإنه ذنبه هو إذ اعتبر أن لذلك علاقة به أو بمعجزة، إلا أنه عاش هو أيضاً فترة سعيدة معها، أجل، تماماً منذ لندن.

قالت: «أنا ذاهبة للنوم».

تُرى لماذا يهز رأسه؟

إيندرلين!

لم يجرِ هذا الاسم على لسانه بعد. إنه لأمر مضحك كيف ينفصل اسم ما فجأة عن كل الأسماء الأخرى ويثبّت وجوده وتداوله. بذلك يمكن أن يكون لي أيضاً اسم آخر.

قالت: «لا أعرف لماذا تضحك».

لئلا تتخذ المسألة مظهراً مأساوياً.

سفوبودا، على ما أظن، يدخل في عداد الرجال الذين تطلق عليهم النساء إذا ما كن بحاجة إلى تدليعهم تسمية دب، بصفة خاصة. وفي الحقيقة لم ينعم سفوبودا في يوم من الأيام بتسمية دلع أخرى طالما أنها مستقاة من عالم الحيوان؛ أما النساء، اللواتي هن من نوع مختلف، فكن يسمينه دبهن، بصورة مستقلة عن بعضهن بعضاً. ثمة شيء من هذا القبيل. وربما يُقصد بذلك ما تميز به سفوبودا من بداية محببة لكنها تتصف بالقوة والبطء والثقل، من خفة روح ودودة، من ضحك ماكر يصدر عن حيوان متوحش صغير العينين قد يتحول فجأة إلى مخلوق شرير وعنيف ومتقلب المزاج، فحيناً تجده شبيهاً برجل متوسل يثير الشفقة ويستدير جانباً ببلاهة من أجل قطعة من السكر بحيث يفتتن المرء بهذه الكتلة المخصلة من البراءة والعفة، متجاوزاً بذلك حدود الشفقة، وحيناً آخر ترى أمامك، دونما سبب باد للعيان لهذا التحول، وحشاً ضارياً لا تقف في وجهه أية عوائق ولا يروضه السكر ولا يتقبل أي مزاح لا يردعه أي رداع عن تمزيق ضحيته إرباً إرباً - ليلى تخاف منه- في الصباح التالي يصحو من جنونه الذي تمخض طيلة ليلة كاملة (إلى أن بدأت الطيور تغرد والشمس تشرق) عن ثرثرة فارغة وكلام خبط عشواء لا ترابط فيه، يصحو وهو مخرج من عدم تيقنه مما سبق أن قاله، ثم يعتذر في اليوم التالي عما فعل ولم تعد يداه مزودتين بأية مخالب، أجل، ذلك أمر طبيعي. وبعد ذلك يؤدي سفوبودا من جديد دور الرجل المتوسل المستعطف. لكن ليلى على يقين من أنه سوف ينفجر بالغيظ من جديد واعتذاره لا يغير منه شيئاً؛ ومراراً وتكراراً لن يمكن منعه من أن يمزق كل شيء بكلماته الحادة-

لم يحن الوقت بعد لذلك.

قال: «أجل، اذهبي للنوم».

لا يزال صاحياً تقريباً.

قال: «أجل، ليلة سعيدة».

ثم تناول جرعة من الويسكي.

قال: «الآن أفهم، أفهم الآن لماذا اتصلتِ بي هاتفياً آنذاك من لندن»

ما علاقة ذلك بالشأن الذي هما فيه الآن؟

وابتسم سفوبودا وقال: «هل هو جميل، هذا الإيندرلين؟»

لم تستطع لِيلى بالطبع أن تجيب على ذلك. هذا الإيندرلين! ليست هذه هي النبرة اللائقة للحديث عني، وسفوبودا أحس بذلك أيضاً.

واحتسى من جديد جرعة من الويسكي.

لماذا، أجل، لماذا لا تُسدل الآن أية ستارة؟

من المعروف ماذا سيأتي بعد

في حوالي الساعة الخامسة صباحاً (كنت أخلد للنوم) تطور الأمر إلى درجة أن كأساً مخصصة للويسكي تكسرت فجأة في الموقد. لماذا؟ ليس لأنه لا يفهم أن لِيلى تحب معانقة رجل آخر، بل لأنها هي لا تفهم. ماذا؟ لا تفهم ما ينبغي عليها أن تفهم. ربما ينبغي على لِيلى أن تضع نفسها مكان سفوبودا، الذي يذنب في كل كلمة يقولها. لقد تركته يقول ويقول دون أن تتشاجر معه. لماذا يرمي فجأة كأسه من الويسكي على صمتها المترفق؟ لِيلى لا تعرف في الحقيقة ماذا يريد. تُرى هل يعرف هو ذلك؟

قال: «اعذريني!»

في الخارج يبزغ النهار.

وفي أثناء ذلك عرف سفوبودا، وكأنما كان يمعن التفكير في براءة ضائعة، أنه لم يعد ثمة ما يدعو للحديث. من الساعة التاسعة مساء، حين كان في المطعم يقرأ رسالتها اللطيفة والكراسين يحيطون به كالحراس، حتى الساعة الثانية صباحاً، وسفوبودا يتمسك بمعرفته بأن لِيلى الآن لم تعد تهتم بمشاعره وأفكاره المبدأية، حتى ولا بخططه ناهيك عن انعدام اهتمامها بسماحته وكرمه. بهذا على ما يبدو، أي بسماحته وكرمه، بدأت المسألة. ليس لأن لِيلى تثاءبت؛ فقد كانت متعبة منذ منتصف الليل إلى درجة أنها كانت تسقط على الأرض. لا أظن أنها، في حين كان سفوبودا يزرع الغرفة جيئة وذهاباً ثم يجلس من جديد ويتحدث بوتيرة أبطأ لئلا يستقر حنقه وانفعاله، لا أظن أنها كانت آنذاك تفكر بي بالذات؛ سفوبودا يرغب على عكس لِيلى في أن أكون («هذا الإيندرلين») موضوعاً لحديث مشترك بينهما. تُرى ألا يستطيع سفوبودا، مع سعيه الحثيث إلى التفاهم، أن يفهم هذا على الأخص؟ إنها لا تلوذ بالصمت لأنها لا تصغي؛ إنها تصغي لكنها ليست حاضرة. وهي أيضاً ليست عندي. إنها في عزلة تامة عن كل الناس. والحدث الذي يثيره ويريد أن يوضحه بمساعدتها ليس حدثاً مشتركاً. هذا هو العنصر المفضي إلى التحرر في كل هذه المسألة، إلا وهو: لِيلى وحيدة..

ثمة صمت رهيب.

وفي الخارج تغرد الطيور.

قال: «لِيلى، قولي شيئاً!»

قالت: «لا أستطيع أن أقول لكِ أي شيء، أرى في الحقيقة أنك تنظر إلي في كل هذه المسألة باعتباري امرأة فحسب، أسمع ذلك من كل ما تقوله، ومن هذه النقطة فحسب ترى كل شيء».

«من أية نقطة؟»

«أنت تنظر إلي باعتباري امرأة فحسب».

سفوبودا يتذكر.

ثم يقول: «اعذريني!» قال ذلك بنبرة توحي فعلاً بأنه اعترف بغلطة؛ لكنه ضحك في ما بعد وقال: «أنتِ محقة. اعذريني. أنتِ محقة».

«تٌرى ماذا يقصد بذلك؟»

قال: «اعتبركِ امرأة فحسب» وكانت نظرته في تلك الأثناء مسمرَة عليها بحيث اعتراها الرعب؛ كان لعينيه فجأة نظرة شريرة مع أنه حافظ تماماً على هدوئه، وكرر قوله كما يكرر المرء كلمات مزاح بذيء: «اعتبرك امرأة فحسب – بينما السيد إيندرلين– أفهم هذا الأمر جيداً!» قال ذلك محاولاً مرة أخرى أن يضحك، لكن سبق لنظرته أن قضت عليه. قال وهو ينهض لكي يمشي عبر الغرفة التي سطعت عليها لتوها أشعة الشمس الأولى في ذلك الصباح ثم ظل واقفاً: «اعذريني، اعذريني!» وبدأ آنذاك أن سمّه هو الذي هدّأه بعض الوقت ثم أتى دور زجاجة الويسكي التي رُميت في الموقد وتهشمت. قال وهو يرتجف:

«اعذريني! اعذريني!»

فرمقته لِيلى بنظرة.

لماذا لم تُسدل بعد أية ستارة؟

الآن غدا سفوبودا مثيراً للشفقة.

وسألها: «ألا ترين أن ما قلتيه لي هو أمر فظيع وخارق؟ قلتِ أنني أعتبركِ مجرد امرأة، تقولين هذا الآن بعد أن كنتِ في أحضان رجل آخر – على ما يبدو لا باعتبارك امرأة – لا ألومكما، لكنكِ أنت التي تلومينني ولا

أفهم لماذا تلومينني، أجل تفعلين ذلك يا عزيزتي حتى ولو أنك تلوذين بالصمت، تقولين أنك لا تستطيعين التحدث معي لأنني اعتبرتك مجرد امرأة».

«في هذه المسألة».

ببساطة، لِيلى محقة.

قال: «أجل، لنذهب إلى النوم».

في غضون ذلك حل يوم الخميس، أجل، لكن لم تُسدل بعد أية ستارة؛ فالحياة الفعلية، لا تسمح بأن يَقفز عليها، لا بسنة ولا بشهر ولا بأسبوع حتى ولو عُرف تقريباً ماذا سيتبع..

(لا أريد أيضاً أن أكون سفوبودا!).

قصة من أجل كاميلا:

أدرك رجل وامرأة، حين تلاشت نشوة الحب الأولى بينهما في طوره الرسمي، إنهما خلقا لبعضهما بعضاً لقد فهم كل منهما الآخر بشكل رائع. إلا أن نشوة الحب تلاشت. وهكذا عاشا معاً، بعيداً عن الغرور والزهو، بدون نزاعات وشجارات. لكنه كان يرى العناق أحياناً، في أثناء حدوثه، كما لو أنه عناق ظاهري، كما لو أنه يجلس في كنبة قريبة من موقع العناق أو يقف وراء النافذة، كانت تدور في ذهنه أفكار كتلك التي تدور في الذهن حين ينظر المرء من خلف الزجاج إلى الشارع، لم تكن أفكاراً سيئة بل أفكاراً، بعد ذلك كنت تجده من جديد في وحدة عضوية مع ذاته ومعها هي، وفي ما بعد حين كانت تعد الشاي كان يناديها باسمها المدلع وإذا ما صبت الشاي كان يقول لها أنه يحبها. وهي أيضاً أحبته، هو دون غيره، ولو أن حبها له كان مختلفاً عما كان في البداية، ذا طابع شخصي أكثر من ذي قبل. كانا لا ينفصلان عن

بعضهما بعضاً ويسافران معاً. وذات مرة، في الفندق، اعتراه الذهول حين رأى العناق في أثناء حدوثه عبر مرآة واعتراه السرور بأن جسده هو كان موضوع خيانتها ونظر إلى المرآة التي خانها فيها. ونشبت بينهما أزمات حول أمور تافهة. مع أنهما أحبا بعضهما بعضاً. وفي أحد الأمسيات، فيما بعد، جلس يقرأ جريدة بينما استلقت هي في السرير؛ كانت تدور في ذهنه أفكار، من الحياة اليومية، كتلك التي كانت تدور في ذهنه خفية في أثناء العناق، إلا أنه كان يجلس فعلاً في الكنبة؛ كانت نائمة في حين استطاع هو بفضل تلك المرأة أن يتخيل بدون أية صعوبات كيف يعانقها رجل أخر وجلس قريباً من مكان العناق، لم يعتره الذهول بأي حال من الأحوال لا بل سره أن شخصه قد امحي، وكان في حقيقة الأمر مرحاً ونشيطاً: لم يشأ أن يكون هو الرجل الأخر. وهو يقرأ الجريدة في أثناء نومها وربما رؤيتها الأحلام، الأمر الذي تخيله ظاهرياً، كان متحداً مع حبه الكبير. كان اسمهما فيليمون وباوكيس: الزوجان.

على فرض أن منظر سفوبودا هو تقريباً كما أتخيله: - رجل فارع الطول من منطقة بوهيميا التشيكية، عريض المنكبين، دائري المنكبين، فارع الطول أكثر مما ينبغي بالنسبة إلى لِيلى الرقيقة البنية، هكذا أرى، فحتى في وضع وقوفها على أعلى كعبيها لا تصل إلى كتفيه وحين تكون حافية القدمين فهما يظهران باعتبارهما زوجين بمظهر لا يليق، رجل ثقيل ومع ذلك ليس بديناً وليس خاملاً بأي حال من الأحوال، رياضي، وهو بالمناسبة رجل يمكن اعتباره فوراً أشقر اللون مع أنه في الحقيقة أصلع تماماً لا بسبب سقوط شعره بل لأن الصلعة جزء من وجهه الرجولي كالذقن والجبين، رجل ذكي وذو رأس يمكن أن تكون لرجل روسي، رأس عنيدة، رأس مستديرة ومميزة إلا أنه لا يحب النظر إلى المرآة لأنه لا يفهم ماذا تجد النساء فيه، سفوبودا في بدله السموكينغ ذو منظر مؤثر، تلك حقيقة يدركها سفوبودا وهو مع ذلك راقص جيد، رجل يتعرق في معظم الأحيان ولا تؤثر فيه برودة الجو، يتحمل

الشرب، ومع ذلك فهو لا يتكلم بصوت عال إلا إذا أصيب بنوبة غضب؛ وفي ما عدا ذلك فهو قليل الكلام، يدخن الغليون، هادئ وذو ضحكة لطيفة بين الناس، لا يرتدي نظارات، طبع فريد من نوعه، كئيب المزاج، دب، ثقيل لكنه كثير الحركة، يفتقر إلى المهارة انطلاقاً من حاجته (وخاصة في حضور ليلى) إلى إخفاء قوته، ليلى تخاف منه بالرغم من أنه لم يسبق له البتة أن ضربها.. على افتراض أن لسفوبودا المواصفات الأنفة فإن من الممكن أن نخمن تصوره بدوره عن هذا الإيندرلين: - رجل مثقف رشيق القد ورقيق المظهر، ليس تماماً ناتىء الأضلاع لكنه رقيق البنية. ليس دباً. بل أقرب ما يكون إلى العصفور. ليس بوهيمي الانتماء. بل أقرب ما يكون إلى العرق الإسباني أو الفرنسي، في كل الأحوال الإيطالي، وعلى أي حال أسود الشعر (ليس هذا صحيحاً) وله أنف شبيه بأنف صغير ناعم (وهذا أيضاً غير صحيح) تحت جبين كلاسيكي الشكل، منخفض وقائم الزاوية كالجبين الذي تجده عند شعوب البحر المتوسط. صحيح أن الاسم ذو نبرة أليمانية إلا أن سفوبودا لا ينخدع بذلك ولو طيلة لحظة واحدة فحسب؛ إنه يعرف نموذجهم العرقي. ليس رأسه مستديراً. وهو ذو فهم. رأسه مستطيل وتُختزن فيه معارف مدهشة باستمرار في كل المجالات، بما في ذلك عذوبة الحديث. ربما كان الشذوذ الجنسي واحداً من ملامحه بحيث يتعذر على سفوبودا في يوم من الأيام أن يعرفه في الشارع، ربما أنه يملك كلباً. إيندرلين ليس غندوراً، لكنه يعتني بمظهره؛ ومن المؤكد أن أظافر أصابعه لم تكن سوداء ذات يوم. وليس في وجهه نمش ناجم عن حرارة الصيف. أسود الشعر، نموذج من الرجال لا يمكن أن يصاب بالصلعه، هذا أمر مؤكد. ليس رياضياً، بل غني العقل. من الجائز إنه يجذب النساء، بالذات لأن عنده بعض المتاعب. أمر ممكن. لكن ليس بالضرورة. إنه في كل الأحوال رجل مثقف. واعٍ إلى درجة عالية. له مشية شبابية حين يمشي مع لِيلى متشابكا الذراعين. يرتدي قلنوسة باسكية، وفي كل الأحوال هو أصغر سناً، هذا أمر ثابت، وأكثر ثقافة من سفوبودا. ليس طباخاً. وهو يقف حاذراً حين يتعطل إبريز الكهرباء؛ ليس صاحب حرفة. لِيلى لا تخاف

منه. ومن المؤكد أنه يلم بسبع لغات، بدأ من الإغريقية. في بدلـــه الــسباحة يظهر إيندرلين باهت اللون كالشمع، لكن لا يفتقر منظره إلى الرجولة وشعره أسود على أي حال. صاحب دعابة في كل وضع من أوضاع حياتـــه. لــيس راوي قصص لكن صاحب دعابة. ويتصرف في السرير كما في فيلم فرنسي. سياسياً؟ ربما أنه نصف يساري. حين تنزع لِيلى نظارته عن وجهه, أقــرب مايكون إلى وجه طري إلا أنه نحيل. ليس مدمناً على الكحول. جسمه لــيس ضخماً. لكنه ليس ضعيف البنية، إنه يحمل حقيبتها دون أن يكون أكثر طولاً منها. لا يجيد الرقص. بالطبع لا تعرف لِيلى ذاتها ما الذي يبهرها فيه- ولــم يكن من اللائق السؤال عن ذلك... إنه ببساطة النموذج المطلوب. المواصفات المغايرة للعرق البوهيمي. لابد من ذلك ذات مرة. رجــل ذو شــعر أســود. المواصفات التي يتحلى بها العرق الروماني. مصارع ثيران، أهيف القامـــة وكبير العينين، نموذج كان يعتبره سفوبودا منذ الأزل – ولو من قبيل المزاح حتى الآن- الخطر بذاته، أسود الشعر وذو وجه يتميز بصغر الفك الأســفل وأسود الشعر لا على الرأس فحسب بل وأيضاً على الساقين-

سوف أخيب أمل سفوبودا!

حين سألتُ لِيلى، كيف تصرف سفوبودا، لاذت بالصمت. بطريقـــة أو بأخرى، سفوبودا خسرها وتصرفاته المقبلة لم تعد تلعب أي دور في حياتها. وهي لا ترغب أيضاً في أن أهتم بهذا الأمر. ليتصرف من الآن فصاعداً كما يشاء ...

أرى خيارات عديدة:

سفوبودا يصطدمُ، وهو يقود سياراته، اصطداماً عنيفاً بشجرة.

أو:

سفوبودا يتعاطى مع المشكلة بسماحة وكرم. فيعلق آمالاً على سلطة الزمن الذي هو دائماً ضد الحب، أي ضدنا. سفوبودا يشرب أحياناً، بينما نقوم نحن برحلة صغيرة في محيط سماحته الرفاقية الطابع. وحين يصحو فهو يقاوم كل شعور سلفي. ليس من قبيل الحنق أنه يركز الآن على موضوع الاهتمام بالبيت وشؤونه أكثر من أي وقت مضى؛ حين تعود لِيلى إلى المنزل يكون سفوبودا أحياناً في عداد النائمين أو يتظاهر بأنه نائم. ثم يعود من جديد في لمح البصر إلى شرب الكحول، الأمر الذي يعود بالضرر على كليته؛ لكن لا ذنب لها في ذلك، وهو يعرف هذه الحقيقة. على أن قلقها على كليته هو الأمر الوحيد الذي لا يقبله. لا يلح على حسم الأمور. يفهم الحياة. يتأنى وينتظر. وقد يستمر انتظاره ربع عام، لا بل نصف عام. إنه لطيف كما ترغب لِيلى وقد يحظى باحترامها. والخطر المتمثل في أن لِيلى قد تفقد اهتمامه في المستقبل هو أمر غير وارد في الحسبان إلا من حين لآخر فحسب. وسعادتها معي، ذلك أمر بديهي، عرضة لتقلبات يراها سفوبودا في حينها بالطبع وطالما ثمة فرق يومي بالنسبة إليه ما إذا كانت لِيلى تمشي عبر أرجاء البيت المشترك مغنية. أو متحجرة، فلا مناص له إذن من إبداء تعاطف يذكِّر بالحب. وتستمر هذه الحالة عاماً واحداً. وهو إذ يعتمد على إدراكه بأنه ما من إنسان يتعذر العيش من دونه، فإنه يُظهر لها في كل وقت أنه يستطيع العيش بدونها؛ إلا أنه لا يفعل ذلك. لقد تعوَّد على أن يكون أريحياً. وهو لا يضايقها بخطط مشتركة، بل ينتظر. ينتظر ماذا؟ لِيلى سعيدة بحيث لا تضطر إلى إحداث انعطاف في حياتهما. إنها تحترم سفوبودا، كما سبق أن قيل، أكثر من أي وقت مضى. بسبب أريحيته. وهو يفقدها بالطبع بالرغم من كل ذلك...

أو:

سفوبودا (بعد تلك الليلة السخيفة حين قذف بكؤوس الويسكي إلى الموقد وبعد أسبوع من الأحاديث الجارحة والتي لم تغير من واقع الأمر شيئاً) يختار

الحرية في النوادي الليلية. فيرقص. يمل لكنه يرقص. ويتردد على المسبح الذي يعج بالنساء والبنات اللواتي من شأنهن أن يعوضن عن لِيلى طالما أنها مجرد امرأة بالنسبة إليه، لولا أنه لا يفكر بها باستمرار. وهو يسبح، شبيهاً بطرزان، ثم يقف هكذا على غير هدى وينظر إلى ما حوله، رجل فارع الطول وعريض المنكبين, مسنداً يديه على أردافه. ويلعب بالكرة مع طفل إحدى السيدات بالبيكيني محاولة منه للاقتراب من هذه السيدة لكن الأمر يقتصر على لعبه بالكرة مع طفلها، لا أكثر. ويشتري سيارة مكشوفة لكي يكون في كل وقت على استعداد لأن يصطحب معه طالبي استيقاف السيارات على الطرقات العامة، إلا أنه يجد في معظم الأحيان فتياناً بين المستوقفين، ويحظى ذات مرة بفتاتين تتكلمان لغة يتعذر عليه فهمها ويبقى الأمر ضمن نطاق دردشة متلعثمة. ويذهب إلى كل معرض للصور، ولا يفوت على نفسه فرصة توصيل مصورة شابة إلى منزلها. يحاول أن يعشق لكي يخلق توازناً، وإذا لم يرق ذلك إلى توازن السعادة فليكن توازن الغيرة. كما لو أن لِيلى تتحرق الآن غيرة! يرى أفواههن لكنه لا يستطيع الوقوع في غرامهن؛ النساء يتشممن ذلك، وسفوبودا هو الآن ذو رائحة شبيهة برائحة حيوان مريض والطبيعة تعمل ضده. ومع ذلك فهو يستطيع أن يقول لنفسه أنه الآن يختار أيضاً طريقه بنفسه وقد نوه إلى ذلك. لكن لِيلى ليست فضولية. ولا تمنحه هذه الفرصة تصريحاً، لأن في ذلك افتقاراً للذوق، ولذلك تتجاهل أمره. لا يهمها أمره فعلاً. ولا يهمها إخلاصه أيضاً. وسوف يفقدها بطريقة أو بأخرى...

أو:

سفوبودا لا ينظر إلى المشكلة بجدية أكثر مما هي عليه بين الرجال العاملين؛ بل ينشغل بأمور أخرى. فهو لا يفكر بذلك بتاتاً أكثر من دقيقة واحدة. ما العمل. تلك أمور مرشحة للحدوث في أي وقت. أمور معتادة الجنس يحركها. لا يمس شخصه ما يفعله الاثنان، وليس من السهل أن يخيفه أحد. الجنس. يُضحكه أن لِيلى ترى في علاقتهما أكثر من ذلك. لكن ما في

اليد حيلة. إنه شأنها هي. إلا أن هذا الشأن هو أكثر جدية بالنسبة إلى لِيلى، المرأة؛ وإذا كان سفوبودا محقاً، الأمر الذي يمسني أنا، فهو يفقدها بالذات بسبب أنه سبرغور غرورها بسرعة فائقة ...

أو:

سفوبودا يجلس في سالامانكا، بلازا مايور, حيث يُمسح له زوج أحذيته، سائح موجود في هذا العالم لكي يُشغل ماسحي الأحذية، إنهم يعرفونه منذ ثلاثة أيام، وهو يقرفص طيلة ساعات على نفس الطاولة الصغيرة وينظر إلى الساعة، لا ينتظر أحداً، لكنه ينتظر دون أن يقرأ جريدة ودون أن ينظر إلى طراز البناء الشهير، بل ينظر إلى الساعة ويدق على الطاولة بقطعة نقود ثم يدفع وينهض واقفاً ويمشي الهوينا قدر المستطاع إلى مكتب البريد، قبل الظهر، ظهراً، مساءً، ثم يعود ويجلس ويطلب كأساً من نبيذ الجيريس، يدخن على غير هدى ويأمر بمسح حذائه، ليس ضرورياً أن يكون في مدينة سالامانكا فهولا يرى على كل حال في أية مدينة يتواجد الآن، وقد يمكن أن تكون المدينة بنفس القدر أيضاً هي آرل الفرنسية أو أغريغينتو الإيطالية، حيث يكتب رسائله؛ فالحال باق على ما هو عليه، نفس الكوة التي يُبرز فيها جواز سفره (لم يعد ذلك أمراً ضرورياً؛ أصبح الناس يعرفونه ويصدقون أنه سفوبودا) ويسأل دون جدوى عن رسالة، إنها تعلم أنه في سالامانكا أو في سينيا أو أي مكان آخر، إذ لا تلعب فعلاً أي دور مسألة أن يأمر سفوبودا بتنظيف أحذيته لكي يضيع الوقت إلى أن يفتح مكتب البريد، من الممكن أن يحدث ذلك في برينديسي الإيطالية (الأمر الذي يسبب رعشة: فالناس يأتون إلى برينديسي لكي يبحروا من هناك، وما من أحد يبقى في برينديسي بمحض إرادته) أو في قاديش الأسبانية–

ما يراه سفوبودا:

شوارع سوداء، رمادية، بيضاء، صفراء، أسفلت أو بيتون، أسفلت وعلى سطحه سراب، نبات الوزال، منعطفات قاد فيها السيارة مرات لا حصر لها، معالم على الطرقات، شوارع عريضة تتخللها ظلال متقطعة، عربات تجرها حمير، براميل قطران، ضواحي مدن، سفن في الميناء، سكان، إشارات ضوئية، فقر، جسور سكك حديدية، قطار بضائع وبين عجلاته بركة من الماء، شاطئ ذو منعطفات يسارية ومنعطفات يمينية ثم يستقيم ثم من جديد منعطفات يمينية ويسارية، يمينية ويسارية، وهكذا دواليك عيار السرعة الثانية، عيار السرعة الثالثة، مزلقانات، بحر، نباتات الصبار، بحر، نباتات الوزال، بحر، جسور، قرى تتكرر باستمرار، مدن صغيرة، ساحات تتوسطها نصب تذكارية، أنوار كاذبة في وقت الأصيل، شجرات في ضوء السيارة، معالم الطريق في ضوء السيارة، وفجأة عربة ثيران بيضاء اللون، قطعان غنم باعتبارها اكتظاظاً لعيون خضراء في ضوء السيارة، يدان على مقود السيارة، أسفلت في ضوء القمر، قمر فوق البحر، معالم الطريق في ضوء السيارة، شارع، يدان على مقود السيارة، شارع وهلم جرا.

ما لا يراه سفوبودا:

- وجهها:

ذات مرة (هكذا يمكنني أن أتخيل) تنفجر إحدى عجلات سيارته في العراء، عند الظهيرة، استبدال عجلة في هذا الحر الشديد، ذلك ما كان ينقصه؛ إنه يعرف على الفوز أن لِيلى لا ذنب لها في ذلك، لكن حنقه- حين أخرج الأدوات اللازمة وركّب الرافعة – انصب فعلاً على هذه المرأة كما لو أنها هي التي أضاعت مسامير كهذه في وسط الشارع، أمر مضحك ويدعو للسخرية، أجل، إنه يعرف ذلك، السفرة برمتها مضحكة ومدعاة للسخرية.. سوف أسافر لمدة ثلاثة أسابيع لكي أترك لكما الآن بعض الوقت! هكذا يقال عادة في مثل هذه الأوضاع. لماذا بالذات ثلاثة أسابيع؟ هذه اللفتة (بعد يوم

من كؤوس الويسكي المقذوفة باتجاه الموقد) لم تخل من روعة تنم عن صحوة ولذلك فهي مقنعة، لكن ثلاثة أسابيع هي فترة طويلة. لكي أترك لكما الآن بعض الوقت ألم ترسله لِيلى إلى حيث هو الآن، لكنها أيضاً لم تحل دون سفره؛ كانت مذهولة بعض الشيء من أنه أخذ الأمر مأخذ الجد، أكثر مما فعلت هي، وكانت أيضاً غاضبة بعض الشيء لأنه لم يسبق قبل الآن أن استطاع تخصيص هذا القدر من الوقت لإجازة مشتركة، ثلاثة أو أربعة أسابيع وبعد ذلك سوف نرى بشكل أوضح، هكذا قال، إما أو، هكذا قال، ثم قبلها على جبينها، في حين كانت لِيلى، التي لم تكن بحاجة إلى السفر معه، تبحث عن مغزى آخر لذلك، أكثر عقلانية؛ فقد رحبت بفكرة أن يخضع سفوبودا ذات مرة إلى عملية استشفاء ومعالجة بعد حالة من الإنهاك والتعب من العمل. لماذا مدينة قاديش؟ فقد أوردت في الحسبان إما بلدة بوتسن أو بلدة انغادين. لماذا مدينة بعيدة إلى هذا الحد؟ لكن سبق السيف العزل، والرجل هو رجل ذو قرار –على بعد مائة وعشرة كيلو مترات من قاديش (أو برينديسي) وفي وهج الظهيرة وعلى طريق خالية من الشجر، حين رمى سفوبودا – وهو يتصبب عرقاً ويداه متسختان– عدة السيارة مع العجلة المعطوبة في صندوق الحقائب، لم يعد ثمة مجال للرجوع وذلك بالرغم من أن الدوران بالسيارة إلى الاتجاه المعاكس في ذلك المكان بالذات هو أمر متيسر بدون اللجوء إلى مناورة، ويحتمل أن تنتظره رسالة في قاديش (أو برينديسي)...

ماذا يتوقع سفوبودا؟

إنه يأخذ الأمر على محمل الجد أكثر مما هو عليه في الواقع. من شأن سفرته ورسائله بالدرجة الأولى، التي لا تخلو من عزة وكرامة كما لا تخلو أيضاً من جرأة لكنها تخلو من اللوم والتأنيب، إنها بمثابة وليمة معربدة قائمة على أساس إدراك يقظ، من شأنها أن تجبر لِيلى على أن تكون جدية بحيث يدفعها ذلك إلى العناد والتحدي وبالتالي إلى القرار الحاسم، الذي سوف يكون على كل حال قراراً مشرعاً.

برقية:

«سوف تلي رسالة بعد غد، توقف. المخلصة لِيلى».

سفوبودا يأمر بمسح حذائه.

أعرف مدينة قاديش، إلا أنني لم أكن آنذاك لوحدي؛ المدينة، منظرها من جهة الريف المحيط بها شبيه بحلم أبيض من الأصداف، تخيب الأمل حالما تدخل إليها، شاطئها مقفر فضلاً عن أنه مغطى بالحصى طعامها لا يواسي إذا كان المرء يعاني من الوحدة، ولا يشرب في هذه المدينة إلا نبيذ الجيريس..

لا أريد أن أكون سفوبودا.

سفوبودا يدرك بأن حالته الخاصة عصية على التعميم، ولذلك فهو يستسلم لنبيذ الجيريس الذي من شأنه أن يحول المشاعر، دون أن يستطيع فهمها، إلى حق، أي أنه يستسلم للتهيؤات الناجمة عن الإفراط في الشرب...

برقية ثانية:

«سوف أرسل رسالة إلى برشلونة. توقف، قَدِ السيارة بحذر بعد أن تقرأها. توقف. أعلمني من فضلك في الوقت المناسب متى ستصل. توقف. لِيلى».

يسافر سفوبودا مثل مواطن من نابولي.

نص الرسالة التي تنتظره لدى بريد مدينة برشلونة حيث سيصل إليها يوم الأحد، لكن لن يستلمها قبل يوم الاثنين، هو أيضاً لا يخلو من عزه وكرامة كما لا يخلو أيضاً من جرأة الإدراكات وينم عن رزانة وموضوعية (ربما يشعر سفوبودا بشيء من العداء إذا ما أقدمت امرأة على التفكير أيضاً

برزانه وموضوعية) كما يتم عن ذكاء ولو بدون اتخاذ قرار حاسم. وذلك يكفي لأن يصاب سفوبودا بالشلل حتى ركبتيه بحيث لا بد له إذن من الجلوس: إلى هذا الحد تطورت الأمور! صحيح أنه كان يحشو غليوناً بالتبغ بعد أن تصفح الرسالة المفصلة، إلا أنه كان لا يزال في بهو مكتب البريد. تُرى ألم يورد في الحسبان، حين تحداها عن طريق سفرته وبالدرجة الأولى في رسائله إلى اتخاذ قرار فوري وحاسم، أنها سوف تقبل هذا التحدي؟ صحيح أنه يدخن غليوناً كما لو أنه ليس مجرداً من أي سلاح وكما لو أنه لم يكن يتوقع شيئاً آخر، إلا أنه يتصبب عرقاً إلى درجة ليست أقل مما يحدثه استبدال عجلة سيارة إبان وقت الظهيرة: - لِيلى أوردت في الحسبان ما إذا كان ينبغي عليها أن تعيش مع سفوبودا أو مع رجل اسمه ايندرلين أو لوحدها. لم تتخذ القرار الحاسم بعد، كما سبق أن قيل وهي تشعر أن سفوبودا، وليس الرجل الآخر، هو الذي أغواها على ما يبدو؛ فتطلب مزيداً من الصبر مع أنها لا تشك بتاتاً بأن هذا السيد الذي اسمه ايندرلين (دون ذكر اسمه الأول؛ فاسمه الأول لم يعد يهم سفوب بأي حال) لن يتردد في التخلي عن كل شيء من أجل أن يعيش مع لِيلى. إن دوافعها، التي تحول دون بقائها مع سفوبودا، تتم عن فطنة، لا تخلو من محبة، إلا أنها تتم عن فطنة إلى درجة يتعذر معها تفنيدها بالحب، دوافع ليست جديدة على ما يظهر، لكن لم يرد لها من قبل أي ذكر؛ ومن جهة أخرى لا حاجة لذكر الأسباب التي تدفعها إلى العيش مع ايندرلين، ببساطة ليست لِيلى بحاجة إلى أن تمجّد هذا الآخر ولا إلى أن تعرفه وما تقوله عن هذا الرجل الذي اسمه ايندرلين هو نذر يسير ولا يتعدى ذكر العمر، المهنة، الجنسية، إضافة إلى حقيقة أنه يبادلها المشاعر... سفوبودا، حين جلس أخيراً في سيارته المعفرة بالغبار بعد أن قرأ الرسالة مرة ثانية بحيث حفظ بعض جملها عن ظهر قلب وأدخل مفتاح السيارة الصغير في القفل ثم ضغط ببطء على الدبرياج ودوَّر المحرك قبل أن يضع السرعة الأولى، قام بكل هذه الأعمال مثل تلميذ متقدم إلى امتحان قيادة السيارات، واحداً بعد الآخر، لكنه في أثناء ذلك نسي للأسف فرامل اليد، سفوبودا مرتاح،

كان مضطرباً كما لو أنه قد سقط من مكان عالٍ، لكـن مـع كـل المعافـاة والارتياح. أليس من قبيل التشجيع أن تبدو الحياة سائرة إلى الأمام؟ في مدينة نيم زار سفوبودا المسرح الانتيكي، وهو الوحيد لذي رآه بالفعل في أثناء هذه السفرة الطويلة. وفي فيان (قبل ليون بمسافة قصيرة) تناول الطعام في مطعم من فئة ثلاث نجوم. الآن لأول مرة يظن سفوبودا، باعتباره محايـداً وغيـر معني بالأمر ولا تفرمله المشاعر، أنه يعرف المستقبل، بعبـارة أدق: لـيس المستقبل بل نهاية ماض لم يعد يصب في أي حاضر. لِيلى محقة. كان يقـود السيارة، وذراعه الأيسر معلق في الهواء، بيد واحده برزانة وأنـاة. لِيلـى محقة. مثله مثل رجل محايد وغير معني بالأمر، صحيح أنه لا يريد إسداء أية نصيحة، إلا أنه مع ذلك يقوم بالنصح وهو متيقن من أنه لم يبـق لهـذين الزوجين سوى الطلاق وبأقصى سرعة ممكنة، هلم إذن إلى الطلاق. وأخـذ يصفِّر. كان جاهزاً للرد على أسئلة البشرية، أي مرتاحاً، متحرراً من كل ما يسميه الناس وضعاً خاصاً، هكذا سافر إلى بيته متسكعاً بسرعة وسـطية بمعدل مائة كيلو متر في الساعة، فالماضي ليس في عجلة من أمره...

أتخيل:

سفوب، بلونه البرونزي جراء أشعة الشمس بعد ثلاثة أسابيع قضاها في سيارته المكشوفة إضافة إلى أنه أصبح أكثر نحولاً من ذي قبـل وفـي كـل الأحوال مشدود الوجه، أي متجدد الشباب إلى درجة أن لِيلى بالكاد عرفته من جديد لدى دخوله إلى البيت، سفوب هو الآن في عداد الفاتحين بغير قصد، في عداد الغرباء، مرح لأنه ليس لديه ما يخسره ولذلك فهو من الرابحين: لِيلـى تخدعني بعد ساعة، وهي مغتبطة طالما أنه لا يدعي بأن له أية حقوق حتـى ولا حق الاكتئاب. وقد قابلتني لمدة قصيرة في اليوم التالي لكي تتبأنا بقدومه فأقلع عن الاتصال بها هاتفياً، وكانت مقتضبة ومشتتة وقليلة الكلام في حـين كان سفوبودا مرتدياً روب الصباح في البيت يفتح بريده ويصفِّر. وتبع ذلـك نصف شهر عسل، نصف ليس في الشعور، نصف فقط باعتباره مدة، سعادة

لم تغير شيئاً من الفطنة المجرَّدة من السلاح، التي تـضمنتها رسـالتها مـن برشلونة؛ وبعد ذلك عاد سفوبودا إلى وضعه القديم، وأراد أن يعـرف ما موقفها منه.

أتخيل:

الحياة مستمرة، لكن ليس إلى الأمام، ولا بد ولو بصمت مـن طـرح السؤال لمعرفة من الذي يتحمل وزر ذلك: سفوبودا بملامح وجهه المتربصة أم لِيلى التي تتحصن باللياقات الاجتماعية.

لِيلى تضحك وتقول: «سفوب، هل أنت بخيل؟»

«كيف؟».

«لا نبيذ أمام أحد».

قال: «عذراً»، لِيلى محقة، كان يصغي إليها وهي تروي لتوها القـصة المتعلقة بالأفعى الإغريقية، إنه يتذكر: كان يوماً سعيداً آنذاك، يوم حـب، إلا أن ذلك لا يعني الضيوف العطشى ولذلك فإن لِيلى محقة في أن تخفي الحقيقة، لكن لماذا تروي إذن هذه القصة؟ لقد اكتفت بالقول إنهما نعسا من شدة الحـر آنذاك ولم يحصلا إلا على نوع من النبيذ ذي رعشة وحرقة شمس، لا علـى سجاير ولا على أي شيء آخر، وفي وسط هذا الشارع المعفر بالغبار، الذي كان شاهداً على سفرتهما الزوجية تدحرجت تلك الأفعى المدهوشة-

سفوبودا يزيل فلين الزجاجة.

واحد من أصدقاء لِيلى الحاضرين كان أنبئ بأن ليس عندها أية خطط لهذا الصيف، وجرى الحديث بشكل عرضي عن أن لِيلى ربما تـذهب إلـى كوبنهاغن. و سفوبودا سمع هذا الخبر لأول مرة. يبدو أن الآخرين يعرفـون

عنها أكثر مما يعرف هو. لكن ليس مؤكداً، كما يعرف الصديق، إن لِيلي سوف تذهب إلى كوبنهاغن؛ بل من الوارد أيضاً في الحسبان، كما يعرف الصديق، أن يختارا – لِيلى و سفوبودا – مكاناً ما على شاطئ البحر لكي يتمتعا بشمس الصيف المنعشة (على حدِ اقتباس الصديق، الذي وجد تعبيرها طريفاً) : «أسلوب عائلي».

ويصب سفوبودا النبيذ في الكؤوس.

أحد الحاضرين تحدث باقتضاب عن ايندرلين الذي تلقى دعوة إلى جامعة هارفارد، كما هو معلوم، لكنه لن يذهب إلى هناك لأسباب غير مفهومة-

وهلم جرا!

حساسية سفوبودا تزداد باستمرار.

من قول لِيلى: «تباً لدخانك! لماذا نمسك غليونك باستمرار بحيث ينتشر كل دخانك في وجهي؟».

أو:

تقول: «ألا تستطيع أن تقود السيارة بطريقة لا أكاد معها أن أموت من الخوف؟، أليس هذا ممكناً؟».

أو:

تقول: «سفوب، لا تكثر من الأكل إلى هذا القدر».

أو:

«تقول: «سفوب، أنظر إلى أظافر أصابعك. ما هذا؟ لا زلت أرجوك منذ ست سنوات»

أو:

«هل أخذت مفتاحي من جديد؟».

فيسأل: «أنا، كيف؟»

«لا أجده»

فيجده هو.

وتقول: «اعذرني، لقد نسيت ذلك، لا أستطيع أيضاً أن أتذكر كل شيء، اعذرني أرجوك!».

أو:

تقول: «اعذرني، سبق أن قلت لك صباح الخير، لكنك لم تسمع ذلك»

أو:

تقول: «سفوب، أنا أفعل كل ما تريد».

الخ.

صحيح أن لِيلى تفعل كل ما يريده سفوبودا، حتى أن السفرة الصيفية إلى شاطئ البحر تمت تلبية لرغبته...

ماذا يتوقع سفوبودا من هذه السفرة.؟

«أسلوب عائلي:»

أستلقي على شاطئ البحر وأنا منهمك بقراءة جريدة أجنبية، وحيداً وسط أناس غرباء في ظهيرة يوم حار، جو مروع، مظلات تقي من الشمس، في الجهة اليسرى يترنم راديو وفي الجهة اليمنى يستلقي زوجان لا يتكلمان مع بعضهما بعضاً: - بالطبع ليسا سفوب ولِيلى، بل زوجان لا على التعيين!... الرجل يجلس في الرمل الساخن ويمسح كتفيه بزيت الشمس؛ والمرأة تستلقي على بطنها مفترشة قطعة من القماش وقد أدارت وجهها جانباً. من حين لآخر أذهب للسباحة حيث أكاد غرق تقريباً. - وعندما عدت ذات مرة إلى مكاني على الشاطئ لم أجد الزوجين الصامتين ولم يبق في مكانهما سوى أمتعتهما الملونة. يبدو أن الرجل قد أفلح في تحريك المرأة؛ وهما يلعبان الآن بكرة خفيفة بحيث تستطيع الريح أن تحول مسيرتها فتتدحرج الكرة باتجاهي وتستقر عندي. فأعيدها إلى صاحبيها. وتشكرني السيدة (بالإيطالية) وقد بدا على وجهها مرح ممزوج برقة ولطف بحيث يكاد يتعذر على المرء أن يعرفها ثانية. إنها في حقيقة الأمر امرأة جديرة بأن يُنظر إليها. على الأقل في هذه اللحظة حيث تسترعي انتباه رجل إذ تظهر بمظهر فتاة شابة على وجه التقريب؛ فقد أرجحت شعرها المسترسل على نقرتها يمنة ويسرة بقصد أن أراه ووثبت كما تثب البنات، أما طريقة رميها الكرة: حتى الآن كانت ترمي الكرة بتثاقل ينم عن تعب، وفجأة صارت ترميها بتثاقل يظهر رشاقة مثيرة. ليست متعبة البتة، بل مجرد متجهمة في الاتجاه الآخر. إنها في الحقيقة امرأة لطيفة وجذابة أو ما قد يسميه المرء خفة الروح بالذات. ليت الرجل الذي معها غير موجود! صحيح أنه يرمي كرة المهرج بعناية فائقة لكي تستطيع السيدة أن تمسك بها كما أمسكتها حين رميتها أنا باتجاهها، لكن دون جدوى؛ وهي لا تعير الأمر اهتماماً كبيراً بل تهز شعرها الجدير بأن يُنظر إليه بشغف حين يرمي هو تلك الكرة ثم تتدحرج الكرة بعد ذلك باتجاه البحر، الأمر الذي يدفعها إلى التجهم والتبرم. ولكي لا أزعج الزوجين بمراقبتي لعبتهما فقد وجهت نظري إلى الأمام بخط مستقيم: في الأفق كنت أرى دخاناً يتصاعد من سفينة شحن سوداء، وكان البحر شبيهاً

بالورق المفضض والشمس تسطع بيضاء اللون فوق الشاطئ المتبخر. وحين عادا بعد قليل إلى مكانهما، وكلاهما يلوذ بالصمت، كانت السيدة تعرج؛ كانت حركتها حين جلست تشير بوضوح إلى أنه هو وحده من يتحمل وزر ذلك. من غيره أجبرها على لعب الكرة؟ استلقيت على ظهري وأغمضت عيني وصرت أسمع:

«طبعاً أشعر بألم!»

وفي ما بعد:

«ماذا تفعل بالمظلة؟»

«أصنع ظلالاً».

قالت: «أنا أرتجف من البرد، اعذرني!»

وفي ما بعد:

قالت: «يا عزيزي، لو تكرمت بمناولتي زيت الشمس ومسح ظهري به لكن بطريقة لا تؤلمني» ثم قالت:

«تباً ليديك الثقيلتين! أو!»

وفي ما بعد:

قالت: «لا تغضب مني إذا قلت لك إن دخانك كله هو الآن من جديد في وجهي، طيلة الوقت».

وفي ما بعد:

قالت: «أرجوك، ألا يمكنك أن تنتبه؟» ربما أنه لا يعلم ما الأمر، قالت: «تقذفني دائماً بالرمل»، وحين أكد على أنه ما من أحد آخر يزعج السيدة المستلقية غير الريح وحين أراد أن ينفخ الرمل اللعين عن كتفها، قالت: دع عنك، لماذا لا تذهب إلى السباحة؟».

باعتباره شخصاً محايداً، حين يسمع سفوبودا كلمات متقطعة كهذه، يعرف أيضاً أن النقطة الخفية التي يحين فيها موعد الوداع بينهما لم يتم الوصول إليها فحسب، بل تم تجاوزها، نقطة اللا عودة، والأمر لم يعد يتعلق إلا بتحديد من منهما سوف يقدم على تنفيذ الوداع لكي لا يعاني منه، وكلا الطرفين لا يزال يترقب الدافع إلى الغضب الشديد فحسب الذي من شأنه أن يمكن من إضفاء الأهلية والمقدرة على التصرف؛ إنهما يعرفان ذلك؛ والحب، الذي حان وداعه، لم يعد كافياً للطرفين للإقلاع عن سبرغور الطرف الآخر.

خبر جديد:

سفوبودا يريد أن يرى ايندرلين ويتحدث إليه!... لا أعرف كيف يتصور سفوبودا ذلك، وحين أخبرتني لِيلى عن هذا الموضوع مسحتُ فمي بيدي بكل بطء وتثاقل. تُرى عم سيتحدثان؟ سفوبودا يقترح: يوم الخميس أو الجمعة أو السبت. بالطبع أنا على استعداد لذلك إكراماً لِليلى، لكن يوم الخميس غير وارد في الحسبان بتاتاً بالنسبة إلي، فأنا في نهاية المطاف أعمل في هذا اليوم ممارساً مهنتي، الأمر الذي تفهمه لِيلى. لِيلى هي ضد الفكرة من أساسها، الأمر الذي أفهمه أنا أيضاً؛ فهي لا ترغب بأن ترى سفوبودا وايندرلين جنباً إلى جنب. تُرى ماذا يتوقع سفوبودا من لقاء كهذا بوجه عام؟ قيل إنه لا يستطيع أن يعيش مع شبح. يؤسفني أن أضحك من هذا القول. فلقاؤنا الثلاثي لن يكون حتى مربكاً، بل مجرد لقاء شاق وفي كل الأحوال عديم الجدوى. إنني أشفق على سفوبودا. وإذا رفضتُ اللقاء بكل وضوح فربما تكون لِيلى ممتنة من ذلك؛ لكن هذا غير وارد، إذ أظهر عندئذٍ بمظهر

المتهرب. حسناً إذن! لكن يخطر ببالي الآن أنني في يوم الجمعة أيضاً لا أستطيع للأسف حضور اللقاء المزمع. وهذا ليس تهرباً. لكنني أبدي استعدادي إذن، وإذا ما أصر سفوبودا حتى ذلك الحين على ذلك فعلاً، حسناً، سوف أحضر ربما لتناول بعض المقبلات. لماذا لا بد من تناول عشاء كامل؟ لن يكون عندي الكثير مما أقوله له؛ أحب زوجته، هذا صحيح. فلماذا يتظاهر بأنه لا يعرف هذه الحقيقة ويريد أن أقول له ذلك؟ يمكنني ببساطة أن أتصور ما سيقوله هو، ومهما كان رزيناً، متنوراً ومحافظاً على كرامته في حديثه ومتمتعاً بروح الزمالة أيضاً فإن ذلك كله لن يغير شيئاً من حقيقة أن زوجته تحب في هذه الفترة من حياتها رجلاً آخر. هذا هو الوضع الآن. أعتقد بالفعل أن المقبلات كافية. وأفضل أن يتم اللقاء في أحد البارات، لكنني أتفهم: ينبغي عليّ أن أرى المنزل الذي يجمع سفوبودا ولِيلى، كما لو أنني لا أعرفه. حسناً. لنقل إذن الموعد هو يوم السبت في الساعة السادسة مساءً، سوف أحضر. سفوبودا يعد لنا كأسين من الويسكي في البار، الذي أعرفه، ويسكي مع مكعبات جليدية أو مع الصودا، حسب الرغبة، بينما يشرب هو ذاته مياهاً معدنية. ربما لن يفهم سفوبودا ما الذي يجعل لِيلى تتعلق بي _

لم يكن ارتطام الأمواج بالشاطئ عاصفاً إلى درجة كبيرة، موجتان أو ثلاث بعلو رجل قبل التحول إلى زبد وصخب، وبعد ذلك، بعد أن غطّست الموجات وأصبح هديرها ورائي، أمواج بدون زبد، كبيرة وزلقة، سباحة ممتعة، بدون عراك موجة وراء موجة إلى الأعلى وإلى الأسفل ثم إلى الأعلى من جديد، وتبدأ أحياناً قمة مستديرة بالتجعد لكن دون أن تتقلب، سباحة يسيرة، موجة، خضراء بلون زجاجات البيرة، وأشعة الشمس تتلألأ على شكل كشكشة تصدر هميساً خفيفاً، لو لم أكن وحيداً لزغردت، انخفاضات الأمواج بعد ذلك تبدو ملساء وبلون أسود مائل إلى الزرقة كالحبر مع نماذج بيضاء من الرغوة. وذات مرة بلعتُ بعض الماء. كنت السباح الوحيد في ذلك المكان، ومن ورائي يهدر تلاطم الأمواج هديراً مقبضاً بينما يخيم الهدوء

والسكينة في الخارج، وقت الظهيرة، الشمس التي تخطف الأبصار: لكن كما في سماء ليلية بنفسجية اللون. من حين لآخر، حين كانت إحدى الموجات ترفعني إلى الأعلى، كنت أرى من بعيد سفينة شحن في الأفق، وعلى الجهة الخلفية الشاطئَ المنبسطَ بشمسيته المتعددة الألوان غير بعيد عني لكنه في ما وراء تلاطم الأمواج، والراية الصفراء ترفرف على سارية وفوق الأمواج القارة باتجاه اليابسة، حين تتكسر خلف زبدها ترى الأرض والجبال خلف أبخرة بيضاء كالحليب، زهرية... حين عدتُ سباحةً إلى الضفة، ولم أكن متعباً أبداً، بالكاد قطعتُ مسافة ثلاثين متراً فحسب وكلي أمل في أن أستطيع التوقف عن السباحة: لكنني فوجئت بانعدام القاع من تحتي وبدلاً من ذلك كانت ثمة كتلة من طحالب بنية وسوداء بحيث كان لا بد من متابعة السباحة والآن تجتاحني الأمواج التي غطّستني في الماء ولم تستمر في حملي، أنا الآن في وسط الأمواج دون أن أجد قاعاً أقف عليه وأصارع بكل قواي الجسدية دون أن أستطيع مقاومةِ تيار الماء المتدفقِ إلى الوراء. فقدتُ أنفاسي من الخوف، لكن لم أنشا بعد أن أصدق ما أنا فيه ولا أن استغيثَ على بعد ثلاثين متراً من الشاطئ المليء بالشمسيات. ولن يسمع ذلك أحد. لم أكد أستعيد أنفاسي حتى ضربتي الموجة التالية. تابعتُ المقاومة وأنا على وعي بأن أمري انتهى، في حقيقة الأمر لم أفاجأ، لا بد وأن يحدث ذلك ذات مرة، لماذا هنا، لماذا على هذه الشاكلة، لماذا الآن، الوعي بأن كل شيء قد انتهى الآن، الوعي بشيء مضحك، لم أعد أقاوم سوى هذا الشيء المضحك إلى أن غادرني الوعي- فجأة أحسست بالرمل تحت قدمي... وحين خضت المسافة المتبقية للوصول إلى الشاطئ سباحةً، اعتراني الخجل. مع أنه لم يرني آنذاك أحد. على ضفاف الشاطئ، ربما يراني الناس الآن، تظاهرت بأنني أبحث عن أصداف. لكي لا أظهر إعيائي. بعد ذلك كان لا بد لي من الجلوس. مسحتُ جسدي بالزيت ونظرت إلى البحر والشمس، في الأفق تراءت سفينة الشحن ذات الدخان المتصاعد في الجو، ظهيرة صاحية كأية ظهيرة أخرى. حاولتُ أن أفكر: لو أنني غرقت؟ فلم يخطر ببالي أي شيء قد يتعلق بهذا التصور...

مسحتُ جسدي بالزّيت بعناية، الكتفين وبطني الساقين، الفخذين أيضاً والصدر والجبين والذراعين وبطني الساقين مرة أخرى؛ في الجهة اليسرى ترنم مذياع وفي الجهة اليمنى استلقى الزوجان الإيطاليان، اللذان كانا يلعبان بكرة - المهرّج وقد ضاقا ذرعاً بالملل، «أسلوب عائلي».

قصة من أجل كاميلا:

عن رجل عقد العزم باستمرار على أن يغير نمط حياته، وبالطبع لم يفلح في ذلك أبداً... وحين عاد من جديد إلى وطنه بالطائرة، لم يعد ينظر إلى خارج الطائرة، لم يعد ينظر إلى خارج الطائرة حين كانت واقفة في العراء على مدرج المطار بانتظار الانطلاق، كان فتح جريدته التي هي جريدة صباحية تصدر في وطنه وكان اشتراها في المطار الأجنبي، طبيعي أنها كانت قديمة بعض الشيء، قرأ صدفة إعلان وفاته هو شخصياً. لم يسبق أن أخبره أحد عن هذه الوفاة؛ وما من أحد كان يعلم شيئاً عن مكان تواجده في هذه الأيام، وحتى زوجته لم تعرف شيئاً عن هذا الموضوع. أما هو ذاته فلم يكد يكمل قراءة إعلان وفاته على صفحات الجريدة حتى وجه نظره الآن إلى خارج النافذة المستديرة؛ لكن نزوله من الطائرة لم يعد أمراً وارداً في الحسبان، كان مدرج المطار في تلك اللحظة يمر بسرعة أمام ناظريه، والآن ارتفعت الطائرة لتوها عن الأرض وأخذت تصعد تدريجياً إلى الأعلى. كان لا يزال يرى مروجاً ومزارع من الأعلى وغابة صنوبر تتخللها شوارع، وعربة تجرها خيول تسير في أحد الشوارع، ويرى بعد ذلك محطة قطارات مع سكك حديدية لكن ما لبثت هذه المحطة أن بدت كلعبة أطفال. ثم تمر الطائرة بمنطقة من الضباب. ولحسن حظه أنه ما من أحد كان يجلس بجانبه؛ وإلا لما جرؤ مرة أخرى على تصفح الجريدة الصباحية. ليس الاسم فحسب، الذي أحيط بإطار أسود، كان اسمه بالتمام والكمال، بل وأسماء أهل المتوفى كانت كلها صحيحة. يبدو أن لونه أمتقع بالرغم من تزوده بمعرفة أفضل. ابتسمت المضيفة حين سألته عما يمكنها أن تفعل من أجله ثم انهمكت بإغلاق

منفث الهواء الموجود فوقه. فطلب إذ ذاك عصير الفاكهة. جريدة الصباح التي بيده كانت صدرت أول أمس وقد أعلن فيها عن وفاته ثلاث مرات كما لو أنه أريدَ من ذلك إزالة أي شك: مرة باسم العائلة وأخرى باسم مجلس الإدارة وثالثة باسم نقابة مهنية. ولم يرد ذكر للرب إلا في إعلان العائلة، بينما كانت كل الإعلانات مجمعة على أن سبب الوفاة حادث مأساوي. ولم يكن في جريدة الصباح تلك معلومات أكثر تفصيلاً ودقة مهما كرر قراءته فيها وهو يشرب عصير الفاكهة الذي قدم إليه. ربما، كان حدث من قبل ذات مرة، أقدم أحد المتسكعين على سرقة سيارته لكي يصطدم في هذه المرة بشاحنة وقود ويحترق إلى درجة تعذر معها التعرف على جثته. موعد الدفن هو هذا اليوم. وذلك يعني أن الرجل سوف يتمكن، في حال لم تتأخر الطائرة، من حضور عملية دفنه-

لم يسبق أن طارت طائرة نفاثة بهذا البطء.

ربما حاول في أثناء طيرانه فوق الغيوم المزدانة بأشعة الشمس أن يمعن التفكير بالحياة التي عاشها في هذه المعمورة؛ لكن لم يفلح في ذلك، وحين قامت المضيفة المبتسمة دائماً بإحضار الصينية، اكتفى الرجل بهز رأسه؛ لم يكن قادراً على الأكل وفي الحقيقة لم يكن قادراً أيضاً على التفكير، بل كان ينظر المرء تلو الأخرى إلى ساعته – في حين كانت الأرملة تسحب الآن حجابها الأسود على وجهها الباكي...

وأخيراً نعق مكبر الصوت.

«ممنوع التدخين».

الطائرة، وهي تهتز بفعل هبات الريح المفاجئة بحيث صارت أجنحتها تتأرجح في مهب الريح، كانت لا تزال تدور في الضباب لمدة عشرين دقيقة على الأقل؛ فاعتراه الخوف لأول مرة.

وكما توقع:

سيارته لم تعد ببساطة موجودة في مكانها؛ وحين أبرز لحارس المكان، الذي تركن فيه السيارات، بطاقته المتعلقة بتوقيف السيارة هناك، لم يستطع هذا أن يغير من الأمر شيئاً بل حوّله إلى الشرطة-

فاستقل تكسي.

دون أن يخلِّص أمتعته.

كان أول الذين وصلوا إلى المقبرة؛ بالطبع كان اتصل هاتفياً بالمنزل لدى هبوطه من الطائرة، لكن دون جدوى لأن المحزونين كانوا في طريقهم إلى هناك. لم يكن أحد في المقبرة ما عدا حدائقي منهمك في تكنيس أوراق الشجر الذابلة. أما صاحبنا فقد انشغل بقراءة ما كُتِب على أشرطة الأكاليل. كان يوماً ممطراً. ربما كانت هناك أشرطة معينة لم يجدها لأنها ربما وُضعت في داخل التابوت؛ إلا أنه لم يجرؤ على الدخول إلى مكان حرق الجثث لكي يتأكد من ذلك وخاصة أنه كان يرتدي معطفاً للمطر فاتح اللون. كان يرغب بالطبع في أن يوضح الالتباس الحاصل. ألم يكن ذلك واجبه؟ وحين سأله أحد الحراس عن اسم المتوفى، أبعد غليونه عن فمه وقد بدت عليه الحيرة وازداد اضطرابه وارتباكه أكثر فأكثر وإذا بالعربات الأولى تمر من أمامه بعد ذلك بهنيهة قصيرة. فاختبأ وراء شجرة سرو كما لو أنه مقطوع الصلة بهذا المكان، واعتراه التأثر والحزن بعض الشيء كان الجميع يرتدون ثياباً سوداء، وكانوا يمشون ببطء وتثاقل في مجموعات صامتة أو أفراداً، لقد أتى أناس كثيرون ولم يكن على معرفة ببعضهم، أناس يمثلون في أغلب الظن رابطة أو شركة وأطفال أيضاً من الجوار وأصدقاء لم يعد يراهم منذ فترة طويلة، كلهم بثياب سوداء في حين كان يقف صاحبنا، وهو الوحيد المرتدي معطف مطر فاتح اللون، خلف شجرة من السرو وغليونه في يده. لقد ضيع اللحظة التي أتاحت له فرصة التقدم إلى الأمام والالتحاق بالركب. كانوا أعداداً كبيرة

وبعضهم أتى من مكان بعيد. وهو لم يكن بحاجة إلى أن يختبئ عنهم إلى هذا القدر طالما أن الجميع، حين كانوا يمرون فوق الحصى الذي يصدر صوتاً شبهاً بالصرير، كانوا ينظرون إلى الأرض، المحزونون منهم وأولئك الذين يتظاهرون بالحزن. أولئك الذين يعرفون بعضهم بعضاً اكتفوا بإيماءة رأس حبيسة. ولم يدخن أحد، طبعاً لا، بحيث اضطر هو أيضاً إلى أن يدس غليونه المنطفئ في جيبه. كان ذلك تصرفاً سيئاً؛ لأنه اعترف بذلك بعملية التأبين والدفن حتى قبل أن تصل الأرملة المتحجبة ولم يكن بمقدوره ألا أن يرى كيف تسير الأمور وهو عاجز عن فعل أي شيء. لكن زال التأثر، الذي كان تسلل إليه لدى قراءته ما كان مكتوباً على شرائط الأكاليل؛ والآن كان يحسب بأن كل ما في الأمر هو عبارة عن مؤامرة تحاك ضده. أتت الأرملة، كما كان متوقعاً، حجاب أسود ومتكئة على صهرين لها كانا يمشيان بقامة منتصبة وبطريقة تنم عن رزانة ووقار ويقيانها من رد التحيات بأن نابا عنها من خلال ايماءة رأس خاطفة بهذا الاتجاه أو ذاك. ولم تكن تسمع شيئاً غير صرير عجلات العربات فوق الحصى إضافة إلى خبط بواب العربات عند إغلاقها ويتخلل ذلك سقوط قطرات المطر من أعلى شجرات السرو. والآن أن يتقدم المرء إلى الأمام وهو مرتدٍ معطفاً فاتح اللون مخصصاً للمطر، تُرى من يجرؤ على فعل ذلك؟ بعد ذلك بقليل كنت تسمع صوت الأرغن. في الحقيقة لم يبق للرجل خيار آخر غير أن يتبع الركب باعتباره آخر الناس فيه، طالما لم يعد ممكناً إيقاف الحدث الجاري على قدم وساق: أن يتبع الركب باعتباره لا ينظر الناس إلى ما حولهم حين يكونون جالسين على المقاعد في المكان المخصص لحرق جثث الموتى، ووفي هذه الحالة يمكن لصاحبنا، المفترض أنه هو المتوفى، أن يقف على الباب إذا ما أبدى شيئاً من الاتزان والهدوء في تصرفاته. ولكي يقدم على ذلك كان ينتظر الآن وصول آخر الوافدين. كان من شأن مجموع العربات والأرغن أن زعزعا فيه ثبات جأشه؛ الأرغن بالدرجة الأولى. كانت أعداد الوافدين في ازدياد مستمر، بالفعل أكثر مما توافر من أمكنة للجلوس؛ وكان لا بد لبعضهم من الوقوف بالباب،

ماسكين قبعاتهم بأيديهم، وحتى خارج الباب أيضاً. إذن لم يتسن لصاحبنا الوقوف بالباب كما كان يدور في خلده؛ كان لا بد من أن يروه لو أنه تدافع عبر الباب لكي يسمع خطبة التأبين. الآن لاذ الأرغن بالصمت. أما هو فلم يسمع سوى سقوط قطرات المطر من شجرة السرو، والآن عاد إلى وضع الغليون في فمه لكن دون أن يدخن وكان محتاراً في ما ينبغي أن يفعل في مثل هذه الحالة. هل يذهب إلى السينما أم إلى البيت؟ وسأل أحد السائقين إلى أين ستذهب جماعة المحزونين في ما بعد ثم مضى وشأنه سيراً على الأقدام، يداه في جيبتي بنطاله، باعتباره واحداً من الناس صار في تصرفه فجأة وقت زائد على اللزوم، متسكعاً وعاطلاً عن العمل، بينما تلا عليه في تلك الأثناء قسيس، لم يسبق له أن عرفه من قبل، سيرته الذاتية؛ رجل يرتدي معطفاً مخصصاً للمطر، فاتح اللون. وذات مرة ظل واقفاً؛ وأخذ يتفرج على صبيان كانوا يلعبون كرة القدم بين حدائق صغيرة وضيقة ثم انتظر كرة طائشة قد تطير إليه من فوق السياج. سوف يجنبه هذا المنظر، منظر لعبة بكرة القدم في يوم دفنه. لكن ما من كرة أتت إليه، ولدى متابعته تسكعه صدف أن ركل بقدمه علبة معلبات فارغة بحيث طارت كما تطير كرة قدم ثم تدحرجت في منحدر من الأرض محدثة صوتاً مقرقعاً بينما كان جماعة المحزونين يتذكرون مناقبه وهم خاشعون منكسو الرؤوس والأرغن يسهم من جديد في جبران خاطرهم. لقد سره إلى حد ما أنه لم يكن مضطراً إلى سماع سيرته الذاتية وأزعجته حقيقة أنه لم يستطع أن يقول شيئاً بهذا الصدد. والآن وقف في المطعم الذي تنوي جماعة المحزونين أن تجتمع فيه في ما بعد وشرب كأساً من كونياك الكرابا ثم كأساً من البيرة وكأساً ثانية من الكرابا دون أن يخلع معطفه. حانة غريبة لا مثيل لها، في رأيه، مقهى ذو طابع بلدي. وقد خصص فيه الطابق العلوي لمأدبة الجنازة. انقضت فترة طويلة إلى أن أحرق جسد المتسكع وأصبح رماداً. تحت اسمه هو. إن ما خطر بباله دائماً، على سبيل المثال أن بإمكانه الجلوس في الطابق العلوي حين تأتي جماعة المحزونين، لم يكن مرده مراعاة الأرملة التي كانت كابدت بالفعل الكثير من

هذه الأيام الثلاثة الأخيرة. وهو ذاته أيضاً لم يكن بصريح العبارة معتدل المزاج في تلك الأثناء. بل كان فعلاً في حيرة من أمره. وأغلب الظن أنه لام نفسه لأنه لم يقل شيئاً عن سفرته الجوية وطلب كأساً أخرى من كونياك الكرابا، تصفح بعض جرائد اليوم، إلا أنه لم يجد فيها نعياً، بديهي أن تتبدل الجرائد من يوم لآخر. حين صعد أولئك الناس، الذين كانوا لا يزالون في نظر الآخرين مؤبنين محزونين، على السلّم في مجموعات مهنية وعائلية أو في تشكيلات مختلفة من غير قصد اقتضتها دواعي المناسبة الحزينة، كانوا يتحدثون بأصوات معتادة لكن قليلاً. وقد أراد كل منهم أن يمسك الباب لكي يدخل الآخرون. ومن المؤكد أنه كان بينهم أيضاً صديقان أو ثلاثة أصدقاء فعليين كان يحلو لصاحبنا لو وفر عليهم نفقات هذه المأدبة الجنائزية، هذا لالتزام المشؤوم الذي يحسون بوجوب تحملهم عناءه لا إكراماً للرجل بل إكراماً لأسرته. لماذا لم يأتوا إلى الطابق السفلي! أحزنه ذلك. وحين ذهب في ما بعد – على ما يبدو كان ثملاً– إلى صندوق الأغاني لكي يطلق منه أغنية صاخبة، لم يطل الأمر حتى نزلِ صاحب المطعم – وكان مرتدياً ثياباً سوداء أيضاً– إلى الطابق السفلي لكي يرجر الرجل ويؤنبه، أمر له بالطبع ما يبرره. لكن بعد تشغيل صندوق الأغاني تعذر إيقائه؛ فكان لا بد إذن من سماع الأغنية إلى نهايتها. ماذا كان يجري في الطابق العلوي، لقد تصور سير الأمور كالتالي؛ بكل مهابة ووقار، ثمة طاولة بشكل نعل الفرس، الأرملة الآن بدون حجاب، لكنها منهكة من البكاء، طعام سريع وبسيط، شرائح من فخذ الخنزير وبيرة من نوع كليفنر، إضافة إلى ذكريات شخصية. بعض الحاضرين افتقد الرجل وبدورهم افتقده آخرون اسماً أكثر مما افتقدوه فعلاً. وثمة امرأة لن تتصالح معه حتى ولو في الذكرى لم تُبد بالتأكيد أية مشاركة وذلك أمر غمره بشيء من الارتياح، بوجه عام لم يكن للجماعة القابعة هناك في الطابق العلوي ثمة علاقة يعتد بها بحياته، فكان ذلك سيان عنده، وبالتالي نظر إلى الأمر باكتراث أقل مما جاز النظر إليه في أثناء حياته. وحين اضطر إلى الذهاب إلى التواليت الموجودة في الطابق العلوي لم يكن لحسن

حظه أحد في الممر. كان لا بد له من أن يتقيأ. وحين أتى أحد الناس، كان بابه قد قفل. ابتعد المحزون عن الباب. وفجأة أحس بالبؤس الشديد ذلك الرجل القابع خلف الباب الموصد وخشي من أنه لن يستطيع فتح الباب، إلا أنه لم يشأ أن ينادي على أحد. من المؤكد أن الجماعة كانوا الآن يدردشون في الصالة في جو طبيعي، الأرملة وحدها هي التي كانت تلوذ بالصمت، الأمر الذي تفهمه كل الناس لكنه أثر سلباً على جو المكان ومزاج الحاضرين. وذات مرة سمع الرجل أصواتاً في الخارج بالممر، كان ثمة رجلان يقفان جنباً إلى جنب أمام حوض الماء ويتحدثان عن أعمال تتعلق بالمهنة، الأمر الذي أثار أيضاً اهتمام الرجل القابع خلف الباب، وقد قاما بغسل أيديهما بالتفصيل وتنشيفها بالتفصيل لكي يستطيعا متابعة حديثهما عن المهنة، ورويت أخيراً نكتة وهما على عتبة الباب – لا عن المتوفى، ذلك أمر بديهي، بل عن أمر بعيد عنه كل البعد... فرح الرجل بالنكتة بالرغم من أنه كان يعرفها. والآن كان بإمكانه الدخول إلى الصالة: الحياة مستمرة. وفي الصالة توافر الآن الجو الملائم لاستمرارها. لكن الرجل كان تعيساً إلى درجة لا قبل لها بها، للأسف، ولم يبق له من خيار آخر سوى الشارع، حيث كان المطر يهطل بغزارة.

كانت أمتعته ما تزال في المطار.

وهكذا شعر بمطلق الحرية.

وعند منتصف الليل، بعد أن نام في صالة انتظار وغدا صاحياً ومستقيماً، اعتراه الحزن من جديد، مشرد في موطن الآباء والأجداد، هذا وضع يثقل الأعصاب. صحيح أنه كان يستطيع الذهاب إلى فندق ليبيت فيه، في غرفة مع حمام؛ بدون أمتعة، لكن في حوزته مال. وفي حوزته جواز سفر. اعتراه الخجل كما لو أن كل بواب كان يعرف من هو الرجل الذي حرقت جثته في هذا اليوم إلى أن أصبحت رماداً. دور السينما كانت مغلقة في ذلك الوقت. وهكذا قرفص على مقعد في مكان عام بدون قبعة وتحت المطر،

منهكاً، مرتعداً من البرد، وببطء دب في أوصاله السرور بأنه حي يرزق، وفجأة أحس باستعداد لأن يحتفل بعيد، أجل، بعيد معربد تماماً. لكن مع من؟ لقد اكتشف وهو وحيد في المطر بدون قبعة - بعد أن كان رفض بكل لباقة دعوة سيدة من بنات الشوارع - أن القلة القليلة من الناس الذين يردون بعد هذا اليوم في الحسبان باعتبارهم أصدقاء له، كان أهملهم وقاطعهم فترة طويلة من الزمن ولا يصح الآن بعيد منتصف الليل أن يقتحم عليهم بيوتهم كشبح خارج من القبر. ربما كان ذلك مدعاة لسرور الواحد منهم أو الآخر. لقد تذكرهم وهو يشعر بالندم. لكن الندم لم يكن مكاناً ملائماً لبقاء المرء جالساً متقاعساً، فكان لا بد إذن من حدوث شيء. وحين دخل في النهاية إلى كابينة هاتف واتصل ببيته، لم يرفع أحد هناك سماعة الهاتف؛ وربما كانت الأرملة نائمة عند أبناء حماته، يعني عند أخوتها الذين لم يكونوا في يوم من الأيام يطيقون هذا الصهر. ولا يمكن أن يُلاموا في ذلك. فالرجل، الذي يرتدي معطفاً فاتح اللون ومخصصاً للمطر ويقف الآن في كابينة هاتف للعموم، لم يكن يوماً على وفاق أو انسجام مع العائلة؛ وكان هو ذاته على معرفة بذلك. ولم يستطيعوا هم أبداً فهمَ هذا الزواج فهماً تاماً. وفي غمرة حزنهم وتأثرهم على فجيعة أختهم - الانهيار الفعلي في معظم الحالات لا يحدث إلا بعد الدفن- ربما لم يقولوا الآن أيضاً شيئاً عن نظرتهم إلى هذا الموضوع طيلة كل الأعوام المنصرمة، بل عملوا على مواساة المفجوعة، أختهم. ولحسن الحظ لم يسفر هذا الزواج عن أطفال. لقد واسوا المفجوعة من خلال فهمهم وضعها؛ فلم يعترضوا حين كانت تنتحب وتجهش بالبكاء وتنتحب وتتحدث كالراهبة البرتغالية: تتحدث لا عنه بل عن حبها...

على كل حال لم يرفع أحد سماعة الهاتف في بيته.

الرجل المرتدي معطفاً مطرياً فاتح اللون، حين علق السماعة أخيراً في مكانها من الهاتف وأعاد قطعة النقود التي سقطت من علبة الهاتف إلى جيبه، تأكد من وجود مفتاح البيت معه فاستقل سيارة أجرة وذهب إلى بيته. أراد أن

ينام هناك. كان المنزل مظلماً؛ فأشعل النور ووقف هناك... كـان الوضـع مضحكاً ومثيراً للسخرية: - فناجين الشاي السبعة على الطاولة، التي شكلت تقوية لهم قبل الدفن؛ إضافة إلى الزهور في كل مكان، علبة مليئة ببطاقـات التعزية ورسائل ذات كنار أسود. قرأ الرجل بعض هذه الرسائل برأس مائلة إلى الجانب دون أن يجلس. واحد من الناس نسي قبعته المستديرة السوداء. ما عدا ذلك كان كل شيء على حاله في ذلك البيت ما عدا الدروج المفتوحة؛ فقد أحتاج الأمر إلى وثائق، ذلك أمر بديهي، فبحـث النـاس عـن وصـية ووجدوها. لكي يُترك الحديث في ما بعد لقسيس بالرغم مـن ذلـك. حـسناً. وأشعل الرجل النور في غرفة النوم: السرير المزدوج، حجابها الأسود فوقه. وأطفأ النور. كانت قطة تنام في سلتها هي الكائن الوحيد في المنزل. أشـعل النور في المطبخ وتناول كأساً من الخزانة فملأه بالماء وشرب وملأه ثانيـة. ومن جديد في غرفة الجلوس، كأسه في يده، نظر مرة أخرى إلى ما حولـه دون أن يخلع معطفه المطري، يده الأخرى في جيبه بنطاله، لئلا ينشغل فـي حاجياته الخاصة التي أُخرجت من درج الطاولـة: حزمـة مـن الرسـائل، وصولات، وسام رياضي من فترة سابقة، وصولات ضرائب، بوليصة تأمين ضد الحوادث، صور، وثيقة شرف. أمتعة قديمة. وفي غمرة اندهاشه من كل هذه الوثائق المكرسة لصالح مجهود عفا عليه الزمن فجأة، شـرب صـاحبنا ماءه وهو مندهش بطريقة مريحة. وإذ تسللت القطة-التي كانت استيقظت في غضون ذلك- إلى الغرفة، اعتراه الخوف؛ وبعد ذلك ضحك قلـيلاً وأعطـى القطة قطعة من البسكويت كانت ملقاة على طاولة الشاي التي تخص الـسيدة المفجوعة. لم يبق في المنزل فترة طويلة، فليس ثمة ما يفعله هناك وبدا له أنه لا يجوز له أن يلمس أي شيء. لكنه حين رأى سبعة غلايين في كوب مـن القصدير، لم يستطع التغاضي عنها بل اختار أفضلها ودسه في جيبه معطفـه ثم أخرج منها ذلك الغليون الذي كان فيها حتى ذلك الحين ودسه بالمقابل في كوب القصدير. بذلك حلت المشكلة. ثم ألقى مرة أخرى نظرة شاملة على كل شيء وأطفأ النور. في ردهة الدرج ظن أنه سمع شيئاً فاختبأ فوراً في ركـن

ناءٍ وحبس أنفاسه لفترة. خطوات صاعدة على الدرج! لكنه سمع بعد ذلك خبطة باب في الطابق السفلي، ثم ساد الصمت والهدوء. وكعاشق يمشي على رؤوس أصابع قدميه، ويعتريه القلق من كل تزييك يصدر من الدرج، فقد وصل إلى باب المنزل دون أن يراه أحد، وفتحه بحذر. وتوقف المطر عن الهطول. فرفع قبعة معطفه المطري إلى الأعلى ورفع نظره إلى أعلى الواجهة وذهب- وما عدا أنه كان نسي الضوء شاغلاً في المطبخ، فإنه لم يترك أي أثر آخر؛ وكأس الماء التي أبقاها على طاولة الكتابة لم تكن ملفتة للانتباه؛ ومفتاح المنزل الخاص به كان في صندوق البريد، الأمر الذي بقي غامضاً حتى الآن...

سفوبودا لا يزال يشغلني.

(- لأنني أسأتُ إليه. فلا يمكن للمرء أن يتصور إنساناً من زاوية علاقة بالجنس الأخر فحسب، إنساناً رجلاً على وجه الخصوص؛ إن معظم الوقت من حياتنا نقضيه في العمل).

أتخيل:

سفوبودا في سترة عمل بيضاء اللون. والرسامان اللذان يعملان تحت إشرافه لم يلاحظا عليه شيئاً غير عادي. سفوبودا ككل صباح. يجلس ويداه المكسوتان بالشعر ترتكزان يسرة ويمنة على زاويتي الطاولة المخصصة للرسم، غارقاً في التفكير، بينما يقف الموظفان بجانبه إلى اليسار وإلى اليمين وينتظران حكمه على عملهما. يبدو أن شيئاً ما لا يعجبه؛ ربما أنه تناسب، لا يتيقن من ذلك على الفور بل يتناول أداة للقياس، يقيس، يلوذ بالصمت، يرى ثم يؤكد: هذا غير صحيح. أمر مؤسف. سفوبودا ليس مستاءً، بل غارقاً في التفكير: لا بد من فكرة. فكرة أخرى. إذن غارق في التفكير، لكن دون تأنيب أو لوم؛ وفي النهاية كانت تلك هي فكرته وما رُسم بدقة وعناية بقلم جامد وطبقاً للقياسات بمقاطع أفقية وعمودية لا يتعدى كونه تنفيذاً لها. على

هذه الشاكلة لا يصح الأمر. ومع ذلك فهي وجهة نظر. على المرء أن يتخلى عما لا يصح؛ هذا عمل، هذه فعالية جيدة. كان سفوبودا، ويداه المكسوتان بالشعر فوق زاويتي طاولة الرسم بينما ينتظر الناس في فريق العمل الجماعي ظهور فكرة جديدة، ينظر إلى خارج النافذة وتفكيره منشغل بشيء آخر - بمساء البارحة مع لِيلى- لكن لا لفترة طويلة... هذا الذي هنا، مشروع لمنافسة عامة، هو أكثر إلحاحاً ولذلك فقد طلب لفة من الورق الشفاف وفردها بتأنٍ وطلب أيضاً قلماً طرياً من فئة ب ٥. ربما غدا قلم الرسم فجأة صاحب فكرة. ثم طلب ورقة شفافة ثانية وثالثة أخطأ بكل تأن في نقل الرسم عليها ثم طلب ورقة رابعة. بتأن. بنظرة مشدودة متوترة، لكن بتأن؛ يعني لا بد من وجود حل. ليس سفوبودا بأمهر المهرة، إلا أنه رجل ذو خبرة، عامل متخصص، وما يرسمه في صباح هذا اليوم (بعد معركة زجاجات الويسكي في الليلة السابقة) على الورق الشفاف هو أفضل، على الأقل رسم واضح؛ أما كلا الموظفين، وقد انحنيا إلى الأمام وأما لا رأسيهما جانباً لكي يريا تصميمه، فقد بدءا يهزان رأسيهما... وتخلل ذلك أمر آخر، اتصال هاتفي من أحد مواقع البناء؛ سفوبودا يتخذ قرار الحسم؛ في ما بعد سمعه الناس وهو يضحك؛ وفي ما بعد كان على سفوبودا أن يمثل أمام هيئة سلطوية في حين تناول كلا الموظفين ورقة جديدة وفرداها وأخذا يبريان قلميهما، وفي فترة ما بعد الظهر رأيت سفوبودا مجدداً في سترة عمله البيضاء ويداه المكسوتان بالشعر ترتكزان على زاويتي طاولة الرسم: يبدو أن ما رسمه قبل الظهر كان فعلاً فكرة جديدة ولو أنها فكرة متواضعة وخجولة، على حد رأيه، متواضعة أكثر من اللازم من حيث القياسات مما دفع سفوبودا مرة أخرى إلى أن يفرد ورقة شفافة تصدر صوتاً من الطقطقة الخفيفة فوق الرسمه، والآن انظر، لقد تحول الأمر إلى مسألة عمل إضافي فحسب. حين دخلت إلى مكتبه بعد أن أخبرته السكرتيرة بقدومي رأيت صلعة بنية اللون من الخلف، انتظرت إلى أن أدرك الموظفان تماماً أن عليهما أن يخرّجا، إلى أن دار ببطء في الكنبة الدوارة

فأصبحنا متقابلين وجهاً لوجه ثم نهض واقفاً وأزاح النظارة العاجية عن عينيه.

فسألته: «هل يسبب قدومي شيئاً من الإزعاج؟»

غسل يديه وجففهما، قطعة كبيرة من الرجال لا يخشى عليها، رحب بزيارتي مع أن تفكيره لم يزل، على ما ظهر، غارقاً في الورق الشفاف، رحب بي ترحيباً حاراً وصدقته، وعرض علي نموذجاً من تصميم لكي يسمع رأي رجل لا خبرة له في هذا المضمار.

وقال: «أعذرني».

سفوبودا، وهو يحصر سماعة الهاتف بين الأذن والكتف، سحب درج طاولته إلى الوراء وقلّب في أثناء حديثه صفحات دليل خاص بالإنترنيت ثم طلب من السكرتيرة أن تحضر له حساباً تقديرياً وألقى في غضون ذلك السؤال التالي:

«ماذا تقول في مسرح فراغي التصميم؟

قلت: «لا شيء، ليس عندي الكثير مما أقول في ذلك».

ربما أتحدث في هذا الموضوع مع سفوبودا حين يسمح وقته وحين يعود إليه الهدوء. ربما في ما بعد في السيارة؛ والآن أبقى مقرفصاً أمام تصميمه الذي يعجبني أيما إعجاب. وهو تصميم عمل لا يزال مرشحاً للتغيير كما أسمع. تلك ملاحظة عرضية. على أن الحوار المتعلق بالإنترنيت، والذي أزعجه على ما ظهر، استمر فترة طويلة. وعندما أعاد السماعة أخيراً إلى مكانها وأغلق دليل الإنترنيت، قال:

«سقط متاع».

رأيت سفوبودا، وهو ينظر إلى ساعة يده، كيف يخلع سترة العمل البيضاء ويتناول جاكيته ويلوذ بالصمت في تلك اللحظة؛ يبدو أن مسألة الإنترنيت قد سببت له امتعاضاً كبيراً.

قال: «شكراً، أنا في حالة رائعة».

قبل أن نخرج، كانت يدي على مقبض الباب لكن لم نكن في عجلة من أمرنا، دخل سفوبودا إلى حجرة أخرى حيث تجمع لفيف من الناس المرتدين معاطف عمل بيضاء – بعضهم كان جالساً وبعضهم الآخر واقفاً- وكانوا ينحنون فوق مساطر مخصصة للرسم الهندسي ومساطر حاسبة من أجل إنجاز مسائل قابلة للحل، كانت تلك الحجرة عبارة عن مرسم ناصع الإضاءة أيضاً؛ مهندس قديم كُلف بإعادة تصميم المشروع بأسره (وكما تبين لي من الاتصال الهاتفي يتعلق الأمر بمشروع بناء مجمع لوقوف السيارات) بحيث يتم فيه استخدام الإنترنيت بدلاً من مواد أخرى، أجل، للأسف.

وسألني سفوبودا ونحن في السيارة: «وأنت؟» ثم خطر بباله: «لقد كنتَ في القدس، فماذا فعلت هناك؟»

رأيت:

سفوبودا خلف مقود السيارة، كلتا يديه في الجهة العليا من المقود كما يتمدد المرء في حالة كهذه أثناء سفرة طويلة لكي يستريح، وجهه الشاحب من طول السهر لكنه صاح ومتيقظ، سائق متعقل؛ فهو يتجاوز على الفور إذا ما اقتضى الأمر دون أن يتوقف في أثناء ذلك عن الحديث، وإذا لم يتسن له التجاوز فإنه ببطء دون انفعال ويخيل للمرء أن من يقود السيارة ليس هو بل الشارع، بينما هو يتحدث.

ولا كلمة عن لِيلى.

في طريقنا رأيت موقع بناء ورأيت سفوبودا كيف كان يمشي فوق ألواح الخشب المتأرجحة، بناء على الهيكل في فترة انتهاء العمل اليومي، خلاطة بيتون صامتة وتتساقط منها قطرات ماء على الأرض وبجانبها أكياس من أسمنت بورتلاند، مرحاضاً تحت شجرة مزهرة من الكرز، براكة عليها لافتة ورقية تحت أسلاك متشابكة؛ «دخول موقع البناء ممنوع منعاً باتاً على

كل ما لا يحق لهم ذلك». سفوبودا في معطفه. وما يسميه غرفة جلوس هو عبارة عن أدغال من أخشاب مستديرة عمودية، وموررينات خشبية تسمى دعامات، السقف فُرش بالبيتون في ذات هذا اليوم، فوقه أكياس من الخيش، وهو ينقط قطرات من الماء. مواد البناء انتشرت في كل مكان: لفات من الورق المطلي بالقار ملمسها شبيه بالورق المرمل، برميل ماء وعلى سطح الماء المتسخ الذي بداخله زهيرات تساقطت من شجرة الكرز، رفوش، حزم من الحديد المخصص لتسليح البيتون ملقاة في العشب، هضاب من تربة خصبة بنية اللون ومغطاة بالأعشاب، أكداس من أحجار الأجر بلون زهري شاحب كلون الأصيل. وذات مرة أخرج سفوبودا منها متراً قابلاً للطوي. صهريج كيروسين ينتظر بجانب حفرته، برك ماء منتشرة في كل مكان، ألواح خشبية ممهورة بخط – كليشيه: «سكوتوتي وشركاء»، شبكة قضبان مع مطمار، أنابيب بنية لامعة كالكستناء الطازجة، مجاري، خزان من الأسمنت وفوقه حمالة ثلاثية مع بكرة لرفع الأحمال، كومة من الحصى بجانب شجيرات من البتولا محاطة بإطار من عوارض خشبية، وزجاجات بيرة في العشب، ورق أكياس فارغة من الأسمنت، سفوبودا نظر إلى ذلك كله بعين الرضا.

قال سفوبودا: «أجل، هلا ذهبنا؟»

في بيته:

سألني بعد أن قدم شكره على قطع الجليد التي أتت بها لِيلى وعلى كؤوس الويسكي التي لم يقذف بها في مساءلة الماضي إلى الموقد:

ماذا تريد أن تشرب، وأنت في الوضع الذي تعاني فيه من كبدك؟»

«ويسكي».

قال: «أترين، هو أيضاً يعتبر الحديث عن المسرح الفراغي هراء بهراء–»

هكذا هو إذن.

أما أنا فتحدثت عن القدس...

لِيلى هي بالتأكيد ممثلة.

لو كنتُ سفوبودا:

لأحضرتُ بندقيتي من الخزانة، بندقية حربية، واستلقيتُ على بطنـــي، وربما نهضتُ مرة أخرى لكي أخلع جاكيتي ثم أبعدتُ الغليون عن فمي قبـــل أن أستقلي من جديد على بطني وضغطتُ على الملقم الأول بإبهام يدي، كمـــا سبق أن تعلمت، وأقفلتُ المغلاق، كل ذلك بهدوء وصمت. وطيلة هنيهة، حين ألقيتُ البندقية أرضاً مرة أخرى، بدا كما لو أنني أتردد، كما لو أنني أدركـــت سخف مغامرتي؛ لكنني ألقي بندقيتي أرضاً لمجرد أنني ضُريت على مؤخرتي ثم أنه كان لا بد لي من مسح نظارتي قبل أن أزيل أمـــان البندقيـــة وأضـــع أخمصها على وجنتي وأصوب – بكل هدوء – على سبيل المثال على ساعة الحائط من ماركة لويس – كوينس. هل تتذكرها؟ ساعة بيـــضاء ومـــستديرة كالقرص الذي يُستخدم هدفاً لإطلاق النار، بورسلان مع عقارب صغيرة من الذهب: تاك! وينفتح المغلاق لكي تخرج الخرطوشة الساخنة الفارغة وهـــي تتدحرج، أمل ألا تحرق سجادتنا، وينقفل المغلاق، المهم في الأمر هو الحفاظ على تنفس هادئ ومنتظم في أثناء تسديدي على سبيل المثال على المرآة ذات الطراز البندقي، نقطة الضغط، عيني مع شعيرة البندقية المطلية على عينـــي في المرآة وبعد ذلك تقوس بطيء في السبابة: وطلقة! ثم من جديـــد يُفـــتح المغلاق، ثم يقفل، كل شيء كما تعلمته، لكن لا استعجال حين أسدد – هـــذه المرة ربما أسدد على مكبر الصوت هاي – فأي الذي لا يزال يعزف موسيقى شوبيرت، تِريو رقم ١، ولا يجوز أن ترف العين قبل الضغط على الزناد: بُم! وأفتح ربطة عنقي قبل انتقالي إلى تأدية مهمات أكثر رقة ونعومة، وأشد حزام البندقية حول مرفقي الأيسر لئلا أرتجف. حاولْ أن تصيب مرةً المسمار الذي تُعلق عليه صورتك! سوف أستهلك أربع طلقات لمجرد أن تترنح الـــصورة.

تُرى هل أنا سكران؟ يجب أن أكمل حشو البندقية، أرجع القبضة إلى الوراء وأدفع الملقن إلى الأمام، أغلق القبضة، كل شيء كما تعلمته، البندقية في الكتف. ما رأيك لو تطلق على بعض الكتب؟ تتمتع وجنتي ببرودة قاعدة البندقية في أثناء تسديدي على مؤلفات ميللر. لطمة قاسية! أسمع منذ فترة طويلة أصواتاً تتعالى في الشارع، صرخات لكنني هنا في بيتي. افتح المغلاق، أغلقه، أتابع عملي. وأولئك الذين يصرخون في الشارع احتجاجاً، ما علاقتهم بالأمر! في أثناء ذلك أجرؤ على التسديد على أهداف أكثر ضموراً، على سبيل المثال رسائل راهبة برتغالية. واحتاج لهذا الغرض ثلاث طلقات. لن يكون ذلك هدفاً ملائماً، على ما يبدو، وأجد أن البار هو هدف أفضل: ويسكي – بينغ، جن – بونغ! وصوت ارتطام، وأنه لأمر مثير ومضحك حقاً حين أرى في كل مرة خرطوشة ساخنة وهي تقفز خارجة من بيت النار حالما أفتح المغلاق. لا أفهم لماذا يرن جرس الهاتف في هذه اللحظة بالذات. واندهش، لكنني لا أشتاق الآن إلى أحد. ويرن جرس الهاتف ويرن إلى أن أسدد عليه: تاك! ودون أن أعرف ما ينبغي أن يكون هدفي التالي فقد دفعت الملقم التالي وقبل الأخير إلى الأمام وأقفلت المغلاق ثم وضعت أخمص البندقية على وجنتي. وخيم الصمت والهدوء. يستحيل أنك اتصلت بي هاتفياً. أنىّ لك أن تفكري بذلك؟ فأنتِ تستلقين الآن بجانب الرجل الآخر، ولا بد لي من أن أتابع عملي. أم أن المتصل هو شخص ثالث، بريء، وقد اتصل بتكليف منكِ، (من دون رغبة؛ لكن ما الذي لا يفعله الرجال من أجلك؟) لكي يخبرني بأنه فاتك موعد القطار؟ أصدق ذلك. ماذا لو أطلقت الرصاص على ثقب المفتاح في درجك؟ لكن أسرارك عفا عليها الزمن؛ أفضّل: الأثاث الجلدي، بيف– باف– بوف! إنه صيد جاموس مقبض. ثم طلقة طائشة مخجلة على كلب – الإينكا الخزفي من البيرو، ومرة أخرى على أن أتابع التلقيم، وانظر إلى المكان الذي كنا فيه أسرة واحدة. سأتابع حتى آخر طلقة، أجل، ليس في ذلك أدنى شك؛ لم يعد الانسحاب وارداً في الحسبان. ما رأيك باطلاق النار على اللمبات الكهربائية؟ من أجل أربع لمبات احتاج

إلى خمس طلقات، ويمطر الجبصين من الأرجاء المظلمة؛ آخر طلقة هي من نصيب القمر الذي حاول على الفور أن يعوض عن ضوء اللمبات الكهربائية وظن على ما يبدو أنه سوف يكون في مأمن إذا ما اختبأ خلف زجاج النافذة: كِرّ! وبعد ذلك يقف أمامي شرطي من حسن حظه أنه لم تعد ثمة طلقة في ماسورة البندقية، في يده مصباح جيب يعمي البصر بصفاقة ملفتة، ويبدأ بإلقاء الأسئلة للحصول على معلومات تتعلق بشخصي...

لكنني لست سفوبودا.

ليكن اسمي غانتنباين.

القصص التي أحكيها إلى كاميلا- في أحد الصباحات الجميلة سوف تنتهي، آخر مرة لتجميل أظافري في بيت كاميلا.

«أنتَ وقصصك!»

كانت تضحك وهي منهمكة لتوها في تجميل ظفر الإبهام الأيسر لغانتنباين، تضحك باقتضاب ودون أن ترفع نظرها إليه بحيث لم يكن غانتنباين يرى سوى شعرها الأشقر بلون الهيدروجين، وبالمناسبة هذا الشعر ليس أشقر بلون الهيدروجين أي أنه لم يعد كذلك. ربما لم يعد كذلك منذ فترة طويلة – توقف غانتنباين عن أن يراها، على ما يبدو، عن أن يراها فعلاً.

سألتها: «كاميلا، ماذا دهاك؟»

حاجتها إلى سماع القصص أضحت ملباة؛ كاميلا ذاتها هي الآن صاحبة قصة، على ما يبدو، قصة حقيقية.

قالت: «أجل، عليك أن تبحث الآن عن سيدة أخرى تُعنى بتجميل أظافرك»، وأخذت تبرد ظفر إبهامي لآخر مرة دون أن تنظر إلى الأعلى حين أضافت: «أقصد أنني سوف أتزوج عما قريب-».

فهنأتها على ذلك.

عريسها، وهو طبيب أسنان عثرت عليه عن طريق إعلان، لا يريد أن تستمر كاميلاه، في مهنة تجميل الأظافر. إذن من جديد نهاية امرأة مستقلة.

قالت: «سوف أساعده في العيادة»، قالت ذلك وهي تبدي احتراماً واضحاً لهذه الكلمة، «على كل حال طالما أننا بدون أطفال».

«هل تريدين أطفالاً؟»

حين عاينت في ما بعد أصابع يدي اليمنى أيضاً تيقنت إذن أنها آخر زيارة لي عند كاميلا هوبر. أنني أتفهم موقف طبيب الأسنان الذي لا يريد أن تستمر كاميلا في تجميل الأظافر. سوف لن نرى بعضنا بعضاً بعد الآن، أقدّر ذلك، وإلا فسوف تراود طبيب الأسنان أفكار خاطئة، وذلك ما لا أريده أنا أيضاً. كررت تهانيَّ، ولكنني أبديت تأثري؛ كاميلا وغانتنباين أصبحا صديقين كما يتبين الآن، صديقين حميمين.

قالت: «يا سيد غانتنباين»-

«ماذا؟»

«أنت لست أعمى».

لم أسألها منذ متى تعرف ذلك.

قلت: «كلا، لماذا؟».

حين تناولتُ عصاي السوداء الصغيرة وحين كنا واقفين في الممر، في حقيقة الأمر كنا ودعنا بعضنا بعضاً وكانت يدي على مقبض الباب، رأيت في وجه كاميلا أنها لا تزال تريد أن تقول شيئاً.

قالت: «يا سيد غانتنباين-»

انتظرتُ.

قالت: «لن أقول لأحد أنك لست أعمى، يمكنك الاعتماد على ذلك شرط ألاّ تقول أنت لأحد ماذا رأيت».

هذا عقد اتفاق.

لاحظت لتوي والخوف يعتريني أن ليلى، كما حاولتُ باستمرار أن أتصورها حتى الآن، لم تنجب البتة أي طفل، ولم أفكر بذلك في يوم من الأيام.

طفلٌ ممن؟

أتخيل:

بعد الظهر في ذلك البار، حين سألها الرجل الغريب عما إذا أنجبت أطفالاً، بالطبع لم يسأل بدافع الاهتمام بل هكذا ببساطة ومن قبيل الدردشة بين تناول لوزة مملحة ولوزة مملحة أخرى، لم تُنكر بأي حال حقيقة وجود طفل لها بل أخبرته أيضاً كم عمره الآن. لكن يبدو أن الرجل الغريب، المرتدي بدله سهرة سوداء والواقف في غرفة الجلوس بانتظار أن يصحبها إلى الأوبر، قد نسي في غضون ذلك هذه الحقيقة. ثم وقف ورأسه مائلة جانباً أمام رفوف المكتبة لكي يقرأ عناوين بعض الكتب، يداه في جيبتي معطفه لكي يتجنب أن يلمس أي شيء. لم يكن يعرف ماذا كانت تفعل السيدة طيلة الوقت بعد أن كان ساعدها في ارتداء معطفها الفرو. لكنه انتظرها وهو صابر ودون أن يبدي أدنى درجة من الاستياء والتبرم. توقع أنها لم تجد المفتاح، في حين غدا على وعي من حسن تصرفه بالمقارنة مع زوجها صاحب الغلايين الموجودة في وعاء من صنع قبائل الاينكا، زوجها المقيم آنذاك في لندن؛ ليس ثمة زوج قد يتحلى بالصبر والروية إلى هذا القدر إذا ما فُرض عليه الانتظار. وكون الرجل الغريب لا يعرف، لا بل ليس لديه أية فكرة عما كانت تفعل لِيلى طيلة الوقت، فقد كان لهذه الحالة سحرها الخاص بالنسبة إليه. على سبيل المثال طقطقة حذائها ذي الكعب العالي في بهو المنزل. صحيح أنها قالت له لدى خروجها من غرفة الجلوس أن بإمكانه أن يعد لنفسه كأساً من المشروب الذي يحلو له من البار، لكنه لم يفعل. لم يشأ أن يلمس أي شيء في ذلك المكان. ويداه في جيبتي سترته، رجل غريب يقف في الحجرة لكنه لا يريد أن يعرف

أين هو - هكذا كان ينتظر بتأن وروية؛ وبدون فضول. مجرد النظـر إلـى الكتب هو أمر زائد عن الحد، هو نوع من الاطلاع علـى بيئتهـا الخاصـة وبالتالي احتكاك بهذه البيئة، التي لا يريد أن يعرف عنها أي شيء. أضف إلى ذلك هذه الغلايين الموجودة في وعاء الاينكا. إنه يعرف حق المعرفة أن لِيلى لم توجدها الصدفة البحتة لكي تذهب معه إلى الأوبرا فحسب؛ إذ لم يـصدف حتى الآن أن سقطت سيدة من السماء في أحد البارات بعد ظهر أحد الأيـام. ذلك أمر معروف؛ وعاجلاً أو آجلاً سوف يظهر الأمر على حقيقته: حقيقـة بـيئة خاصة، أسرة، قصة، كما هو واقع الحال وفي عاديته العويصة. لكنه لا يريد أن يعرف ذلك. حتى أنه لا يريد أن يجلس. ومجرد استخدامه ولاعة، ماركة دانهل - غولد، كان تلقاها زوجها على الأغلب هدية منها، كـان مـن شأنه أن عكر مزاجه؛ فهو لا يريد أن يألف حميمية هذا المكان. كان يـدخن، يقف ويدخن. ولم يكن يعرف لماذا يزعجه على نحو ما هذا المسكن - السفويودي- الليلي؛ مع أنه مسكن فيه كثير من الذوق. ساعة - لـويس- كوينس مثلاً. المنجدات الجلدية، البيضاء اللون. تمثال الكلب الخزفـي مـن صـنع قبائل الإينكا. كل شيء هـنا مذواق عموماً؛ لكنه متواجد. تُرى لماذا لا يلوح وجه، يقابله المرء ذات مرة، في الفراغ البتة؟ وهو لا يريد أن يعاين ما حوله بدقة. إذن من الأفضل الذهاب إلى الأوبرا!- حين عادت إلى غرفـة الجلوس، كان الرجل واقفاً وراء النافذة تحاشياً منه أن يتفرج على المـسكن ومفضلاً أن يسرح نظره إلى الخارج؛ لقد نسي أن لها طفلاً لا بـد مـن أن يُحاط بالرعاية والمواساة قبل أن تذهب الماما إلى دار الأوبرا.

«لماذا لا تشرب شيئاً؟»

وفي أثناء ذهابها إلى مكان البار لكي تعد للرجل الغريب كأسـاً مـن المشروب، تناهى إلى سمع هذا بكاءُ طفل؛ ثم بدا بعد ذلك أن مواساته تكللت بالنجاح حين تلقى وعداً بأن الماما سوف تحكي لطفلها كل الأوبرا إثر عودتها إلى البيت.

سألها الرجل: «كم عمر الطفل؟»

فقالت ذلك مرة أخرى.

قال: «شكراً، شكراً جزيلاً».

وأخذا يشربان ويتحدثان عن أمور أخرى ويدخنان، وجلسا يتجاذبان أطراف الحديث، وفات موعد الأوبرا منذ فترة طويلة، كانت لِيلى لا تزال لاحقاً كما سابقاً في معطفها، كان الاثنان يشعران بأن عليهما الخروج من المنزل والذهاب إلى المدينة مع أنه لم يكن منافياً للعرف أن تقوم هي باستضافة رجل عند منتصف الليل. على فكرة لم يكن قد حل منتصف الليل بعد... كان الطفل نائماً... يبدو أنه نسيه من جديد؛ لكنها لم تنسه. فهي أم. لم تتحدث عن طفلها النائم ولم تفكر بالطفل أيضاً، لكنها تعرف لماذا لم تكن في لندن مع سفوب. لأنها الأم. هذا هو الوضع. لحسن الحظ. سوف تأخذ الطفل في الغد إلى روضة الأطفال؛ لم تكن بحاجة إلى تذكر هذا الأمر، فهي تعرفه. وبإمكانها الاعتماد عليه. في بعض الأحيان يخيل إلى لِيلى (وهي في الحادي والثلاثين) أنها كبرت في السن... نهضا لكي يذهبا إلى المدينة وهما مندهشان طيلة هنيهة من الزمن من تراضيهما الصامت؛ وأطفأت المصباح المحمول. حتى الآن كان المنزل كله مضاء وكانت كل الأبواب، ما عدا الباب المؤدي إلى غرفة الطفل، مفتوحة منذ ساعات أي منذ أن بحثت عن خريطة الطرقات في بلاد البيرو وحتى الباب المؤدي إلى المطبخ كان أيضاً مفتوحاً كما لو أنها تتهيب الأبواب المغلقة. وساد جو غريب حين أطفأت المصباح المحمول ثم مصباح السقف أيضاً؛ كان ثمة ما يدفعها إلى البهو حيث لا يزال الضوء شاعلاً وكان هو ينتظر، جاهزاً للخروج، إلى أن وجدت مفاتيح سيارتها. وبينما كانت تتلفت حولها، كأنما قد يكون شيء ما على غير ما يرام، كانت يدها اليسرى على مفتاح الضوء. وهمست: لنذهب! في حين كانت يده، كما لو أن الحالة عبارة عن توديع إمكانية تحققت، بغير قصد وبسخرية في آن معاً، وهو يعي تكرار قولها، كانت يده تداعب جبينها. وهمس: لنذهب! إلى

أين؟ لم يقل أحد منهما إلى أين الذهاب. كانا يهمسان لئلا يوقظا الطفل. من شأن الهمس أن يقرب الناس بعضهم من بعض. لقد هالها الأمر فلم تنظر إلى الرجل الغريب حين أطفأت النور في البهو؛ وبعد ذلك لم يعد ثمة ضوء إلى أن دخل نور الصباح عبر النوافذ – ما عدا في غرفة الطفل: كانت الساعة الثالثة صباحاً حين ذهبت إلى تلك الغرفة أثر سماعها سعالاً ثم أشعلت الضوء لكي تتأكد مما إذا كان الطفل نائماً. فوجدته نائماً. هل من المفيد إيقاظه؟. أوقظنه. كي تقول له أن الماما في المنزل وأنها كانت في دار الأوبرا. لم تحك له الأوبرا بالتفصيل ومع ذلك فقد روتها بأسلوب يجعله يتذكرها في ما بعد – وحين يكبر فسوف تسمح له أيضاً بالذهاب إلى الأوبرا. ولكي يكبر فإن عليه الآن أن ينام. وأعدت له كأساً من سكر العنب المحلول بالماء. ثم أطفأت النور في ما بعد. وانتظرت بجانب سريره الصغير دون أن تقبله؛ لكنها قالت أن البابا سوف يأتي غداً ومن المؤكد أنه سيجلب له هدية، ربما دمية مرتدية تنورة سكوتلندية صغيرة (إذا كان الطفل فتاة) أو قارباً شراعياً (إذا كان صبياً)، لكن بشرط أن ينام الآن. وما زالت تنتظر إلى أن دقت الساعة الرابعة صباحاً؛ فأغلقت الباب بعد ذلك من الخارج وحين عادت أدراجها، لم تنبس ببنت شفة حتى ولا همساً بل أخفت وجهها وراء ذراعها العاري في حين كان هو يتنفس بانتظام وفمه مفتوح، مصغياً، وساد الصمت والهدوء..

وفي يوم آخر أتى سفوبودا.

الطفل (لم يعد يسمع على ما يبدو أي شيء عن الدمية الأسكوتلندية كما لم تخيب أمله حقيقة أن البابا لم يجلب له أية هدية) كان يحكي لأبيه عن الأوبرا التي كانت الماما رأتها من قبل، بطريقة مضحكة ومرحة.

الطفل باعتباره ملاك رحمة وحماية؟

اشتريت آلة تسجيل لكي أسجل أحاديثكم، أحاديثكم في أثناء غيابي. أنني أعرف حق المعرفة أن ذلك تصرف ينم عن شيء من المكر والاحتيال.

ويعتريني الخجل أيضاً كلما وضعت شريطاً بني اللون كهذا، كان سُجل عليه حديث في غيابي، في هذه الآلة اللعينة وأصابع يديَّ ترتجف-

لماذا!

أظن في بعض الأحيان إن بإمكاني أن أتخيل كيف تستمر أحاديث صديقي بدوني، وأحياناً لا. تُرى أما زالا يتحدثان الآن، حيث ذهبت فلم أعد موجوداً معهما، عن تاريخ الباباوات؟ أم عمّ؟ لكن بالدرجة الأولى: كيف يتحدثان الآن؟ بطريقة مختلفة عما قبل؟ تماماً كالعادة؟ بطريقة أكثر جدية أم أكثر مرحاً؟ لا أعلم لماذا أرغب في معرفة ذلك. ثمة أناس أتوقع منهم أن يتابعوا حديثهم بعد خروجي من بينهم على شاكلة ما كان عليه من قبل وهؤلاء، بصراحة، مملون بالنسبة إلي ويكادون يكونون لا إنسانيين. طبعاً قد يكون رأيي هذا خاطئاً. فإذا تابع أحد الحاضرين حديثه، بعد أن يودعهم بورّي، على نفس المنوال، فلا يعني ذلك أنه سوف يتابع حديثه دون أي تغيير حين أغادر أنا ذلك المكان. بعض الناس يدفعون المرء إلى الخيانة وآخرون لا يدفعونه إلى مثل ذلك. ما المقصود بالخيانة؟ لا أعني بذلك أن يتحدث الآخرون عن شخصي حالما يصبحون لوحدهم وإذا فعلوا ذلك فليفعلوا، إن ما يثير فضولي هو شيء آخر. ما إذا لم يكن لبورّي على سبيل المثال، مع لِيلى فقط، وجه مختلف تمام الاختلاف أيضاً؟ وإذا ما اخترعتُ أحاديث، تجري في غيابي، فأنني أتعرض لخطر أن أخاف من الناس أو أحترمهم وأحبهم وذلك طبقاً لما أتخيله من حديثهم حين لا أكون موجوداً معهم، ثقتي شبه العمياء على سبيل المثال إزاء بورّي، لمجرد أنه في أحاديثي المخترعة لا يتحدث ولا يصمت ولا يضحك بطريقة مختلفة عما في أثناء حضوري، تذهب بعيداً إلى درجة أنني ببساطة لا أصدق حين أعرف بطريقة ملتوية غير مباشرة ماذا قال بورّي مؤخراً. استغابة! لا أريد أ، أسمع أية استغابة. ما ينجم عن ذلك: لا أشتبه ببورّي بل فقط بالناس الذين ينبئونني بما قال بورّي مؤخراً في أثناء غيابي. ربما قال ذلك فعلاً لكن ليس على شاكلة الاستغابة التي

تجري على ألسنة الناس. حرفياً، ذلك أمر ممكن، لكن ليس بهذه النبرة. بكل بساطة: لا أستطيع أن أتصور أن بورّي قد يبيعني من أجل نادرة مستملحة. وبالمثل سواء أكانت نتيجة اختراعي الأعمى، التي تتشكل عاجلاً أو آجلاً حول كل إنسان، مبررة أم غير مبررة، فإن سوء ظني طيلة سنين عديدة إزاء آخرين، على سبيل المثال ارتباكي المؤلم إزاء رولف لمجرد أنه، حالما لا يتحدث في حضوري بل في مخيلتي، يتحدث فجأة بطريقة أرق وأذكى، ليس أغنى معرفةً فحسب، حالما يمتنع عن إخفاء علمه الكبير إزاء جهلي، بل وأيضاً أغنى بالخواطر وأكثر ظرفاً. أنا متأكد من أن بعض الناس يخفون ظرفهم عني؛ إلا أنني لا ألومهم في ذلك بل أندهش فحسب من أنهم لا يبدون ظرفهم في حضوري ولا تتدفق خواطرهم ولا يتصاعد مرحهم إلى درجة الزهو أو التفوق. أظن أنهم يفعلون ذلك بدافع الانتقام؛ ليس عندي براهين على ما أدعي. رولف هو واحد من هؤلاء. ذلك لأن هذا الرولف، في الأحاديث التي اخترعها وأنا في طريقي إلى البيت أو ممتلق في الحمام وفي الأحاديث التي تجري بدوني، هو على جانب عظيم من الفكاهة والمرح ومن المبذرين في المعرفة التي يخفيها بحضوري. لماذا؟ غالباً ما امتنع عن الذهاب إلى جماعة من الناس لمجرد أنني سوف أكون بينهم، حتى ولو أنني كنت سأتصرف بهدوء تام؛ وحالما أكون بينهم فأنهم لا يغدون تلك الجماعة التي تثير اهتمامي بقدر ما تكون جماعة من الأقنعة التي أتحمل الوزر فيها-

ومن هنا تأتي الحاجة إلى آلة التسجيل!

أصابعي المرتجفة على البكرة تعالج شريط التسجيل بوتيرة من الاستعجال والارتباك، في حين يعتريني الخجل بكل تأن واتزان، يعتريني الخجل بالفعل كلما شغّلت آلة التسجيل إلا أنني لا أعاقب نفسي على ذلك. لقد اعتدت على أن أقص المتر الأول وأرميه جانباً، لكنني مع ذلك قد أباغتُ صوتي أيضاً على بعض الأشرطة وهو يفضح كذبي بوتيرة شبه عالية حين أقول على سبيل المثال: سوف أذهب لجلب سجاير! ثم أفعل ذلك أيضاً بعدِ أن

أكون قد شغّلت الآلة الجهنمية المخبأة خلف الكتب. والنذر الذي قطعته على نفسي بألاّ استخدم أبداً هذه الأشرطة هو نذر لا يعتد به. فإذا كان بالإمكان محو الأشرطة فالذاكرة لا تُمحى. ماذا أتوقع في حقيقة الأمر؟ في معظم الأحيان لا أفهم الكثير مما هو مسجل على الأشرطة لأن الجميع يتحدثون بطريقة تعج بالفوضى، إنها فوضى حقيقية من الأصوات المضطربة المتقاطعة، في أثناء ذلك أعالج انفعالي بالتدخين. أنني استغرب من أنكم تفهمون بعضكم بعضاً. قهقهة! لا أرى دافعاً لها. قهقهة إثر قهقهة! لا يُستدل من النص على سبب سروركم. ومن الغموض بمكان أيضاً صمت مفاجئ. وفجأة يظن المرء أن الشريط ربما انقطع في هذا المكان لكن سرعان ما يتبين بأنه يدور. صمت مطبق كصمت القبور. لا حدس عندي بما يجري الآن. لا يزال صمت القبور مخيماً على المكان. تُرى هل لاحظتم أن ثمة آلة تسجيل مخبأة وبالتالي إذناً خفية وذاكرة؟ لكن صوتاً سُمِع الآن، نصف عال، صوت سيدة: عن مسائل تتعلق بالخدم والخادمات. صرتُ أدخن منتظراً بفارغ الصبر صوت رولف العميق ومرحه لكن دون جدوى، ودبت ببطء في أوصالي خيبة أمل؛ كأنني جالس بينهم. ولِيلى؟ لِيلى فحسب هي ذات حديث مختلف بحيث أراني أحبس الأنفاس لدى سماعه. لكنها هي أيضاً لا تقول شيئاً مما يتسنى لي سماعه بدون إشكالات وهي تتجنب ذات الأسماء كما لو أنني متواجد بين الجماعة. ومع ذلك: حديثها مختلف عن الباقين. أكثر تحرراً وطلاقة. وهي تضحك بطريقة مختلفة وأكثر من الباقين إذا ما برهن أحد الحاضرين عن فطنة ونباهة، تضحك بإيقاع أعلى. تُرى هل تخشى، بحضوري، من أن أفهم ضحكها من قبيل السخرية مني؟ إنها، على ما اعتقد، أصعب مراساً حين لا أكون جالساً في الحجرة معها. أكثر فتانية. لكن لذلك ما يبرره. بعد ذلك يرن صوتها كما كان آنذاك حين تعرفت عليها أول مرة، لقد مضى على ذلك زمن طويل. كما كان صوتها تماماً في ذلك الحين؛ مع أن الشريط الذي أسمعه الآن قد تم تسجيله في هذا اليوم بالذات. فهي تجرؤ على مزاح قد يروق لي وقد أضحك مع أنني في وضع سيء باعتباري مستمعاً إلى

أشرطة مسجلة. أنتم تتحدثون الآن عن السياسة. وذات مرة، حين لم أكن مصغياً للحديث. ذُكر اسمي. تُرى هل ينبغي أن أوقف آلة التسجيل؟ فات الأوان: أحد الحاضرين امتدحني. لم أفهم السبب الذي دفعه إلى ذلك. كان بإمكاني أرجاع الشريط لكي أسمع ما قيل عني، لكنني لم أفعل. ربما امتدحتم قبوي طالما أن حديثاً أصبح يدور الآن عن أصناف النبيذ، ولِيلى تسأل إلى جانب ذلك عني وإلى أين ذهبت، وجراء أنهماكي بسماع الشريط أنطفأ غليوني. الآن وصل الشريط إلى منتصفه. يبدو أنكم تتركون لأنفسكم وقتاً كافياً وتنتظرون انتهاء بكرتي لكي تتحدثون بعد ذلك بالفعل على المكشوف. أنكم تبحثون الآن عن مفتاح لسدادات الفلين، اسمع ذلك إلا أنني لا أستطيع مساعدتكم؛ كان المفتاح في المطبخ. رولف يرى أن من المؤسف أنني لا أعمل في حقل السياسة، مؤسف جداً. كيف؟ إن زعمه بأنه نصحني بذلك عار عن الصحة، على الأقل لا أستطيع أن أتذكر ذلك كما لا أستطيع أن أتذكر أيضاً القول الرائع (الناجح جداً على الشريط) عن الديمقراطية الاشتراكية في أيامنا هذه، الذي صدر عني، على حد قوله. تُرى لماذا يزينني بريشه الخاص؟ إثر ذلك لاذ رولف بالصمت كما لو أن صاحب قوله الرائع ذاك يمكن أن يدخل إلى الغرفة في أي وقت، في حين ذهبت لِيلى في غضون ذلك إلى المطبخ لكي تجلب على ما يبدو مفتاح سدادات الفلين. فأنا أسمع في الشريط أنها الآن ليست متواجدة في الغرفة. اسمع ذلك كأعمى؛ فهي لا تلوذ بالصمت ككل الآخرين، بل هي ليست بين الحاضرين. ضيوفنا الآن في ما بين بعضهم بعضاً. ربما اسمع ذلك من خلال تغير النبرة في الكلام. أنكم تتحدثون الآن عن فيلم من أفلام فيلليني، كلكم، وحديثكم ينم عن سرور أكبر من ذي قبل، عن حيوية أكثر ويظهر أنه حديث مقيد في الوقت ذاته طالماً أنكم الآن لوحدكم مع بعضكم بعضاً ومتحررون من واجب التحدث عن شؤون المضيفين المزعومة، فوضى من الأصوات، ويظهر كما لو أن الحديث السابق عن فيلليني لم يكن مسموحاً. ولكن لا تتزلقوا إلى استغابة مضيفيكم فأنكم تتجنبون الآن أية استراحة أو توقف عن الكلام. أحد الحاضرين ينادي:

لِيلى، ماذا تفعلين؟ وكصدى لذات الصوت أسمع: ماذا تفعل إذن؟ لحسن الحظ أن الجميع رأوا فيلم – فيلليني، ولحسن الحظ بالدرجة الأولى أن الآراء لم تكن متفقة. الصبغة الكاثوليكية لدى فيلليني–

نهاية البكرة.

عدتُ إلى إشعال غليوني.

كان هذا كل شيء.

لم تحدث أية خيانة (إذا ما أردنا استخدام هذه التسمية)، محوتُ ما كان مسجلاً على الشريط الذي علمني شيئاً واحداً فحسب: أن نفسي متعطشة إلى الخيانة. أريد أن أدرك كينونتي. ما لا يخونني، يكون عرضة لشبهة أنه لا يحيا إلا في مخيلتي فحسب، أما أنا فأريد أن أخرج من مخيلتي، أريد أن أكون في العالم. أريد أن أكون مخاناً في الأعماق. وذلك أمر عجيب. (لدى قراءتي قصةِ يسوع المسيح كان يعتريني في غالب الأحيان شعور بأن يسوع حين تحدث في أثناء العشاء الأخير عن خيانة آتية لم يكن يهمه فقط أن يخزي الخائن بل حدد واحداً من تلامذته لارتكاب الخيانة لكي يكون في العالم وبالتالي لكي يبرهن عن وجوده الواقعي في العالم...)

هكذا صرت أدخن غليوني.

هادئ الأعصاب؟

آلة التسجيل برهنت عن أنها فاشلة، صحيح أنني سمعتُ أحاديثكم لكنني لم أر الخيانة التي لا بد وأن تكمن في ملامح الوجه، وحتى لو أنني أستطيع تصوير ملامح وجوهكم في أثناء غيابي فسوف يكون الفيلم المصور فاشلاً تماماً أيضاً. يبدو أن الخيانة شيء شفاف جداً، إذ أنها لا تُرى ولا تُسمع إذا لم يضخمها الجنون.

حاشية

الغيرة باعتبارك مثالاً على ذلك، الغيرة باعتبارك ألماً فعلياً بسبب أن كائناً حياً يملأنا هو في الوقت ذاته خارجنا. حلم مرعب في وضح النهار. للغيرة علاقة أقل مما يبدو بحب الجنسين؛ والأمر متعلق بالهوة بين العالم والجنون، الغيرة بمفهومها الأضيق لا تزيد عن كونها حاشية في أسفل الصفحة وبالتالي صدمة: العالم يتطابق مع الشريك، لا معي والحب وحدني مع جنوني فحسب.

ليكن اسمي غانتنباين.

(لكن بصورة نهائية)

أتخيل:

غانتنباين باعتباره شاهداً أعمى أمام محكمة من المحلفين، مزوداً بالنظارة وبالعصا السوداء الصغيرة والشارة الصفراء المخصصة للعميان والتي يضعها على ذراعه في كل حالات ظهوره في الأماكن العامة، وفي ماعدا ذلك لا يحملها باستمرار؛ لكن إذا ما تعلق الأمر بأن يكون ناخباً على صندوق الاقتراع في يوم أحد أو في مكتب الزواج أو في محكمة فبديهي أن تكون الشارة على ذراعه، غانتنباين هو الآن في غرفة السكرتاريا لوحده، عصاه الصغيرة بين ركبتيه، كما لو أنه بحاجة إلى ما يستند عليه.

ترى ماذا يريدون أن يعرفوا مني؟

الحادثة، وقد عولجت منذ أسابيع على طول الأعمدة في جميع الصحف، يعرفها كل القراء، ومن بينهم غانتنباين أيضاً؛ في بداية الأمر كتب الخبر بخط عريض على اللافتة التي حملها بائعو الصحف على بطونهم، «جريمة قتل في سيفيلد»، أُعلن عنها وقُرئت فوراً في كل حافلات الترام ثم طواها النسيان في حين أجرت الشرطة الجنائية طيلة شهور عديدة تحريات مضنية لكنها لم تسفر عن أية نتيجة، وفي ما بعد أثيرت ضجة كبيرة حين ألقي القبض على شخصية معروفة من شخصيات الحياة العامة، فضيحة حركت

المشاعر وأوشكت أن تتحول في نهاية المطاف، حين أثيرت أمام محكمة من المحلفين، إلى فضيحة سياسية-

أسمع صوتاً يقول: «يا سيد غانتنباين، لا داعي للاستعجال، لكن لا بد من أن تكون مستعداً للاستجواب».

ما عساني أقول أمام المحكمة؟

ويتابع الصوت قوله: «إبق في مكانك، فسوف أقودك إلى المكان اللازم حين يحين الوقت لذلك».

إنه قبل الظهر من يوم استجوابات الشهود الأخيرة، لا أعرف ما إذا كانت الجهة التي استدعت غانتنباين هي هيئة الادعاء أم هيئة الدفاع؛ أعرف فقط أن الحكم الذي على المحلفين أن يصدروه قد صدر في حقيقة الأمر من قبل الرأي العام، وما يتعلق بغانتنباين أعرف أن له- كما لكل شاهد- مصلحة واحدة: هي أن يحافظ على الدور الذي يلعبه - ومن هنا العينان المغمضتان... في الخارج تدق الساعة معلنة الحادية عشرة وحين تلوذ بالصمت يأتي من جديد دور هديل الحمام، هديلها المريح، هديلها السخيف.

أعرف شيئاً واحداً فحسب:

إذا قال غانتنباين، بصفته شاهداً، الحقيقة وتناهى إلى علم لِيلى بواسطة الصحافة أنني لست أعمى، ولِيلى وكل معارفي-

«هاكَ ماء»

يبدو أن الناس يرون تعرقي، لكنني لا أمد يدي بالطبع لأتناول الإبريق والكأس بل أسمع فحسب كيف يقوم خادم المحكمة بملئها؛ يبدو أنني لست أول من يُستدعى باعتباره شاهداً ويشعر بأنه متهم.

ويناديني الصوت: «يا سيد غانتنباين، لو أذنت لي-»

فنهضت واقفاً.

«لكن ليس في الأمر استعجال»

وأقف، وعيناي مغمضتان لأنني لا أريد بأي حال من الأحوال أن أرى المتهم من جديد، أقف مستنداً على عصاي الصغيرة السوداء تحت تـصرف المحكمة. أسلمت أمري لمن يقودني. أحسست بتلك اليد القوية التي تلامس مرفقي، اليد اللطيفة التي لن تتركني إلا بعد أن أقف أنا، تيو غانتنباين، أو أجلس أمام قفص الشهود.

وأسمع للصوت ذاته يقول: على مهلك، لا تعجل».

واسمع خطواتي في الممر.

وينبهني الصوت: «انتبه، هنا درجات-»

فارفع قدمي إلى الأعلى.

- «ثلاث درجات».

إذن إلى اليمين، إلى اليسار، إلى اليمين.

وأسمع من جديد في حين تغادر اليد الآن مرفقي: «حسناً، انتظر هنا!»

وأسمع كيف يفتح باب بدون صوت؛ وأسمع فجأة أصواتاً في صالة.

«تعال!»

وأخذت أدق بعصاي السوداء الصغيرة، في حين أمسك شخص بمرفقي وقادني بحيث لم أكن فعلاً بحاجة إلى أن أفتح عينيّ، في هدوء المكان الفسيح الذي لا يعكره سوى دقات عصاي على الأرض، هدوء مليء بالتوتر.

وأسمع: «هنا، خذ مكانك».

تحسست المقعد المخصص لي وجلست، والآن تحرر مرفقي من اليد التي أمسكت به. حذار الآن من أن تفتح عينيك! أسمع صوت أوراق، لا بد وأنها صالة كبيرة وعالية وجرداء، صالة ذات نوافذ مغلقة، ليس فيها حمام يهدل، صالة تعج بالناس الذين يتنفسون؛ لا بد وأن يكون المتهم بينهم. تُرى

هل سيعرفني من جديد؟ ما أسمعه أو أحس بأنني أسمعه هو بالدرجة الأولى نبضي الذي في الرقبة. وما عدا ذلك لا يحدث مؤقتاً أي شيء أخر. من حين لآخر تُسمع نحنحة عن بعد في الجهة الخلفية وهمس في الجهة الأمامية، وبعد ذلك خشخشة أوراق من جديد؛ لكن إجمالاً يخيم هدوء في هذه الصالة. ما يمكن أن أراه، لو أنني أفتح عينيّ، هو معروف لدي: منهم بين دركيين، وخلف ذلك وفوقه رئيس المحكمة، وفي مكان ما محام عام في الزي الرسمي، ربما إنه هو ذلك الرجل الذي يخشخش باستمرار في كدسة من الأوراق وثمة محام ذو نظارة قماطة في الزي الرسمي أيضاً وهو محامي الدفاع الذي ينحني إلى الأمام ويعطي المتهم في هذه اللحظات قصاصة من الورق. ثم المحلفون الذين سيصدرون حكمهم في هذا اليوم من كل بد، مجموعة من الوجوه المنهكة من أصول مختلفة. وفي أعلى الجدار على أغلب الظن صورة كلاسيكية مقلدة تجسد العدالة وفيها ميزان وعينان معصبتان... والآن يقوم أحد الناس بتلاوة المعلومات الشخصية المتعلقة بغانتنباين وقد طلب مني أن أصدق عليها، ثم لفت النظر إلى أن علي أن أقول الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة، وأسمع في غضون ذلك صدى قسمي، ثم سعالاً، خشخشة ورق، تحزيقاً في المقاعد الخشبية، خطوات باتجاهي، وصوتاً يقول:

«يا سيد غانتنباين، هل سبق لك أن عرفت السيدة كاميلا هوبر؟ ومنذ متى؟».

فأومات برأسي.

«منذ متى؟»

صرت أتذكر.

«هل سبق أن تكون عندك انطباع»-

ويقاطع صوت آخر هذا السؤال بقوله: «أريد أن ألفت النظر إلـى أن الشاهد أعمى وأنه لا يجوز، أيها السادة نتيجة لذلك طرح أسئلة لا يـستطيع شاهد أعمى الإجابة عليها بقسم اليمين، وخاصة السؤال-».

رنين جرس.

أحتج على ذلك-»

رنين جرس.

«أيها السادة-»

فوضى من الأصوات، يبدو أن كل شيء غريب الأطوار؛ انتظرت إلى أن تؤول الكلمة من جديد إلى رئيس المحكمة لكنه لم يستفد منها بل أعطاها بصمت شبيه بلحظة دون صدى إلى صوت آت من جهة اليمين لم يسبق لـي أن سمعته من قبل.

«هل عرفت» المجني عليها؟

فتحت عيني لكنني لم أر صاحب الصوت، صاحب السؤال.

«من أي نوع كانت علاقتكما؟»

«تجميل أظافر».

فضحك الناس الذين على المنصة.

قلت: «هذا صحيح».

لم يصدقني أحد.

«هل زرت السيدة هوبر غالباً؟»

«كاميلا هوبر؟»

«أجل».

«بانتظام».

«من أجل تجميل الأظافر-؟»

قلت: «أجل، من أجل تجميل الأظافر».

بالطبع أراحني أنهم على ما يظهر لم يريدوا معرفة الحقيقة، التي كنت أقسمت على أن أقولها بصفتي شاهداً.

رئيس المحكمة:

«لكي لا تحيد عن الموضوع-».

قال الصوت الأخر بوتيرة عالية في الصالة: «أريد مرة أخرى وبكل إصرار أن ألفت النظر إلى أن الشاهد رجل أعمى، يعني يستحيل أن سبق له رؤية القتيلة في يوم من الأيام».

ويعلو هتاف:

«ليس هذا هو الموضوع!»

رنين جرس.

«الشخص الأعمى ليس بشاهد!»

إنها حادثة، كما سبق أن قيل، تحرك العواطف. لكن المحلفين يجلسون ووجوههم متجمدة لا حراك فيها وكذلك المتهم الذي، خلافاً للمحلفين، قلما يسترق السمع ويصغي لما يقال؛ فحياته هي بشكل أو بآخر تنتظر مصيراً مدمراً.

ما أعرفه من الصحف:

جريمة خنق بواسطة حبل ستارة. من غير المحتمل أن يكون الحادث انتحاراً. وتوصف القتيلة بأنها مخلوقة أنيسة ومرحة. جريمة قتل بدافع السرقة أو بدافع الجنس. صنعتها («مومس») وتاريخ حياتها قبل ذلك؛ ابنة أسرة من طبقة البورجوازية الوسطى. يشتبه برجل كان أهداها سيارة كارمان. يضاف إلى سلسلة من الأدلة الأخرى، لكنها مثار خلاف وجدل؛ وقد تعذر إثبات

غياب المشتبه به عن مكان الجريمة وزمانها. الرسائل المتبادلة بيديها وبين المتهم. إعلاناتها بهدف الزواج. حدثت الجريمة عشية تزويجها من طبيب أسنان–

محامي الدفاع:

سألني: «لكي تعود إلى الموضوع، إذن أنت لم تسمع أبداً اسم المتهم على لسان كاميلا هوبر؟»

المحامي العام:

«ألم تسمع أيضاً، بدون ذكر الاسم، عن زبون ظل يهدد السيدة هوبر سنين عديدة عن طريق رسائل يصف فيها غيرته الشديدة عليها؟»

هذا إذن ما يُراد معرفته مني، وأنا لا أعرف لماذا أهز رأسي ببساطة بل أسأل:

«كيف تعرّف الغيرة؟»

ويلمع في الصالة فجأة ضوء كاميرا وهي تلتقط صورة.

«أجب على سؤالي–»

لست متأكداً من أن الناس لم يلاحظوا أن غانتنباين قد ارتعد لدى لمعان الكاميرا، لكنني أجبت: كلا! لكن الارتعاد الناجم عن لمعان الكاميرا جرد أقوالي من كل مصداقية، أحسستُ بذلك.

رأيت المتهم:

رجل كنت أراه أحياناً، في ما مضى كان شخصية مرموقة، رجل مثقف لكن لا يعني ذلك أنني لا أتوقع منه ما حدث؛ فأنا أعرف الغيرة المتفوقة على كل ثقافة، بل العكس هو الصحيح، فالثقافة تحشد الغيرة وتخزنها إلى أن تصبح بدائية تماماً. وهذا أمر مخيف، أجل، ربما أستطيع أن أتفهم وضع الرجل. في الماضي كان شخصية مرموقة؛ وهو الآن أنقاض مدمَّرة، أنيق في

لباسه وشديد الاعتناء به ، صموت وثمة رجفة خفيفة تتشكل في زاوية فمه حين يُذكر في حديث ما حبل ستارة. وانهياراته العصبية، التي ورد ذكرها في تقارير صحفية بصيغة مشبعة بالتأنيب والاتهام، لم تكن في صالحة. تُرى لماذا لا يعترف؟ يظهر عليه أنه يعاني بين الآونة والأخرى تحت وطأة ندم شديد؛ ثم يضع يده على جبينه بما ينم عن أنه لم يعد يفهم ذاته. لكن إشهار رسائله المتبادلة طيلة سنين عديدة مع عاهرة كان من شأنه أن دمر هذا الرجل، ذلك بالرغم من أن رسائله، التي تُليت في صالة المحكمة واقتُبست في الصحافة، هي في حقيقة الأمر رسائل جميلة جداً، حتى أنها متميزة إلى حد كبير؛ حتى أنها مطبوعة ولا تظهر بمظهر مضحك، بل شهادات على شعور جارف ينطوي على شيءٍ من الإجرام، ربما كان هذا صحيحاً لكن لا عبر تهديدات فظة بل عبر حنين رقيق إلى معرفة من يحبها. هيئة الدفاع بالدرجة الأولى تعتمد على هذه الرسائل التي هي من الظرف بمكان في أسلوبها الرامي إلى خطب الود وهي تمس شغاف القلب. كيف يمكن لشخصية من هذا الوزن، هكذا تقول هيئة الدفاع منذ أسابيع وسوف تعيد هذا القول في مذكرة دفاعها عن المتهم، أن يلجأ إلى حبل ستارة فيستخدمه في قتل امرأة؟ لكن هذه الحجة لا تنطلي على أحد. فليست كثرة الأدلة هي التي تدين المتهم بالدرجة الأولى ولا تقرير الخبراء المختلف عليه حول بصمات الأصابع ولا مسألة مفتاح المصعد, حتى ولا عجزه عن إثبات غيابه عن مكان الجريمة في ربع الساعة ذاك حين سمع الناس صراخاً في منزلها، بل رجفان زاوية فمه بصورة لا إرادية وانهياراته العصبية وبالدرجة الأولى الشعور المرهف بالذنب المستَبق في رسائله وسخرية هذه الرسائل منه ذاته ومن كل ما هو مقدس بالنسبة إلى شخصية قيادية مرموقة. رجل مدمِّر، مدمرَّة حياته العامة، رجل يبطل مفعول مرافعات محامي الدفاع إذ يرى أنها مفرطة في البساطة؛ ذلك ما يظهر على وجهه حتى وأن لاذ بالصمت. وعندما يتحدث، ونادراً ما يتحدث، يظهر عليه اليأس كما لو أن معايشة ما تقيده فلا يعزوها الآخرون إلا إلى فعلة. ومع أن المتهم معروف باعتباره خطيباً لامعاً في البرلمان الذي

ينتمي إليه، فإنه جر على نفسه ارتياباً خاصاً بتلعثمه مرات عديدة تلعثماً فعلياً كلما تعرض إلى إحراج المحامي العام الذي هو واحد من رفاقه الحزبيين. فقد كان يفتقر إلى الكلمات الدالة على البراءة الصرفة. لم يكن الأمر على هذه الشاكلة! هذا ما يمكن أن يقوله كل إنسان. لكن كيف كان الأمر؟ كما لو أنه لا يعتبر إمكانية ارتكابه تلك الجريمة أمراً محالاً فهو يقول منذ أسابيع أنه لم يفعل ذلك، لم يفعل ذلك. في بادئ الأمر، كما سبق أن قيل، حدثت فضيحة من مجرد أن هذا الرجل غدا موضع شبهة. لم يتوقع منه أحد تبادل رسائل بهذا الشكل. وبينما لم يكن في المحاكمات الأولى، بالرغم من توافر أدلة دامغة ضده، قد انطبق عليه بعد في أي حال من الأحوال ذلك التصور الذي يتكون عند المرء عن قاتل عاهرة. فقد أفلح (بفضل قوة شخصيته) في تغيير تلك التصورات المتعلقة بذلك بحيث غدا صدور الحكم في حقيقة الأمر أمراً ثابتاً...

رئيس المحكمة:

«بهذا تنتهي استجوابات الشهود. وسوف تجتمع المحكمة في الساعة الثانية من بعد ظهر هذا اليوم»، قال ذلك بصوت متناقص الوتيرة ثم تابع: «سماع مرافعتيّ الاتهام والدفاع».

وأطلقَ سراحي.-

السؤال، الوحيد، الذي خشيت منه؛ لم يطرحه أحد: سؤال ما إذا كان غانتنباين قد رأى المتهم في ليلة الحادثة وفي وقت وقوعها (من الساعة الثانية عشرة وخمس وثلاثين دقيقة إلى الساعة الثانية عشرة وخمسين دقيقة)، سواء في البار الوارد اسمه أو في الشارع. أنا لا أعرف ذلك البار، إلا أنه - على حد وصف الناس له - مكان مشبوه وترتاده حثالة القوم وتعرفه الشرطة منذ زمن طويل، وكان بإمكان غانتنباين أن يجيب اعتماداً على هذه المعلومات ثم يلوذ بالصمت. لكن بالطبع لم يُطرح هذا السؤال بالمرة نظراً للشارة الصفراء التي كان يعلقها على ذراعه. وثمة شهود آخرون كانوا في البار حينذاك، خانتهم

الذاكرة إذ عجزوا عن تذكر ما حدث بالضبط؛ وبعضهم ممن أعلنوا في البداية أنهم قادرون على التذكر ترددوا في ما بعد حين أظهرت مسيرات حياتهم أنهم غير جديرين بالتصديق. وأن يُستجوبَ الآن في نهاية استجوابات الشهود أيضاً رجل أعمى، فإن ذلك قد يكون بمثابة نكتة سمجة. ما لا خلاف عليه هو أن سيارة المتهم كانت واقفة في شارع فيلد ايغ؛ وكون هذه الحقيقة أغرته إلى أن يبحث في ذلك البار عن برهان على غيابه عن مكان الجريمة، فإنه على ما يبدو لم يعد يستطيع أن يتذكر أين كان فعلاً في وقت وقوع الحادثة. وبعد أن عول الدفاع، المضلل بتذكره الخاطئ، على هذا البار منذ أسابيع، لم يعد وارداً في الحسبان تصديق محاولة أخرى للبرهنة على غياب المتهم عن مكان الجريمة وخاصة برهنة غانتنباين ذي الشارة الصفراء المخصصة للعميان. سبق أن رأينا بعضنا بعضاً مرات عديدة حين كنت أذهب لتجميل أظافري والتقينا مرة في المصعد؛ وفي ما عدا ذلك ربما كان ممكناً في تلك الليلة، حين كنت أتمشى بين الساعة الثانية عشرة ليلاً والواحدة صباحاً بمحاذاة نهر أوتوكواي بقصد اقتياد كلبي باتش في نزهة ليلية ورأيت المتهم آنذاك يطعم البجعات، أن تسفر هذه النزهة عن محادثة بيني وبين المتهم من شأنها أن تثبت غيابه عن مكان الجريمة ويسهل عليه تذكرها كما يسهل أيضاً على غانتنباين أن يشهد بها أمام المحكمة دونما حاجة إلى أن يضحي بالدور الذي يمثله باعتباره أعمى.

رئيس المحكمة:

«انتهى الاجتماع».

فوضى من الأصوات المتداخلة والمتقاطعة.

قبل أن أغمض عينيّ، رأيت المتهم مرة أخرى، ارتجاف زاوية فمه كما لو أنه يعرفِ منذ فترة طويلة ما يجري في حقيقة الأمر: الشريحة القيادية في بلاد ما، التي تتحمل وزر كل شيء لكنها لا تعترف بذلك دون أن تورد في الحسبان أنها ستفقد صلاحيات القيادة، هذه الشريحة ليس من صالحها في شيء أن يُفرج على مرأى وسمع من كل الشعب عن واحد من المنتمين إليها

بحجة نقص الأدلة الكافية، وذلك بعد أن ثبت أنه عاش حياة مشينة واشتُبه بارتكابه جريمة ولو كان ذلك من شأنه الشخصي؛ وحدوث ذلك من شأنه أن يُظهر واقع أن ليس كل الناس متساوين أمام القانون وثمة شبهة غير محدودة تلصق بالشريحة القيادية من المجتمع؛ إن رجلاً كهذا لا يمكن الصفح عنه؛ فالشريحة القيادية في بلاد ما يجب أن تمثلها في رأس الهرم شخصيات من شأن استقامتها في حياتها الخاصة أن تطغى على كل شيء آخر؛ وإلا فإن القيادة لن تمارس إلا بالديكتاتورية.

«يا سيد غانتتباين-»

وأغمض عينيّ

قال خادم المحكمة وهو يمسك بمرفق الشاهد الأعمى: «أمامك هنا درجات!» وحين أصبحنا في الشارع، سألني: «هل تستطيع تدبير أمورك بنفسك؟».

فشكرته.

«هنا حافة الرصيف».

فطرقتُ الأرض بعصاي.

لكل دور وزره...

أنا متلهف لإصدار الحكم.

تيقن وحيد عن لِيلى: طبقاً للصورة التي في ذهني عن لِيلى، فإن لِيلى، ليست على قيد الوجود؛ وفي ما بعد سوف أراها في يوم من الأيام، أمر ممكن، لِيلى ظاهرياً-

أقف مرة أخرى على ظهر سفينة في الدقائق الأخيرة قبل الانطلاق إلى عرض البحر، وأنا في غاية السرور بالرغم من الطقس السيء، أحشو غليوني بالتبغ، لكنني في الحقيقة لا أعرف تصرفاً آخر للتعبير عن هذه اللحظات المفعمة بسرور مشتد، فلا أستطيع أن ابدأ بالدندنة أو التبختر راقصاً في وسط الناس

المتجمعين على سطح السفينة؛ ولا أريد أن أسأل نفسي لماذا أنا مسرور إلى هذه الدرجة على ظهر سفينة بيضاء قبل الإبحار ولماذا أنا وحيد لا على ظهر السفينة فحسب بل في الميناء، أحشو بالتبغ غليوني الذي لا يريد أن يُشعل، ويدب التكاسل في أوصالي في حين يحاول رجال فك الحبال الطويلة والثقيلة من الكلاليب الحديدية المثبتة فوق مرطم الأمواج ويبذلون في ذلك مجهوداً كبيراً، أما من جهتي فأنني متكاسل منذ الآن نظراً للأيام القادمة الخالية من كل عمل إبان وجودي على ظهر هذه السفينة التي رفعت الآن مراسيها إيذاناً بالإبحار، إذن غليوني في فمي دون أن أدخن ويداي في جيبتيّ بنطالي، لماذا أنا بحال جيد إلى هذا القدر: ليس علي أن ألوح بيدي لأحد، بل انتظر التطويط البليد الذي تقشعر له الأبدان، التطويط الثاني المبحوح؛ سبق أن طوطت السفينة مرة أولى فاقشعرت لذلك الأبدان. لم أكن آنذاك أفكر بأحد، بل كنت اتكئ بمرفقي على سور السفينة لكي أرى المراكب الجرارة كالكلاب المسحوبة بقيدها، ونابولي خلف الضباب. وفي ما بعد مشيت متسكعاً إلى الجانب الآخر من السفينة لكي أرى أناساً، أناساً كثيرين ظلوا على اليابسة وأخذوا يلوحون بأيديهم، عائلات، أصدقاء، عرسان، وأم عجوز صغيرة تبكي وتنتحب. لم أر بركان فيزوف. يوم قاتم، رطوبة الجو عالية وحرارته مرتفعة، شديد الريح. والآن ترتطم الحبال الثقيلة في مياه الميناء المظلمة محدثة رشقاً قوياً، ويدوي التطويط بين البراكات ومباني الجمارك ويزداد التلويح بالأيدي، مناديل جيب بيضاء اللون شبيهة بحوض من النرجس؛ وإلى جانبي سيدة تلوح بيدها هي أيضاً، في حين تتسع ببطء المسافة بين مرطم الأمواج والسفينة؛ وفي ذلك يعتريني شعور بأن مرطم الأمواج هو الذي يغير مكانه لا السفينة؛ والقوارب الجرارة ترسل الدخان في الجو مظهرة بذلك أهميتها بكثير من الزبد. تعذر علي رؤية وجهها (بطبيعة الحال لا يعنيني أمرها في شيء!) بسبب المنديل المرفرف على رأسها. إنها تقف هكذا ببساطة، يداها في جيبتي جاكيتها؛ وهي أيضاً ليست معنية بالتلويح بيدها. وبالتدريج نبدأ السفرة، كما أرى، ولا يزال البحر بدون أمواج، بعض الناس الذين هم على ظهر السفينة لا يزالون يلوحون بأيديهم ويلوحون ويلوحون، لكن وجوههم تتغير باستمرار في

أثناء التلويح بالأيدي، لم يعودوا يرون بدقة لمن هم يلوحون بأيديهم، فتتحول مشاعرهم أثر ذلك إلى حاضرهم الراهن، الذي هو ببساطة فارغ إلى حين، مفتوح على كل الاحتمالات؛ بسيط، خاو إلى درجة مربكة. والمراكب الجرارة السوداء، وهي تطوّط أيضاً، فكت الآن الحبال السوداء وتركتها تسقط في الماء ثم دارت إلى الخلف لكي تعود من حيث أتت، وأثر ذلك صارت سفينتنا تعتمد تدريجياً على قوتها الخاصة، لكن في الموعد المحدد تماماً. آخر مرطم للأمواج، وهو أسود اللون لكن الأعشاب البحرية والنوارس أضفت عليه شيئاً من البياض، يمر بانسياب ملفت مع منارة مضاءة؛ هناك ترشق المياه بقوة السد المضاد للأمواج، بعد ذلك صرنا أحراراً –لسبعة أيام– وذيل أمواجنا، في تشابه مستمر، يضيع في صباح وظهيرة ومساء...

جلستَ على ظهر السفينة.

ملل مترافق مع نظرة إلى البحر، ملل لذيذ: فليس المرء ميتاً وليس العيش مفروضاً عليه...

حاولتُ أن اقرأ.

هل سبق لأحد أن استطاع أن يقوم بعمل وهو على ظهر سفينة؟

هلم إلى البار وأنت في هذه الحالة من البطالة والكسل–

أحوالي جيدة، كما سبق أن قلت، ليست جيدة جداً لكنها جيدة من غير اكتراث؛ لا أبحث عن محادثة مع أحد ولا عما يُعرف بمقابلة؛ حين تسكعتُ إلى البار، عرفتُ من جديد منديل الرأس الأزرق، وأطلعت على شكل وجهها – وجه جميل، ربما أنها في بداية الثلاثين من العمر، وجه غير عادي، لكنه مغموم، خجول، وجه ينظر إلى من حوله من الناس على ظهر السفينة لكنه لا يريد أن يراه أحد. لن ابدأ بالحديث معها، إنها مخطئة إذا هي توقعت ذلك، لقد تذكر كل منا أنه يعرَف الآخر فحسب، شخصان لم يلوّحا بأيديهما لأحد في نابولي. وبقيت في البار لكي اقرأ كتاب الجيب الذي كان معي.

كان البحر قاتم اللون، زلق مقفر.

ونظرت حولي:

إيطاليون كثيرون، ومعهم أمريكيون-

تابعت القراءة.

كانت تجلس على البار وظهرها أمامي. الآن بـدون منـديل للـرأس؛ شقراء كما يمكن أن يكنَّ الإيطاليات شقراوات، وعيناها سوداوان. كنت أرى وجهها، الذي حجبه عني دخان سجاير، في أحد المرايا. وجه جميـل. إنهـا تعرف هذه الحقيقة وتتظاهر بالوداعة والتواضع؛ لكنها ملفتة للانتباه لأنهـا، ولو تظاهرت بقلة الحركة والملل، منفعلة. كإنسان يلوذ بالقرار. لقد اتخـذت (هكذا أظن) قراراً وهي في مزاج يائس، زال المزاج لكن اليأس لم يزل، ولا بد من تنفيذ القرار حفاظاً على الكرامة وعزة النفس، أنها تشرب-

الغداء الأول:

أتت إلى المائدة مع زوجين شابين، كل شيء جامد متـصلب تقريبـاً، الكرسي الرابعة حول طاولتنا المستديرة ظلت شاعرة-

الطقس في تحسن مستمر.

بعد الظهر على ظهر السفينة.

باليرمو:

كنا جالسين لتونا على مائدة العشاء، الزوجان الشابان وأنا، حيـث كانـا يخبراني عن الإمكانات الاقتصادية المتوافرة في كندا، وقد أومأنا جميعاً برؤوسنا حين جلست - بإيعاز من المضيفة- على مائدتنا تلـك الـسيدة ذات الإشـارب الأزرق. الآن بثياب سهرة أسود اللون وطبعاً بدون إيشارب. لقد خـاب أملهـا، على ما يبدو، من قصاصة القرعة التي سحبتها فأتت بموجبها إلـى مائـدتنا؛ لا ذنب لنا في ذلك. كانت تلبس عقداً من اللؤلؤ، كالذي سبق أن أهديتـه، شـعرها الآن ممشط إلى الأعلى، إلى ذلك ثمة نظارة شمسية لئلا يستطيع المرء أن يقـرأ ما في عينيها. وفي يدها (رأيت يدها حين أمسكت قائمة المأكولات الكبيرة) خاتم زواج. ولكي لا أتابع النظر إليها تظاهرت بأن سمكتي مليئـة بالحـسك. لغتهـا

الإيطالية في حديثها مع الكرسون: ممتازة، لكنها ليست لغتها الأم. شعرها (رأيته حين أدرت ظهري لكي ألوح بيدي لكرسون النبيذ فيأتي إلي) ليس أشقر اللـــون، لكن ربما يرجع ذلك إلى الإضاءة في هذه الصالة. في الأفق تظهر باليرمو فـــي وقت الأصيل، ولا نزال أمام المرساة. نظرتُ إلى سمكتي، وأنا أعمل كجــراح، حتى أنني لم انظر إلى الأعلى حين أراني كرسون النبيذ صنف النبيــذ، منهمكــاً تماماً بالحسك الذي تعذر علي إيجاده رأيت يدها فحسب التي كانت تكسرٌ قضباناً صغيرة من معجنات غريسيني وتفتتها، ورأيت مرفقها؛ عمرها. وبعد ذلك أخــذ الزوجان الكنديان الشابان يتحدثان مع بعضهما بعضاً. لله الحمد؛ إذ لا بد مــن أن يتحدث أحد. وبعد أن أبعدِ الكرسون صحني، نظرت إلى الأمــام بخــط نظــر مستقيم. لا بد وأنها جميلة؛ اقرأ ذلك في وجوه الناس الجالــسين علــى المائــدة المجاورة. وهنا سألت السيدة عما إذا كان بإمكانها أن تدخن، بعد ذلــك تجاذبــت أطراف الحديث من جديد مع الزوجين الشابين، الضامنين مستقبلهما. أما هي فلم تأكل تقريباً أي شيء. وغادرتنا قبل تقديم حلويات أو فاكهة مــا بعــد الطعــام، فأومأنا لها برأسنا من جديد، إلا أنها نسيت محفظة يدها؛ مشيتها عبر الــصالة – لحقتُ بها بنظراتي وأنا أقشر تفاحة...

هكذا يمكن أن تكون لِيلى.

(لِيلى ظاهرياً).

الرجال الذين في البار، حين دخلت، ضغطوا على أجسادهم لكي تصبح نحيلة فتمر السيدة دون ملامسة الأجساد بعضها بعضاً، وبما أن كل المقاعــد المدورة الحمراء مشغولة فقد نهضت من مقعدي. دون أن أكلمها. وجلــست هي في مكاني دون أن تومئ برأسها شاكرة أو ممتنــة. تفهمــتُ ازدراءهــا الرجال وصعدت إلى ظهر السفينة لكي أعاين الليل...

جبل طارق:

رسونا في خليج جبل طارق ساعات طويلة مطلين بذلك علــى الــصخرة الشهيرة، المحاطة بزوارق متأرجحة على سطح الماء، ثمة تجار كانوا يعرضــون للبيع سجادات مغربية، ويطلقون صرخة، ثم يرمون حبالاً فوقها وما على المرء إلا أن يسحب الحبل ويضع دولاراته في السلة، وهبت رياح، لكن كــان الجميــع

واقفين على سطح السفينة، ونحن واقفين على سطح السفينة، ونحن أيضاً، السيدة ذات الإيشارب الأزرق وأنا، أيدينا في جيوب بناطلنا، حتى أنني لم أعرف كيف دخلنا في حديث مع بعضنا بعضاً - بلا لف ولا دوران، على ما أظن، وبدون أسئلة كهذه: هل تسافرين لأول مرة عبر الأطلسي؟... ولِيلى أيضاً (إذا فرضنا أنها لِيلى فعلاً) لم تشتر أية تنكارات، بل اكتفت بالتفرج على حركة البيع والشراء، يداها في جيبتي جاكيتها الجلدية؛ يبدو أنها كانت جذلة ونشيطة، خفيفة كالنوارس.

قلت: «أجل، الآن لن يصعد أحد بعد إلى السفينة».

كنا نتحدث بالألمانية.

قلت: «هذه النوارس، أريد أن أعرف مرة ما إذا كانت هي ذاتها دائماً التي تحوم فوقنا مذ كنا في نابولي».

يبدو أن السيدة مشغولة بهموم أخرى.

قلت لكي لا تتوقف عن الحديث: «يزعم الشاب الذي يجلس معنا على المائدة أن هذه النوارس هي ذاتها التي سترافقنا حتى أمريكا». استراحة، طالما لم يخطر على بالي شيء بعد عن النوارس وانهمكت وقتذاك بتفريغ غليوني من الرماد-

إلى هنا وصل حديثنا!

من جديد جلست في كنبتي الموجودة على سطح السفينة وقد ثبتت قدميَّ على حافة السفينة، البيضاء اللون والمرتجفة باستمرار، الأطلسي بين نعلي حذائي؛ في هذا الجو من التشرب الطويل لحالة البطالة والكسل المقيتة لم أستطع حتى قراءة كتاب من كتب الجيب الصغيرة - ولا أريد الآن الذهاب إلى البار، لأنها على أغلب الظن موجودة هناك...

ليس لدى أحدنا ما يقوله للآخر.

للأسف، أنها لا تلعب الشطرنج.

في حين كنت أتصور، هذه السيدة هي لِيلى، أو أسأل نفسي فحسب ما إذا كانت لِيلى تبدو في مظهرها شبيهة تماماً بهذه المرأة، حدث ذلك الأمر العجيب: ليس عندي أية فكرة عمن تكون هذه المرأة وأعرف أنني أجهل حقيقة من هي ومع ذلك فقد بدأت في تأويل ما تخفيه في أعماقها -

امرأة جديرة بكل حب.

أنا متأكد:

إن امرأة تتحلى بهذا الوجه لا تأبى فحسب أن نقذف بكؤوس الويسكي لكي تتحطم على الجدران، بل تفعل أيضاً من أجل سفوبودا ما لا يستطيع هو أن يفعل من أجلها: إنها تسهل عليه العيش، وبما أنها تخفي عليه أنها تقضي ليالٍ عديدة وهي تبكي وتنتحب، فهو لا يعرف إلى من يعود الفضل في تحقيق سعادته وهناء عيشة. وهي لا تشعر بالإهانة كالرجال. وهي لا تثرثر هنا وهناك؛ ومن يراها في أشهر كهذه لا يفترض شيئاً مما تعانيه. هل سبق لرجل أن استطاع ذلك في يوم من الأيام؟ وهي تقوم بتلبية ما تتركه لها المرأة الأخرى، أي متطلبات الحياة الزوجية اليومية، وتغدو بشعة قليلاً؛ لكن هذا أيضاً يسهل عليه عيشه. وهي لا تورد في الحسبان انهيار كل الحب؛ تؤمن بالمعجزات؛ لا تهدد بأنه قد يفقدها؛ وتتمرن على لعب دور هامشي في حياته. زهوها ليس ابتزازاً. أنها تحترمه. ولا تتجنى على المرأة الأخرى لمجرد أنه يحب تلك المرأة الأخرى. ولا تنبش في الأسباب والمسببات، ولا تلت وتعجن في شتى المواضيع. لا تخنق ابتهاجه وسروره إذا ما امتلك الشجاعة لكي يكون مبتهجاً ومسروراً، وحين يتحدث عن عمله تصغي إلى حديثه كما لو أن الحديث يدور عن الأمر الهام. وهي تمكنه من أن يكون لطيفاً؛ لكنها لا تظهر عليه إذا كانت في الحمام، ولا تتيح له فرصة أن يراها عارية. إنها على علم بأن ثمة امرأة أخرى في حياته، لكنها لا تريد أن تعرف تفاصيل ما لا يعنيها؛ وهي تجد في بعض الأحيان أمشاطاً لا تخصها فتخفيها بصمت وهدوء. ويلتقي ثلاثتهم معاً. ليست بخيلة. وتتحدث إلى المرأة الأخرى كما لو أنها أخت لها أكثر حظاً وتثير إعجابها-

إنها امرأة رائعة.

ألا يعرف سفوبودا ذلك؟

فهمه للأمر:

الفرق الطبيعي بين الرجل وامرأة، المتعذرة إزالته عن طريق المساواة بينهما في الحقوق، يكمن في أن الرجل هو باستمرار الذي يتصرف إبان العناق. وهو يبقى هو ذاته، وذلك ما تعرفه المرأة حق المعرفة؛ إذ أنها تعرف

الرجـــل. لكنها لا تريد معرفة مـــاذا تستطيـــع أن تتنبأ عن أموره. وبالمقابل لا يعرف الرجل بتاتاً كيف تقع امرأة، حين تخرج من البيت، في حالـــة مـــن العناق مع رجل آخر غيره؛ لا يستطيع بالمرة أن يحزر ذلك. المرأة هائلة من خلال تلاؤمها اللا محدود؛ وحين تأتي من عند رجل آخر، فلا تكـــون هـــي ذاتها؛ وهذا من شأنه، إذا ما كتب له الاستمرار بعض الوقت، أن يصل إلـــى أعمق الاهتمامات العقليـــة والفكريـــة، إلى الآراء والأحكـــام. لأن المرأة إذا ما خرجت من البيت، تذهب إلى أبعد مما يذهب الرجل وعليها لدى عودتها أن تتصنع أيضاً في الحديث عن هذا وذاك من الأمور؛ ولذلك فإن الرجل يريد أن يعرف ما لا يعنيه؛ المرأة الذواقة لا تفصح له أبداً عما تخفيه، في حـــين يحب الرجل، على العكس من ذلك، أن يحكي لها عما يخفيه إلى أن يعتريهـــا الملل. كما لو أنه يستطيع عند العناق أن يكون رجلاً مختلفاً تماماً الاخـــتلاف عما هو عليه من قبل ومن بعد! وعلى هذا الأساس يقوم زهو المرأة الفطنة، زهوها الذي لا يُحتمل والذي من شأنه أن يذكرنا بضيق أفقنا.

هكذا هو سفوبودا.

قلت: «كما ترين، نحن الآن هنا!» وأريتها الأعلام الصغيرة الحمراء، التي تُغرز في صباح كل يوم على سطح خريطة الأطلس الكبيرة، موقعنا في الفراغ الأزرق مع خطوط طول. «نتقدم إلى الأمام».

«هل اليوم هو يوم الخميس؟»

قلت: «أجل»

وقال الرجل الشاب، الذي يعقد آمالاً كبيرة على كنـــدا: «أجـــل، مـــن المؤسف أننا سوف نصل بعد غد».

تركت الاثنين معاً على انفراد.

وفي كنبتي التي على سطح السفينة، إذ ثبتت قدميَّ على حافة الـــسفينة المهتزة على الدوام، صرت أقرأ لتوي عبر النظارة الشمسية كتـــاب جيـــب سوف يعجبها أيما أعجاب، إنها قصة رجل متحـــرر مـــن التفكيـــر الـــسلفي الأصولي؛ أنني الآن منهمك بالذات في قراءة الفصل الذي يوصَف فيه هـــذا

الرجل، إذ يحب امرأة وقد علم عبر مائتين وثلاثين صفحة أنها قضت الليل عند رجل آخر، وهو يعد مائدة الفطور، فطوراً لثلاثة أشخاص، شهية ليست المأكولات والمشروبات فحسب، على المائدة شرائح من فخذ الخنزير بالبيض – كما أقرأ – وأنواع منوعة من الجبنة، خبز أسود، فواكه، كل شيء موصوف بطريقة تثير الشهية، بل شهي أيضاً الحديث بين الثلاثة، مرح وفكه، دون حراك وتشنجات، دون إخفاء، دون ربط بالأوضاع التي تظهر بذلك على أنها بديهية – وأنا متشوق لمعرفة كيف ستستمر الأحاديث...

للأسف كان البحر آنذاك هائجاً مائجاً.

الغداء قبل الأخير:

يقل الحديث من يوم لآخر بين صديقينا، الزوجين الشابين، والزوج الشاب بالدرجة الأولى يبدو له أنه لم يعد يورد في الحسبان أن لدى زوجته الشابة، التي سينقلها إلى كندا، ما تقوله بعد–

بعد الظهر:

كنت أتابع القراءة في كتاب جيبي، من حين لآخر كنت أقلب بضع صفحات دون أن أقراها، من دون صبر وأناة، لا أعرف علام، كنت انظر ما إذا كانت النوارس لا تزال ترافقنا، النوارس ذاتها، أنني قارئ رديء: فأفكاري شبيهة بنوارس خلف سفينة مبحرة، تلحق بها وتلحق بها، وفجأة تتعطف وتطير في عرض البحر لكنها سرعان ما تعود وتطير إلى مسافة متقدمة، النوارس ذاتها دائماً، ثم تتخلف عن السفينة كأفكاري خلف القصة التي تتابع مسيرتها بوتيرة سريعة ودون توانٍ.

وذات مرة، كما أرى، أخذا يلعبان كرة الطاولة.

يبدو أنه لم يوجد بعد أي نوع من الدهانات يمكنه مقاومة هواء الماء المالح؛ ثلاثة من البحارة يدهنون حافة السفينة، المهتزة باستمرار، من نابولي حتى نيويورك وبالعكس، ويبدو أن كل دهان أبيض مصاب بمرض الجدري، متعذر الشفاء، الرافعات والوينشات والسلالم، أنابيب التهوية ذات الصفير المستمر، كل دهان أبيض هو مكسو بما يشبه النُدب وآثار الجروح، والبحارة

يدهنون فوق الدهان، لكن المشكلة تبدأ باستمرار المرة تلو المرة ببثور صدأ بنية اللون ومائلة إلى الاصفرار...

المساء قبل الأخير:

إنهما يرقصان، السيدة التي قد تكون هي لِيلي والمهندس الشاب.. وجهها على كتفه – وجهها الذي أحاول عبثاً أن أصفه: – خفض جفنيها يكفي، تبديل نظرتها إلى القريب أو البعيد، يد تداعب شعرها خلف الأذن في المنظر الجانبي لوجهها، وبعد ذلك ضحكتها مجدداً من الأمام، دوران، تقطيب جبين يكفي لأن تسقط عن وجهها ببساطة كل الأوصاف التي قمت بجمعها...

أنا ذاهب للنوم.

بعد الظهر الأخير:

أنهيت قراءة كتاب الجيب الذي بحوزتي، وما عدا ذلك لم أفعل البتة أي شيء آخر في هذه الأيام الطويلة القصيرة؛ بالكاد تجانبت أطراف الحديث مع أحد؛ لا خواطر لها بي علاقة، لا قصص، لا خطط، وتبين لي أنني على مدى أنصاف أيام كثيرة لم أفكر بأحد ولا بنفسي، وكنت أجد متعة كبيرة في تثبيت أقدامي على حافة السفينة التي ما تفتأ تهتز باستمرار، الآن دون قراءة، لكنني يقظ، وأرى الآن الزوجة الشابة وهي تبحث عن زوجها المهندس؛ لقد رأيته، أجل، في المسبح، لكنه لم يعد هناك؛ لا أظن أنهما صعدا معاً إلى ظهر السفينة، ربما أنهما يتفرجان الآن على حجرة الماكينات، بما أنه مهندس، السفينة هي نوع من جنة التيه–

المساء الأخير:

لم تأتِ إلى العشاء.

تجانبت أطراف الحديث بالتفصيل (في حقيقة الأمر لمجرد ألا يلفت الانتباه غياب رفيقنا في المائدة إذا ما ساد الصمت ولأن زوجة المهندس الشابة تلوذ بالصمت هكذا كما لو أنها متحجرة وجامدة)، لا بل بتفصيل أكثر مما يتطابق مع اهتمامي، مع المهندس الشاب الذي لم يذهب إلى ظهر السفينة، تحدثت معه عن

حافة السفينة التي هي باستمرار في حالة من الرجفان والاهتزاز، تحدثنا عن مشكلة التذبذب التي - كما كنت ظننت - مازالت بدون حل-

منتصف الليل على ظهر السفينة، نجوم، رياح.

تجاذبت أطراف الحديث مع رجل دين أمريكي من مؤخرة السفينة حتى مقدمتها ومن مقدمتها حتى مؤخرتها جيئة وذهاباً وكنت أمشي بجانب سترته السوداء المرفرفة، وأومئ برأسي، حين شعر كلاهما بأن أمرهما قد أنكشف على ظهر السفينة-

الصباح الأخيرة:

قدم إلى ظهر السفينة أحد المرشدين، ونودي بواسطة مكبرات للصوت على جميع الركاب بثلاث لغات وقس على ذلك، جيشان وهيجان في الممر الذي كان يعج بالناس كما في تجمع كبيرٍ من النمل الهائج، مسافرون في معاطفهم، الحقائب تتكدس فوق بعضها بعضاً، موظفون وعمال، سُحبت الشراشف من الأسرّة ووُزع البقشيس، وفجأة جلس ضباط أمريكيون في صالة الانتظار وأخذوا يفحصون جوازات السفر بطريقة موضوعية غير مريحة، بل أكثر من جوازات السفر، حتى صور رونتغن الشعاعية، وثائق تطعيم بكل الأحوال، تلك الأجراءات تستغرق وقتاً غير قصير، نودي لآخر مرة على جميع المسافرين، أكوام من شراشف الأسرَّة مكدسة في الممر... قلت لنفسي: آمل أن تكون قد فطنت إلى حزم حقائبها ومحافظها!- ربما تجلس الآن في مقصورتها وتسرح شعرها قبل أن تربط رأسها من جديد بذلك الإيشارب الأزرق. (ماذا يعنيني من أمرها وأنا أقف على الدور، جواز سفري ووثيقة تطعيمي في يدي، ويغمرني السرور من أنني هذه المرة لمست ملزماً برعاية أحد)...

قد تكون هذه المرأة هي لِيلى بذاتها.

لم أرها بعد ذلك.

مظهر لِيلى الخارجي:

وجهها في المرآة حين انتهائها من تسريح شعرها وقد أمالت رأسها جانباً وحين تضبط المرآة، نقرتها وأذنها العارية، الآن وهي ترفعه إلى الأعلى، شعرها

المسترسل ثم تتركه يتدلى، شعرها المسترسل كثيف كشلال ماء، تدفعه إلى ما خلف الكتف، تسمع مكبر الصوت الذي يدوي خارجاً في الممر وتمسح بأصابع كلتا يديها عظام خديها وصدغيها وتحت الشعر الجاف خلف الأذنين الدافئتين، وثمة مرهم على أصابعها، كانت تحس ببشرتها المرهفة، وتتابع مسح الوجنتين بطراوة ولين ثم الذقن ثم من جديد ارتفعت يدها بالمرهم إلى الصدغين حيث تكون البشرة صلبة، ثم الأنف الناعم المتصلب مع حافته، مناخيرها، وتابعت الدهن بالمرهم في حين كانت ترى الساحل من بعيد عبر المياه القريبة – أغلب الظن أنها جزيرة النار – وبعد ذلك من جديد وجهها في المرآة، ثم توقفتْ: لا يستطيع المرء أن ينظر بكلتا عينيه في آن إلى نفسه: توقفتْ أمام نظرتها التي ظلت ملتصقة بالزجاج من الخلف، كل شيء آخر ظل خلف الزجاج، جبينها وشفتاها الشاحبتان ورموشها التي كانت تزوقها بالفرشاة، واستغرق ذلك وقتاً طويلاً، البشرة التي تحت عينيها تلمع بشفافية كورق الحرير، متألقة، لينة، مائلة إلى اللون البني واللون الأزرق كأوراق الخريف الرطبة، وأخذت تمسح بشرتها بمسحوق البودرة، من شأن ذلك أن يستغرق وقتاً طويلاً، وبعد ذلك أخذت تمشط شعرها، كان الساحل يقترب في غضون ذلك، مشبك شعر بين شفتيها، ساحل منبسط تتخلله أشجار وبراكات منزلقة، ومن حين لآخر عوامة، تمشيط الشعر يستغرق هو الآخر وقتاً طويلاً، لم تعد مكبرات الصوت في الممر تنادي على الناس، أخرجت مشبك الشعر من فمها وأخذت تطلي شفتيها فترفعهما حيناً فوق بياض أسنانها الشبيه بالصدف، تطلي شفتيها الطريتين والمكتنزتين والقويتين برقة فتشدهما وتجعلهما تطفحان وتتدفقان أو تضغطهما وهما مغلقتان لكي تطلي الخط، الخط الناعم والفاصل بين البشرة الخارجية والبشرة الداخلية، يا له من فم، وانحنت إلى المرآة لكي ترى بدقة أكثر، يا له من فم، رطب كعصارة مشمشة مفتوحة، ثم دحرجت شفتيها كل واحدة باتجاه الأخرى لكي يتوزع اللون بشكل أفضل ثم أغلقت قلم الشفاه ونظرت إلى فمها في المرآة وجعلته ينفتح، لكن بصمت، حان الوقت، خشخشة سلاسل المرساة، حان الوقت لارتداء الإيشارب الأزرق في حال هبوب رياح شديدة في الخارج، يبدو إن السفينة لم تعد تتزلق، خشخشة سلاسل المرساة، السيدة لم تنس شيئاً لأنها وحيدة، وجالت الطرف في ما حولها، جسدها في المرآة: كما يراه الرجال، جسدها في

مظهره الخارجي، لم تفكر بزوجها حين كانت تربط الإيشارب الأزرق حول شعرها المسرَّح، وقد نسيه جسدها، ربطت منديل الرأس تحت نقنها مبدية بذلك استعدادها لأن تستقبل في غضون ربع ساعة على رصيف الميناء بأيد وعينين وقبلات لا تدري ما الأمر-

هل هذا صحيح؟

من يرى الوضع على هذه الشاكلة هو سفوبودا.

كنت أقف على سور السفينة، يداي في جيبتيّ بنطالي، حين قُذف بالحبال، كنت تقريباً المسافر الأخير على ظهر السفينة، الكل يتدافعون إلى المخرج، حمى الوصول، كان صباحاً بارداً، والجو قاتم في الأفق.

هل أنا سفوبودا؟

اختبارات غانتنباين لا تنتهي: - كنت أجر ساقيّ في الماء، وحيداً في المنزل، ماء تعكس كالمرآة وتتدحرج، أمواج صغيرة لدى كل خطوة، تقرقر، ماء على طول ممرنا الطويل، أسمعها، ولا فائدة هنا من تمثيل دور الأعمى، ماء تترجرج وتقرقر حيثما أمشي، في غرفة الجلوس أيضاً، مياه من غرفة إلى غرفة، تعكس ضوء النافذة، فاترة... لم تكن تلك هي المرة الأولى التي نسيت فيها لِيلى _ وهي في عجلة من أمرها خشية أن تذهب إلى عملها متأخرة- أن توقف ماء الدوش عن الجريان؛ لكنها المرة الأولى أيضاً التي لم يلاحظ فيها غانتنباين تلك الحادثة في الوقت المناسب... هكذا إذن كنت أجر ساقيّ في الماء في وقت كانت فيه لِيلى تقف على خشبة المسرح. أبرر له: أنها كانت تفكر بالنص الذي سوف تلقيه. أتمنى لها كل التوفيق والنجاح. أو من الأفضل أن أقول: سوف أوقف ماء الدوش عن الجريان. لقد فعل غانتنباين ذلك مرات عديدة. دون أن يقول مرة كلمة واحدة حول الموضوع. لكن غانتنباين يأتي في هذه المرة بعد فوات الأوان. ففي هذه المرة سوف تلاحظ لِيلى من الذي أغلق حنفية الدوش، وسوف أكشف نفسي. ما العمل إذن؟ وأنا في المعطف والقبعة، وحيداً، كنت أقف في حيرة في المنزل الفائض بالمياه. وسبب ذلك هو أن غانتنباين، لكي يحافظ على الدور الذي يلعبه، لم يسبق أن قال شيئاً عن هذه المسألة. أم هل ينبغي علي، من خلال تركي ماء

الدوش مستمرة في سيلانها، أن أجلس على الكرسي الهزاز وقدماي على الطاولة الصغيرة لكي أحافظ على مصداقية غانتنبابين بأنه أعمى وأنه لم يحس بالفيضان الذي اجتاح المنزل؟ إنه حل باهظ التكاليف؛ سوف تنتفخ الأرض. سوف يحل منتصف الليل إلى أن تعود لِيلى إلى المنزل، وسوف يحتج المستأجرون في الطابق الأسفل. أم هل ينبغي على غانتنبابين أن يخرج من المنزل؟ لا يمكن أن ترتفع المياه إلى أعلى من العتبة المؤدية إلى الشرفة. ليس ثمة، على ما يبدو لي، حل آخر سوى أن أفتح الدوش من جديد وأغلقه بحيث تمطر الماء رذاذاً على منتصف ما فوق حافة حوض الحمام ثم أخرج بعد ذلك من المنزل. ما يمنعني من تنفيذ هذه الخطة: هو ما فيها من عنصر تربوي. وإثر ذلك، إذ كنت على أتم الاستعداد للخروج، رأيت كيف أن المياه صارت تقترب بألسنتها المزاجية المتقلبة بتباطؤ لكن بدقة وثبات من الكتب والأسطوانات، التي ليس محلها هو الأرض إلا أنها كانت آنذاك على الأرض، ولم يطاوعني قلبي: فسارعت إلى إنقاذ الكتب والأسطوانات وحذاءها الحريري والستائر التي كانت بدأت بالارتشاح. كيف يتأتى لأعمى أن يتصرف على هذه الشاكلة؟ قد يُبرر إيقاف ماء الدوش عن الجريان: فغانتنبابين يحس أيضاً كبقية الناس حين تبتل قدماه بالماء ويسمع أيضاً كبقية الناس خرير المياه لكن ماذا بشأن إنقاذ الكتب والأسطوانات؟ هكذا أقف الآن وأنا في حيرة من أمري بعد أن وصلتُ بالكتب والأسطوانات إلى بر الأمان، على يقين تام بأنه لا بد لي من إزالة هذه المياه من الوجود لئلا تكشفني، وذلك في الحال لكي تجف الأرض فعلاً إلى أن تعود لِيلى إلى المنزل. السب أو الشتم لا ينفعان في شيء؛ لا حل إلا بمنشفة أضعها بعناية، كيلا أسبب نشوء موجات مائية صغيرة وبالتالي توسيع الطوفان الصغيرة، على الأرض واجعلها تمتص ماء إلى درجة الإشباع ثم أعصرها في الحمام، في كل مرة ربع ليتر من الماء، لا أكثر، وهكذا ذهاباً وجيئة، حافي القدمين، جيئة وذهاباً ومرة أخرى جيئة إلى حين، دون أية نتيجة يعتد بها، إذ لا زالت المياه تعكس كالمرآة ولا زالت تقرقر. في مدى ساعة ونصف من الزمن قُضي الأمر. دخنتُ السيجارة الأولى ، ونظرت إلى الساعة: لِيلى الآن في الفصل الثالث من المسرحية. أتمنى لها كل التوفيق والنجاح. لكن

ماذا بشأن السجادات؟ في حمأة ذعري من الموقف بمجمله لم أفكر بهذه المشكلة، مشكلة السجادات المبتلة تماماً، كنت أتعرق في غمرة حيرتي وارتباكي. لا بد مما ليس منه بد، حتى ولو كان الدافع لذلك مقتصراً على الغضب من غانتنبابن، وهكذا جثوت على ركبتيّ وأخذت أطوي السجادات وأعصرها إلى أن تشنجت يداي. كان كلبي باتش مسروراً بهذا العمل؛ لم أر سوى المياه العكرة التي كنت أعصرها من السجادات، ولم تظهر آثار أقدام باتش في كل أرجاء المنزل، لم تظهر بعد. وبعد ساعة أخرى لم تعد السجادات تعصر شيئاً من الماء. طبعاً ما أن لها أن تجف، إلا أنني أوليت أمر بقية الماء التي امتصتها السجادات لتيار الهواء؛ فتحتُ كل النوافذ الموجودة. ثم شربت كأساً من البيرة. كانت تفصلني ساعة واحدة عن منتصف الليل! بعد ذلك سألت نفسي، وأنا جالس في الكرسي الهزاز منهكاً من التعب، ما إذا كان تصرفي من حيث المبدأ تصرفاً صحيحاً. لكن تعذر علي الإمعان في التفكير؛ الآن كنت أرى آثار الأقدام القذرة التي تركها باتش في غضون ذلك في كل أرجاء المنزل، وذلك يتطلب جولة ثانية من تجفيف الأرض بالمنشفة ثم تنظيف بانيو الحمام في ما بعد. ولحسن الحظ لم تأت لِيلى في الموعد المرتقب، ولمّا يزل بعد وقت كاف للسجادات لكي تجف؛ من المؤكد أنها التقت بأحد الناس ممن يجلونها بحق وربما يستغرق لقاء من هذا القبيل ثلاث ساعات، آمل ذلك. الآن حل منتصف الليل. وضعتُ يدي على السجادات. أستطيع أن آمل فقط بالذهاب إلى زيينهاغن؛ وبعد ذلك سوف تحل الساعة الرابعة صباحاً. لن تجف السجادات حتى ذلك الحين، لكنني سوف أضع لِيلى في الحال على ركبتيّ لئلا تلمس قدماها الأرض. وسوف تسألني لِيلى عندئذ عما فعلت طيلة هذا المساء.

سوف أقول: «آخ، كنت أعمل».

وسوف تفرح بذلك.

أما أنا فسوف أبتسم.

لكن في صباح اليوم التالي (لم أفكر بذلك إلا الآن!) أصبحت أرض المنزل: قاتمة اللون، شاحبة، مبقعة ولم أعرف كيف سيتأتى لغانتنبابن أن يفسر ذلك أو يبرره. واعترتني الحيرة من جديد. سوف تكشفني أرض

المنزل. ليس ثمة جدوى من أي شيء. ربما عدا شيء واحد: - ارتدي ربطة عنقي من جديد، أولاً قميصاً نظيفاً ثم ربطة العنق بعده وأترك إثر ذلك ماء الدوش تجري بحيث تفيض فوق حافة بانيو الحمام، وألقي بالكتب والأسطوانات مرة أخرى على الأرض بعد أن أفلح في إحداث الفيضان وبعد ذلك أتناول جاكيتي وعصاي الصغيرة السوداء لكي أخرج من المنزل.

وماذا بعد؟

لن تستطيع لِيلى أن تصدق أنها نسيت إغلاق سكر الدوش، بالرغم من الفيضان. لا يمكن أن يتحمل مسؤولية ذلك أحد غيري. وسوف تقول أن مشكلة الدوش لم يسبق أبداً أن حدثت لها من قبل. ولا يحق لغانتنباين أن يعترض على هذا القول.

هل غانتنباين رجل مجنون؟

غانتنباين باعتباره أباً:-

حين قادته كبيرة الممرضات إلى أمام السرير الصغير الأبيض اللون، من جهة لم تر مبرراً لرغبة الرجل الأعمى في ذلك ومن جهة أخرى كانت تفكر بشكل مؤثر أن أباً لن يستطيع في يوم من الأيام أن يتعرف على طفله، أبداً، وحين رفعتْ أخيراً الغطاء الأبيض أيضاً عن وجه الرضيع شريطة ألا يلمسه أو حتى يقبّله، لم يكن غانتنباين بحاجة إلى التصنع: إذ لم ير في حقيقة الأمر شيئاً فريداً من نوعه. أنها لحظة كبيرة، ما في ذلك أدنى شك، لكن ليست كذلك بالنسبة إلى العيون. لحظة تاريخية. ما يراه: هو رضيع وما تخبره كبيرة الممرضات بهذا الشأن هو ما لا يستطيع غانتنباين أن يراه. رضيع كآلاف الرضّع غيره. كما كان متوقعاً؛ كما لا يُتوقع غير ذلك. غانتنباين يلوذ بالصمت؛ غانتنباين ليس بحاجة إلى أن يتصنع؛ هذه مقابلة أولى جيدة. إنه مسرور من أن لِيلى اجتازت الصعاب. كانت صرخاتها مخيفة. وهي الآن مستلقية في سريرها، شاحبة اللون وشعرها ملزّق، لكنها تبتسم، وغانتنباين يمسك بيدها الرطبة.

ثم أُنبأ أن المولود أنثى.

في ما بعد، وهو يمشي لوحده في الشارع بعصاه الصغيرة السوداء التي يطرق بها على الرصيف وكان يرافقه كلبه بانش الذي لا يعرف شيئاً عن الحدث ثم يجلس بعد ذلك في حديقة عامة، أخذ يحس بأول قلق أبوي: قد يبدلون الرضيع، حين يغسلونه ويزينونه ويلفونه، برضيع آخر. غاننتباين ذاته لا يستطيع، كما سبق أن قيل، أن يرى ذلك. وإذ اعتراه القلق الشديد، عاد مرة أخرى إلى المشفى. لكي يرى الرضيع. لم يستسلم لمحاولة منعه من ذلك ولم يأبه بالتعليمات الناظمة لأوضاع المشفى الداخلية، لا بد وأن يرى الرضيع، ومهما تبدو هذه الرغبة غريبة وغير مناسبة، حين يحمل الشخص المعني على ذراعه شارة صفراء خاصة بالعميان، فلا يحسن أن يُضن عليه بتحقيقها. كانت لِيلى نائمة آنذاك. فلا بد إذن من المشي على رؤوس الأصابع. وكبيرة الممرضات، حين رأت كيف أن غاننتباين- باعتباره أباً أعمى - قد وقف طيلة عشر دقائق أمام السرير الصغير، أثر فيها هذا المشهد فعلاً إلى درجة كبيرة. بالطبع لم يسأل الأب ما إذا كان هذا الرضيع هو طفله الفعلي؛ فقد يُساء فهم سؤال من هذا النوع. في الممر الممتد خارج الغرفة، حيث يعج المكان بالأطفال الرضَّع بالذات، كانت كبيرة الممرضات تقود غاننتباين ممسكة إياه بذراعه؛ لقد أحس حينذاك بأنه فعلاً أعمى. إلى حد لم يسبق له مثيل. على أن قلق غاننتباين لم يتبدد إطلاقاً حين عاد من جديد إلى الشارع، يقوده كلبه بانش، ثم دخل بعيد ذلك إلى أحد البارات لكي يشرب كأساً من الكريز. لكي يعود إلى رشده. والرشد هنا يكمن في أن يستطيع ببساطة استيعاب وتصديق ما حدث؛ في أن يذهب الآن إلى إحدى المطابع، بعد أن أبعد عن وجهه نظارته المخصصة للعميان؛ ذلك لأن من المهم بالنسبة إليه اختيار الخط الملائم ونمط الطباعة اللائق، وهو يريد أن يرى النماذج بدقة قبل أن يصدر تكليفاً بطباعة الإعلان المفرح:

«بياتريك».

اسم جميل...

بياتريك غاننتباين، كما ستسعى في ما بعد ذات مرة، اسم أقل جمالاً لكن لا سبيل إلى تغييره كما لا سبيل إلى الاختيار؛ فلكل امرئ أب مهما كان اسمه.

أتخيل:

بعض الناس، حين سيقرأون الإعلان المفرح، لن يشكّوا بتاتاً بأن الطفلة هي فعلاً من غانتنباين؛ وآخرون سوف يتساءلون دون أن يتحدثوا عن ذلك، أمر بديهي. وفي نهاية المطاف لن يهمهم هذا الأمر في شيء. إنهم يحترمون لِيلى ويحبون غانتنباين وسوف يقدمون تهانيهم للاثنين وسوف تُرسل باقات كثيرة من الزهور. وسوف يؤكدون لغانتنباين أن طفلته تشبهه كثيراً. فهو لا يستطيع أن يراها، على حد معرفتهم. هذه الابنة من ذلك الأب! ذلك سوف يكون رأي كل الناس، وسوف تفرح لِيلى حين يقف الناس أمام عربة الطفلة المخصصة للغرفة ويقرون بهذا الشبه، لمجرد أنهم قالوا شيئاً؛ لِيلى ترى أيضاً أن الطفلة...

أتخيل:

غانتنباين، حين يحين الوقت في يوم من الأيام لأن يخرج في نزهات مع الصغيرة يداً بيد ولن يكون واضحاً آنذاك من يقود من؛ الأمر الهام هو أن الاثنين، الطفلة مع الأب الأعمى وغانتنباين الذي يقود ابنة لِيلى أو هي تقوده، غانتنباين سوف يشتري بوظة للطفلة وسوف يريها الدببة المتثاقلين في حركاتهم في حديقة الحيوانات والذين يمدون أكفهم طالبين شيئاً من الناس ويرقصون على أطرافهم الخلفية إلى أن يرمي لهم الناس بعض الجزر، وغانتنباين، الأعمى، هو أكثر مهارة (كما ينبغي أن يكون البابا أيضاً) في رمي قطع الجزر باتجاه الدببة-

أتخيل:

قلقه من أن الطفلة قد تسبر غوره في يوم من الأيام وتكشف بشكل قاطع تمثيله دور الأعمى أمام الكبار أيضاً الذين قد يلائمهم هذا التمثيل، قلقه هذا سوف يكبر كما تكبر بياتريك-

إلى متى يصدّق طفل أمراً من الأمور؟

كنتُ أعرف ذات مرة، في وسط من الأصدقاء، طفلاً يتعذر أن يوضع في أحضان الكبار دون أن يهجم على نظاراتهم ويسقطها عن وجوههم، وذلك هوس تعذر تلافيه سواء بالتحذير أو حتى المعاقبة بقدر ما تعذر تلافيه أيضاً بالمزاح والمداعبة؛ ذلك الطفل، وكان عمره آنذاك أربع سنوات، بالكاد كان يتكلم بضع كلمات؛ وفي غمرة القصة المضحكة، التي بدا أنه يصغي إليها

باهتمام، هجم على النظارة من جديد وأمسك بها لا رغبة منه في الحصول عليها، بل هكذا ببساطة، لإنزالها ببساطة من على الوجه فحسب.

أتخيل:

غانتنباين، حين يرى رسومات طفلته ويتأكد له أنها تتميز بذلك الجمال المثير بحيث لا مفر من الاعتقاد بعبقرية من رسمتها، لكن لا يجوز لغانتنباين أن يمتدحها، بل لا بد من أن يخفي أندهشه ويسأل عمَّ رسمت بياتريك التي لا تستطيع أن تعبر عن ذلك بالكلام بل ترسم بدلاً من ذلك بطباشير زيتية، وغانتنباين يرى ما ترسم: هذا هو بابا، الرجل ذو الشارة الصفراء على ذراعه، وهنا رُسم كل شيء كان البابا قد أراها إياه وحكا لها عنه، كل شيء مرسوم بألوان فاقعة، السيرك، السفينة مع الناعورة، الساحرة المشعوذة، الأعلام والبرق في السماء البنفسجية اللون والمظلة، مقلوبة رأساً على عقب، وكل شيء، الجبال، الطبل الذي يحدث الرعد، والإطفائي البدين حاملاً خرطوم المياه على السلم، بياتريك والبابا بشارته الصفراء المعلقة على ذراعه والمخصصة للعميان وبعصاه الصغيرة التي يشير بها ويدل على الأشياء، وكل شيء وكل شيء، والآن لم يعد يعرف ولو مرة واحدة ماذا تريد الرسومات أن تصور.

ويصبح الأمر بالغ الصعوبة.

وفي ما بعد كذباتها الأولى-

بياتريك نهشت طعاماً وظهر ذلك على شفتيها النظيفتين المنكرتين وعلى المريولة، مرملاد، لكن غانتنباين لا يستطيع إثبات إدانتها بل يلوذ بالصمت ويبتسم، وبياتريك تجهش بالبكاء. يبدو أن المرء هنا لا يستطيع أن ينهش من الطعام دون أن يعرف البابا بذلك. أنىَّ للمرء أن يتأتى له ذلك؟ فالبابا يعرف كل شيء. أو بياتريك حشرت ذات مرة قطعة الخبز التي لا تحبها تحت لوح الطاولة طيلة أسابيع ولم يلاحظ غانتنباين شيئاً من هذا القبيل، لكن في صباح أحد الأيام كانت كل هذه القشور الجافة ملقاة على الطاولة، وإذا لم يعاقبها البابا الأعمى حتى ولا بالكلامِ لأنه لم يستطع أن يرى الفعلة في حينها، فقد أحمر مع ذلك وجه الطفلة خجلاً. لا بد وأن ينكشف مرة أمر كل شيء. وليس بمقدور المرء أن يكذب. الرب والبابا هما واحد – طيلة

فترة من العمر... وبعد ذلك تلاحظ بياتريك أن الأمكنة التي لا يأتي إليها غانتنباين، على سبيل المثال في الغاية حيث تفعل بياتريك شيئاً مع الأولاد، أمكنة كهذه لا يأتي إليها الرب أيضاً.

إذن بمقدور المرء أن يكذب.

والبابا لا يعرف كل شيء.

فهو لا يعرف مثلاً شكل السيد زيبنهاغن، الذي يلعب أحياناً مع لِيلى كرة المضرب، ولا يعرف أيضاً لون سيارته الجميلة، يرغب في أن يعرف ذلك، لكن الرب لا ينبنه بأمور كهذه - بل يراها في رسومات طفلته فحسب: ماما البيضاء والكرة البيضاء فوق الشباك وللسيد زيبنهاغن، الذي يلتحي على ما يبدو لحية صغيرة، ساقان بيضاوان وخطوات طويلة...

أتخيل:

على الرغم من أن لِيلى، التي تخوض الآن من جديد غمار المهنة، نظراً للتدريبات والعروض التي تقوم بها (إضافة إلى جولاتها المسرحية)، من الطبيعي أن تعاني من ضيق الوقت، إلا أن حبها لطفلتها لا حدود له، وكذلك موافقتها على أن تفعل بياتريك ما يخطر على بالها. مفهوم التربية عند غانتنباين يسبب مقتاً وانزعاجاً بالنسبة إلى لِيلى، الأمر الذي يجعلها تلوذ بالصمت وهي تنظر إلى الطفلة. إنها في وحدة تامة لا تنفصم عراها مع طفلتها. من يزجر الطفلة، يزجر الأم. وبالطبع يُعتبر نوعاً من الزجر أن يطلب غانتنباين من الطفلة، دون زجر، ما لا تطلبه الأم الحلوة من ذاتها. وفجأة يظهر الأمر كما لو أن غانتنباين يريد أن يمارس نظريته في التربية على لِيلى أيضاً. كيف ينبغي أن تمنع الطفلة الصغيرة (كما لو أنها آتية لتوها من التدريبات مثل لِيلى ومنهكة من التعب) من أن ترمي معطفها الصغير ببساطة على الأرض؛ بالمناسبة لِيلى هي التي ترفع في كل مرة المعطف الصغير عن الأرض وتعلقه في مكانه المخصص له. ماذا يريد غانتنباين أكثر من ذلك؟ إن صبرها إزاء الطفلة لا ينفد وما ينجم عن ذلك هو: طفلة تنتزع من الضيوف كل اللوزات المملحة وتأكلها، طفلة حلوة، ثم أن الضيوف لم

يأتوا من أجل أن يأكلوا لوزاً مملحاً، لِيلى محقة في قولها هــذا. والــضيوف يتمتعون دائماً بروح مرحة. لكن حين يبلغ السيل الزبى، مــثلاً حــين تقــدم بياتريك الصغيرة- وهي معذورة في تصرفها لأن أحاديث الكبار تسبب لهــا الملل والضيق - على تفتيت سيجار هافانا لأحد الضيوف، يبقى وقت كــاف لأن يتدخل غانتنباين الأعمى ويقول:

«أبعدي يدك!»

بالطبع يتعاطى الضيف، طالما أن الأمر لا يتعلق بطفلــة بــل بــسيجاره فحسب، مع المسألة بروح أكثر مرحاً مما ينظر إليها غانتنباين؛ لكــن الــسيجار المفتت -كما يؤكد الضيف - هو آخر سيجار هافانا بحوزته، ثم أنه لم يتــذكر على الفور حول أي موضوع كان يدور حديث الحاضرين. استراحة. إذن حول أي موضوع دار الحديث؟ لِيلى تُضرب عن الحديث، لأنها انزعجت بصفتها أماً؛ ومن هنا نظرتها المواسية للطفلة، التي هي في نهاية الأمر طفلة لا أكثر-

«بابا ليس لطيفاً».

سيصير في ما بعد.

«أريد بابا آخر غير هذا».

في هذا القول، هكذا ترى لِيلى أيضاً، تجاوز للحدود بــالرغم مــن أن مرح الضيوف يسترد عافيته من جراء ذلك. الآن جاء دور لِيلى لكي تــؤدب الطفلة وذلك بالتهديد بفرض عقوبة. بياتريك لا يجوز بأي حال أن تقول أنها تريد بابا آخر. ومن شأن ذلك أن يحرمها من حلويات ما بعد الطعام. لِيلى في هذه النقطة قاسية جداً. أما غانتنباين فأخذ يقشر موزته بصمت - ودار فــي ذهنه أن الطفلة لم تكن غير محقة في ما قالت.

فربما أن هذا الرجل الذي يقشر موزته هناك خبط عشواء ليس أباهــا الفعلي... لكن كيفما يكون الأمر: كان الحديث يدور قبل ذلك عن التلفزيون، التلفزيون باعتباره أداة لصناعة الوعي والفن عامة في العصر التقني، علــى وجه الخصوص التلفزيون، حول هذا الموضوع يمكن أن يتحدث كل النــاس ماعدا غانتنباين المليء فمه بالموز.

أتخيل:

ما عدا ذلك الأحوال جيدة وجميلة، لِيلى وغانتتباين مع الطفلة، الأسرة تقوم برحلات للتنزه، والطفلة هي طفلة، غانتتباين ولِيلى يمسكانها بذراعيها الصغيرين ليمكناها من التأرجح، ولِيلى تمسك بالملعقة المليئة طعاماً وتروي للطفلة قصة عربة التبن التي تريد الدخول إلى مخزن الغلال، وحين تبدو الطفلة متعبة يضعها غانتتباين على كتفيه ويؤدي لها لعبة اركب – اركب– هوب – هوب– هوب، وحين ينقضي هذا الوقت ثمة ألعاب أخرى، ومن حين لآخر أيضاً ثمة نشيج، سعال ناجم عن اللهاث والتعب ثم يأتي دور حكاية ماكس وموريتس، وتمارس الأسرة السباحة صيفاً والانزلاق على الجليد شتاء، كل شيء في وقته وحينه، ولِيلى تشتري للطفلة الجونيلات الصغيرة التي تنم عن ذوق رفيع، وغانتتباين يحكي لها عن الطوفان وسفينة نوح، ويضحك الجميع على تعابير مختلفة تصدر عن الأطفال، وحين تكون لِيلى في جولة مسرحية تتصل بالهاتف لكي تدردش مع بياتريك، وتجلس بياتريك على حصان قزم بشكل يتعذر نسيانه، ثم يأتي دور العزف على الناي، وهلم جرا، ولِيلى وغانتتباين ليسا بحاجة للتحدث مع بعضهما بعضاً، فالطفلة موجودة باستمرار، وحين أرادت بياتريك أن تعرف من أين يأتي الأطفال، قيل لها هكذا وهكذا...

أتخيل:

الأقصوصة المتعلقة بلقائهما الأول في غرفة ملابسها، غانتتباين باعتباره الأعمى المعجب وهو يحمل الورود صحيحة تقريباً لكن ليس تماماً – هذا هو شأن كل الأقاصيص... ولِيلى لم تعش آنذاك بالطبع بدون صاحب، الأمر الذي لم يشغل بال غانتتباين بأي حال من الأحوال. ولهذا السبب صحيح أن الأقصوصة، التي تحب لِيلى أن تحكيها باستمرار، لا تعرجِ على ذكر هذا الصاحب؛ غانتتباين لم ير بالفعل صاحب لِيلى هذا، الذي كان جالساً آنذاك في غرفة ملابس السيدة. وفي غضون ذلك صحيح أن الرجل (إذا لم تكن هذه الواقعة واردة في الأقصوصة، فقد حدثت آنذاك فعلاً) لم يكن جالساً طيلة الوقت إلى جانب طاولة مكياجها، إلا أنه مع ذلك كان بادياً للعيان بصورة كافية في الكنبة المريحة الوحيدة هناك، صامتاً، يتصفح جريدة، قبعته على رأسه، ساقه الواحدة بعيدة عن الأخرى وعلى ثقة من

نفسه أنه موجود. على هذه الشاكلة كان يجلس في الكنبة. كأنه قطعة من أثاث. رجل في أفضل سنين عمره، في السابق كان يعشق لِيلى إلى درجة الافتتان بها وقد وصل الآن إلى مرحلة الحب الناضج وهو على استعداد للزواج لكن بتأنٍ، وقبعته على رأسه. وحين قام غانتنباين – وهو يقدم إليها الزهور – بمحاولة يائسة ولم تصبح موحية بالإقناع إلا في الأقصوصة، لم يصغ إليه ذلك الرجل ذو القبعة على الرأس، الذي بدا أنه يدرك حاجتها إلى موالاة عمياء. كان يكفي أن يسعل لكي يُذعر المعجب الأعمى. وفي ما بعد سألها دون أن يرفع نظره عن الجريدة سؤالاً عرضياً: أي نوعٍ من المخبولين هذا الرجل؟ قوله عنه أنه مخبول كان من شأنه أن أهان لِيلى قليلاً. إنه معجب على الأقل. من دون قبعة على الرأس. ولاذت بالصمت. لصالح غانتنباين. فهو لم ير آنذاك بالفعل إلا لِيلى. ولم يكن بمقدوره أن يقدم برهاناً أكثر بساطة على أنه أعمى من أنه لم ير الرجل آنذاك... وفي ما بعد تناهى إلى علمه بالطبع أن لِيلى لا تعيش لوحدها؛ لكن كان الأوان قد فات لاستطلاع هذا الأمر والوقوف على حقيقته: إذ لم يعد أحد يجلس في غرفة ملابس لِيلى. الكنبة فقط، حيث كان يجلس الرجل ذو القبعة، كانت لا تزال في مكانها. وفيها جلس الآن غانتنباين. وخارج غرفة الملابس على خشبة المسرح كانت لِيلى لا تزال منهمكة في تمثيل ذات الدور الذي أُسند إليها. لم يستطع غانتنباين أن يسمح لنفسه بتقليب صفحات جريدة ما إلى أن يدوي التصفيق في الخارج لأن لِيلى كانت تؤمن بأنه أعمى؛ وقد أحبته إكراماً لعماه. بل أخذ يتفرج على البرقيات المغروزة في جوانب مرآتها، والتهاني، بعضها أصفرّ لونه وشحب؛ ونظر إلى نفسه في مرآتها: فرأى عاشقاً ينتظر بفارغ الصبر إلى أن يهدر التصفيق في الخارج. وهكذا في كل مساء إلى أن تأتي لِيلى: في زيٍ متنكر، وعلى رأسها شعر مستعار، شبيهة بدمية نوعاً ما، جميلة، لكنها ممكيجة من أجل الأضواء، جميلة من بعيد، حاجباها زرقاوان وجفناها خضرلوان ووجنتها صفراء، وخُشّن وجهها إلى درجة كبيرة بغية التوصل إلى قدر كبيرٍ من الجمال، وحتى عيناها خضعتا إلى عملية تكبير؛ كان غانتنباين يرتاع خفيةً في كل مرة يرى فيها لِيلى بهذا المنظر. كما يرتاع أمام عصفور. غرفة ملابس لِيلى صغيرة جداً؛ ولِيلى لا زالت تطير بأجنحة دورها، لكن من دون نص. وسألها لكي يسمع صوتها من خلال الجواب: كيف

كان العرض؟ لكن الصوت كان لِيلى ذاتها. ثم كان لا بد لها من أن تعود مرة أخرى إلى خشبة المسرح؛ فالجمهور لا يزال يصفق، استعراضياً. كما لو أن الجمهور يريد أن ينبئ غانتنباين كم هي رائعة المرأة التي يحبها. كان ذلك يتكرر ففي كل مساء. كان يبدو على غانتنباين الاعتزاز، بداهة، فيبادر إلى نزع سدادة الفلين من زجاجة الشمبانيا الصغيرة. اعتزاز بماذا؟ وفي الوقت ذاته تراءى له أنه رجل قليل الأهمية ولا لزوم له. لم يكن بمقدور غانتنباين أن يصفق؛ فقد انتُزِع منه الإجلال والإكبار. كان يملأ الكأس، وذلك جل ما يستطيع أن يقوم به. كل تصفيق لا بد أن يؤول ذات مرة إلى نهاية وبعد ذلك كانت لِيلى مسرورة بحبه لها وهي تشرب كأسها من الشمبانيا، لِيلى على طاولة مكياجها بينما كان غانتنباين يجلس في تلك الكنبة المريحة الوحيدة مزوداً بنظارته السوداء المخصصة للعميان. كان يرى كيف تغسل لِيلى وجهها بقطع من القطن الطبي، وهي في ثوبها الصباحي الحريري، وغانتنباين بعصاه السوداء الصغيرة. هكذا كان يجلس في غرفة ملابسها، أعمى لكنه موجود. ولِيلى كالعادة بعد نهاية العرض: متعبة، متهيجة، مشتتة. لم تسمع طرق الباب ذات مرة؛ والسيد، الذي كان دخل دون أن ينتظر طويلاً لكي يؤذَن له بالدخول، بدا أنه يعرف أن غانتنباين أعمى؛ حتى أنه لم يومئ برأسه. كما لو أن غانتنباين ليس في غرفة الملابس، ليس موجوداً. هذا السيد، الذي أحس بأنه معفى من مراعاة كل اللياقات، يمكن أن يكون مدير المسرح. رجل في نهاية أفضل سنين عمره. وطالما أن لِيلى لم تره، لأنها كانت لتوها أغمضت عينيها لكي تمسح الأصباغ عن جفنيها، قال غانتنباين: أظن أن أحداً طرق الباب. لكن لِيلى لم تسمع أي طرق على الباب، والسيد كونه واثقاً من أن غانتنباين لا يراه بقي هادئاً بدون حراك، بينما أخذت لِيلى ترمي قطع القطن المتسخة في سلة المهملات وتبدي استعدادها أكثر فأكثر لأجراء حديث مع غانتنباين. ولدى انشغالها بأصابعها التي كانت تنظفها بقطعة صغيرة من القماش، سألت لِيلى إلى أين سيذهبان لتناول الطعام ولم تلاحظ بكل بساطة أن رجلاً آخر موجود في غرفة الملابس. ثم سألت أيضاً عما فعل، غانتنباين، في هذا اليوم؟ يجوز للمرء أن يظن بأن الرجل الأخر قد أتى إلى غرفة الملابس لكي يخرج مسدساً من جيبه ويطلق النار على لِيلى، رجل مشوش العقل، صامت، كما لو أنه

أراد بذلك أن يخفي نفسه عن غانتنباين؛ ربما أراد فقط أن يتحدث إلى لِيلى فحسب. على انفراد. كان الرجل شاحب اللون مطلقاً نقنه، وعيناه محمرتـان مـن طـول السهر. لم يكن غانتنباين قد فكر بعد لأين يمكن أن يتناولا الطعام، بل كان منهمكـاً بمداعبة كلبه بصمت؛ باتش كان مضطرباً، يقظاً. كل ذلك لم يستغرق دقيقة واحدة، ومع ذلك لم يكن له نهاية. حين انحنت لِيلى قليلاً باتجاه المرآة لكي تتأكد من وضع رموشها، اعتراها الذعر وتجمدت أصابعها النحيلة التـي همـت لتوهـا بتـدليك صدغيها لدى رؤية الرجل في المرآة. لقد عرفته. لكنها لم تتبس ببت شفة ظناً منها بأن ذلك من شأنه أن يخفي وجود الرجل عن غانتنباين. وتعابير وجههـا آنـذاك، التي رآها غانتنباين وحللها، لم تدع أي مجال للشك: هذا إذن هو الرجل الذي لـم يره غانتنباين آنذاك في غرفة الملابس. الآن بدون قبعة على الرأس. أما أن يكشف الآن عن أنه ليس أعمى وأنه يدرك الوضع تماماً، ففي ذلك خبث وغدر. ليتـابع إذن مداعبة كلبه. على أن سكوتاً من جهته أيضاً قد يكون من شـأنه أن يكـشف أمره؛ فلجأ إلى تقديم اقتراحات عن أمكنة واردة في الحسبان لتناول الطعام، كـان غانتنباين آنذاك هو الوحيد الذي تكلم. وحين أدارت لِيلى ظهرها لم يغادر الرجـل المرأة فحسب بل غادر أيضاً غرفة الملابس برمتها. دون أن ينبس ببنت شفة. كان ظهوره مضحكاً في حينه، لكنه ترك في ما بعد أثراً مقبضاً ومخيفاً. الآن لم يكـن بمقدور غانتنباين أن يسأل: من كان هذا الرجل؟ ذلك فضلاً عن أنه كـان يعـرف الجواب، لكن ما معنى تلك الزيارة، ولِيلى ذاتها بدا أنها لم تكن تعرف هي الأخرى أي شيء عن هذا الموضوع. لقد أشفق عليها؛ كانت ممتقعة اللون من الخوف. لكن غانتنباين لم يكن يعرف ماذا يقول؛ فهو في نهاية الأمر كان أيضاً مذعوراً وكـان عليه أن يخفي ذلك. ما كان يريده هذا الرجل، الآخر، هو في حقيقة الأمر واضح: لقد أراد أن يعود إلى حبيبته لِيلى. لِيلاه! كان ذلك هو الذي أظهره منقبضاً وعابساً إلى درجة كبيرة، هذا المطلب الصامت فحسب، الكامن في العينين، بحيـث توقـع المرء وجود مسدس وكان لهذا السبب مذهولاً كالرجل ذاته. من المؤكد أن لِيلى لم يسبق لها أن رأته في يوم من الأيام على هذه الشاكلة. الآن نهضت لِيلـى واقفـة. وكانت لا تزال ممتقعة اللون من الذعر، وأقفلت باب غرفة الملابس من الـداخل، في حين أخذ غانتنباين أثر ذلك -لكي يشتت تفكيرهـا- يحكـي عـن شـيطنة

مضحكة من صنع كلبه باتش، شيطنة جديدة، مخترعة طبعاً كسابقاتها الأخريـــات، الأمر الذي لم يحل دون أن يحرك باتش نيله زهواً واختيالاً؛ لكن دون جـــدوى، إذ تجمدت لِيلى أكثر فأكثر ربما لتخيلها بأن الرجل قد يكون في انتظارها لدى مخرج المسرح أو قد يختبئ في الفناء الخلفي. ذلك أمر ممكن. لكن من المؤكـــد أن لـــيس بحوزته أي مسدس؛ تراءى الأمر كذلك فحسب؛ فهو لم يأت لكي يطلق عليها النار بل لكي يتزوجها. بعد فوات الأوان. وحين طُرق الباب لم تشأ لِيلى أن تفتحه؛ فكان على غانتتباين أن يقوم بذلك معتبراً الأمر مناسبة جديرة بالترحيب لكي يبرهن عن أنه رجل بما في الكلمة من معنى. على الباب كانت عاملة المشجب، التـــي قـــدمت إلى لِيلى رسالة صغيرة فتحتها هذه على الفور ثم قرأتها لكنها لم تدسها بعد ذلك في برواز مرآتها. وحين أزيل عن رأسها أخيراً الشعر المستعار، أخذت لِيلى تراقـــب غانتتباين كما لو أن الشك قد ساورها لأول مرة بكونه أعمى، لم تكن متأكدة من أنه فعلاً لم ير شيئاً مما جرى، الآن ظهرت من جديد بشعرها الأصـــلي وبجمالهـــا، وعلى ما يبدو مرتاحة للرسالة الصغيرة ومتحررة من الخوف من تصور أن أحـــداً يتربص بها في الفناء الخلفي من مبنى المسرح. في ما بعد ذهب كـــل مـــن لِيلـــى وغانتتباين لتناول الطعام في أحد المطاعم وأخذ الزوج كالعادة يقطع لزوجته وجبة من سمك الفوريلا. وبعد ذلك عاد الاثنان إلى المنزل. مطمئنـــين. وحـــين ألقـــى غانتتباين سؤالاً عرضياً عما إذا كانت لِيلى في حقيقة الأمر قد سمعت مـــن جديـــد ذات مرة شيئاً عن صديقها السابق، أجابت هذه بصراحة أنه عاد إلى المدينة، أجل، أنه الآن في المدينة. وقد رأته لكنها لم تتحدث إليه. كان جوابها ينم عن عدم أهمية كسؤاله تماماً، لكنه رأى بوضوح ما أرادت لِيلى في غضون ذلك أن تخفيه: وهـــو اضطرابها...

أتفهّم:

لا بد للمرء من أن يترك أمراً آخر، فالقرار هو القرار ولا يتزعـــزع، لكن الانفصال لا يتم بذلك بعد؛ يريد المرء تنفيذ الانفصال مـــع شـــيء مـــن الكرامة، لكن الكرامة تحول دون التنفيـــذ؛ أحـــد الـــشريكين لا يـــستطيع أن يستوعب الأمر طالما أن الكرامة تبقى مصانة ويتمسك بحبه أكثـــر مـــن أي وقت مضى؛ في مساء أحد الأيام يظهر الرجل من جديد على الساحة بشحمه

ولحمه؛ إذ لا وداع عن طريق الرسائل- وغانتنبابن أظهر، حين لم يبق له أي خيار آخر، تفهماً تاماً هادئاً في مسألة أنه لا بد لهما من أن يلتقيا معاً...

كان ذلك في شهر شباط.

لِيلى وهي جالسة على طاولة مكياجها (هذه المرة قبل العرض المسرحي) أعلنت خبرها غير المتوقع بطريقة مازحة تقريباً، دون أن تدير في غضون ذلك ظهرها جانباً، متأنية- مشدودة بانتظار إشارة الرنين التي ستناديها في القريب العاجل للظهور على خشبة المسرح، بالمناسبة لم تكن لِيلى منفعلة بل فقط لم تكن مستعدة بعد للتحدث مع أحد، لم تكن شاردة الذهن، بل على العكس، كانت على استعداد للظهور على خشبة المسرح وللإدلاء بخبر مفاجئ إلى جانب ذلك، في حين كانت لا تزال منشغلة ببودرة أنفها، باختصار، دون أن تدير ظهرها جانباً ودون أن تتحقق ممن كان آنذاك جالساً في الكنبة المريحة الوحيدة في غرفة ملابسها، قالت مازحة : لستَ بحاجة إلى أن تحتفل لهذا السبب أو إلى أن تصاب بالذعر، كانت أوجاعي في أحيان كثيرة غير منتظمة.- ثم رن الجرس... كانت لِيلى آنذاك في الواحد والثلاثين من العمر، أي لم تكن فتاة غير ناضجة، وغانتنبابن أيضاً لم يكن آنذاك شاباً صغيراً في مقتبل العمر ولم تكن تلك هي المرة الأولى التي يواجه فيها غانتنبابن مسائل من هذا النوع. لكن لا بد ذات مرة من الحديث عن هذا الموضوع، من حيث المبدأ - هكذا دار في خلد غانتنبابن. لكن بعد ذلك التصور، الذي تكون إثر قيامه مع كلبه باتش بنزهة مشياً على الأقدام، وفي اليوم التالي أيضاً بدا أن لِيلى لم تعد تفكر بتاتاً في هذا الموضوع. لماذا يفكر به غانتنبابن إذن؟ لكنه يفعل ذلك، بالمناسبة لم يكن مذهولاً بل كان للحظات مرحاً ومسروراً حين أورد في الاعتبار كيف ستتلاءم لِيلى في المستقبل مع وضعها الجديد بصفتها أماً واستغرب أيما استغراب من أنها ظلت طيلة ثلاثة أيام، لا بل أربعة، صامتة دون أن تنبس ببنت شفة. كان في استهتارها بهذا الأمر ثمة إغراء لكن ليس عدوى. وثمة فكرة تكونت مؤخراً بصورة خاطفة في غرفة الملابس وطغت حتى الآن على كل ما عداها، فكرة تتعلق بموعد الولادة، وفي حال صرف النظر عن كل الأفكار الأخرى فإن غانتنبابن تمنى ألا تكون هذه الفكرة قد غزت مخيلته. أما لِيلى فقد بقيت مستهترة بالأمر، ورأى هو ذلك،

كانت سعيدة في انتظار حدث فريد من نوعه في الخريف القادم. وحين سأل غانتنباين عن الموعد، بحجة (فوائد الإيجار)، قيل له شهر آذار؛ وارتعدت لِيلى خوفاً بسبب حلول فوائد الإيجار وبوجه عام: يا إلهي كيف يمضي الوقت بسرعة! كان ذلك في أحد المطاعم، لِيلى ترتدي فستاناً مقوّر الصدر والظهر، ضوء شموع وفوقه لآلئ، قالت ضاحكة: ماذا تقول لو أننا فعلاً رزقنا طفلاً؟ بالطبع لم يكن المطعم المكان الملائم للتيقن من هذا الأمر؛ فكبير الكراسين كان يلح، ولومن مسافة لا بأس بها، على أن يطلب شيئاً للطعام والشراب. وتبع ذلك قضم صامت لبعض قطع الخبز الصغيرة. الأشياء بأنها تريد أن تأتي بالطفل إلى هذا العالم دون أن تطلع غانتنباين ذات مرة على ذلك، هو بالطبع هراء بهراء؛ ففي الشهر الخامس من الحمل يمكن لأعمى أيضاً أن يلاحظ ذلك. إلا أن المطعم لم يكن ببساطة ذلك المكان الملائم للحديث عن موضوع كهذا. حتى أن اقتراحه بوجوب ذهاب لِيلى إلى الطبيب كان من شأنه أن ولَّد إحساساً بأنه اقتراح غير لائق، ثم صمت غانتنباين أيضاً.

وذات مرة كانت لِيلى في وقت سابق قد قالت وسط جمع من الأصدقاء: إذا ما أرادت في يوم من الأيام أن تنجب طفلاً، فسيان عندها من يكون الأب! قالت ذلك رداً على أحد المنادين بصوفية الدم، ولذلك فإن ردها جدير بالتفهم وصحيح في حينه؛ يقول الإنسان أشياء كثيرة مما هو صحيح في حينه - غانتنباين لم يشأ بعد أن يفكر في هذا الموضوع... وحين أعلنت لِيلى الخبر، فقد تم ذلك في لحظة صرف فيها غانتنباين النظر عن التفكير في الأمر، ثلاث دقائق قبل وصول الضيوف:

«سوف تُرزق طفلاً».

ولاذ غانتنباين بالصمت واعترته الحيرة والذهول.

«كنت عند الطبيب»-

ورن الجرس، كما في موعد كلمة التذكير وراء كواليس المسرح. الضيوف! وحدثت معجزة: تلك الفكرة عن موعد الولادة، التي سببت لغانتنباين إحراجاً وخجلاً، لم تكن صائبة، غانتنباين كان في غاية السرور وهو يرحب بالضيوف الذين أعزوا مزاجه الدفاق إلى شخصه هو ذاته؛ بعضهم لم يكن

يعرف غانتتباين بعد ولذلك رأى حرجهم وارتباكهم من الأعمى الذي قُدم لهم... آنذاك روت لِيلى لأول مرة الأقصوصة الرائعة عن مجيءْ غانتتباين إلى غرفة ملابسها في المسرحِ وهو يحمل الورود... وفي صباح اليوم التالي، وقد أستيقظ غانتتباين وكأن فأساً غمدت في رأسه، لم يعد يتذكر ما جرى في الأمسية السابقة بل شغل باله خبر الطفل فحسب، ولحسن الحظ كان على لِيلى آنذاك أن تذهب إلى تدريباتها المسرحية؛ وإلا فربما سألها ما إذا كانت في شهر شباط قد نامت مع الرجل الآخر. وماذا بعد؟ ربما تجيبه: أجل بدون أي تردد، ببساطة: أجل. أو تتردد في الجواب، وبعد فترة من الصمت إلى أن يتغلغل في أعماقه تأكده من سخف سؤاله تسأله وهي تشعل سيجارة: لماذا تلقي علي هذا السؤال؟ وحتى إذا ما صح الظن فقد يكون الطفل أيضاً عندئذ ابناً لغانتتباين؛ والمسألة هي فقط ما إذا كانت لِيلى بعد سؤاله هذا لا تزال تعتبره أباً لطفلها؛ ربما لن تقول في يوم من الأيام مرة أخرى: طفلنا. بل سيبقى طفلها هي... ربما خطر على بالها أيضاً أن تقول: كلا. ليس من غير تردد، لكن بعد ذلك بكل بساطة: كلا. لن يكون من شأن ارتياح مؤقت أن يكون أفضل في المستقبل، إلا أن ارتياحه قد يكون بالنسبة إليها أمراً مقيتاً وقد لا تريد بعدئذ أن تقبل والد طفلها بعد خيبة أمل من هذا النوع، وربما لن يقدر للطفل أن يبصر النور أثر ذلك... إذن لحسن الحظ (أن غانتتباين لم يلق عليها ذلك السؤال اللعين، المترجم)... ثمة شيء واحد: غانتتباين يظن أن الطفل، طفلها، ليس ابنه، لكنه لا يُظهر أبداً أنه يظن ذلك أملاً في أن يصبح أبناً له.

أتخيل:

معارضتها المعذورة للرجلِ المنادي بصوفية الدم آنذاك، لِيلى قد تُذكر الآن أنها قالت ذلك في السابق.

أتخيل:

بياتريك في الحمام، عمرها ست سنوات، غانتتباين باعتباره البابا الذي يصوبنها بما في ذلك جسدها، بشرتها الطاهرة، بالدرجة الأولى هذه البشرة، خصل من رغوة الصابون، أبوها لا يستطيع أن يرى أين تخفي بياتريك قدمها الآن، لكنه سرعان ما يكتشف مخبأ أصابع القدم السريعة التأثر

بالدغدغة لكي يصوبنها هي أيضاً، غانتنباين بقميصه فقط الذي لا بد له أيضاً من أن يرفع كميه إلى الأعلى، بالطبع لم تكن بياتريك في يوم من الأيام هي التي ترش الماء في كل الاتجاهات، بل كريسي ميسي الذي ينط ويخبط في البانيو؛ كريسي ميسي هو الكائن الذي يدغدغ البابا ويخفي قطعة الصابون وهو غير مرئي بالنسبة إلى البابا، كريسي ميسي هو زوج الساحرة، وإذا تكلمت معه بياتريك فهو يطيعها وحدها دون غيرها ويتوقف رش الماء في البانيو عندئذ ويستطيع غانتنباين وقتذاك أن يصوبن ظهرها الطفلة وأردافها الطفلة وحتى أذنيها وإبطيها، لكن لا يجوز لها أبداً أن تفشي لرجل أعمى سر الشكل الذي يظهر فيه كريسي ميسي، ثم تبدي بياتريك رغبتها في أن يرى البابا جرحها المخيف وغانتنباين يراه فعلاً وهو لا يتعدى كونه خدشاً بسيطاً في الركبة، ويعالجه بالصابون لكي يرش عليه في ما بعد شيئاً من البودرة ويضمده بكل عناية واهتمام، لكن غانتنباين لا يرى كريسي ميسي، حتى ولا حين ينزع نظارته عن وجهه بسبب البخار الكثيف ولهذا السبب فإن كريسي ميسي لا يخاف حين يزمجر غانتنباين ويشتم وحتى يحذر وينذر، لكن النط والخبط لا يتوقفان إلا بعد أن يقوم غانتنباين في نهاية الأمر بإفراغ البانيو من الماء لكي يتفرغ بعد ذلك لتدويش الطفلة، خصلها المتكونة من رغوة الصابون، ذراعها الصغيرين وفخذيها المبتلة كلها برغوة الصابون اللامعة، جسدها الصغير بكل أجزائه وجوانبه، كلا، هذا الجسد لن يصبح بحَّاراً، كلا، سوف يصبح بالتأكيد فتاة، بياتريك، ذلك مؤكد تماماً، لا فائدة من لبس البنطال ووضع اليدين الصغيرتين في جيبتيه ومد المرفق إلى الأمام، ولا فائدة أيضاً من حركة بهلوانية على حافة البانيو، والآن قفزتها على السجادة، ليت البابا رأى تلك القفزة، وحين كان البابا ينشف جسدها بيديه القويتين، وقد لُفت بمنشفة بيضاء وظلت فترة هادئة صامتة لكي تتمتع بالتنشيف، سألت فجأة: هل صحيح يا بابا أنك لا ترى شيئاً البتة؟ ولكي تختبر الأمر ادعت بعيد ذلك: أستطيع أن أطير! الأمر الذي لا يستطيع البابا، ولو كان أعمى، أن يشك فيه وهكذا لا بد إذن من أن يصدق ويبعد يديه عنها لكي تستطيع أن تقول: ألا ترى كيف أطير؟ وبعد أن فكر طيلة هنيهة من الزمن بأن بياتريك قد لا تكون

فعلاً ابنته وحين رفعها إلى الأعلى بذراعين ممـدودين، هللـت وزغـردت: أرأيت! هللت وزغردت: ألا تراني! هللت وزغردت-

أتخيل:

بياتريك، وعمرها عشر سنوات، تسقط من على الدراجة العادية، نزيف دماغ، ليلة كاملة من الخوف من أنها قد تموت، الخوف المـشترك بـين الأم والأب، الخوف وعيون مفتوحة تنهمر بالدموع-

أتخيل:

ليس غانتنباين أباً رديئاً بعد أن تخلى أكثر فأكثر عن إلحاحه على تربية الطفلة – وقد أجبره على ذلك الدور الذي لعبه باعتباره أعمى... حين لا تفعل بياتريك ببساطة ما لا يحلو لها على أمل أن غانتنباين لا يـستطيع أن يـرى ذلك، على سبيل المثال سواء أكانت ملابسها معلقة على علاقـة أو لا تـزال ملقاة هنا وهناك، وحين يسأل غانتنباين في ما بعد في المساء، بدافع قلق أقل على الملابس مما هو على الطفلة، التي لا بد عـلى حـد رأيـه في وقـت ما ومكان ما من أن تتعود ذات مرة على أن تفعل ما لا يحلو لها. حين يـسأل عما إذا فعلت ما طلب منها وهو يرى في الوقت ذاته بكل أسف أنها لم تفعـل شيئاً في هذا القبيل ماذا إذاً؟ وإذا ما مثلت لِيلى، باعتبارهـا أمـاً، أيـضاً دور العمياء ولاذت بالصمت لكي تقف في كل الأحوال إلى جانب الطفلة وتمنع كل عقوبة تأديبية قد تتخذ بحقها – قد يستغرق الأمر سنين عديدة إلـى أن يـدرك غانتنباين حقيقة أنه يتعذر تربية طفل إذا لم تشأ الأم ذلك، وإلى أن يجيد تمثيـل دوره باعتباره أعمى حيال الطفلة أيضاً ويتغاضى عن أن يُكذب عليه في آلاف الأمور الصغيرة لكي يُعطى باعتباره أباً شهادة حسن سـلوك، متحـررا مـن محاولة تربوية وعلى استعداد لأن يساعد بياتريك حين تعاقبها الحياة ذاتها.

سيأتي ذلك.

سيأتي ذلك ويطويه النسيان من مرة لأخرى إذا ما أفلحت المـساعدة، أجل، لكن الآباء ليسوا سحرة، وشلل بسيط في جفني العينين نتيجة لتصرف خارج على الطاعة في أثناء مرض الحصبة، هذا الشلل يبقى مستعصياً على الشفاء؛ حالة من التقصير في المعاقبة، حالة بسيطة من الـذنب، حالـة مـن

حالات عديدة، لكن الذنب يقيم حباً أبوياً، وغانتنباين لم يعد بمقدوره تصور حياة بدون طفل-

بياتريك ليست أقصوصة.

انقضت مرحلة تربية الأطفال، والحب الأبوي لم يعد يُبرهن عليه بلعبة أركب - أركب - هوب - هوب- هوب. لم يعد الأمر كذلك منذ فترة طويلة. بياتريك تتصارع مع مقرر اللغة اللاتينية «حالة النصب مع مصدر»، الحب هنا في مواجهة مهام تُجهد غانتنباين أيضاً. يُطلب من أطفالنا كل شيء ومن آبائهم أيضاً! ولكي يستطيع التظاهر بأنه يعرف عن ظهر قلب كل ما تعلمه في المدرسة ذات مرة، فإن عليه، بينما تجلس بياتريك في المدرسة دون أن تعير انتباهها للدرس، أن يذهب هو ذاته مرة أخرى سراً إلى المدرسة. والجبر! في هذا المجال يظن رجل ناضج أنه يستطيع أن يجذّر الأعداد، وانظر، يجب عليه أن يتعلم كل ذلك من جديد، رجل ذو سوالف كساها الشيب أمام معادلة بمجهول واحد، بمجهولين، بثلاثة مجاهيل وهلم جرا.

أتخيل:

في أحد الأيام، وهو يوم جميل بوجه خاص وذو سماء صافية، تعود الأسرة من رحلة للتنزه، لِيلى تقود السيارة وهي منفعلة، قافلة سيارات، وينبغي على لِيلى أن تكون في الساعة السابعة على أرض المطار لكي تستقبل أحد الناس، واحداً ما، غانتنباين لا يسأل من هو، أنه واحد من الناس سوف يصل لوحده وسوف يخيب أمله حين لن يجد أحداً في استقباله على أرض المطار، خاصة وأنه يأتي من أجل لِيلى في زيارة عمل، أغلب الظن أن الأمر يتعلق بإنتاج فيلم، إذن المسألة تخصها هي، غانتنباين يتفهم الأمر، غانتنباين بنظارته المخصصة للعميان بحيث لم يستطع أن يرى البرقية المفتوحة (يوم أمس) وهو يعرف من سيهبط في الساعة السابعة وعشرين دقيقة في المطار ولذلك فهو لا يسأل، والساعة الآن هي السادسة لكن القافلة من السيارات تبقى قافلة، لِيلى يائسة، الوقت، دائماً الوقت، الوقت لن يكون كافياً لإيصال غانتنباين والطفلة إلى المنزل ومن ثم السفر بعد ذلك إلى المطار خارج المدينة، مستحيل، لِيلى المسكينة وراء المقود، سوف يخيب آمل واحد من الناس، خاصة وأن لِيلى هي التي

وجهت إليه الدعوة، كارثة، غانتتباين يقترح تقصيراً خبيثاً للطريق، يعني ألا يذهبوا الآن إلى البيت بل فوراً إلى المطار، ولِيلى تلوذ بالصمت، كلا، هذا مستحيل، مستحيل لماذا، هذا يعني أن لِيلى لن تقف وحيدة على أرض المطار بل لِيلى مع زوج وطفلة، على الطريقة العائلية، وأحد الناس مصاب بخيبة أمل ولو لم يتفهم غانتتباين ذلك، كلا، لكن غانتتباين يتفهم، غانتتباين يصر على تقصير الطريق، غانتتباين مرتاح بخبث وغليونه في فمه، ولِيلى تقف أمام التحويلة وتقول: هذا مستحيل، هذا لا يجوز!، كما لو أنها تشك في أن غانتتباين أعمى، وغانتتباين يأخذ الطفلة وينزل من السيارة، تفضلي، في وسط الشارع، وفي الخلف تبدأ السيارات بالتزمير –

بالنسبة إلى زيبنهاغن:

ما إذا كان هذا الرجل ينام مع لِيلى أو نام معها في السابق حين كان لا يزال ملتحياً لحية صغيرة، من يدري، ربما أصدقاء لكن هؤلاء الأصدقاء لم يلجأوا إلى استغابتها، ربما نام معها ذات مرة جميع هؤلاء ما عدا بوريّ، من يدري. لا يهمني الأمر! غانتتباين يهز كتفيه تعبيراً عن عدم اكتراثه. أين تنام لِيلاه وأين لا تنام، هذا السؤال يثير مقته وامتعاضه، السؤال بحد ذاته. سيان عندي! أما هي فسرها محفوظ، وسيان أيضاً أهو السيد زيبنهاغن أم لا. يمكن أن يكون هو، لكن ليس بالضرورة. ومن يعرف ذلك فعلاً، غانتتباين على كل حال لا يعرف، ربما يعرفه الأصدقاء لكن ربما كانوا كلهم مخطئين أيضاً.

الحقيقة الأكيدة هي هذه الطفلة.

بياتريك.

في ما بعد يجلس الاثنان (لكن ربما لم يعد يتسنى لهما ذلك بعد هذه المرة) في أحد المقاهي، الأب والابنة، التي هي الآن آنسة وتعاني من مشكلة؛ ليست المشكلة التي لا بد من التشاور فيها كبيرة إلى درجة يستعصي معها الحل، رسوب في المدرسة، سوء حظ، ولا بد الآن من التفكير بالمدارس الواردة في الحسبان غير المدرسة التي تعلمت فيها بياتريك، سوء حظ في البيتسا بينما يدخن غانتتباين مختالاً فخوراً بأنه متواجد في هذا العالم من خلال هذه المخلوقة المزدهرة، الراسبة في المدرسة والمحتاجة إلى معونته إضافة إلى أنها تأكل الآن

قطعة من البيتسا. من الذي لم يرسب في حياته ذات مرة؟ غانتنبـاين بنظارتـه المخصصة للعميان: - يرى يده المسنة على الطاولة كصورة مكبرة فـي حـين يستمع إلى حديثه ذاته باعتباره أباً يريد أن يُفهم ما يقول ويطمح إلى علاقة قائمة على الرفاقية بينه وبين ابنته، بينما تمتع بياتريك نفسها بالقشطة، بياتريـك التـي ينوي أبوها أن يعيد إليها ثقتها بنفسها عن طريق إطلاعها على تجاربه الفاشلة في حياته، الأمر الذي يشعرها بالملل. أنها طفلة، عمرها سبعة عشر عاماً، يعني في كامل قواها من الذكاء والفطنة لكنها تفتقر إلى تجارب الحياة ولذلك تجلس صامتة وهي تأكل قطعة البيتسا؛ على أن الارتجاف اللاإرادي لزاويتي فمهـا وأحيانـاً ارتعاش عينيها يكشفان عن نفاذ صبرها حين تسمع حديثاً عن أمور بديهية بحتة، على سبيل المثال أن المرأة بحاجة إلى أن تتعلم مهنة لكي تكون مستقلة، بديهيات لا أكثر. لماذا هذه الأمثلة الإشكالية! تجارب الآخرين الفاشـلة لا تهـم الغيـر؛ بياتريك ليست بحاجة إلى مواساة بل إلى توقيعه وإلى المـال الـلازم لمدرسـة أفضل؛ مطلبها واضح ومحدد، فهي لا تسعى إلى إقامة علاقة رفاقية وليس ثمـة لزوم لأن يحكي أب من قبيل النفاق والمراءات عن حياتـه الخاصـة وأخطائـه الفادحة؛ فهي ترى هذه الأخطاء، وتبتسم، وتسرح بنظرها إلى الحديقـة العامـة. غانتنباين متأكد من أنه لا يستطيع تحقيق أي نجاح ضد الـذكاء المفتقـر إلـى تجارب. ماذا يريد غانتنباين في حقيقة الأمر؟ يكفيها توقيعه والبيتسا. أنّى لطفل، مهما كان لطيفاً ومتجاوباً، أن تخطر بباله حقيقة أن لأبيه أوضاعاً تعيسة أيـضاً؟ هذا شأن الأب. والأب، ككل اؤلئك الذين لا يزالون في معترك الحياة، هو فـي عداد الماضي؛ ليس الحاضر للأب والابنة معاً، بل هو للابنة فحسب. ما قد يزيد الطين بله، هو أن يمتنع أب عن مساعدة ابنته! غانتنباين ثرثر كثيراً بعد توقيعه. وبياتريك محقة في أنه يرى ابتسامتها الخفيفة الباردة واحمرار وجههـا خجـلاً وارتباكاً على حالة الأب الذي لا يستغني عن علاقة رفاقية مع ابنته، يرى ذلـك من خلال الدخان الصادر عن غليونه أو سيجاره - غانتنباين ينادي أخيراً علـى الكرسون ويدفع الحساب؛ وهناك في الحديقة العامة ينتظر صديقها، الذي يمـسك بذراعها ويمضيان وشأنهما...

آه يا طفلتي.

سوف تشق طريقها...

طفلتنا!

في إحدى الأمسيات المتأخرة (عمّ دار الحديث في الحقيقة آنـذاك بحيث أثبت هذا الخبر الزائد عن اللزوم أنه خبر لا محيد عنه؟) قال بورّي أن أحداً قال له أن زيبنهاغن قال إن لِيلى قالت إن المرأة تعرف دائماً من هو الأب الحقيقي لطفلها، وهي ذاتها، أي لِيلى، على سبيل المثال تعرف ذلك بالتأكيد، ذلك هو قول لِيلى طبقاً لما رواه زيبنهاغن عن واحد من الناس كان أخبر زينهاغن بذلك-

هراء!

طيلة لحظة من الوقت، هكذا يمكنني أن أظن، كان غانتنباين يحس بأنها النهاية، صحيح أنه كان يظن باستمرار بأن الطفلة ليست ابنته إلا أنه لم يكن يتوقع أن تفشي لِيلى هذا السر، الذي أخفته عنه وأخفاه هو عن الناس، أمام شخص ثالث (زيبنهاعن)- أمعن التفكير في ذلك طيلة لحظة، ثم لم ينبس بعد ذلك ببنت شفة.

انتهت الكلمات بالنسبة إليه.

(«خيانة؟»)

وجهها كما هو دائماً...

وجهها جداً!

وجهها لا يعرف شيئاً عن أي شيء...

هراء!

ربما كان بورّي أيضاً ثرثرياً.

ماذا بعد؟

غانتنباين في المطار:-

بإمكان المرء أن يقول أن ذلك يحدث في كل يوم، على الأقل مرة في كل أسبوع: غانتنباين في المطار ودائماً في هذه القاعة ذاتها متكئاً على عصاه السوداء لكي يستقبل لِيلى ويصاحبها إلى البيت بنظارته المخصصة للعميان؛ ومع

إن مجيئه إلى المطار لا يتكرر حتى كل أسبوع، غانتنباين يعــرف ذلــك حــق المعرفة، لكن يتراءى له أنه يقف طيلة حياته حيث هو، طيلة حياته في المطــار وفي هذه القاعة وتماماً في هذا المكان لكي يستقبل لِيلى ويصاحبها إلـــى البيــت طيلة حياته... كما في هذا اليوم، كما دائماً: غانتنباين بجانب الكشك إلى أن يأتي الوقت المناسب للنظارة المخصصة للعميان فيذهب بعد ذلك إلى التيراس لمتابعــة هبوط طائرات آتية من كل أصقاع العالم، ثم: تــأخير بــسبب الــضباب فـــي هامبورغ، غانتنباين يسمع الخبر، وقبل أن تطقطق مكبرات الصوت وتحزق ثــم تدوي وبعد ذلك حين يغيب دوي الخبر وصداه بثلاث لغات، في تلك اللحظـــة لا يعرف غانتنباين فجأة: هل يتعلق الإعلان عن ضباب هامبورغ بهذا اليوم أم هو إعلان من المرة الماضية؟ وكان لا بد له من أن يستفسر لدى مكتب الاستعلامات عما إذا كانت مكبرات الصوت، المصمة للآذان والتي سمعها لتوه, حقيقية أم أنها مكبرات الصوت التي في ذاكرته – لكــن لا فــرق بينهمــا بالنــسبة لانتظــار غانتنباين... أما الانتظار بالنسبة إلى باتش، الكلب، فهو أسهل، باتش لا ينتظــر، أنه كلب ذو أذنين مرهفتي السمع ويشمشم هنا وهناك ومتواجد برمته من بــوزه حتى ذيله، كلب بدون وقت، كلب دائماً، ويقف أمام كلبه سلوقية أكبر منه بكثيــر ثم ينساها حالما يربطه صاحبه بالحزام المطابق للتعليمات، ينساها ويتمدد علـــى الأرض دون أن يشعر بالملل.

الكلاب تنعم بأوضاع تُحسد عليها.

كان غانتنباين، وقد مل من أفكاره التي يعرفها كرجفان عقارب الــساعة، يزرع الأرض ذهاباً وجيئة ثم ذهاباً، فرحاً بشكل البلاط على الأرض الذي يقسم الوقت، ومشغول البال لا على لِيلى بل على ما إذا كان باســتطاعته أن يــصيب بعصاه الصغيرة السوداء في كل مرة الأخاديد المحفورة في البلاط، متمشياً ببطء قدر الإمكان لأنه كلما أسرع في تجواله انقضى الوقت ببطء، وإلى أن يرى لِيلى لا يزال ثمة أربعون دقيقة من الوقت على الأقل، ولِيلى مع محافظها ومجلاتهــا كالعادة ومدى الحياة. ما هو الوقت؟ نموذج من الرسوم في البلاط على الأرض، فكرة: كلما أسرع غانتنباين في مشيته، أحس ببطء الطيارة وهي تطير، وارتعــد من الخوف، تحتاج الطائرات إلى سرعة دنيا كما هو معلوم لكي لا تــسقط مــن

أعلى الغيوم؛ إن ما يحمل لِيلى هو صبره وبالتالي قوة رجل ينتظر بهدوء وصبر ويتجول بهدوء وصبر وببطء خطوة أمام خطوة، بطيئاً في الذهاب، بطيئاً في الجيئة، بطيئاً كعقارب الساعة ينتظر مدى الحياة.

(هل يجب علي أن اخترع زيبنهاعن أيضاً؟)

لِيلى هبطت على أرض المطار، وانظر، لِيلى لوحدها، محملة بمعطف وحقائب يدوية ومجلات، وحيدة مقطوعة من شجرة.

ماذا حدث؟

ما من سيد يقدم لها يد العون في مكتب الجمارك-

لماذا الاستمرار بعد الآن في لعب دور الأعمى في الحياة الزوجية؟

ليس ثمة رجل يمر بغانتنباين الأعمى دون أن يحييه- أعني: الكل يمرون بغانتنباين دون أن يحيوه، لكن ما من أحد منهم استثمر عمى الزوج... غانتنباين كاد يلوح بيده. وحين عبرت لِيلى الحاجز، أمتعته بقبلتها كالعادة. وبعدها ذراعاً بذراع كالعادة. لكن غانتنباين كان هذه المرة مختلفاً عما سبق، صموتاً، بينما كانت لِيلى تتظاهر بأن كل شيء على عادته. ما كان يحيره: هو أنه لم ير أي اختلاف في وجهها. حمل عنها المعطف الثقيل والحقائب الثقيلة. كالعادة. لكن دون أن ينبس ببنت شفة. لم يبدُ على وجهها أنها لا تكذب أو لا تخفي عنه شيئاً. وجهها كان ينم عن صراحة ووضوح كالعادة. وفي السيارة، حين استمر في صمته، سألته بقلق وإلحاح عما به. ثم أخبرته بدورها ما كانت تخبره سابقاً وبنفس الطريقة كالعادة، مع فارق أن ما قالته هذه المرة هو الحقيقة البحتة. تُرى ألم يصدقها؟ كان يحمل أمتعتها كما جرت العادة دائماً. وحين جلسا وجهاً لوجه: كانت فرحتها بأنها عادت إلى البيت. تُرى ألم يفرح غانتنباين بذلك؟ كان مندهشاً. فرحتها بعودتها إلى البيت، سنين طويلة كان غانتنباين يتظاهر بأنه يصدق ذلك، لكنه يرى الآن أنها تلعب دورها بدقة متناهية كالحقيقة تماماً. ربما كان هذا هو ما جعله يمتنع عن الكلام. جلست على ركبته كالعادة. ولأول مرة لم يداعب شعرها بالرغم من أنه الشعر ذاته الذي كان دائماً يداعبه، بل نهض غانتنباين واقفاً بحجة أنه

عطشان. إنه غريب الأطوار. كيف يمكن أن يكون الآن عطشاناً، وحتى لو كان الأمر كذلك فعلاً؟ وقف غانتنباين وأخذ يشرب الماء.

لِيلى لا تخونه.

لا دور له في ما يتعلق بهذه المسألة.

قال: «لِيلى»-

فسألته: «ما الأمر؟»

وحين أزاح غانتنباين نظارته عن وجهه - لم يفعل ذلك بشدة وتعجل كما كان يفعل في السابق ولا من أجل أن يمسح عينيه بقبضتي يده ويعيد النظارة بعد ذلك إلى ما كانت عليه قبل ذلك، بل فعل ذلك هذه المرة بطريقة مختلفة عما مضى: لآخر مرة - وابتسم أو تظاهر بالابتسام؛ إلا أنه في غضون ذلك لم يعد له أي وجه.

فسألت لِيلى: «ما بالك بحق الله؟»

قال: «لِيلى-»

فقالت: «تكلم، أرجوك أن تتكلم، لا أعرف ما الأمر، لا أعرف فعلاً ماذا تريد أن تقول».

أتخيل:

حين يظهر فجأة ذلك المشهد، الذي تخيله غانتنباين ألف مرة وبصور متعددة، تكون الحقيقة الفعلية مفاجئة بادئ ذي بدء بفعل فراغ تام. ويكتفيَ غانتنباين بهز رأسه في بداية الأمر. لكن بالطبع تريد لِيلى أن تعرف ماذا يُخفي عنها. وحين يبدأ غانتنباين بالحديث ببطء، مع أنه لم يكن ثمة ما يدفعه بإلحاح إلى الكلام، عما أخفاه منذ زمن بعيد، كان ذلك في حقيقة الأمر عبارة عن لا شيء. لا بد له بالفعل من أن يمعن التفكير؛ لن يرمي النظارة بعيداً، التي لم يعد لها أي لزوم ولن يدسها في جيبه، بل سيبقيها في يده ويدقق النظر فيها باعتبارها فضلة متبقية، ذكرى؛ وحين يتذكر هذا الأمر أو ذاك مما أثار انفعاله في وقت ما، فسوف يتبين أن الأمر كان يتعلق بتوافه ليست في حقيقة الأمر جديرة بالذكر... والآن - في الحقيقة يرى غانتنباين أن ما سيفصح عنه

بنبرة المبتهج اللا مبالي هو عبارة عن اعتراف بحبه: أنه كان يرى جيداً ما حدث وهلم جرا وأنه لا يعرف كل شيء مما دار منذ زمن طويل، بل عرف كثيراً منه لكن ليس بالدقة المطلوبة، على أنه لا يريد بعد الآن معرفة التفاصيل الدقيقة وأنه هو أيضاً مثّل عليها في أمور كثيرة...

النهاية:

(قصيرة، غير مناسبة)

سوف تقول لِيلى: أغرب عن وجهي! وسوف تتناول سيجارة ثم ناراً، بينما أسأل أنا: ما الذي جرى بحق الله! فتقول وهي تدخن: طيلة هذه السنين! يا إلهي ما أسخف ما أفصحت عنه! قبل قليل كانت تبكي وتنتحب والآن تقول لي فقط: أغرب عن وجهي! كيف خنتها؟ هكذا يقول الناس: فلان من الناس وقف شعر رأسه كالجبل. لكن شيئاً كهذا يمكن أن يحدث، فأنا أراه، شعرها يقف الآن كالجبل. تُرى هل اعتقدت لِيلى فعلاً أنني أعمى؟ هذه إذن هي النهاية. لماذا في الحقيقة؟ وأتوسل دون جدوى من أجل أن تغفر لي رؤيتي لبعض الأمور طيلة السنين الماضية. فتعود إلى تكرار قولها: طيلة هذه السنين! لم تحبني في يوم من الأيام البتة، أبداً، الآن أعرف ذلك حق المعرفة وأريد أن تغرب عن وجهي! وهي تدخن ثم تصرخ: أغرب عن وجهي!

الصحوة (كما لم يحدث أي شيء) تبرهن عن أنها خديعة؛ يحدث باستمرار شيء ما، لكن بطريقة مختلفة. سوف يجري استجوابي في يوم من الأيام.

سوف يقول لي أحد الناس ممن لا يعنيهم الأمر، ونحن على انفراد: «إذن، ماذا حدث فعلاً في حياتك التي وصلت الآن إلى نهايتها؟».

فألوذ بالصمت.

ويقول: «ثمة رجل يحب امرأة، وهذه المرأة تحب رجلاً آخر»، هكذا يقول، «الرجل الأول يحب امرأة أخرى وهذه بدورها يحبها رجل أخر»، هكذا يقول ثم يختم مداخلته بعد ذلك بقوله: «أنها قصة ممكنة الحدوث بلا ريب في حياتنا اليومية والآن يتشتت شملها في كل الاتجاهات».

فأومئ برأسي.

ثم يسألني مستجوبي بآخر ما تبقى لديه من صبر: «لماذا لا نقول بصريح العبارة مَن مِن الرجلين أنت؟»

فأهز كتفيّ.

ويقول بنبرة مبطنة من التهديد: «أسفرت التحقيقات عن أن امرأة اسمها كاميلا هوبر على سبيل المثال غير موجودة ولم توجد على سطح هذه المعمورة في يوم من الأيام، كما لم يوجد أيضاً رجل اسمه غانتنباين-»

«أعرف ذلك».

«أنت تحكي مجرد اختراعات».

«أعايشُ مجرد اختراعات».

ويقول: «حسناً، لكن ما الذي حدث بالفعل في هذا الوقت وفي الأمكنة التي كنت فيها؟»

فأغمض عينيّ.

«لماذا لا تجيب؟»

فألوذ بالصمت.

«أنت تنسى يا عزيزي أن في القضية شهوداً».

وأثر ذلك يفتح الرجل الباب، وحين اسمع صوت التك - تاك الصادر عن كعبين عاليين، افتح عينيّ مرة أخرى لكي أرى ما يجري-

فأرى:

بقية من نبيذ البور غوندر في زجاجة، أعرف ذلك، جزراً صغيرة من عفن على سطح نبيذ أحمر، إضافة إلى بقايا من خبز قاس كالآجر، في البراد تتلوى شرائح جافة من فخذ الخنزير، في زبدية تسبح بقية عكرة من فواكه مطبوخة بالسكر، مربى المشمش كالوحل، بمثابة زاد لجسدٍ من المومياء، أعرف ذلك، وأقرفص في المعطف والقبعة، وثمة رائحة كافور وغبار

وورنيش على أرض الغرفة، السجادات ملفوفة وأنا أقرفص على مسند كنبة منجدة وألعب بمفتاح لسدادات الفلين ولا أعرف ماذا جرى، كل الكنبات المنجدة مغطاة بقماش أبيض، أعرف هذا المكان ، درفات النوافذ مغلقة، كل الأبواب مفتوحة، ولا حاجة بي إلى أن انهض واقفاً فأنا أعرف هذا المكان –

أنا أعمى، لا أعرف ذلك دائماً، بل أحياناً. ثم أشك مجدداً ما إذا لم تكن القصص التي يمكن أن أتخيلها هي حياتي. لا أعتقد ذلك. ولا أستطيع أن أعتقد أن ما أراه هو مسيرة العالم.

قصة من أجل كاميلا:

(بعد أن كان شرطي الكانتون هنا)

قلت: «النظام شيء لا بد منه. قبل أعوام كانت ثمة قضية أثارت انفعالهم أيما إثارة. هنا في المدينة. وفجأة ظهر رجل لم يشأ حتى أن يترك اسماً له، ناهيك عن قصة. لم يعرف الناس عن ابن عصرهم هذا سوى أنه كان بالتأكيد على قيد الحياة ذات مرة، وذلك ما تبرهن عليه أخيراً جثته التي وجدت في صباح أحد الأيام في نهر الليمات – في صباح أحد الأيام الجميلة جداً، أتذكر ذلك تماماً، إذ كنت أعبر لتوي جسر هيلمهاوس لكي أطعم هناك تلك البجعات السابحة في النهر. آنذاك كانت هناك شجرة صفاف كبيرة، ربما لا تزال موجودة حتى اليوم، صفاصفة ذات أغصان طويلة ومتدلية في نهر الليمات الأخضر في حظيرة للإوز والبجع، أوراق شجر في أكاليل منسابة، منظر طبيعي وادع وإوزات صغيرة ملونة كالورق اللامع، ذلك إضافة إلى شموخ البجعات البيضاء، وفوقها الكنيسة الكبيرة التي تحمل اسم شارلمان الكبير وقد حطت عليها نوارس فوق التاج، وتدق الساعة الحادية عشرة... هناك إذن كانت الجثة مكعبلة. ربما كان أمر إيجادها سيطول، وربما استحال، إيجادها، لولا أن تلك البراميل الحديدية التي تحمل حظيرة للإوز قد صدئت مع مر السنين، وتلك مسألة هي من شأن المكتب المسؤول عن أعمال البناء تحت الأرض، على ما أظن، أو مكتب الحدائق، على كل حال كان لا بد ذات

مرة من تبديل البراميل المهترئة الموجودة تحت بيت البجعات. وحين أزيلت الألواح المتداعية من أجل الوصول إلى البراميل الموحلة وبدت للعيان الجثة المعفرة بالأوحال، بدئ بالعمل على الفور وأُعلمت الشرطة التي أتـت بعيـد ذلك إلى المكان مجدفة في قارب أخضر في أثناء دق الساعة إحدى عشرة دقة مستغرقة في ذلك عشر دقائق من الوقت- دق الساعة هذا وهي تعلن الحادية عشرة هو من أبهج الذكريات التي احتفظ بها في حياتي؛ والأفضل، على مـا أرى، هو أن يدوي صوتها حين يتسكع المرء فوق جسر هيلمهاوس ثم يمتزج الدوي المنطلق من كل أبراج الكنائس بعضه ببعض فوق الماء... ربما كـان ذلك هو السبب في أن الجثة تكعبلت هناك بالذات. بالطبع لـم أكـن آنـذاك الشخص الوحيد الذي أراد أن يرى ما كان يحدث. الشرطيان فـي قاربهمـا الأخضر وعليه شعار المدينة، أحدهما ممسك بالمجداف القائم والآخر مـزود بعصاً طويلة، وكلاهما بالزي الرسمي والخوذة، كما لو أنهما يزمعان القبض على أحد الناس، هذان الشرطيان ظهراً منفعلين قليلاً إذ كان يحدق بهما أناس كثيرون فوق الجسر، ولفترة طويلة لم يحدث شيء بالمرة. دقات الساعة وهي تعلن الحادية عشرة. المتبجحون الذين تواجدوا في الأعلـى بجانـب الـسور ارتأوا أنه ينبغي انتشال الجثة بقوة وجرأة لأن الناس عرفوا الآن أن الأمـر يتعلق بجثة. وللرأي العام، هكذا بدا الأمر، الحق في معرفة من هو صـاحب هذه الجثة. لكن الجثة كانت محشورة بين البراميـل الـصدئة. وكلمـا قـل التصرف ازدادت الإثارة, وفي غضون ذلك تلاشت دقات الساعة التي أعلنت الحادية عشرة وكان لا بد أخيراً من حدوث شيء حتى ولو لم يكن ذلك مـن أجل الجثة التي لم يعد تأخير انتشالها بضع ساعات أخرى أمـراً ذا أهميـة. على ما يبدو لم يكن ثمة طريقة أخرى: الشرطي الممسك بالعـصا الطويلـة حيث نصحه بذلك الشرطي الآخر الذي كان منهمكاً بمجابهة التيار بمجدافـه الطويل، أخذ ينبش بين البراميل الصدئة والمعفرة بالوحل ولم يخطر بباله في تلك اللحظات أن الجثة، حالما تتحرر من حبسها سنين طويلة بين البراميل، لا بد وأن تندفع فوراً باتجاه تيار الماء منحدرة في النهر. وذلك ما حدث بالفعل

فكان أمراً مثيراً بالنسبة إلى المتفرجين الواقفين على الجسر، الذين أخذوا يلاحقون الجثة بأعينهم. هناك كان يسبح شيء، جثة، ببطء، كما لو أنها مصممة تصميماً حاسماً لا يقبل أي تراجع وصادراً عن إرادة صلبة: على أن تفلت من قيودها. وإلى أن دار القارب إثر ضربات تجديف ناشطة وبدأ بملاحقة الجثة، كانت هذه حققت سبقاً لبضعة أمتار. وأخذت تسبح، الوجه إلى الأسفل، بدون حراك طبعاً، ودون أن تدعم السباحة بذراعيها، كما لو أنها كانت تنتظر باستمرار هذه الفرصة، بفارغ الصبر، أخذت تسبح باتجاه جريان النهر يرافقها القارب الممهور بشعار المدينة والمتأرجح بهلع تحت ضربات التجديف القوية. في ذلك كان واضحاً لكل الأهالي أن الملاحقة لن تكون ممكنة بعد الوصول إلى جسر أورانيا؛ إذ يتعذر أن يمر مركب تحت الجسر. وبعض المتفرجين ساروا على طول نهر الليمات. لم يسيروا في حقيقة الأمر بل مشوا بسرعة قدر الإمكان. لكن معظمهم امتنعوا عن ذلك محافظة منهم على كرامة المدينة وسمعتها وشقوا طريقهم كأن شيئاً لم يكن، بكرامة كالبجعات اللواتي كن فردن أجنحتهن ثم عدن إلى طويها من جديد وأخذن يسبحن برزانة وتأن. في غضون ذلك لم تبتعد الجثة كثيراً. وما أن وصلت إلى جسر الخضار، المرتكز على دعامات كثيرة، حتى تكعبلت من جديد بحيث أدارها التيار وأصبح وجهها إلى الأعلى. كانت جثة رجل. بعض بائعي الزهور. الذين كانوا يعملون هناك في أكشاك وبسطات، رأوا وجه الجثة المتعفن؛ والشرطة، التي لها مقر هناك، تواجدت على الفور في المكان وبأعداد كافية لتحويل وجهة سير المشاة وكانت سيدة الموقف على الأقل فوق الجسر، لكن ليس من غير إثارة ضجة ولفت انتباه، هذا أمر بديهي، فالناس لم يعرفوا شيئاً عما يحدث وأسئلتهم لم تحظ بأي جواب فبدا الأمر وكأنه متعلق ببسطات وأكشاك الزهور، ليس إلا. لكن لم يظهر على هذه البسطات والأكشاك أي شيء من هذا القبيل. وبدا كأن بيع الزهور في مدينة زوريخ مُنع فجأة. ولكن لفترة طويلة لم يحدث شيء جديد في مسألة الجثة السابحة في نهر الليمات. وظهر في المكان على الفور مفتش في الشرطة كانت أوكلت

إليه قيادة بقية العملية، إلا أن التعليمات التي أصدرها اعتماداً على المشاهدة الميدانية كانت تتطلب بعض الوقت. فكان يدخن سيجاراً من ماركة روسلي – شتومبن، وينتظر، في لباس مدني. كانت الجثة في وضع، إذا ما حاول المرء أن يجرها من أطرافها، بالكاد تستطيع معه المحافظة على كونها كلاً متكاملاً. في غضون ذلك حل وقت الظهيرة، وقت ازدحام السير؛ لكن الجثة لم تكن في عجلة من أمرها، وفي حين اتجه وجهها إلى الأعلى وقد صمت أذنيها عن ضجة السير، فقد تركت نهر الليمات يمر بلحاها الموحلة محدثاً دوارات مقرقرة وبدا أنها قد تخلت عن كل فكرة للفرار. لكن مفتش الشرطة، وهو رجل رزين ومتئد، أمر بحراستها بالرغم من ذلك في حين كان يمضغ سيجاره أكثر مما يدخنه؛ وكان القارب الآن مربوطاً بدعامة حديدية وتقرقر من حوله في الوقت ذاته الدوارات التي كان يحدثها تيار المياه، وعلى بعد عصا من الجثة الحبيسة كان الشرطي يركز عليها عين الحراسة الساهرة. كانت ظهيرة حارة. في شهر آب. وكانت الجيفة ترتدي معطفاً شتوياً وقفازات، لكن بدون قبعة. وذات مرة خلع الشرطي خوذته ومسح عرقه ثم وضع الخوذة على رأسه من جديد، مستعداً في كل وقت لأي طارئ. كان يحلو للجيفة، على ما كان يبدو، ببساطة أن تغرق في النهر، لكن لم يفلح في ذلك سوى رأسها. وحان الوقت لكي تصل العربة السوداء أخيراً وهي تحمل تابوتاً. والآن أتيحت للفضوليين فرصة أن يروا شيئاً بالرغم من إغلاق المكان ومنع المارة من الدخول إليه: تابوتاً من شجر الصنوبر الخشن. وعندما تعلق الأمر بتزويد التابوت بحبال، تدخل مفتش الشرطة شخصياً بذات يديه لإنجاز الأمر. وأصبحت الخطة واضحة: وضع الجثة في التابوت، تحت الماء. إلى هذه الدرجة كانت الجثة متعفنة، إلى هذه الدرجة كانت معفرة بالوحل؛ والشرطيان، اللذان مُهرت خوذتاهما بشارة المدينة وكان عليهما على نحو ما انتشال الجثة مع التابوت لم يُحسدا على عملهما. فقد استغرق الأمر فترة طويلة أيضاً بعد أن أُنزل التابوت في الماء مربوطاً بأربعة حبال؛ والفضوليون، الذين منعوا من التقدم إلى منطقة العمليات، لم يروا سوى مفتش

الشرطة وهو يصدر تعليماته من مكان وقوفه على السور- كما لو أنه لا غبار على ذلك- بصورة موضوعية وفي البداية بدون انفعال وفي ما بعد بهز رأسه؛ لكن الجيفة، على ما يبدو، لم تتقيد بتعليماته. وحين سمع الفضوليون، الذين أثير بعضهم جراء امتناع الشرطة الصامتة لاحقاً كما سابقاً عن الإجابة على أسئلتهم، أخيراً صرخة مدوية وبالتالي صرخة قصيرة، لم يعرف أحد ما الذي حدث؛ ربما كان بعض الناس يضحكون. ومفتش البوليس اكتفى بأن هز رأسه بصمت، بعد ذلك بهنيهات رأى الناس خوذة خاوية تسبح في نهر الليمات الأخضر باتجاه المصب ويتبعها التابوت والجثة في داخله ويتبعهما قارب الشرطة يتأرجح فيه الجداف الواقف وهو وحيد في القارب بينما الشرطي الآخر، الذي كان سقط في الماء، أخذ يسبح في زيه الرسمي وبوطه متخطياً عمود الجسر دون أن يعبأ بمتابعة سير العملية الإنقاذية. والقارب أيضاً لم يستطع بعد ذلك أن يسهم في شيء من العملية؛ فالمرافقة التي كان لا يزال يؤديها للتابوت السابح ببطء توقفت، كما كان متوقعاً، بالقرب من جسر أورانيا. وبعد ذلك تابع التابوت سباحته لوحده، مرة قدماه إلى الأمام ومرة رأسه إلى الأمام كما لو أنه كان يجرب أي الوضعيتين أكثر إراحة بالنسبة إلى سفرة طويلة. ثم انحنى في غضون ذلك إلى جهة اليمين بحيث أصطدم على الفور بجدار الضفة مرات عديدة وأوشك بذلك أن ينقلب في الماء رأساً على عقب، كان ذلك بالقرب من جسر المحطة حيث لم يلفت هناك انتباه الناس بسرعة. ليس من عادة كل إنسان، إذا هو لم ير شرطة في مكان، أن ينظر من فوق السور إلى ما تحت الجسر. وفي حين استمر إغلاق المكان في وجه المارة على جسر الخضار، مع أنه لا لزوم له، لم يتواجد هناك أي شرطي، ونعمت الجيفة وقتئذ بوقفة استراحة خاصة وأن جدار الضفة هو في هذا المكان ذو علو شاهق نسبياً؛ كان بالإمكان رؤيتها وهي تتأرجح في التابوت، لكن لم يكن التدخل في هذا الأمر ممكناً بأي حال من الأحوال. وبعد أن كان التابوت قد اصطدم مرات عديدة بالجدار، فقد أسفر ذلك عن ميلان في أحد جوانبه؛ وخرج منه ذراع فتدلى فوق سطح الماء. وأيضاً شرطي سير. كان

استدعى من كابينته، لم يستطع أن يخبر شيئاً عن الحادثة؛ بل خلع قفازيه البيضاوين، وعلى ما يبدو كان هو ذاته متلهفاً لمعرفة ما سيفعل بعد ذلك، وبقي الأمر على ما هو عليه. وكثيرون أعرضوا عن النظر إلى المشهد والاكتراث به. ودب الهلع في نفوسهم بالدرجة الأولى لمنظر اليد، على ما يبدو، لأنها كانت تتحرك في الماء، ولو قليلاً، من حين لآخر، لكن مع ذلك كان المنظر مذهلاً ومرعباً. شرطي السير فقط، وهو يحمل قفازيه البيضاوين في قبضة يده، لم يعرض عن النظر إلى المشهد: كما لو أن زيه الرسمي يحتم عليه الاكتراث بالأمر ومتابعته. وقراره بأن يتصل بالحرس الرئيسي ويبلغه بخبر الحادث كان هو الشيء الوحيد الذي نم عن وعي وتعقل؛ وقد بدا أن الجيفة كانت تنتظر ذلك. لكن لم يكد شرطي السير يغادر المكان لكي يتصل هاتفياً من كابينة هاتف للعموم، حتى كانت دوارة في تيار الماء كافية لتحريك التابوت من جديد. دون أن ينقلب في الماء. ثم اهتدى في منعطف هادئ إلى الفتحة التي تحت جسر المحطة وخرج إلى الجانب الآخر من الجسر دون أي مانع ورأسه إلى الأمام؛ الآن الرأس فقط لا تزال متجهة إلى الأمام؛ توقف التابوت عن الدوران وأظهر تصميماً وبدا أنه يتسارع في سفرته، هناك بالقرب من المباني الحكومية، كما لو أنه أراد في هذا اليوم الوصول إلى البحر. ما إذا كان أحد في هذه المباني الحكومية ينظر لتوه من النافذة ويرى ذلك المشهد، لا أعرف. صحيح أن التابوت لامس عموداً من أعمدة جسر - الفالش الجديد لكن ذلك لم يوقفه فترة طويلة؛ بل جعله يدور فقط إلى الجهة الأخرى دون أن ينقلب في الماء وجعله بالتالي يسبح، الآن بميلان متبدل، ماراً بالحديقة الصيفية الخضراء التابعة للمتحف الكانتوني السويسري، والآن يتجه القدمان من جديد إلى الأمام وتتأرجح الجثة لكن لا تتوقف، بل تولد الانطباع بأن زوريخ لن تستطيع فعلاً أن توقفها- زوريخ التي عادت إلى إنجاز أعمالها اليومية: البجعات، بيضاء هادئة مطمئنة تحت الصفصافة لطويلة الأغصان والمتدلية فوق الماء بالقرب من بيت الخوذة (هيلمهاوس)، في الأعالي ترفرف النوارس فوق تاج شارلمان، وبدلاً من دوي دقات الساعة

معلنة الحادية عشرة كنت تسمع الآن إشارة الوقت من إذاعة بيرومونستر، وأزيل إغلاق المكان على جسر الخضار، وربط القارب بعوامته، وشرطي السير أخذ يلوح بيده من كابينته وقد ارتدى من جديد قفازيه البيضاوين... في ما بعد أبلغت عنه أم كانت تقود عربة أطفال وقد اضطرها زوجها إلى ذلك لأنه كان أرتأى ألاَّ بد من الإبلاغ؛ وُجد التابوت بالقرب مما يعرف باسم درات – شميدلي حيث فاجأه أحد السدود وأوقف مسيرته: هناك كان التابوت المفتوح ينتصب قائماً من المياه المقرقرة، وكانت الجثة مركونة في داخله.

على وجه كاميلا ارتسمت في غضون ذلك ملامح الاشمئزاز والهلع.

قلت: «أجل، هكذا حدث ذلك».

«يا للفظاعة!»

قلت وأنا أنظر إلى أظافر أصابعي التي أصبحت من جديد على ما يرام: «لكن التابوت أوشك أن يدرك غايته، أوشك–»

«ما غايته؟»

«أن يمضي سابحاً بدون قصة».

كل شيء كما لو أنه لم يحدث... إنه يوم من أيام شهر أيلول؛ وحين يخرج المرء من جديد من القبور المظلمة والحارة إلى الضوء، نغمز بأعيننا، إلى درجة كبيرة يبهرنا ضوء النهار؛ أرى كتل التراب الحمراء في الحقول فوق القبور، بعيد ومعتم بحر الخريف، وقت الظهيرة، كل شيء هو حاضر، الريح تهب في الأشواك المعفرة بالغبار، أسمع نغمات نايات لكنها ليست النايات الإتروسكية في القبور بل هي ريح في الأسلاك، تحت ظلال منسابة لشجرة زيتون تقف سيارتي الرمادية اللون بفعل الغبار والمتوهجة من الحر، حر شديد بالرغم من الريح، لكن شهر أيلول يحل من جديد: لكن الوقت هو الوقت الحاضر، ونحن نجلس على طاولة في الظل ونأكل خبزاً إلى أن يُقلى السمك، وتحيط يدي بالزجاجة لكي أتأكد مما إذا كان النبيذ (من صنف فيرديشيو) بارداً أيضاً، عطش، ثم جوع، العيش يعجبني–

* * *

الطبعة الأولى / ٢٠١٠

عدد الطبع ١٠٠٠نسخة





www.syrbook.gov.sy

مطابع الهيئة العامة الســورية للكتاب - ٢٠١٠

سعر النسخة ٢٧٠ ل.س أو ما يعادلها